إخواني الأقباط

جمال البنا

المحتويات

- **فهرس**
- **مقدمة**

الباب الأول

طبيعة الأقلية القبطية

- **الفصل الأول : أقلية ولكن مصرية**

الباب الثاني

خيارات قدرية

- **الفصل الأول : الخيار الأصولي (1)**
- **الفصل الثاني : الخيار الأصولي (2)**
- **الفصل الثالث : الخيار الأصولي (3)**
- **الفصل الرابع : خيار المواطنة**
- **الفصل الخامس : خيار التمثيل النسبي**
- **الفصل السادس : خيار التحدي**
- **الفصل السابع : خيار هدم المعبد**
- **الفصل الثامن : التعايش الإيماني**

الباب الثالث

مؤثرات ترتفق على الاختيارات

- **الفصل الأول : اللبس التاريخي**

- الفصل الثاني:ظهور جماعات العنف الشاردة الإسلامية
- الفصل الثالث : سلطان الهوى و"الحساسية"
- الفصل الرابع : طموح القيادة

الباب الرابع

هموم ومطالب الأقباط

- خاتمة : دعوة للإصلاح الديني وتحرير العقول والقلوب
- ملحق

إخواني الأقباط

يصـــدر هـــذا الكتـــاب عن عاطفة حقيقية وعميقة هي أن كل ذوي الأديان أخـوة، وهـذا ما يقرره الإسلام الذي يرى أن الدين واحد، والــذي يعني بكلمة "الإسلام" سـلام الوجه والقلب للـه، وعلى هذا التكييف فقد اعتبر القرآن أن إبراهيم وإســـــماعيل وموسى وعيسى وكل الأنبيـــــاء والديانات التي يمثلونها تدخل في إطار الإسـلام، وقال الرسول: إن الأنبياء أخـوة أبنـاء علات (أي أبــوهم واحد وأمهــاتهم شــتى) وهــذا ما ينطبق بوجه خــــاص على الـــــديانات الثلاث اليهودية والمســيحية والإســلام، فأنبيــاؤهم يعــودون إلى إبـــراهيم وإن اختلفت أمهـــاتهم ما بين ســـارة وهاجر ومريم.

بالإضــافة فهنــاك علاقة خاصة بين الإســلام والمســيحية عــبرت عنها الآية ﴿**لَتَجِـدَنَّ أَشَـدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الْيَهُـودَ وَالَّذِينَ أَشْـرَكُوا وَلَتَجِـدَنَّ أَقْـرَبَهُمْ مَـوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُـوا الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّا نَصَـارَى ذَلِـكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـــــــينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ**﴾. {82 المائدة}..

وداخل دائرة المسـيحية فهنـاك علاقة أخص ما بين الإسلام وأقبـاط مصر، فـأم العـرب الـتي ظهر منها بنو الإسلام هي هاجر المصـرية.. ولأن

مارية القبطية هي التي أنجبت للرسول إبراهيم، الـذي لو عـاش لأعـاد مـرة أخـرى ذكـرى جـده الأعلى "إبراهيم".

وكما هو معــروف فــإن أقبــاط مصر كــانوا يعــانون أشد صــور الاضــطهاد من البيزنطــيين. وعندما دخل عمرو بن العاص مصر أنقذ الأقباط من هذا الاضطهاد وأعاد البابا بنيامين الـذي كـان هاربا من عصف البيزنطيين إلى منصبه وأعطــاه كافة الحرية؛ فكــان هــذا ميلادًا جديــدًا للكنيسة القبطية الحرة والمعلنة..

وقد تعـرض الأقبـاط خلال الحكم الإسـلامى لما تعـــــرض له المســــلمين من مد وجــــزر، وقاسموهم السراء والضراء، ودخلوا في الإسلام أفواجًا وتكلمـوا العربية وأصـبحوا جـزءًا لا يتجـزأ من نسيج المجتمع المصري والـوطن المصــري. وما معظم المســلمين إلا من الأقبــاط الــذين أســلموا على مر العصــور، والــذين وصل منهم الكثــير إلى أعلى المناصــب، بل تــولى أحــدهم مشيخة الأزهر وهو الشيخ محمد المهدي، وكــان له دور بارز خلال الحملة الفرنسـية وحكم محمد علي، ومن قبله كـان أحد قـراء القـرآن السـبعة ورش من أصل قبطي، الــذي قــال عنه الشــيخ محمود الحصري "شيخ القـراء المحققين وإمـام أهل الأداء المرتلين".

وقد انعكست التطــــورات الــــتي حــــدثت للمجتمع المصـري من انقلاب 52 على الأقبـاط.

ومثلت لهم ردة عن مصر الليبرالية الــتي بــدأت بثورة 19 التي صهرت كل الاختلافـات في بوتقة واحدة. وظل دور الأقباط بـارزًا حـتى جـاء حكم العســكر فتجـاهلهم ونشأ عن ذلك إغفـالهم في بعض الحالات.

ويعـالج الكتـاب هـذه القضـية فيعلن أولا أن الأقباط أقلية، ولكنهم يتميزون عن كل الأقليـات بأنهم جزء لا يتجزأ من نسـيج المجتمع، لا يفـرق بينهم وبين المســـــلمين إلا الــــــدين، وهو في الحقيقة – كما ذهبنا – يمكن أن يكـــــــون – في النهاية – عامل تجميـع، ويـرى الكتـاب أن أمـام الأقباط عدة خيارات: أولها ما أطلق عليه الخيار الأصولي، أي الـذي يعـود إلى أصـول المسـيحية الــتي تــرى أنها – والكنيســة- يجب أن تبتعد عن كل ما يمت إلى الحكم والسلطة؛ لأن المسيحية هي دين الخلاص الروحي، وهذا ما تفسـده تمامًا تيـــــارات السياسة والســــلطة وما يكتنفها من أطمــاع وإغــراءات ومصــالح كلها دنيوية، وكلها بعيــدة كل البعد عن عــالم الــروح.. ويستشــهد بكلام المونسـيور موسى الـذي كتب رسـالة عن الـــدين والوطنية ســـنة 1920 أوضح فيها بكلام السيد المسـيح والرسـولين بطـرس وموسى أن ما تريده المسيحية هو: الحرية في الإيمـان وفي ممارسة الشــعائر، وعلى المســيحي أن يخـــدم بأمانة وإخلاص أي نظـام سياسي يحقق له هـذا، كما استشـــهد بكلام الـــراهب المتجـــرد مـــتى

المسكين، والخيار الآخذ هو خيار المواطنـة، وهو حق مشـروع للأقبـاط بحكم ميلادهم على أرض الوطن. وكل من يولد على أرض الوطن ويعيش فيه يعد بحكم الواقع "مواطنًا"، وقد أقر الإسلام هذا المبدأ عنـدما وضع الرسـول دسـتور المدينة الذي جعل فيه الأنصار والمهاجرين واليهود "أمة واحدة للمسلمين دينهم ولليهود دينهم..."..

وهنـــاك خيـــار آخر أفضل من المواطنة هو "التعـــــايش الإيمـــــاني" الـــــذي يجمع ما بين المسـلمين والأقبـاط باعتبـارهم جميعا يؤمنـون باللـه. فهم أخـوة في هـذا الإيمـان، وهم جميعا مـــدعوون للتـــآخي والتوحد إزاء هجمة العولمة الــتي تريد في حقيقتها الإطاحة بالأديـــان جميعًا وما تمثله من قيم الخــير والتقــوى والمســاواة والمحبة والعــدل، وتجعل العــالم ســوقًا، وتحل "آليــات الســوق" محل القــانون وتطمس دور الدولة... الخ.

وعلى نقيض هذا الخيار يوجد خيـار التحـدي، وهو في الحقيقة ليس خيارًا بقـدر ما هو موقف؛ لأن الأقلية الـتي تـتراوح ما بين 5% و10% من السـكان لا تتحـدى 95% أو 90%، ولكن هـذا الموقف يحـدث عنـدما يـؤدي الطمـوح بالكنيسة التي تتخذه لإجبار السلطات للتجاوب معهـا. وقد كــانت الكنيسة المصــرية على اختلاف العهــود تعيش في سلام دائم مع السلطات، وكان حكام مصر من محمد علي حتى فاروق، بل وحتى عبد

الناصر يقـــدرون آبـــاء الكنيسة، كما كـــان آبـــاء الكنيسة يعترفون بهـذا، ولكن الكنيسة المصـرية دخلت دورًا جديـــدًا عنـــدما تـــولى أمرها البابا شنودة الثالث الـذي أراد أن ينهض بالكنيسة وأن يخوض بها غمرات الدنيا؛ فأوقعه هذا في صـراع مع الـرئيس السـادات الـذي اضـطر إلى إبعـاده إلى دير البراموس. وكانت تجربة مريـرة وسـيئة ولا تــزال تلقي بظلالها السـوداء على العلاقة ما بين الأقباط والسلطات.

ومن الحق أن نعترف أن السلطات لم تقف الموقف اللازم إزاء مطـالب الأقبـاط. وقد كـان يمكنها أن تدرسها وتظهر الحقائق من المـزاعم، فتجري تعدادًا يوضح نسبة عدد الأقبــاط على أن يشـــــترك في إجرائه عناصر قبطية وأن يخضع لرقابة منظمـــات المجتمع المـــــدني دفعًا لأي شكوك، وإذا وجد تميـيز يحيف على الأقبـاط في الوظــائف فيجب أن تبعــده وتجعل المعــول هو الكفـاءة، كما أنه من غـير المفهـوم إبقـاء قيـود على إقامة الكنـائس.. وأسـوأ من هـذا كله أن لا يبحث النظـــام عن طريق لتمثيل الأقبـــاط في مجلس الشعب. إن حقيقة أن الأقباط مبعــثرون على أرض الــوطن من الإسـكندرية إلى أسـوان

جعلتهم أقلية في كل الـــدوائر. وجعل احتمـــال الفــوز محــدودًا ما لم تتملك المجتمع روح ثــورة 19، وكـــان يجب أن تـــدرس الحكومة هـــذه المشكلة وتنتهي إلى حل لها.

وأخــيرًا فهنـاك خيـار التمثيل النسـبي الـذي رفضته أغلبية الأقبـاط عند وضع دسـتور 1923، ولكن يبـــدو أنه قد يكـــون الحل الــــذي يقطع الطريق على الشكاوى والمزاعم.

وينتقل الكتاب إلى بـاب جديد "عوامل تـؤثر على الخيـــارات" فيـــذكر منها اللبس التـــاريخي وجناية الطمـــوح. وظهـــور دعـــوات "الرافضة الجديـدة" أي تلك المجموعـات المتشـددة الـتي يغلب عليها التعصب وضـــــيق الأفق والنظـــــرة الأحادية... الخ.

ويختم الكتاب بدراسة تستعرض مطالب كما عرضها الكاتب القبطي المعـروف مـريت غـالي في تقرير قدمه بالروينو إلى المسئولين وأحبائي المسلمين"..
والكتـــاب يـــأتي في وقته وهو يعـــالج القضـــية بطريقـــة، ومن منظـــور يختلف عن المعالجـــات المألوفة..

من طريق الأشواك والخصام إلى واحة الود والسلام

أريد بهذا الكتـاب أن يخلص مصر من إحـدى اللوثـــات العارضة الـــتي أصـــابت ثوبها الأبيض الناصع وأوجـــدت تـــوترًا بين الأغلبية المســـلمة والأقلية القبطيــة. وهما معًا شــعب واحد عــاش حياة واحدة في السراء والضراء الحلوة والمرة، وتعرضوا معًا لعسف بعض الحكام الظلمة الذين حكموا في القرون الوسطى كما ســعدوا عنــدما بدأت مصر تدخل العصر الحديث وتشــرف عليها أنوار المعرفة والحرية..

ويـرى الكتـاب أن هـذه اللوثة الـتي وضـعت البلاد على طريق الأشواك وأوجدت ما سمى بـــ "الفتنة الطائفيــة"، وإن كـان لها أسـباب عديـدة سنشــير إليها في خاتمة الكتــاب، فــإن أســبابها المباشرة ثلاثة:

أولا: ظهور الجماعات الإســلامية الشـاردة، الضالة المضلة التي قدمت فهمًا مغلوطًا، وسيئًا للإســلام أوقع الخــوف في نفــوس الأقبـاط، كما لجأت إلى ممارسات عمقت وأكدت المخاوف.

ثانيـا: السياسة الـتي انتهجها البابا شـنودة وخـالف بها الخط المقـرر الـذي اتبعه كل آبـاء الكنيسة، والـــتي تـــوحي به روح المســـيحية، انسياقا وراء طمــوح هو النهضة بالكنيسة وإعلاء شأنها، وقاده هذا لأن يستأثر بتمثيل الأقبـاط في كافة المجـــالات. فـــاقتحم غمـــرات المشـــاكل الدنيوية، كما حكم الكنيسة بطريقه أقل ما يقال فيها إنها غـــير ديمقراطية، ويمكن أن تكـــون بيد حديدية، وليس هـذا شـأن آبـاء الكنيسة وإنما هو شـأن الملـوك والأبـاطرة الـذين يريـدون الحيـاة الدنيا.

ثالثـــا: السياسة الـــتي اقـــترنت بظهـــور الســـادات؛ نتيجة لأنه أراد الانفتـــاح من ناحية، والاسـتئثار بالسـلطة من ناحية أخـرى، والابتعـاد بالدين عن السياسة والزج به فيها؛ وبهـذا كـانت سياسته متخبطة، وبدأ كما لو أن الحكومة تكـره الأقبــاط ولا تحب المســلمين وتعــوق إجراءاتها بيروقراطية عريقة بحيث لا تحسم المشاكل ولا تحرص إلا على البقاء في الســـلطة ولا تعـــرف لمعالجة المشـــكلات إلا البطش الأمني.

ومن الواضح أن هـــــذه الثلاثة لا علاقة لها بأصول فكرية، أو عقيدية فإنها إنما تـرتهن ببقـاء أصــحابها. وقد عـــرفت الجماعـــات الإســـلامية خطأها بعد أن دفعت ثمنه باهظـا، وأعلنت توبتها في عـدد من الكتب ولا ينتظر أن تعـود أو تقـوم

لها قائمـة. كما أن البابا شـنودة قد تـبين أن ثمة بـدائل أفضل من سياسـته القديمة فلم يلجأ إلى أسلوب التحـدي الـذي اتخـذه في أعقـاب حادثة الخانكـة، وعنـدما وقعت أحـداث الكشـح، وهي أسـوأ بمراحل من أحـداث الخانكـة، وإن كـان موقفه إزاء أحـداث الإسـكندرية في الأسـبوع الأخـير من أكتـوبر سـنة 2005 يمثل تراجعًـا، ولكن البابا شـنودة - كائنا من كـان - ليس هو الكنيسة، ولا هو مخلد.

أما السياسة الـتي نهجتها الحكومة فقد جـاوزت عمرهـا. وهي تعيش الآن في عمر إضافي لابد أن ينتهي قريبا..

وبهـذا تـزول الأسـباب الـتي أدت إلى هـذه الغُمة والسـحابة الـتي ظللت سـماء مصر النقية الصافية.

وقد يقـول قائل هل لـديك من الأسـباب ما يجعلك تعتقد أننا بعد زوال هـذه الأسـباب الثلاثة سنترك طريق الأشواك ونصل إلى واحة الورود. فـأقول نعم بكل تأكيـد. وهـذا التأكيد يعتمد على أسـباب أصـولية منها طبيعة الشـعب المصـري الـتي تتسم بالدماثة والسـلام والاعتـدال، والـتي تنفر من كل عنف وقسـوة. وأن هـذه الطبيعة قادرة على صهر الاختلافـات في بوتقتهـا. ويـدلنا التاريخ أن هذه الطبيعة استطاعت أن تسـتوعب كل الوافـدين على مصـر، ولو كـانوا من غـير أبنائها فما بالك بأبنائها.

وأهم من هـــذا أن المســـيحية والإســـلام يتلاقيـــان تلاقيا ســـعيدًا طبيعيا يكمل كل منهما الآخـر. فالمسـيحية لم تـدع لنفسـها مُلك هـذه الأرض ولم تضع في شريعتها فرائض في الحكم أو السياسة، وهي بعد تقوم على المحبة والإيثـار حـــتى بالنســـبة لأعـــدائها، وهـــذه طبيعة تجعلها تتلاقى مع الإسـلام الـذي اعـترف بها وجعل من مريم سيدة نساء العـالمين، وتحـدث عن السـيد المسـيح حـديثا يكـاد يكـون مسـيحيًا فهو "كلمة الله"، وروح منه، وقد نسب إليه من المعجـــزات ما لم تنســـــبه المســـــيحية، مثل أن يتكلم في المهد.. وقرر الإسلام أن أشد الناس مودة للذين آمنـوا ﴿**الَّذِينَ قَـالُوا إِنَّا نَصَـارَى ذَلِـكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـــــــــــينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ**﴾. وإذا كان المثل الأعلى للمسـيحية هو الحب، فإن المثل الأعلى للإسلام هو العـدل. وهما يكملان بعضـهما البعض ويكونـان عنصـرين لازمين لا يغني أحدهما عن الآخر لقيام المجتمع الصالح..

ولئن لم تعــــترف المســـــيحية في كتبها بالإسلام. فذلك لأنها كانت سابقة عليه، وما كـان يمكن أن تعترف به ولما يبدأ. أما الإسـلام الـذي جــاء بعــدها فإنه اعــترف بها بوجه خــاص؛ لأنها أقرب الأديان إليه، وليس بين محمد وعيسى من نبي يفرق بينهما. على أن الإسلام يـؤمن بتعددية الأديان وأن هذه التعددية ليست شيئًا إدًّا أو يقبل على مضض، أو أنه ضـرورة سـيئة، على العكس إن الإسلام يـرى أنها الأمر الطـبيعي اللازم، وقد

عـــبر عن ذلك عندما قــال: ﴿**وَلَــوْ شَــاءَ رَبُّكَ لَجَعَــلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِــدَةً**﴾. واســـتنكر تلك العاطفة الــــــتي تخطر في نفس كل داعية أن يـؤمن به النـاس جميعًا ﴿**أَفَـأَنْتَ تُكْـرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ**﴾.

ولم يحـرم أصحاب كل الأديـان الأخـرى من نعمة الله ورحمته ﴿**إِنَّ الَّذِينَ آمَنُــــوا وَالَّذِينَ هَــادُوا وَالصَّــابِئُونَ وَالنَّصَــارَى مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَــوْمِ الآخِــرِ وَعَمِــلَ صَــالِحًا فَلا خَــــوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُــــونَ**﴾ {69 المائدة}..

وهنـــاك بعد **أصـــرة** خاصة تربط الإســـلام بمصر، فإن هاجر أم إسماعيل ابن إبـراهيم الأب الأعلى للـــديانات الإبراهيمية الثلاث – مصـــرية بحيث يمكن أن يقــال: إن العــرب المســلمين الأول فيهم دماء مصرية. وقد كادت تلك الواقعة البـاهرة أن تتكــرر عنــدما أنجبت مارية القبطية للرسول ابنه إبراهيم.. الذي مــات طفلا لأن الله تعــالى أراد لحكمة يعلمها، ألا يكــون للرســول ولد..

إن الإسلام عنـدما أبّد التعددية الدينيـة، فـإن معـنى هـذا أنه أبد سياسة "التعـايش"، إذ مـاذا تكـــون العلاقة بين أصـــحاب هـــذه الـــديانات المتعددة الـتي أرادها الله نفسـه؟. هل يعقل أن يكون التخاصم أو التفاخر أو حتى القتـال لتكـون الدنيا معسكر حروب ودماء؟ هل يعقل أن يكون الحياد الذي هو كحد السيف لا يستقر عليه أحد؟ ولماذا يكون هذا وذاك وهنـاك سـبيل "التعـايش الإيمــانى" الــذي قررته الآية ﴿**لا يَنْهَـاكُمْ اللَّهُ**

عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُمْ مِنْ دِيَـارِكُمْ أَنْ تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾. {8 الممتحنة}.. فهذه الآية تقرر أن يكـون الـبر والعـدل هما سياسة المسـلمين نحو ذوي الأديان الأخرى، وهذه العلاقة التي تنبع من القـرآن تتفق مع روح الإسـلام وروح المسـيحية، فلمـاذا لا نعيش مسـلمين وقبط في حب وبر ووئام، وقد وجه القرآن المسـلمين لأن يقولوا ﴿**آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْـزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْـلِمُونَ﴾**. {46 العنكبوت}..

لمـاذا لا يكـون القبطي قريبًا من المسـلم، ويكـون المسـلم أخا للقبطي. إنـني عنـدما قلت **"إخـواني الأقبـاط"** كنت أصـدر عن إيمـان عميق بـأن هـذا أمر حقيقي. إن أخـوة الإيمـان تجمعنـا، وإن عناصر الائتلاف بين المسـيحية والإسـلام توحد بيننا، وإن طبيعة مصر السـمحة تفترضـه، فليست هي كلمة "بروتوكوليـة" ولا مجاملة، إنها حقيقة يمكن أن تكون واقعًا عنـدما يحسن فهم الإسـلام وفهم المسـيحية على سواء..

من أجل هذا كانت خاتمة هذا الكتـاب دعـوة للإصـلاح الـديني وتحرير العقـول والقلـوب من الغشاوات الـتي ترسـبت على الأديـان طبقة بعد أخـرى حـتى حجبت حقيقتـه، دع عنك أثر المؤسسة الدينية في احتكـار الـدين وفـرض سلطتها على العقول والقلوب...

إن الانتقال من طريق الألغام والخصــام إلى واحة الــود والســلام ليس حلمًا ولا مســتحيلا إنه ممكن، بل هو الأمر الطـــــــبيعي، ولكن لابد أن يسبقه الإصلاح الديني الذي يحرر الـدين قـدر ما يحرر العقول والقلوب. وإني لآمل أن يكون هـذا الكتاب هو أول خطوة نحو طريق الود والسلام..

جمال البنا

القاهرة في

ينـايـر 2006م ذو الحجة 1426هـ

الباب الأول
طبيعة الأقلية القبطية

الفصل الأول
أقلية ولكن مصرية

ليس من سوء الحظ دائمًا أن يكـون فـرد ما من أقلية كما يظن البعض. صحيح أن كونه فـردًا في أقلية قد يحد من المشـــاركة في المشـــاعر والأحاســـيس القوميـــة، وقد يبعـــده في بعض الحالات عن التيـار العـام، ولكن طبـائع المجتمع تقول إن الأقليات أكثر استشـعارًا بالتضـامن من الأكثريـة. فالأقلية واعيـة، والأكثرية لاهية، الأقلية متعاونـة، متضـافرة، والأكثرية متباعـدة متفرقة، وهذا ما يكسب الأقلية وزنا وقوة أكثر مما توحي به نسـبتها العدديـة، فليس سـيئًا في الحقيقة أن يكون فرد ما عضوا في أقليـة، حـتى وإن لم يعد هـذا فضلا ومـيزة، والموقف الأمثل أن نتقبل ما ارتضاه الله ونقول: "الخيرة فيما اختـاره اللـه"، فقد شاء أن أكون فردًا من أقليـــة، وأقلية وسط أكثرية، وقبطية وسط إسلامية، فلنأخذ هذا الأمر على أحسنه".

وعند حديثنا عن الأقليات فإننا نضرب صـفحًا عن تعريفات علماء الاجتماع الـذين يطوفـون بنا البحـــار الســـبعة ويعـــودون بنا عطشـــى، لأن الجزئيـات الـتي لا حصر لها لـديهم، تجعلنا نـرى الأشجار دون الغابة.

كما لن نلجأ إلى القــواميس ومعــاجم اللغة عن معــنى ومضــمون "أقليــة" لــدى الســادة اللغـــويين؛ لأن هـــؤلاء يحـــاولون التوصل إلى التعريف "الجـامع المـانع"، وهو إرث أخـذوه عن المنطق الأرسطي، وكثيرًا ما يجني على المعنى وإن حرص على الشكل.

وخير ما نأخذ به هو الفطرة، أو كما يقولـون "المتبادر"، فعندما نقول "عين" مثلا فإن المعنى المتبادر للكلمة هو العين الـتي يبصر بها النـاس، وليس عين مـــاء أو غيرها مما لا يؤخذ به إلا إذا وجدت القرينة التي تفرض هذا المعنى الخاص.

فـإذا نهجنا هـذا المنهج، فـأول ما يتبـادر إلى الذهن عن معنى "أقلية" هو:

أ) معـنى عـددي، فالأقلية ضد الأكثريـة، ولهـذا فالأقلية تضم عددًا محـدودًا قد يبـدأ بــ 1% وقد يصل إلى 5% أو 10% ليكـــون أقلية "معقولــة" لها وزن مــا. وقد تصل النســبة إلى 30% وعندئذ تكـــون أقلية هامة يجب أن يحسب حسابها في كل الاعتبارات.

ب) يقـترن بهـذه الصـفة التي هي حكم العـدد، الاختلاف في أحد المقومـــات الكـــبرى للمجتمع بحيث يجعلها هـذا الاختلاف أقليــة، فـــإذا كـــان للأقلية لغة تختلف عن لغة الأكثريـــة، فـــإن هـــذا يعزلها عن الأكثرية ويجعلها سـجينة عـازل اللغـة، كما يمكن أن يكون هذا المقوم هو لون البشرة الــذي هو

أول ما تلحظه العين ويفــرض عليها عــازل اللــون، وهو أول ما يلحظ في المجتمعــات الأوروبية التي تـؤمن بسـيادة اللـون الأبيض ودونية ما عـداه. وأخـيرًا فقد يكـون الـدين الـــذي كـــان في العصـــور القديمة أبـــرز مقومات المجتمع، وقد كـان قويا في أوروبا طـوال العصـور الوسـطى، ولكنه فقد هـذه الأهمية مع سيادة الفكر المـادي، والعلمانية ... الخ، وإن احتفظ بها في الشرق.

ويغلب أن يــؤدي فقد أحد هــذه المقومــات (ومن باب أولى كلها) إلى مضايقات تحــول دون تشرُّب المجتمع لهذه الأقليات وتقبلها على قـدم المساواة والتعامل معها بنجاح، فمن البديهي أن اختلاف اللغة يحول دون ممارسة النشاط العــام ويجعل صـاحب اللغة المختلفة - ما لم يتعلم لغة الأكثرية - ســجينا في لغته الخاصة منعـــزلا عن المجتمـع، كما أن مقـوم العـرق أو الجنس كـأن يكــــون من أصـــول أفريقية أو أســـيوية وسط مجتمع (أوروبى/ أمريكي) فإنه يمكن أن يتعرض لتقييدات؛ لأن اللون اقترن في الذهنية الأوروبية بالمستوى الفكري والاجتماعي. فالجنس الأبيض هو وحده المؤهل للتعايش مع الحضــارة الحديثة وكل الأجنـاس الأخـرى أقـل شـأنا وأحط منزلة، ويحاول الأوروبيون الآن التخلص من هذه العقدة المسيطرة عليهم بـدرجات متفاوتة من التوفيق، أما عـازل الـدين، فكما قلنا إنه كـان من أقــوى

الفــوارق في العــالم القــديم، ولم يكن المجتمع الأوروبى القـــديم ليقبل فيه ســـوى من يـــؤمن "بدين الملك" فأي اختلاف – حتى لو كــان داخل المســيحية نفســها كــأن يكــون الملك كاثوليكيا والأقلية بروتســتانتية فــإن هــذا يعــرض الأقلية للمذابح أو الطرد. ولكن هذا المقـوم فقد أهميته في المجتمعـــات الأوروبية الحديثـــة، ولكنه ظل قويا في الــدول الشرقية الــتي يعد الــدين فيها أصلا للقيم والضمير وجذرًا للتاريخ والتشريع.

هل أقباط مصر أقلية ؟.

في ضوء ما سقناه في الفقرة السابقة يثور التساؤل: هل أقباط مصر أقليـة؟ لقد ارتفع هـذا السؤال عاليا عندما أراد مركز ابن خلـدون عـام 1994 إقامة مـــؤتمر عن الأقليـــات تتضـــمن الأقبــاط، إذ بــادر الأســتاذ: محمد حســنين هيكل فأرسل خطابًا مفتوحا في 22/4/1994 إلى الأستاذ: جمال بدوي، رئيس تحرير جريدة الوفد، يســتنكر اعتبــار أقبــاط مصر أقلية، وما إن نُشر حتى أثــار زوبعة من التأييــدات والمناصــرات من الدوائر المسلمة والقبطية على سواء، وأدى إلى شن غارة شـعواء على مركز ابن خلـدون؛ بحيث اضطر لعقده في غير مصر، وأكد الأستاذ: محمد حســنين هيكل مقولة أن الأقبــاط جــزء لا يتجــزأ

من نسيج شعب مصر، وأن اعتبارهم أقلية يشق وحدة مصر[1].

هل كـــان الأســـتاذ هيكل محقًا من الناحية الموضـوعية، أو أنه كـان يكـرر ما كـرره طـوال رئاســته للأهــرام من مغالطــات تحت عنــوان: "بصراحة!؟" لقد عالج هذه النقطة كـاتب قبطي نابه لا يمكن أن يتهم بالتعصب هو الأسـتاذ محب زكي في مقـال له في مجلة "المجتمع المـدنى" (26 مايو 1994) باللغة الإنجليزية تحت عنــوان: "تجاهل الأقلية القبطية وهم خطــر"، فقـال: إنه وإن كان يعترف بما في مقال الأسـتاذ هيكل من تحـذيرات، فـإن من الخطر أيضًـا أن نهـرب من معالجة المشـــكلة، وأن واقع الأقبـــاط هو أنهم أقلية بكل معنى الكلمة. واعتبر أن من مقومات "الأقليـة" وجـود تمـايز ضـدها في الوظـائف أو حرية ممارسة العقيدة الخ... وأن هـذا وحـده هو ما يجعل أقبـــاط مصر أقلية مع أنه قـــرر أن ما يجعل من مجموعة ما أقلية هو أنها تختلف في أحد المقومات الرئيسية (من الجنس أو الدين أو اللغـة) وأنها عـدديا تمثل قلـة. لم يعلق الكـاتب أهمية كبـــيرة لهـــذين لأن الشـــعب المصري تجاوزهما وللصــفة الفريــدة للأقبــاط وهي أنهم

---

[1] **(1) وقد رجع معظم المؤيــدين للفكــرة، بما فيهم صاحبها الأسـتاذ: محمد حسـنين هيكل عنهـــا، وإن احتفظ بها وفي الحلق شـــجا، فريق آخر على رأســـهم البابا؛ لاعتبـــارات عديدة ارتأوها..**

مصريون – حتى قبل الفتح الإسلامي ودخول الإسلام، وأن معظم المسلمين إنما كانوا أقباطا أسلموا خلال القرون الطويلة للحكم الإسلامي، ومع هذا فإن الدين هو في أصل طبيعة "الأقلية"، أما ما أشار إليه من تمايز في الوظائف أو الخط الهمايونى.. فإنهما أقل عوامل في تأسيس وطبيعة الأقلية القبطية، وجعلها أقلية كما سنوضحه فيما بعد.

ورأينا الخاص أن أقباط مصر جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر ومن نسيج شعبها، ونحن لا نرى اختلافا في اللغة وهي أقوى عناصر وحدة المجتمع، كما لا نرى عازل اللون أو الاختلاف في تركيب الجسم، فكما قلنا إن معظم المسلمين كانوا أقباطًا. الفرق الوحيد هو اختلاف الدين. وهذا الاختلاف هو الذي يجعلهم أقلية لأنه يكتسب أهمية كبرى وله صفة مقدسة، مكينة، يستوي في ذلك المسلم والقبطي.

ولكن هذا ليس من شأنه أن يوجد صراعًا بالضرورة أو حتى انعزالا لأن الإسلام صرح بأن أشد الناس مودة للذين آمنوا هم النصارى، وقال: **﴿لا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾.** وأوصى الرسول بوجه خاص بأحمائه الأقباط الذين منهم جاءت

مارية الــتي أنجبت للرســول ابنه إبــراهيم، كما جاءت منهم، قبل هذا، هاجر أم إسـماعيل الـذي ينسب إليه الرسول.

كما أن الإســــلام يعطي المواطنة لكل من يعيش على أرض الوطن بصرف النظر عن دينه؛ لأن هذا من طبائع الأشياء، فكلمة مـواطن تعـود أصلا إلى الـوطن، ومن يعيش على هـذا الـوطن يصبح مواطنًا، وقد قرر الإسلام هذا الحق عنـدما أثبت الرســول في صــحيفة الموادعة - الـــتي يطلق عليها المحــــدثون دســـــتور المدينة - أن المهاجرين، والأنصار، واليهود الـذين تحـالفوا مع الأنصـار، وأقـاموا فيها رغم أنهم كـانوا من ناحية الجنس والـدين ليســوا عربا أو مســلمين، قــرر الرسول أن هـذه الفئـات الثلاث **"أمة واحـدة. للمســلمين دينهم ولليهــود دينهم"**، ومن ناحية ثانيــة فــإن المســيحية كــدين يقــوم على الخلاص الـــروحي وينفض يديه من كل شــــئون الحكم والــدنيويات. "مملكــتى ليست من هــذا العـالم" "أعطـوا ما لقيصر لقيصر وما لله للـه". وأكد الرسول بطرس أن على المسيحيين جميعًا أن يخـــدموا الدولة بـــإخلاص وأمانة ما دامت لا تمس دينهم، وكتب اثناســــــيوس - وهو رأس الكنيسة القبطية - إلى الإمــبراطور أن ليس من حقه أن يتــدخل في شــئون دينهم، كما أنه ليس من حقهم أن يتدخلوا في شـئون ملكـه، فوجـود إسلام هذه طبيعته ووجود مسيحية هـذه طبيعتها

لا يمكن أن يؤديا إلى صراع، ولا يمكن القول إن هنـــــــــاك ســـــــــببا أصـــــــــوليًا لفرقة أو فتنة.

من أين إذن جـاء الـنزاع والتـوتر الـذي أخذ تعبير "الفتنة الطائفية"؟.

لعدد كبـير من الأسـباب، مهمة هـذا الكتـاب إيضاحها فيما يلي من فصول، وحسـبنا أن نقـول إن أبرزها الجهل بحقيقة الـدين، وافتقـاد معـنى الحرية، واستغلال الدين لتحقيق مطامح دنيويــة، سياســية أو اقتصــادية الخ... وكــذلك لســلبية الحكومة وعــدم معالجتها المشــكلة بمجــرد أن تظهر أعراضها إلى غير ذلك مما سيقرأه القارئ في الفصول التالية..

* * *

قلنا في مسـتهل هـذا الفصل إنه ليس سـيئًا دائمًا أن تكــون مجموعة من الشــعب "أقليــة"، ولأن هـذا الوضع بقـدر ما ينقصـها فإنه يمكن لو كانت هذه الأقلية ذكية، أن يكسبها مزايا تعــوض وتزيد عما خسرته.

ومدرسة الأقلية، والمثال الفريد لهذه الحالة هو الأقلية اليهوديـــــــــة. فما من جنس كرهه الأوروبيــون طــوال عصــورهم القديمة حــتى مشارف العصر الحـديث – كما كـره اليهـود. لقد رآهم جنسًــا لا يمت إلى الجنس الأوروبي الآري، الأشـــقر، ورآهم دينًا المســئولين عن صـــلب

المسيح، وليس ما يماثل هذين في إثارة العداوة والبغضــاء.. ولهــذا تعرضــوا على مــرّ العصــور لاضـــطهاد شـــنيع، فصـــودرت أمـــوالهم وقتل رجالهم، وسُـبيت نسـاؤهم. وفي حـالات عديـدة أبعـــــدوا كلية عن البلاد. واقـــــترنوا في الفكر الأوروبي بالجشع والرياء والكيد للمسيحيين.

لم يستســلم اليهــود لهــذه العاصــفة الــتي اقتلعتهم مــرارًا فكــانوا يعــودون، واســتطاعوا بتطـبيق سياسة مرسـومة اسـتلهموها من واقع التجربة وتوصــلوا إليها بما عرفــوا به من ذكــاء واستطاعوا في النهاية ليس فحسب أن يتغلغلوا في أعماق المجتمع الأوروبى بل أن يهيمنوا عليه ويمسكوا بزمام الأمور.

كيف استطاعوا تحقيق هذه المعجزة؟.

بوســائل عديــدة، كــان منها أنهم لم يــبرزوا حقيقتهم اليهودية، لقد تكتموها، فتسموا بأسـماء أوروبيــة، ومارســوا العــادات الأوروبية وتحــدثوا باللغـــــات الأوروبية وانـــــدمجوا في المجتمع الأوروبى لدرجة أن الأوروبيين لم يكتشــفوا أنهم يهود، إلا عندما ماتوا واتبعت في طقوس الصلاة عليهم ودفنهم طقوسًـــــــــا تختلف عما يتبعه المســيحيون، وكــان مما دعم هــذا أنهم توصــلوا بوســائل عديـــدة – إلى إلغـــاء ذكر الـــدين في شهادات الميلاد والأوراق الرسمية.

وكان هذا أمرًا طبيعيا لأن اليهود في رغبتهم المؤكـدة للانـدماج في هـذا المجتمع الأوروبى –

وصــلوا إلى درجة ضــحّى فيها بعضــهم بــدينهم واعتنق المســيحية (كما اعتنقـــوا الإســـلام في تركيا) ولكنهم مع هذا، ومع تغيــير دينهم – ظلــوا يهودًا واحتفظوا بكل الوراثات الجينية لليهود.

ولم تكن تلك تضــحية كبــيرة، لأنهم كما قلنا احتفظــوا بالطبيعة اليهوديــة، ولأن هــذا التحــول مكنهم من الوصـــــــــول إلى أعلى المناصب السياسية التي كان الوصول إليها مقصــورًا على المســـــيحيين كشـــــغل مناصب الــــوزارة، بل والوصـــول إلى رئاسة الـــوزارة ورئاسة حـــزب المحـــافظين كما في حالة دزرائيلي الـــذي دخل النصـــرانية بـــدخول جـــده، ومن ثَمّ أبيـــه، ثم هو فســـمحت هـــذه المـــدة القصـــيرة له برئاسة الوزارة، وإن لم تمح طبيعة اليهودية، بل إنه كان في رواياته – وقد كـــان روائيا قـــديرًا – يتفـــاخر باليهودية التي وصــلت إلى المعرفة عنــدما كــان الإنجليز في الكهوف والغابات..

كما أن هــذه الخطــوة – مكنتهم من تطــبيق جزء من سياستهم كان يستهدف إضعاف الوعي الــديني لــدى الأوروبــيين بمختلف الوســائل مثل دراسة المقارنة الــتي تثبت أن الأديــان "ظــاهرة اجتماعية" وليست وحيا سماويا. وإبداء الشكوك فيما تضـــمنته الأناجيـــل، وإعلاء النزعة الدنيوية وساعدهم على النجاح في هــذا ســفاهة الكنيسة الكاثوليكية في القـــرون الوســـطى وانحطـــاط مســـتوى البـــابوات. وبقـــدر ما كـــان الإصـــلاح

البروتسـتنتي محقًا في ثورته على طقوسـية الكنيسة، وتقديس أو حذف البابوات وعصـمتهم، بقـدر ما نـالت من صـميم الطبيعة الدينية بحيث أصبحت بعض مذاهب المسيحية دينًا دنيويًا، دعم الاتجاه الدنيوي وسـاعد على ظهـور الرأسـمالية وانتصارها وكسـبوا هـذه الجولة بـإبراز العلمانية التي لا تقتصر على الفصل بين الـدين والسـلطة (وهو أمر حميد) ولكن القضاء على فكرة وجـود الألوهيـة، ووجـود دار آخـرة، وهاتـان – فكـرة الألوهية ووجـود الـدار الآخـرة – هما ركيزتا كل دين..

هذا في الـوقت الـذي احتفظـوا فيه – ولكن لأنفسـهم – بلغتهم الخاصـة، وبـدياناتهم وصلواتهم.

وقد مثلوا هـذا الـدور بالنسـبة لتركيا عنـدما أسلم "يهود الدونمة" وكانوا وراء إلغاء الخلافـة، ودفع ضباط "الاتحاد والترقي".

ولكن كل هـذا لم يكن كافيـا، وقد توصـلت الأقلية اليهودية إلى هيمنتها لأنها اسـتهدفت العلم والمال.

عرف اليهود أن العلم يقودهم إلى السـلطة، وإلى الاختراع وإلى الاكتشـاف، فحرصـوا عليـه. وقد تجد يهوديا فقـيرًا، ولكنك لا تجد يهوديًا جاهلا..

أذكر أنـني عنـدما كنت في الطـائرة الـتي توصـلني إلى الولايـات المتحـدة عـام 1983

التقيت بأستاذ مصري يشغل منصبًا رفيعًا في الأمم المتحدة. كما كان أستاذًا بالجامعات الأمريكية، كان هو الذي لفت نظري إلى هذه الظاهرة قال "ليس المال هو الذي أبرز اليهود كما يتصور الناس. إنه العلم قبل المال. وقال إنه وجد في فصل الدكتوراه بأحد الجامعات 50 طالبا، منهم 29 يهوديًا.. واليهود في الولايات المتحدة قرابة 6 مليون من 300 مليون..."

وكان المال هو الوسيلة الثانية للبروز والظهور، وقد لجأ إليه اليهود من أيامهم الأولى، وعندما حرمت المسيحية الربا على المسيحيين، فإنها فتحت الباب أمام اليهود ليمارسوا هذه المهنة لأن التوراة وإن كان يحرم على ممارسة الربا مع اليهود، فإنه يبيح بل ويأمر ويكاد يحرض – على ممارسته مع الغريب – وهكذا مارس اليهود هذه المهمة مهنة الإقراض بربا فوضعوا أيديهم على المال بصفة مباشرة، ثم صعدوا بهذه المهنة إلى البنوك وجعلوها "تخلق النقود" وتفتح ما تشاء من "عملات ائتمانية".

إننا في هذه الإلمامة السريعة بالطرق التي توصلت بها الأقلية اليهودية للوصول إلى درجة عالية من الأهمية في المجتمع الأوروبي الأمريكي – أردنا بها مجرد التعرف على وسائل تغلبت بها الأقلية على نقصها كأقلية.

لقد فطن اليهود إلى أن العلم هو الطريق السلطان للثروة.. وفي الوقت نفسه الطريق

المفتــوح – فــأكبوا عليه وعنــوا به ووصــلوا إلى غاياته حيث أصبح معظم العلمـاء، والمخـترعين، والمكتشــفين منهم، كما مكنهم من أن يشــغلوا مناصب الرئاسة في الجامعـــــــات وفي مراكز رسم السياسات واتخاذ القرار.

ويمكن القول – بكل تأكيد – أن العلم – قبل المال – كـان هو البـاب الـذي أوصل اليهـود إلى أعلى المراكز.

وقد فطن "المـوالي" في العـالم الإسـلامى القـــديم، إلى أن الشـــيء الوحيد الـــذي يرفع خسيسـتهم، هو العلم فـأقبلوا عليه بحيث أصـبح معظم الفقهـاء والمحـدثين والمفسـرين منهم – بل لم يقف أمـــام همتهم – حـــاجز اللغة – إذ اقتحمــوا اللغة وأصــبح الكثــير منهم أئمة اللغة وعلى رأسهم سيبوبه.

إن العلم والمــال هما أكــبر وســيلتين لكي تنهض الأقلية من وضعها كأقلية بحيث تـؤثر على الأغلبية، والعلم يـؤدي إلى المـال والمـال يـدعم الجامعـات لكي تتعمق البحـوث وتصل إلى مزيد من العلم..

وقد تعــرفت الأقلية القبطية المصــرية على هاتين الوسيلتين اللـتين كانا من أبــرز الأســباب التي كفلت لها الحيوية والتأثير على ما سنرى.

الباب الثاني
خيارات قدرية

الفصل الأول
الخيار الأصولي (1)

إذا قــدر لمجموعة من الســكان أن تكــون "أقلية بحكم الاختلاف في بعض المقومـــــــات الأساسية لبقية السكان، فإن هذا الوضع يفـرض عليها خيـــارات "قدريـــة" لا يمكن الخلاص منها؛ لأنها جاءت بحكم القدر الـذي جعلها أقلية وجعل الحل يـــدور حـــول هـــذه الواقعة ولكن يمكنها بالطبع التصرف فيها والاختيــار بينها بحيث تحقق لنفسها أعظم أمان.

على أن الطريق أمام الأقلية القبطية ســهل ومـــذلل وليس فيه صـــعوبات تستعصـــي على الحل، لأنهم كما قلنا جــزء من المجتمع المصري جنسًا ولغـة، ولأن المسـيحية والإسـلام يتلاقيـان في إيجاد الحل لهما.

وأول هـــذه الخيـــارات هي ما نطلق عليه "الخيار الأصولي" الذي أمرت به المسيحية وآباء الكنيســة. وكل المســيحيين يحفظــون كلمــات المسـيح "أعطـوا ما لقيصر لقيصر وما لله للـه" و"مملكتي ليست في هـــذا العـــالم". ورفض المســيح أن يتــولى قســمة مــيراث بين أفــراد

الأســـــــــــرة، أي أنه نفض يديه تمامًا من كل المسائل الدنيوية.

وعـــالج هـــذه النقطة كاتبـــان مســـيحيان مرموقـان هما المونسـنيور باسـيليوس موسى - وكيل الأقبـاط الكاثوليك في مصر - في سلسـلة من المحاضـرات ألقاها في أعقـاب ثـورة 919 عنــــدما ارتفع مد التــآخي ما بين المســـلمين والأقبـاط ردًا على محـاولات الإنجلـيز المحتلين التفريق بينهما، وقد جمعت هـــذه المحاضـــرات في كتيب صغير باسم "الـدين والوطنية" وصـدر في القاهرة سنة 1920[2].

وثانيهما: هو الـراهب المتجـرد الأب "مـتى المسـكين" الـذي عـرف بـالتقوى والـورع في أحـــاديث نشـــرت في جريـــدة الأهـــرام في 17/4/1990 تحت عنـــوان "قـــراءة في أوراق الأب مـتى المسـكين". للأسـتاذ: مكـرم محمد أحمـــد، في آثــار الشــقاق ما بين الأنبا شــنودة والرئيس السادات.

فلنأخذ ما جـــاء في كـــتيب المونســـنيور باسـيليوس موســى. إن أهم ما عالجه الكتــاب نقطتان: **الأولى** أن الـدين يأمرنا بمحبة وخدمة الوطن رغم الاختلافات الدينية بين أبنـاء الـوطن الواحد على أسـاس أن الوطنية شـيء والـدين

---

[2] **(2) أقر طبعه "مكسيموس صـدفاوي" مـدير رســولي بطريركية الأقبـــاط الكاثوليـــات "لفائدة الشبيبة المسيحية".**

شيء آخر، وهو ما يمكن أن يكون شرحًا لشعار "الدين لله والوطن للجميع". وبالتالي فلا تنازع بينهما، **والثانية** أنه ليس من مسوغ يسوغ التساهل الديني مراعاة لخدمة الوطن بل إن ذلك التساهل يكون ضربة قاضية على الوطنية الصادقة، والدين أيضا.

وقد عالج المؤلف النقطة الأولى من منطلق أن الدين والوطنية شيئان متميزان لا يتنازعان إلا إذا أساء الإنسان فهمهما، أو إذا تعمد الإساءة إلى كليهما، وهو يقول إن الناس قبل المسيحية لم يكونوا يميزون بين الروحيات والزمنيات بين الدين والوطن، فكان الدين والوطن عندهم شيئًا واحدا، وساير هذا الاعتقاد وعبر عنه مَثَل لاتيني مشهور، معناه: أن الشرط الجوهري للتبعية الوطنية هو عبادة آلهة هذا الوطن.

ويرى المؤلف أن هذا المبدأ كان يقضي على حرية الضمير ويدفع الفاتحين إلى إجبار المغلوبين على اعتناق دينهم، ولم يشذ عن هذه القاعدة الرومان وإن قنَّعوا سياستهم بالدهاء فهي قد أبقت لأهالي البلاد المفتوحة آلهتهم، ولكنها أوجبت عليهم أيضًا عبادة الآلهة الرومانية، وعندما جاءت المسيحية وأعلنت رفضها لكل الآلهة الوثنية اعتبر الرومان أنهم زنادقة وأعداء للوطن بل وللجنس البشري، ففي هذه الحقبة كانت روما تدعي تمثيل العالم

المتمدين، وبهذه التهمة برر الرومان اضطهادهم المعروف للمسيحيين.

فماذا كان رد المسيحيين. ؟؟

لقد قـــالوا "أيتها الدولة الرومانية إننا حقيقة لا نعبد آلهتك ولا يمكننا أن نعبـــدها، لكن اعلمي أننا رغما عن ذلك نحن أخلص النـــاس لك ولاءً؛ لأن الدين غير الدولة، الدين هو من اختصاصـات الضمير، أما الدولة فإنها نتيجة ظــروف جغرافية طبيعية، وأما نتيجة الانتصـارات فلا دخل لها فيما يمس الضمير.

ويوجه المؤلف النظر إلى أنه رغم زيـــــادة عدد المسيحيين وانتشـار المسـيحية في مختلف مسـتويات النـاس ومسـالك الحيـاة، فلم يخطر ببال هذه الجموع، التي لا عداد لها أن تثـور يوما من الأيـــام في وجه الدولة أو وجه ملوكهـــا، بل صـبر المسـيحيون على الاضـطهاد وظلـوا ثلاثة أجيـال تُسـفك دمـاؤهم عن طيب خـاطر، وهـذا دليل قطعى على أنهم **مع تمسـكهم الشـديد بالنصرانية كـانوا مـوالين لملـوكهم، في نفس الـوقت والـزمن الـذي كـان هـؤلاء الملـوك يوقعـون بهم كل صـنوف الأذى والتعذيب.**

وقد استشهد المؤلف بحقيقة أن التجنيد في الجيش الرومـــانى لم يكن إجباريًا ولكن عـــددًا كبـــيرًا من المســـيحيين تطوعـــوا في الجيش الروماني وحاربوا تحت ألوية "النسر" ببسالة مع

تمسكهم بدينهم، وأورد المؤلف حالات عديدة لفرق أو مجموعات من الجنود المسيحيين أراد الإمبراطور أو القادة إجبارهم على تقديم الذبائح للآلهة الرومانية ولكنهم رفضوا وتعرضوا للفناء، وكان لسان حالهم كما ذكر أحد أفرادهم "حضرت سبع مواقع شهيرة لم أتقهقر في واحدة منها وقت القتال بل كنت مثال الهمة والشجاعة كما يشهد رؤسائي فهل تظن أني بعدما قمت بواجبي نحو الدولة بذمة وأمانة أخون واجبي الأسمى نحو الله"؟.

وفي كل هذه الحالات لم يدفع المسيحيون محاولة الرومان بالقوة أو يدافعوا عن أنفسهم بحد السلاح رغم أنهم كانوا مدججين به ومحنكين في استعماله، ولكنهم آثروا أن يلقوا سلاحهم ويستسلموا لأعدائهم، وهذه الوقائع كلها تدل **على أن "المسيحى خادم أمين لدولته كما أنه خادم أمين لربه، وأن الدين والوطن هما شيئان متمايزان، من يقوم بفروضهما لا يقبل أن يخون أحدهما ولو اضطره الأمر أن يسفك دمه".**

ويعيد المؤلف هذا الموقف إلى أساس مبدئي هو "اترك ما لقيصر لقيصر وما لله لله" وأن المسيح حقق في حياته ذلك بدفعه الجباية عندما طولب بها، ودفع الجباية إقرارا واعترافا بسلطان من يطلب الجباية، ولما سأله

الفريسـيون هل يلـزم دفع الجزية أم لا؟ أجـابهم بالإيجـاب وأضـاف إلى ذلك الآية الشـهيرة الـتي تـدل صـراحة على التميـيز بين السـلطة الدينية والسـلطة المدنية وهى "أوفـوا مالقيصر لقيصر ومالله لله". ثم لما قصده أحد الناس وقـال لـه: يا معلم قل لأخي يقاســمني المـــيراث "أجابه يسوع" قائلا: "يا رجل من أقـامني عليكم قاضـيًا أو مقسما"؟ فصرح بكلامه هذا بأنه لم يـأت إلى العـالم ليكـون ملكًا أرضـيا بل ملكًا روحيًـا، **وأن كل خلاف يـــدور حـــول الأرضـــيات يجب رفعه للسلطة المدنية.**

وأن ما عمله المسيح قد عمله الحواريون.

قال ماربولس "لتخضع كل نفس للسـلاطين العالية فإنه لا ســلطان إلا من الله والســلاطين الكائنة إنما رتبها اللــه، فمن يعاند تــرتيب اللــه، والمعاندون يجلبون دينونة على أنفسهم، فلـذلك يلزم الخضوع للسلطان"..

إن هذا النص لا يحتاج إلى تأويل، لأن معنـــاه واضح، وهو أنه يتحتم على المسيحي – من بـاب الذمة وتبعًا لأوامر الضـمير – أن يخضع للسـلطة المدنية الشـــرعية، وقد جـــاءت هـــذه الآية في رســـالة مـــاربولس الموجهة إلى المســـيحيين الرومـانيين الـذين كـان يحكمهم في ذلك العهد نيرون عدو النصارى والنصرانية، والذي طـوح به الجنون إلى أن يحرق روما لينسب هذه الجريمة إلى المسـيحيين حـتى يهيج عليهم الـرأي العـام

ويفتك بهم، فكأن بـولس إذن يقـول: "ليس لكم يا مسـيحي روما عـدو ألد من نـيرون، ولكن بما أنه صاحب السلطة الشرعية فيلـزمكم من بـاب الذمة والضـــــمير أن تخضـــــعوا له، وقد أمر مـاربولس الأسـقف "طيطي" أن يـذكر الشـعب بوجوب الخضوع للرئاسات والسلاطين"..

وما علَّمه بـــولس فقد علَّمه بطـــرس رأس الحـواريين، إذ قـال: "فاخضـعوا إذن لكل خليفة لها عليكم سلطة شرعية، وأما للملك فكـالأعلى (أي مثل الأعلى) وأما للــولاة فكالمرســلين من قبله؛ للانتقـــام من فـــاعلي الشر وللثنـــاء على فاعلي الخير".

ويستطرد المؤلف:

"فهل يوجد شك بعد كل هـــــذه الـــــبراهين الجلية والأدلة القطعية في أن حقيقة التمييز بين الدين والوطن هي من أصول المسيحية؟".

وقد علم الرسل أنه يلـــــزم الـــــولاء الكلي للسلطة المدنية، وأمر بولس الرسول "أن تقـام تضرعات وصلوات وتوسلات وتشكرات من أجل جميع النـاس، من أجل الملـوك وكل ذي منصب لنقضــي حيـاة مطمئنة ذات دعة في كل تقــوى وعفـــاف فـــإن هـــذا حسن ومقبـــول لـــدى الله مخلصنا"..

وعملا بأمر بولس الرسول لم تــزل الكنيسة منذ نشأتها تطلب إلى الله في صلواتها الرسمية أن يحفظ الملوك في سلام ويوطد بينهم الاتحـاد

والائتلاف، ولو كـان هـؤلاء الملـوك غربـاء عن النصـرانية أو أعـداء لهـا. ومن الجيل الأول إلى يومنا هـذا ما فـتئت الكنيسة القبطية مثلا تصلي كل يـوم في أثنـاء القـداس الإلهي(وهو أسـمى عمل ديـنى تعملـه) من أجل الملـوك والجنـود والرؤساء والوزراء، مع أنه منذ الجيل السـابع لم يحكم مصر إلا حكـام غـير مسـيحيين والبعض منهم أساءوا إليهم وعاملوهم بمعاملة لو ذكـرت لما شكرت".

أما نقطة "التســاهل" فقد عالجها المؤلف بصـراحة ووضـوح ينقصـان معظم الـذين يعالجونها، لما يحسـونه من الحـرج سـواء كـانوا مسـلمين أو مسـيحيين، وهو يقصد بالتسـاهل مَعْنَـيين أحـدهما حسن والآخر فاسـد: **المعـنى الأول** هو أن نعامل بالحسـنى كل النـاس مهما اختلفت أديانهم ومذاهبهم، وهـذا التسـاهل ليس جـائزًا فحسب بل هو واجب، و**المعـنى الثاني** هو استحسـان كل الأديـان على السـواء أو الاشتراك في شعائر كل الأديـان وصـلواتها على السواء، وهذا التساهل غير جائز قطعا ولا يـبرره الـدين فضلا عن العقل السـليم، وهـذا المعـنى الأخـير هو الـذي يقصـده عند معالجته لهـذه النقطة وهو يـرى أن هـذا التسـاهل هو نكـران وجحد للدين، **كيف لا وهو يضع كل الأديـان في مسـتوى واحد من الصـحة، مع أن هـذه المسـاواة هي كفر وضـلال مـبين**

وتجديف على الله وعلى العقل البشري، وسبب ذلك أن الأديان تتناقض تناقضًا واضحًا ولا تتفق مع العقائد التي تعلمها، لا بل كل واحد منها يعلم عكس ما يعلم الآخر.

فبينما الإسلام يعلم أن المسيح ليس إلها وأنه لم يصلب ولم يمت، يعلم الدين المسيحي أن عقيدته الأساسية هي لاهوت المسيح وصلبه وموته (بصفته إنسانا) وبينما الواحد من المذاهب المسيحية يدعي بأن مصدر الوحى هو الكتاب يشرحه كل فرد من الأفراد، إذا بالفروع المسيحية الأخرى تقول غير ذلك، أي أن مصدر الوحي هو الكتاب وتعليم الرسل، وأن الشرح الصحيح لكتاب الله هو أمانة أودعت للكنيسة لا للأفراد، وبينما البعض من هذه المذاهب يقول إن الكنائس هي جنسية وطنية مستقلة عن بعضها لا تربطها إلا رابطة المحبة نسمع البعض الآخر يقول إن للكنيسة رئيسًا واحدًا أعلى له حق التعليم والسيطرة الروحية على كل الكنائس، وهذا عدا الاختلافات الأخرى التي قال عنها بعضهم إنها غير جوهرية، وهي ربما كانت كذلك في حد ذاتها، إلا أنها أصبحت جوهرية لكون كل دين من الأديان يعزوها إلى الوحي الإلهي ويستحيل على الله أن يناقض نفسه حتى في المسائل غير الأساسية، فلا يمكن أن تكون هذه

المتناقضات حقيقة، كما أنه لا يمكن أن يكون الـ "نعم" والـــ "لا" واحـــدا ولا أن يتســاوى الليل والنهــار، وعلى كل حــال فــإن من يســاوي بين جميع الأديــان يجحد تعــاليم المســيح الــذي قــال "إنى لهذا ولـدت ولهـذا أتيت إلى العـالم لأشـهد للحق".

وقد يسوغ لنا أن نقول إن الكتاب قد أوصل الخلاف ليس فحسب إلى ما بين الأديــــــــان المختلفة بعضـها بعضــا، بل أيضًــا إلى المـذاهب المختلفة للدين الواحـد، كما أنه رأي "إن مصـدر التســـاهل هو إما الإيمـــان بـــأن كل الأديـــان متســاوية، وإما التظــاهر والمجــاراة، وعلى كلتا الحـــالتين فلا عَـــدُو للوطنية ألد من التســـاهل الديني".

إن التساهل الديني الـذي يصـدر عن يقين لا يفــــرق عن "اللادين" لأنه يســـــاوي بين جميع الأديـان، وبما أنه يسـتحيل أن تكـون كل الأديـان مع تناقضها حقيقية فتكون النتيجة أن كل الأديان هي غير صحيحة بل لا قيمة للأديان".

ولكننا ليس بصـــدد معالجة هــذه النقطة من الناحية الموضـــوعية، ولكن من ناحية أثرها على الوطنية، وإننا أساسًا نعــرض وجهة نظر المؤلف ولا نتحــــدث عن رأينا الخـــــاص، ومن ثم فإننا نعــرض ما أورده المؤلف من أن هــذا التســاهل "ينم عن ضعف الروح الدينية التي هي في أصل كل الفضـــــائل بما في ذلك الوطنية نفســــها"

وضرب المثل بفولتير الذي نبذ الـدين واسـتخدم ذكـاءه لمحاربتـه"؛ فوصل أخـيرًا إلى أن يتملق ويتحـاب إلى أعـداء وطنه حـتى قـال عنه أحد مواطنيه: إنه أكـــثر النـــاس خلـــوا من عاطفته الوطنية؛ كيف لا وفي قاموسه الفلسفي نـــــدد بالوطنية أيما تنديد وعـدها خرافة من الخرافـات القديمة التي يلزم إزالتها.

ويستشـــهد المؤلف أيضًـــا بـــأن استشـــراء "العلمانيـــــــة" أدى إلى وهن العاطفة فمن ينبذ الدين لابد وأن ينبذ الوطنية.

ويستطرد المؤلف:

"ثم إن هـذا التسـاهل يطبع في ذهن العامة أن الاتحـــاد بين أبنـــاء الـــوطن الواحد أساسه الجـــوهري هو الاتحــاد الـــديني، فلو فـــرض إذن ووقعت مباحثة أو منـــاظرة بين أحد الفـــريقين فيما يتعلق بالـــدين ألا يخشى أن تصـــرخ العامة بأنه قد انفرط عقد الاتحاد وبأنه يستحيل الاتحـاد الوطني بين أبنـــــاء الـــــوطن الواحد بســـــبب اختلافاتهم الدينية، وهناك تكـون الطامة الكـبرى على الاتحاد الوطني؟.

فإذا أردنا أن يكون هذا الاتحاد (الـذى نحتـاج إليه غـدا أكـثر من احتياجنا إليه اليـوم) صـحيحا وثابتا ومتينا لا يتقلب مع الأهواء والأغراض فعلينا ألا نصبغه بصبغة دينية، بل نضعه بعيدا عن الدين ونبنيه على أسـاس الوحـدة الوطنية الـتي تضم إليها جميع أبنائها مهما كانت أديـانهم ومـذاهبهم،

وليعلم العامة من الآن فصــاعدًا أن اتحــاد أبنــاء الـــوطن الواحد ليس اتحـــادًا دينيا بل هو اتحـــاد وطني محض لا دخل له في الـدين حـتى نطمئن على وطننا ووطنيتنا ونأمن عوارض الحدثان".

الفصل الثاني
الخيار الأصولي (2)

عرضـنا في الفصل السـابق وجهة نظر الأب "باسـيليوس موسـى" وكيل الأقبـاط الكاثوليـك. واليوم نعرض وجهة نظر الراهب المتجرد "مـتى المسـكين" الـتي جـاءت في أعقـاب الصـراع ما بين الــرئيس الســادات والأنبا شــنودة ونشــرها الأستاذ: مكـرم محمد أحمد في جريـدة الأهـرام في 17/4/1980م.

كـان الـراهب المتجـرد – مـتى المسـكين – كبــير رهبــان دير وادي النطــرون، أشد صــراحة ووضــوحا في إظهــار أن الكنيسة المســيحية لها مهمة واضـــحة يجب ألا تتجاوزها أبـــدًا، وهـــذه المهمة هي تخليص النفــوس بالبشــارة المفرحة وكلمات الرب عندما أجرت معه جريـدة الأهـرام القاهرية حديثا طويلا عرض فيه هذه الفكرة[3].

وهو يــــرى أن تـــدّخل الكنيسة حــــتى في الخـــــدمات الاجتماعية يخرجها عن مهمتهـــــا، ويوقعها في متاهـــــــات، ويورطها في مواقف تتعارض مع دورهـا. وعنـدما سـأله المحـرر مـاذا عن علاقة الكنيسة بـــالمجتمع؟ قـــال: إن مهمة

---

(3) جريـــدة الأهـــرام في 17/4/1980 ص3 "قـــراءة في أوراق الأب مـــتى المســكين" الأستاذ مكرم محمد أحمد.

الكنيسة ألا تخـــدم المجتمع، ولكن أن تخـــدم الإيمان، وأن تخدم المسيح في أشخاص الخطاة والعرايا والأذلاء والمشـــردين – وكلما خـــرجت الكنيسة عن اختصاصـات مسـيحها وبـدأت تـنزع إلى الســــــلطان الزمني وتجيش العواطف والمشـاعر باسم الصـليب، وزاغت وراء أمـوال الأغنيـاء وارتمت في أحضـان **أصحاب النفـوذ وحـاولت الجمع بين السـلطان الـديني والسـلطان الزمني ودأبت على المطالبة بحقـــوق طائفية وعنصـــرية – فشـــلت المسـيحية في تأدية رسـالتها ودب فيها الخصـــام والـــنزاع والـــوهن وأقفل في وجهها ملكوت السماء وصارت في حاجة إلى من ينتشلها من ورطتها ويردها إلى حدود اختصاصاتها الأولى.**

إن "مـتى المسـكين" وهو يسـعى إلى إنقـاذ المسيح في إنقاذ كنيسته صارم في حـدوده. إنه يـرى حـتى في ذلك الـدور الـذي تؤديه الكنيسة تحت عنـــــاوين من الخدمة الاجتماعية وغيرها خروجا عن دور الكنيسة .

لماذا ؟.

لأن الخدمة الاجتماعية – هكـذا يقـول مـتى المسـكين – إذ تشـمل رعاية الشـباب اجتماعيا وتـــوجيههم وتثقيف العمـــال وفحص أحـــوالهم ومطـــــالبهم والعناية بالطلبة وإقامة النـــوادي والمعســـكرات وتـــرتيب المـــؤتمرات لبحث

المشـــاكل الداخلية والخارجية للشـــباب، بل وإقامة المستشـــفيات والملاجئ تـــدخل في اختصاص نظـام الحكم، فـإذا علمنا أن أي نظـام للحكم لابد أن يكـون له اتجاهه الخـاص وخططه في التوجيه والرعاية الاجتماعية لجميع ما عنــده من الفئـــات فإنه يتحتم في جميع الأحـــوال أن تكون الكنيسة دارسة لنظام الحكم؛ حتى يكــون مخطط الكنيسة الاجتمـــــاعي موافقا ومطابقا لمخطط الحكومـــة، وإلا فالصـــدام بين الكنيسة والدولة أمر لا مفر منه.

أين إذن تقع الحـــدود بين ســلطان الكنيسة وسلطان الدولة؟؟.

إن متى المسكين يجيبنا في وضـوح وصـفاء نادرين: لا تماس ولا حدود، لأن ملكـوت الكنيسة هو ملكـــوت الـــرب، وملكـــوت الســـلطان هو الدنيوية، هو عالمنا الأرضـــي، هو حياتنا ونظامنا الاجتمـاعي، ومالقيصر لقيصر ومالله للـه، هـذه هي الحدود كما تجلت في قول المسيح.

إن أردنا الاستفاضة يجيبنا مـــتى المســـكين قائلا:

إذا عجـزت الكنيسة عن أن تضـبط الإيمـان بالإقنـــاع والمحبة، وهـــرعت إلى الملـــوك والرؤساء؛ لتستصدر منشورًا بالإيمـان تكـون قد أخطأت الطريق. إن الإيمان لا يحميه السيف ولا يحميه القـــانون وإنما تحميه البشـــارة المفرحة وكلمات الرب والإقناع بكلماته.

وعنـــــدما احتمت الكنيسة في ســـــيف قســـطنطين الملك في القـــرن الرابع ليتـــولى حماية الإيمـــان بالســـيف مـــاذا حـــدث؟؟ قـــاد قسـطنطين حربا صـليبية في العـالم رافعا راية الصليب على ساري العداوة جاعلا شـعار الحيـاة هو نفسه شـعار المـوت، ربما لم يكن من العـار أن يحـارب أعـداءه ولكن كـان العـار عليه – كل العار – أن يحارب أعداءه باسم الصليب.

إنه ســـيان أن تطلب الكنيسة القـــوة من السلطان الزمني، أو تحض على الاستهتار بقـــوة الســـلطان الزمني، لأن في الأولى خروجا على اختصـــاص الكنيســـة، وفي الثانية خروجا على منطق المســـيح ووقوعا في دينونة اللــــه. إن الحض على الاستهتار بسـلطة الدولة متمثلة في السلطان الزمني، هو تشـجيع للشر لأن الكنيسة لا ينبغي أبـــدًا أن تأخذ موقف العـــداء من الدولة والوطنية، ومصدر الخطر أن الذين يلقنون الدين للجميع يبنون الفرقة والتحيز والانقسام والتكتل.

إن يسوع المسيح يقول ليس سلطان إلا من اللـــه. كما أنه يقـــول أعطـــوا الجميع حقـــوقهم، الخـــوف لمن له الخـــوف، والســـلطان لمن له السـلطان، والإكـرام لمن له الإكـرام، وبالتـالي **فإن تصـرفات المـواطن المسـيحي فيما يختص بـــأمور الســلطان الزمــنى لا تقع تحت ســـــلطان الكنيســــة، فالكنيسة لا تســتطيع ولا ينبغى لها أن تســتطيع أن**

تلفت نظر وزير أو مسئول مسـيحى في تصـــــــــرفاته الحكومية لأنه ليس تحت سـلطانها، الكنيسة فقط تسـأل المـواطن المسـيحي فيما يختص بإيمانه وعقيدته وسـلوكه الـروحي، إن ذلك يـؤدي إلى أن تكـون حرية المواطن المسيحي مكفولة في التصرف وإبـداء الرأي والاشتراك في كل ما يخص وطنه في كل الأمـور دون أن تكـون الكنيسة مسـئولة عن تصـرفه، ودون أن تكـون الكنيسة مسـئولة عن تقصير أبنائها في أدائهم الـواجب الوطني، ودون أن تـوحي الكنيسة لأبنائها بـالتزام خطة معينة بسلوك تصرف معين تجاه الدولة حـتى لا تكـون الكنيسة مسـئولة أمـام السـلطان الزمني عن تصرف زمني، لأن مسـئولية الكنيسة فقط أمـام المسـيح وهي مسـئولة فقط عن تصـرفها الروحي.

وباختصـار يقـول مـتى المسـكين: إن وطنية المسيحي وكل ما يتعلق بها من تصـرفات خاصة وعامة سـواء في الاجتمـاع أو الاقتصـاد أو السياسة إنما تنبع من كيان المواطن لا من كيان الكنيسـة، لأن الدولة هي المسـئولة في النهاية عن وطنية المـواطن المسـيحي لا الكنيسة أو رجال الدين.

إذا لم تكن تلك هي مهمة الكنيسة فما مهمتها على وجه التحديد ؟.

إن صــوت "مــتى المســكين" يصل إلينا من صومعته في وادي النطرون خافتا خاشعًا، ولكنه صــوت واضح ومحــذر، إنه يريد أن ينقذ الكنيسة من الخطر الــذي يتهــدد مصــيرها إذا ما نســيت رســالتها الأصــلية، إذا ما نســيت أن أخطر عــدو يهدد كيانها بــالانحلال هو أن يهتم القــائمون على أمرها بموضوع آخر غير خطيئة الإنسان فيــتركوا دعوة المسيح للخطــاة، وهي الــتي كــانت مهمته العظمى لينشــــغلوا بالإنســــان من جهة حياته الاجتماعيــــة، إن ذلك في رأيه ليس فقط خروجا على المسيحية، ولكنه مقاومة لها.

كيف ذلك؟ مرة أخرى يعيد "متى المسكين" على مســامعنا صــوت بــولس الرســول "صــادقة هي الكلمة ومســـتحقة كل قبـــول أن المســـيح يســوع جــاء إلى العــالم ليخلص الخطــاة الــذين أولهم: أنا"!.

إن الأمر في رأيه وفي رأي بــولس الرســول بالغ الخطــورة، لأن الــذين يحــاولون أن يخرجــوا الكنيسة عن مهمتها إنما يفعلـــــون ذلك لعـــــدم قـــدرتهم على الكـــرازة بالتوبة لتجديد الإنســـان وخلاصـــه، لأن الخســـارة الـــتي ســـوف تجنيها الكنيسة من جراء ضم مواضــيع جديــدة للكــرازة ســـوف تنتهي أخـــيرًا بانطفـــاء ســـراج المنـــاداة بالتوبة لخلاص الخطاة.

إن القـــائمين على الكـــرازة فقـــدوا الطريق الموصل إلى قلب الإنسان، فأخذوا يـــدورون في

متاهـات جانبية بعيـدة تمامًا عن مهمة الكنيسـة، بل لقد ضـــيع هـــؤلاء بمـــوقفهم، ذلك المفتـــاح المقدس الذي سلمه الـرب يسـوع إلى الكنيسة ليـــدخلوا به إلى قلـــوب الخطـــاة؛ لأن المفتـــاح الكبـير الـذي سـلمه الـرب إلى الكنيسة هو أن تفتح ملكوت السـماوات للخطـاة ولكنها ضـيعت المفتاح عندما انشغلت بأموال الدنيا وتلاهت عن خلاص الخطاة بمهمة أخرى.

إن هؤلاء ينسـون أن المسـيح لم يخلط أبـدًا بين مملكة الله ومملكة الـــــــدهر، لأن محاولة الكنيسة الاهتمام بـالأمور الزمنية باسم المسـيح هو بمثابة تنصيب المسيح ملكا على الأرض، كما أن تقوية ســـلطان الكنيسة بـــدعوى المطالبة بحقوق الجماعة هو رجعة لإقامة "ملك المســيا" كما يحلم به اليهود.

إنه فيما لو صُــــــفي فكر الكنيسة من كل أطماع الـدنيا، وفيما لو نفضت عنها كل الحقـوق المطلوبة والحقــوق المســلوبة، حينئذ ســتذكر الكنيسة قـول سـيدها "مملكتي ليست من هـذا العالم" ستتذكر أن التوبة ينبغي أن تكـون شـغل الكنيسة الشـــاغل لأنها رســـالتها، فـــإذا رفعنا المناداة بالتوبة عن اختصاص الكنيسة لانشـغالها بـــأمور زمنية أخـــرى لا يبقى للكنيسة من عمل آخر؛ لأنه ما من عمل يتم في الكنيسة إلا وأساسه في الأصل "تكميل التوبة لضـــــــمان الخلاص".

إن التعميد ومسـحة الميرون هو لمغفرة الخطايا وتقديس التأبين، كما أن تقديس الزواج في الكنيسة هو فقط لضمان حياة التوبة، كذلك فإن رسامة شماس أو كاهن أو أسقف إن هو إلا تكريس التوبة في داخله.

باختصار إنه خارج موضوع التوبة لا يوجد عمل ولا خدمة داخل الكنيسة أو خارجها، لأن الكنيسة ذات اختصاص أوحد موضوعه الإنسان الخاطئ، وذات هدف محدد هو ملكوت الله ولا تملك إلا وسيلة لخدمة اختصاصها هي المناداة بالتوبة.

إن الصوت الواهن الضعيف الذي يخرج لنا جميعًا مسلمين ومسيحيين من وادى النطرون، الصوت الأبدي للناسك المصري على طول التاريخ للكنيسة، على لسان "متى المسكين" ليس فقط في صورة تحذير عام من مغبة أن تخرج الكنيسة عن حدود اختصاصها، ولكن في صورة نهى محدد، إنه يقول لنا بشجاعة مسيحية بالغة الثراء وبالغة الخصوبة.

إن أي محاولة للجمع بين ملكوت الله كهدف اختصاص يتجدد مع أهداف أخرى مثل المطالبة بحقوق خاصة للكنيسة للاشتراك في الحكم أو في إدارة سياسة الدولة، أو المطالبة بحقوق خاصة لتملك شيء من أمجاد هذه الدنيا، أو السعي لأن يكون للكنيسة شيء من النفوذ أو السيادة.. هذه المحاولة معناها الخروج على

هدف الاختصاص في الكنيسة الـذي هو ملكـوت الله.

إن الأمر من وجهة نظره غاية في البساطة، لأنه إذا كـــان للكنيسة أن تخـــرج على هـــدف اختصاصــها الــذي هو السعي نحو ملكــوت الله لمشاريع جديدة فمن أين لها أن تنفق على هـذه المشـاريع المتعـددة؟ لابد من المــال، ومن أين يـأتى المـال؟ بـبيع المـواهب الإلهية أو اسـتجداء المساعدات من الـداخل أو من الخـارج، بينما لو تمسـكت الكنيسة بهـدفها الصـحيح فإنها سـوف تجد نفســـها ملتزمة بالبشـــارة والمجانية، كما سوف تجد نفسها مرتبطة بالخطاة المتعطشـين للتوبة.

* * *

وقد يظن البعض أن الأب "مـتى المسـكين" مضى بعيــدًا، وبــالغ عنـــدما اســتثنى من عمل الكنيسة كل المناشط الاجتماعية، وخدمة الشـــباب وتـــوجيههم، وتثقيف العمـــال، وفحص أحـــوالهم ومطــــالبهم، والعناية بالطلبة، وإقامة النوادي والمعسكرات، بل وإقامة المستشـفيات والملاجئ. ولكن الحقيقة أنه كشف ببديهة الإخلاص وعمق الإيمـــــان جانبا هامًا ذلك هو أن هـــذه المناشط تكـــرس الانعـــزال القبطي عن المجتمع، وهى النقطة الـــتي جلاها المستشـــار طارق البشري في كلمة نَشـَرَتْها مجلة الأسـبوع

في العدد الصادر في 21 نوفمبر وجـاء فيها: "ألا تــدركون يا قداسة البابا أن أحفــاد كل الأقبــاط المستنيرين وأصحاب الأدوار الوطنية البارزة من أمثال ويصا واصف ومكرم عبيد وسـلامه موسى وسرجيوس والبابا كيرلس الرابع والبابا كــيرلس الخامس وغيرهم كثـيرون لا يمكن أن يقبلـوا أن تتحول الكنـائس إلى مراكز تحجب الشـباب عن الشارع؛ بدعوى شغل أوقات فـراغهم وإبعـادهم عن مـــواطن الخطأ والرذيلـــة، لدرجة حـــدوث انســـحاب من المجتمع والتشـــارك الإنســـاني والاجتمـاعي، وصـارت الكنيسة بـديلا عن الـبيت والنـــادي والمدرسة والنقابة وكل مؤسســـات المجتمع، وهو أمر غـير مقبـول، لأن ذلك يشـكل حالة من التقوقع المـــريض والانعزالية المميتة، وذلك بدلا من أن "تدعو شـبابنا لمزيد من العمل والإنتــاج والمســاهمة في تنمية المجتمــع". ثم أشـــار إلى مواقف البطريــرك السياســية وإلى صـرفه اسـتثمارات رجـال الأعمـال المسـيحيين إلى مشاريع كنسية بدلا من مشــروعات التنمية، وهو يشـير أيضًـا إلى تبني "جماعة قبطية فكـرة السعي لإنشـاء حـزب الأمة القبطية الـذي يرفع شعارات شديدة التطرف".

ولاحظ "المستشـار البشري" أنه في حـادث صـحيفة (النبـأ) في سـنة 2001 هـرع شــباب قبطي إلى ســـــاحة الكاتدرائية يتجمهـــــرون ويتظاهرون، وفي حادث وفاء قسطنطين هرعوا

إلى ذات الساحة، ودل ذلك على أن ثمة جماعة تتشكل وتتخذ لنفسها تعبيرًا بعيدًا عن الجماعة الوطنية العامة، والحدث يتخذ صبغة دينية، ومن ثم يكون خليقا به أن ينهض له شباب من القبط وحدهم، ثم يكون هرعهم إلى الكنيسة وساحتها ورجالها، فقط من دون المصريين كافة، رغم أن أصحاب الرأي والكتاب غير المسيحيين يبدي قسم معتبر منهم التفاهم والتعاطف مع الموقف القبطي. ولكن ثمة حرصًا على ألا يستوعب رد الفعل القبطي في غير الأوعية القبطية الخالصة التي تقوم عليها الإدارة الكنسية.

الفصل الثالث
الخيار الأصولي (3)

بالإضافة إلى هذين الرأيين الأصوليين اللذين يوضحان تمامًا دون أي لبس أن دور الكنيسة – باعتبارها ممثلة للمسيحية – يجب أن يكون مقصورًا على "الروحانيات"، وأن كل المشكلات الدنيوية والأرضية هي مما لا يدخل في إطار الرسالة الحقه للكنيسة، وإنما يمكن أن يعالجها "المجلس الملي" أي: التنظيم المدني الذي يضم أبرز العناصر في الطائفة، ويمثل الجسر ما بين الأقباط كأقباط والسلطات الحكومية، ولا يجوز أن تتدخل فيه الكنيسة؛ لأن هذا سيورطها لأن تخوض غمرات الدنيا"، وتخالف مخالفة مستقيمة الروح التي تتميز بها المسيحية..

نقول إن مما يؤيد هذين الرأيين الأصوليين أن هذا الخيار هو ما اهتدت إليه بالفعل، وما طبقته الكنيسة القبطية في تاريخها الطويل منذ الفتح الإسلامى على يدي عمرو بن العاص، أي منذ ألف وأربعمائة عام، وفي خلال هذه المدة الطويلة لم يتسم موقف الكنيسة بإثارة من الرغبة في "الدنيوية" أو تحدي الحكام المسلمين، فعندما كان بعض الحكام المستبدين يسيئون إلى الأقباط، كان الأقباط يعتصمون

بالصــبر، وقد عــانوا في ظل الحكم البــيزنطي أضـعاف أضـعاف ما كـان يمكن لحـاكم مسـلم سيء أن يصل إليه، ولما كـان مثل هـذا الحـدث يــزول وينقشع كــانت الكنيسة تعــود لممارسة مهامها العادية، وبــدون ذلك كــان لابد أن تتسم العلاقة ما بين الأقبــاط وحــاكميهم المســلمين بحــروب ومبــارزات وهـزائم وانتصـارات وقتلى وجرحى.

ولكن بعض الأقبـــاط تـــأثروا بالـــدعايات المســممة، فقــال الأســتاذ: ممــدوح نخلة "إن مشاكل الأقباط تعود إلى 1400 سـنة، وأن حلها يتطلب تـدخلا دوليا." كـأن الفتح الإسـلامى كـان بداية لمشاكل الأقباط. ولم يكن إنقـاذًا وتحريـرًا لهم من الاضطهاد البيزنطي الرهيب.

والهدف من هذا الفصل المسهب أمران:

الأول: إثبات أن الخيار الأصولي – أي: اقتصار الكنيسة على عالم الإيمان والعقيـدة دون تطلعـات دنيوية أو مشـاركة في سـلطة - والذي هو في الـوقت نفسه الخيـار الـذي قــرره الســيد المســيح والرسل - هو ما سلكته الكنيسة القبطية بالفعل.

الثاني: أن سـلوك أبـاء الكنيسة القبطية لهذا الخيــــار هو مما مكن الأقلية القبطية من الصـمود إزاء الاضـطهادات الطارئة الـتي تعرضت لها على يدي القلة من الحكــــام الـــذين شـــذوا عن مقتضـــيات الحكم

الإسـلامي؛ لأنها تسـلحت بالإيمـان وتحمل التضـحية. وفي الــوقت نفسه فـإن هــذا الخيـار مكّن الأقلية القبطية من أن تقــوم بــدور كبـير في النشـاط الاقتصـادي؛ لأنه حــرر الأقبـاط من وصـاية كـان يمكن أن تفرضــــها عليهم الكنيســــة، وأمنهم من التعـــــــرض لمزالق السياسة، ولأنه جعل الأغلبية المســـــــلمة تطمئن إليهم وتتفق معهم، ولهـــذا فلم يكن هنـــاك ســـلبية أو عزلة للأقبـــاط. وأن دعـــوى الســـلبية لم تظهر إلا في عهد البابا شنودة الذي تصور أن عــدم تحقيق طموحــات سياســية هي "سـلبية"، في حين أن الأقبـاط كـانوا في صــميم، وفي بعض الحــالات في صــدارة المجتمع المصري وتولـوا، رئاسة الــوزارة أكثر من مرة.

- 1 -

فى هذا القسم من الفصل سنستعرض حال الأقبـاط من تـاريخ الفتح العـربي حـتى الفـترة المعاصرة، معتمـدين بصـفة رئيسـية على كتـاب "تـاريخ الأمة القبطيـة" تـأليف الأسـتاذ: يعقـوب نخلة روفيلة، وإن كنا سنعود إلى كتب أخرى من تأليف أساتذة أقباط.

جـــاء في كتـــاب تـــاريخ الأمة القبطية[4] أن عمرو بن العاص عندما شرع في بناء الفسطاط "كـان القبط من أهم العـاملين على عمارتها ولا سيما رجـال الحكومة الـذين كـان معظمهم - إن لم نقل كلهم - من الأقباط، فشيدوا بها القصـور العالية، والـــدور الرحبة والكنـــائس والـــديارات الواسعة والمنتزهات والبسـاتين النضـرة، وكـان العـــــرب يشـــــجعونهم على ذلك لما فيه من العمـــران؛ وهكـــذا أصـــبحت الفســطاط بهمة الأقبـــاط الـــذين بـــذلوا النفس والنفيس في تشـييدها مدينة زاهية زاهـرة تحـاكي في البهجة والرونق مدينة منف التي شـيدتها أيـدي الملـوك الفراعنة، وفي هــذا دليل على إحكــام الوفــاق وتمكين العلاقــات بين القبط والعــرب في ذلك

---

4 **[4] اعتمدنا على هـذا الكتـاب بصـفة رئيسـية، وعند الانتقال إلى غيره ننوه بذلك، والكتـاب ألف ونشر سـنة 1898 ثم أعيد نشـره سـنة 2000 لطبعه بالأوفست، من الطبعة الأولى.**

الــزمن، حــتى أبــاحوا لهم بنــاء كنــائس ومعابد متعــددة في وسط الفســطاط الــتي هي مقر جيش الإســلام، على حين أن المســلمين كــانوا يصلون ويخطبــون في الخلاء، أو أنه لم يكن لهم غير جامع واحد الذي بناه عمرو بن العاص.

ثم أخذ عمرو في تنظيم البلاد، وإذ كان يعلم أن صاحب الـدار أدرى بما فيها اسـتعان بفضـلاء القبط وعقلائهم على تنظيم حكومة عادلة تضـمن راحة الأهـالى والـوالي معًا؛ فقسم البلاد إلى أقســـام يـــرأس كلا منها حـــاكم قبطي، له اختصاصات وحدود معينة ينظر في قضايا الناس ويحكم بينهم، ورتب مجـالس ابتدائية واسـتثنائية مؤلفة من أعضــاء ذوي نزاهة واســتقامة، وعين نوابًا مخصوصـــــــــين من القبط ومنحهم حق التداخل في القضـايا المختصة بالأقبـاط والحكم فيها بمقتضى شــرائعهم الدينية والأهلية، فكــانوا بذلك في نوع ما من الحرية والاستقلال المــدني وهى ميزة كـانوا قد جـردوا منها في أيـام الدولة الرومانيــة، وضــرب الخــراج على البلاد بطريقة عادلة وولى عليه متوليًا من ذويه يقبضه على أقســاط في آجـال معينة؛ حـتى لا يتضـايق أهل البلاد.. ورتب الـدواوين فـاختص الأقبـاط بمسك الــدفاتر وســائر الأعمــال الكتابية والحســابية، وكانت كلها تجـرى باللغة القبطية، وبلغ ما جبـاه عمرو من الخـراج في السـنة اثنـتي عشر مليونًا من الدنانير، مع أن الـذي كـان يجبيه المقـوقس

في أيـــام الـــروم لم يكن أقل من ثمانية عشر مليونًا. وبالجملة فإن القبط نالوا في أيام عمـرو بن العاص راحة لم يروها منذ أزمان. (ص57).

وأشـــار المؤلف أن الأقبـــاط حـــاربوا مع المسـلمين ضد الـروم الـذين أرادوا العـودة إلى مصر "خوفًا من أن يتمكنـوا من البلاد ويأخـذونها فيقع الأقباط في يدهم مرة أخرى".

ويشير المؤلف إلى واقعة سـتتكرر، تلك هي أنه عنـدما كـان يـولى عليهم والٍ يسـيء إليهم كـانوا يطلبـون من الخليفة عزلـه، فيفعل كما حدث بالنسبة لعبد الله بن أبي سرح الذي تـولى بعد عمرو بن العاص.

وعن حالة القبط في عهد الدولة الأموية يقـــــول: "وفى الواقع أن القبط كـــــانوا هم المسلطين في بلادهم وبيدهم كل شيء وعاشوا آمـنين على أنفسـهم ومـالهم، ولم يكن للعـرب سـلطة عليهم إلا في تحصـيل الخـراج وجمع الجزية الـتي قـاموا بـدفعها عن طيب خـاطر راضين بما قسم الله لهم، واسـتمروا على هـذه الراحة إلى سـنة 65هـ الموافقة 683م حـتى أخـذت الأحـوال تتغـير نوعًا وذلك أن مـروان الخليفة ولى ابنه المسمى عبد العزيز أميرًا على مصر فـأعلى الضـــرائب والعوائد ليس على الأقبـاط فقط بل على جميع المصـريين سـواءً كـانوا من أهل البلاد أو من المسـتوطنين فيها، ولكنه خص الأقباط بزيـادة الجزية الـتي فرضـها

أيضًا على طائفة الإكليروس، مع أنهم كــانوا إلى هذا التـاريخ معـافين منها، فـألزم كل واحد منهم بــدفع دينــار في الســنة والبطريــرك بثلاثة آلاف دينار. (ص65)

كما ذكر بأنه أمر بإقامة بيعـتين في حلـوان. وأشـــار إلى عبد الله بن عبد الملك الـــذي ولي الحكم بعد عمر بن عبد العزيز بن مــروان "وأنه عمل على نزع الكتابة في الـدواوين من أيـديهم ونقلها إلى اللغة العربية، بعد أن كــانت إلى ذلك الــــوقت بالقبطية تحت مباشـــــرة رئيس منهم يســـــــــــــــــمى أنيتــــــــــــــــــــــاس أو أثناس (وهو الذي كان أمينًا على بيت المال). فعزله وولى مكانه ابن يربــــــوع الفــــــزاري من حمص". (ص68)

وأسف المؤلف لموت هشام بن عبد الملك؛ لأنه "لم يمـيز في أحكامه بين مسـلم ونصـراني أو يهــودي، وكــان يشــدد على الــولاة في جميع الولايــــات التابعة له بانتهــــاج منهج العــــدل في أحكـامهم وإنصـاف المظلـوم بصـرف النظر عن الدين والجنسـية. وفي أيامه حـارب المسـلمون الروم وتغلبوا على كثير من بلادهم وسبوا كثــيرًا منهم وكــان العــرب يــأتون بالأســرى إلى البلاد ويــبيعونهم فابتــاع الأقبــاط عــددًا وفــيرًا منهم وحـــرروهم، وممن اشـــتهر بهـــذا العمل الجليل بطريــركهم الموجــود حينئذ فإنه صــرف أمــوالا

طائلة في شرائهم وتحريرهم ابتغاء مرضاة الله؛ فنال بذلك ثوابًا عظيمًا وذكرًا حسناً".. (ص74)

وتحـــــدث الكتـــــاب عن عسف الخلفـــــاء العباسيين عندما دخل الجيش العباسي وراء آخر خليفة أمـوي يسـمى مـروان. "فسـار عسـاكره ينهبـون ويسـلبون أمـوال النصـارى ويهـدمون الديارات والكنائس وفيما هو هنـاك اعتصب أهل طحا وتوقفـــوا عن دفع الخـــراج؛ فأرسل إليهم أميرًا من أمرائه فقتل ونفى كثيرًا منهم واستباح أموالهم، وكان عدد سكان هذه المدينة أكـثر من عشرين ألف نفس كلهم نصارى، وهدم كنائسهم ولم يبق منها غــير واحــدة كـانوا الــتزموا بثلاثة آلاف دينـــار في نظـــير بقائها فـــأعطوا ألفين وعجزوا عن الباقي فجعل ثلثها جامعا". (ص78)

وبعد أن تحدث أن تــدهور حالة القبط خاصة بالنسـبة للقحط والوبـاء والطـاعون قـال "ومن حسن الحظ أن علاقــاتهم الشخصــية مع أفــراد المسلمين المتوطنين بينهم لم تكن غير مرضية، وأنا لم نر في التــــاريخ ما يـــدل على وجـــود تعصـبات دينية، بل ربما وجد بين المسـلمين من أنصفهم وذب عنهم، وقد احتـال الـروم على أحد خلفاء هذه الدولة وتحصلوا على أمر منه بإعـادة ما كان لهم من الكنائس بمصر؛ قصـدًا في نــزع إحدى الكنائس من يد الأقباط بدعوى أنها كـانت في الأصل ملكًا لهم؛ فـأدى ما حصل بين الـروم والقبط من الــنزاع إلى رفع المســألة لقاضـــي

المسلمين للفصل فيها فلم يراع في الحكم غـير الحق وأثبت أن الكنيسة ملك للقبط؛ وحكم بعدم جواز نزعها من يدهم وإعطائها لمن لا حق لهم فيها".

ولم ينسب سوء حالة القبط في عهد الدولة العباسية إلى الخلفـاء العباسـيين، ولكن إلى بُعْد البلاد عن مركز الخلافة، وأن عـدم بقـاء الــولاة في مناصــبهم جعلهم يســتبدون ويعملــون في الناس كيفما شاءوا" كما ضرب المثل بـوال آخر أشـــار إليه الأب ســـويروس بن المقفع أســـقف الأشـمونين الـذي عنـدما زاره البطريـرك أكرمه وسأله عما يريد فطلب إعادة بناء الكنائس الـتي أمر بهدمها سلفه "لنصلي فيها ونـدعو لجلالتـك" فأجابه وأمر بعماراتها فبنيت جميع كنائس مصر. ص82

وتحدث الكتـاب عن ثـورة أهل الحـوف على الــوالي الليث بن الفضل وامتـداد الحـرب حـتى تــولى الخلافة المــأمون وأهمه الأمر وحضر إلى مصر وقضى على الفتنة وقرّع الوالي عيسى بن منصـــور وقـــال له: "إن لم يكن هـــذا الحـــدث العظيم إلا من ســوء فعلك وفعل عمالك، حمّلتم الناس ما لا يطيقـون وكتمتم الخـبر عـني؛ حـتى تفاقم الأمر واشتد البلاء واضــطربت البلاد، وأمر بتجريده من ملابسه؛ فنزعت عنه وأخــذه بثيـاب البيـــاض على مـــرأي الجميع جـــزاء له وعـــبرة لغيره". ص87

وروى قصة مـــرور المـــأمون على ضـــيعة صغيرة تسمى طـاء النمل فلم يـدخلها لحقارتها، ولما تجاوزها خـرجت إليه عجـوز قبطية تسـمى ماريا صاحبة القرية، وأخذت تصيح على المأمون مسـتغيثة فظنها متظلمة فوقف لها وسـأل عما تريد، فقـالت: يا أمـير المؤمـنين نـزلت في كل ضـيعة وتجـاوزت ضـيعتي والقبط تعـيرني بـذلك فأتوسل إليك أن تشـرفنى بحلولك في ضـيعتي؛ ليكـــون لي ولعقـــبي الشـــرف ولا تشـــمت بي الأعــداء؛ فأجــاب المــأمون طلبها وثــنى عنــان فرسه إلى قريتها، ولما نـزل بها جـاء ولـدها إلى صـــاحب المطبخ وســـأله كم يحتـــاج من الغنم والـــدجاج والفـــراخ والتوابل والســـكر والعسل والطيب والشمع وغير ذلك مما جـرت به عادته، فأحضره إليه وكان مع المـأمون أخـوه المعتصم وابنه العباس فقـدمت له ولجميع من بمعيته من فـاخر الطعـام شـيئًا كثـيرًا حـتى اسـتعظم ذلك، فلما أصـــبح الصـــباح وقد عـــزم المـــأمون على الرحيل حضرت إليه ومعها عشر وصـائف في يد كل وصـــيفة طبق، فلما رآها المـــأمون من بُعد قـال لمن معه قد جـاءتكم القبطية بهدية ريفية، فلما وضـــــــعت ذلك بين يديه إذا في كل طبق كيس من ذهب فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته، فقـــالت: يا أمـــير المؤمـــنين لا تكسر قلوبنا ولا تحقر بنا، فقـــــال لها: إن في بعض ما صـــــنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك فـردي مالك بـارك

الله فيك، فلم تـرضَ وألحت عليه بقبـول المـال فلم يسعه إلا إجابة طلبها، ثم سـألها من أين لك كل هذا فأخذت قطعة من الأرض وقالت يا أمـير المؤمـنين هـذا وأشـارت إلى الـذهب من هـذا وأشارت إلى الطينة الـتي تناولتها من الأرض ثم من عـدلك يا أمـير المؤمـنين، وعنـدي من هـذا شـيء كثـير، فـأمر أن يؤخذ منها واقطعها عـدة ضـياع وأقطعها من قريتها مـائتي فـدان بغـير خـراج، وانصـرف متعجبًا من كـبر مرؤتها وسـعة حالها.. (ص90)

وتحدث الكتاب عن ظلم الوالي ابن المـدير، وأن الأقبـاط أرسـلوا اثـنين منهم إلى بغـداد لمقابلة الخليفة الـــذي أكرمهما، وأجابهما وسـلمهما أمـرًا بمعافـاة الرهبـان وسـائر خدمة الدين من الجزية، وتخفيفها عن أفراد أهل الذمة بما لا يزيد عما صـــولحوا عليه ومعـــاملتهم بمقتضى العهد الـذي بيـدهم ورفع الأمـوال عن أوقاف الكنائس والديارات، وعـدم التعـرض لهم في عوائـدهم وطقوسـهم الدينية، ولما اسـتلما هـذا الأمر عـادا إلى مصر وسـلماه للـوالي فلم يجرؤ على تأخير تنفيذه. (ص94)

وأشـار المؤلف إلى ما كـان يحـدث من فتن لخلاف ما بين بعض الرهبـان أو الأسـاقفة مع البطريـرك، وكيف أن القاضي كـان ينصـفهم عنـدما يتحـاكمون إليه في بعض الحـالات، بينما كـانت تنجح وشـاية أحـدهم عند الحـاكم فيقبض على البطريـرك ويسـجنه كما حـدث عنـدما ولي أحمد بن طولـون، ولكنه عنـدما تـولى ابنه

خماروية كان محبا للأقباط أفـرج عنـه، كما كـان له ثقة في أسـقف أبروشـية طحا الأب بـاخوم، وعن طريقه رفع كل المظـــالم وأراح الأقبـــاط راحة تامة.

ومن دلالة إنصـــاف المؤلف وتوخيه الحقيقة حديثه عن ابن طولـــون فقـــال: إنه "وإن يكن عامل البطريـــــــــــرك بما لا يليق إلا أنه أراح المصـريين كثـيرًا فرفع ما كـان باقيا عليهم من الضرائب غير الاعتيادية التي فرضـها ابن المـدبر وخفض الضـرائب عن الأطيـان؛ فـانتفع الأقبـاط من ذلك كثـــيرًا واتســـعت في أيامه الزراعة واسـتقامت الأحـوال وشـيدت المبـاني العالية والقصـــور الشـــاهقة، وهو الـــذي أسس بمصر الجهة المعروفة الآن بطولـــون وبـــنى الجـــامع الشـهير المسـمى باسـمه والموجـود أثـره إلى الآن.. (ص101)

كما تحـــدث عن الأخشـــيد الـــذي نسب إليه بعض المــؤرخين المســيحيين الجــور؛ لأنه كـان يجمع منهم أمـــوالا يتســـاعد بها على الحـــروب، ولكن أحد المؤرخين المعاصـرين قـال: إنه كـان يرد إليهم ما أخذ منهم.

وتحـــدث عن حكم الفـــاطميين فقـــال "لما اســـتولى الفـــاطميون على مصر وانتقل المعز لـــــدين الله، واســـــتقر بها وجعلها دار الخلافة الفاطمية كما تقدم، وكـان عـدد القبط بها لازال عظيما - رغمًا عن المصـائب والبلايا الـتي حلت بهم من وقت إلى آخر - لا يقل عن خمسة ملايين، وكانوا هم أهل البلاد وذويها المسـلطين، فبها وبيـدهم مقاليد الأمـور وأعمـال الـدواوين

والمتـــاجرة والزراعة والصـــنائع على اختلاف أنواعها. (ص106)

ولما طالت مدة راحة الأقباط نوعًا وتحسنت حـالهم أخـذوا يشـيدون الأبنية العالية والـدور الواسـعة ولاسـيما الـديارات والكنـائس، فـإنهم صـرفوا كل جهـدهم في عمارتها وتشـييدها في جهـات مختلفة خصوصًـا في الجهـات المطلقة الهواء وأوقفوا عليها الأوقاف الواسعة وأحاطوها بالبساتين النضرة، حـتى أن بعض الخلفـاء كـانوا يذهبون أحيانا إلى تلك الـديارات لـترويح النفس والراحة من عنـاء الأشـغال والتمتع بنضـارة حـدائقها والتعـاطي مما بها من الخمر النقي العتيق حـتى أن بعض أدبـاء وأفاضل المسـلمين الذين كانوا موجودين في ذاك العصر وضـعوا لها كتبًا مخصوصة ضمنوها أوصافها وما كـانت عليه، وممن كتب عنها أبو الحسـين علي بن محمد المعروف بالشابشـتي - أمين مكتبة العزيز بالله أحد خلفـاء الدولة الفاطمية - وأبو بكر محمد الخالدي، وأبو عثمان سعد الخالـدي، وأبو الفـرج الأصفهاني.

وكانت تقـام بهـذه الـديارات أعيـاد في أيـام معلومة من كل سـنة فكـان كبـار وميسـورو الأقباط وغـيرهم يـذهبون إليها أفواجًا، ويقيمـون بها أيامًا، ويـذبحون الـذبائح، ويولمـون الـولائم، ويصرفون مدة إقامتهم بها في سـرور وانشـراح كما هو جـار إلى الآن في مولد الست دميانة وغيرها. (ص109)

وتحـدث عن "أبي اليمن" الـذي ولاه المعز لـدين الله حكم فلسـطين، وكيف أنه عنـدما هاجمها أحد الأعـداء خبأ ما في بيت المـال من

ذهب وفضة ولما أرسل الخليفة قائدًا طـرد هـذا العـــدو، وســلمه أبو اليمن ما كــان قد خبــأه؛ فشكره الخليفة وأقره في وظيفته؛ فعـاش فيها حـــتى مـــات، وكـــان ذا ثـــروة عظيمة أعطاها للبطريرك لينفق منها على الفقراء.

ولكن شاب هذه السماحة التي كـانت سـمة حكم الفاطميين ولاية حاكم مجنـون هو: الحـاكم بأمر الله؛ الذي أخذ يصدر أوامره الغريبة "وصار يخترع كل يـوم أحكامًا غريبة يحمل النـاس على العمل بها ثم يأمرهم بالكف عنهـا. فمن ذلك أنه نهى عن بيع وأكل الملوخيا والـترمس والجرجـير والسـمك الـذي لا قشر له، وأمر بالتشـديد في ذلك والمبالغة في تأديب من يخالف أمره، وعلم أن جماعة بـاعوا أشـياء منها؛ فـأمر بضـربهم بالسـياط ضـربا مبرحًا ولم يكتف بـذلك بل أمر بضــرب أعنــاقهم. ونهى عن بيع الــزبيب وهجم على بيوت التجار وغيرهم وجمع ما كان موجـودًا منه وأحرقه بالنـــار، ومنع بيع العنب وكـــان في الجـــيزة كـــروم كثـــيرة فأرسل إليها أعوانه فقطعوها وخربوها عن آخرها.

وتتبع العلماء وأماثل أهل دولته وأكابر الناس على اختلاف أجناسـهم وقتل منهم عـددًا عظيمًا بغير سبب أو علة، ومنع النساء عن الخـروج في الطـــرق فمضى عليهن، وهن محبوســـات في الـبيوت سـبع سـنوات وسـبعة أشـهر. ومما زاد الحـال تعاسة أنه في أثنـاء ذلك حل بـالبلاد وبـاء وغلاء شديدان فمات من النـاس كثـير، ومن نجا منهم من الموت حاقت به البلايا والمصـائب من كل الجهـات ولم يُخَلِّصـهم من يـدها إلا المـوت، بعد أن حكم خمسًـــا وعشـــرين ســـنة رأوا فيها

الأهـــوال، وقيل إنه مـــات مقتـــولا بدسيسة من أخته، وقيل غير ذلك والله أعلم بالحقائق.

واشـتد على النصـارى وزاد في اضـطهادهم فألزمهم بلبس العمائم السوداء، وتعليق صـــلبان خشب في أعنـاقهم، وأن يكـون طـول الصـليب ذراعًا وزنته خمسة أرطال، وأن يكـون مكشـوفًا بحيث يـــراه النـــاس، ومنعهم عن ركـــوب الخيل وأن يكـون ركـوبهم البغـال والحمـير، وأمر بـألا يستخدموا مسلمًا ولا يشتروا عبدًا ولا أمة، وأمر بهدم كنائسهم بمصر والقـاهرة، وكتب إلى جميع الجهات بذلك وأباح للعامة نهبها، وضـبط أوقافها وأحباسها وكل مالها وقبض على القسوس وقتل منهم عــــددًا عظيمًا وهـــــرب كثـــــير منهم إلى الـــديارات البعيـــدة؛ فتتبعهم وقتلهم وقبض على الأب زكريا البطريرك وألقـاه للسـباع، وقيل إنها لم تؤذه[5] وأكره النصارى على الإسلام؛ فأسـلم

5 (5) ويقال إن اشتداد الحاكم على البطريرك بهـــذه الدرجة لم يكن من تلقـــاء نفسه؛ بل بسبب تهمة اتهمه بها أحد الرهبان، وذلك أن هـذا الـراهب رغب أن يكـون أسـقفًا وكـان للبطريـــرك ابن أخ يســـمى ميخائيل التمس منه مالا على سبيل الرشوة؛ ليسـعى له عند البطريرك في نوال مرغوبه، فلم يُجب طلبه في الحـــال بل وعـــده بالوفـــاء بعد تعيينه؛ فعمل على معاكســـته، وما زال بـــالبطريرك حتى عيّن؛ فأضمر الراهب للبطريـرك شـرًا، وكانت عادة البطاركة إلى هذا الـزمن مكاتبة ملـــــوك الحبشة والنوبة مباشـــــرة فوشى الراهب للخليفة أن البطريـرك يكـاتب هـؤلاء الملـــوك ويكشف لهم عن كل ما يجري في البلاد وسوء معاملة النصـارى خلافًا للعهـود؛ فغضب الخليفة وأمر بـــــــــــــالقبض على البطريـــرك وإلقائه للســـباع، فلم يأته منها

منهم خلق كثــير، ثم عــاد فــأمر من يــرد منهم العــودة إلى دينه فليعد وصــرح لهم ببنــاء بعض الكنائس التي هدمت.

وبعد هذا كله أمر بأن يخرج النصارى واليهود من مصر ويذهبوا إلى بلاد الروم فشق هذا الأمر عليهم ولاســيما الأقبــاط منهم؛ لما كــان بينهم وبين الـــروم من العـــداوة القديمة؛ فتجمعـــوا وذهبـــوا إلى الحـــاكم وأخـــذوا معهم أولادهم وأطفــالهم ونســاءهم وتواقعــوا عليه وصــاروا يستعطفونه حـتى عفا عنهم وسـمح لهم بالبقـاء في وطنهم. ومنعهم من الاحتفال بعيد الغطـاس وكان من أعظم أيام المواسم عنـدهم وله شـأن عظيم عند المصــريين عمومًا فكــانوا يخرجــون كبيرهم وصغيرهم إلى النيل ويوقدون المشـاعل والأنوار وينصـبون الأسـرة على ضـفتيه ويحيـون ليلهم في ســرور وانشــراح وغنــاء ولهو وقصف حتى الصباح. (ص125)

ضرر فنفاه في أحد الديارات البعيدة وأمــره ألا يخــــرج منها أبــــدًا، وأمر أن لا يكــــاتب البطاركة ملوك النوبة والحبشة مباشرة، ولا يقبلــوا منهم مكاتبــات إلا بعد عرضــها على الخليفة ومعرفة ما فيها، وكــــذلك طلب من هؤلاء الملوك أن تكون المكاتبات منهم وإليه مباشرة، وبقيت هذه الحالة إلى الآن، فكــان إذا أتى الخليفة أو السـلطان كتـاب يقتضـي الــرد يطلب من البطريــرك أن يشــرح له ما عليه نصــــارى مصر من الراحة والحرية في الــدين وعــدم التعــرض لهم في عوائــدهم ويوصيه خيرًا بالمسلمين الذين تحت رعايته.

ومنعهم أيضًا من الاحتفال بيوم أحد الشعانين وكان من عادتهم الاحتفال به احتفالا شائقًا، إذ يطوفون الشوارع والحارات بضجة عظيمة حاملين الشموع وسعف النخيل. وكثيرًا ما كان ينزل الخلفاء في عهد الدولة الفاطمية للتفرج على هذه الاحتفالات ولاسيما احتفال ليلة عيد الغطاس ويوم النيروز، وكان من رسوم هذه الدولة أن توزع العطايا والهدايا في هذه المواسم على أصحاب الدواوين وكبار الكتاب والموظفين على اختلاف درجاتهم وأديانهم كل بحسب ما هو مقرر له. (ص125)

وكما أمر الحاكم بأن النصارى يعلقون صلبانًا في أعناقهم ألزم اليهود أيضًا بأن يعلق كل واحد منهم جرسًا في عنقه.

كان هذا أسو ما حدث للنصارى. وحاق شره بالمسلمين أيضًا، والحاكم بأمر الله في التاريخ الإسلامي كبعض أباطرة الرومان نيرون وجاليكولا الذي عين حصانه قنصلا. وهي شخصيات شاذة سمح بوجودها العصر القديم، على أن تقلب الحاكم جعله يعتقد في البطريرك ويقره في مركزه وسلمه أمرًا مؤذنا بفتح الكنائس المقفلة وبناء التي تهدم منها وإعادة ما نهب معها وردَّ أوقافها كما كانت.

وبعد أن انزاحت هذه الغمة، جاءت أيام سعد للأقباط في عهد بدر الجمالي – رجل الدولة الفاطمية القوي – بحيث "تقلد كثير من

الأقبــاط الوظــائف العالية في دواوين الحكومة ولا سـيما المتعلقة بالأعمـال الحسـابية، فـإنهم اسـتقلوا بها اسـتقلالا تامًا وامتـازوا على غـيرهم بوضع قواعد دقيقة وروابط مضــــبوطة لها؛ فلم يتمكن غــــيرهم من تأطيرها مثلهم، وكــــانوا قد تمكنـــــوا من معرفة اللغة العربية وألفـــــوا فيها مؤلفات واسعة تشهد لهم بغزارة المادة وطـول البـــاع، ونقلـــوا إليها أيضًـــا جملة مؤلفـــات من اللغـتين اليونانية والقبطية في مواضـيع مختلفة؛ فعرفت الدولة فضلهم وكفـاءتهم وعـدم إمكـان الاسـتغناء عنهم؛ فـراعت جـانبهم وقـدرتهم حق قدرهم ومنحتهم الألقاب السامية مثل (الــرئيس وهبة الله والأمجد والأســـعد والشــــيخ ونجيب الدولة وتاج الدولة وفخر الدولـة) وغـير ذلك من ألقاب الشرف والتميـيز الـتي هي بمثابة الـرتب في زماننا الحاضر، وكــان بين العســاكر الــذين حضــروا مع بــدر الجمــالي حسب اتفــاقهم مع الخليفة المستنصر كثـير من الأرمن والسـوريين النصــارى اســتمروا في خدمة الدولة مــدة من الزمن، ومن محاسن الدولة الفاطمية التي تذكر بالنسبة للأقباط أن معظم الصـنائع وأجلها كـانت بيــــدهم، فكــــان منهم الصــــياغ والجواهريــــون والنجـــــارون والحاكة والصـــــباغون والبنـــــاؤون والحدادون والمهندسون والنقاشون والشماعون وعمــــال الــــورق والزجـــاج على اختلاف أنواعه وألوانه، ولم تــزل بقايا صــناعتهم موجــودة للآن

في الــديارات والكنــائس القديمة بحــارة زويلة وحـــــارة الــــروم ومصر القديمة، ولا ســــيما المصنوعات الخشبية وغيرها الموجودة بالكنيسة المعلقة بمصر القديمة فإنها على جـــانب عظيم من الإتقان والإحكام تدل على تقــدمهم في ذاك العصر في الصنائع والفنــون، ومنهم من اشــتغل بفن الطب فنــال منه حظًا وافــرًا، ومن اشــتغل بعلم المواقيت وألف فيه مؤلفـات واسـعة وصل إلينا بعضها. (ص143)

وأشــار الكتــاب إلى وشــاية قــدمت في حق البطريــرك فقــال بــدر الجمــالي إنه لا يســتطيع البت في هـــذا الأمر، وأمر بعقد مجمع من جميع أســاقفة الــوجهين البحــري والقبلي وكبــار الأمة للتعرف على الحقيقة فـاجتمع في مصر أربعـون أسقفا درسوا القضية وبرَّأوا البطريرك.

وذكر المؤلف بعضًـــــا ممن اشـــــتهروا من الأقبــاط ووصــلوا إلى أعلا المناصب مثل المعلم ســــرور الجلال والشـــيخ الســـعيد أبو الفخر المعروف بابن صاعد كان كاتب الرواتب وتــرقى لرئاسة المجلس. والأســعد أبو الخــير جرجة ابن أبي وهب الشهير بابن الميقاط - كـان من أكـابر الأقباط وأغنيائهم. والشـيخ صـفي الدولة بن أبي ياسر بن علوان، ومن مآثرة بنــاء كنيسة عظيمة على اسم آيا صوفيا وأبو المليج الشهير بممــاتي - كان أمير الجيوش اشــتهر بــالخير والإحســان - وســبب تســميته أنه لما اشــتد الغلاء بمصر كــان

يتصـــدق على المحتــاجين وكــان إذ رآه صــغار المسلمين يقولـون "ممـاتي" فيصـرف لهم غلالا لسد رمقهم. وذكر الســـيدة ترفة - كــــانت من أغنياء مصر القديمة - اشتهرت بالتقوى وشـيدت كنيسة من مالها الخـــــــاص وبنت بأعلاها محلا فسـيحًا ليكـون ديـرًا للبنـات الراهبـات ونقشت اسـمها على لـوح خشب وضـعته بـأعلى البـاب المعد لـــــدخول النســــاء، ولاحظ المؤلف دلالة تخصــيص بــاب لــدخول النســاء في الأعمــال الخيرية وتشييد الديارات الواسعة كما هي عـادة المصريين من قديم الزمن، وإحاطتها بالبسـاتين الزاهية الظـــــاهرة الــــتي في جملتها دير ناهيا بــالجيزة، الــذي كــان يــتردد عليه الخليفة الآمر بأحكــــــــــام الله ويقيم به أياما ترويحًا للنفس، وعندما يخـرج للصـيد، وكـان في كل مـرة يـأتي إليه بنعم على خدامه ورهبانه بــــألف. وفي أول مــرة نــزل به أنعم عليه بثلاثين فــدان بلا مــال بناحية طهرمس بالجيزة. (ص169)

ومع أن الأقبـاط لم يصـلوا في عهد المملكة الأيوبية إلى ما وصـلوا إليه في عهد الفـاطميين، فــإن المؤلف يقــول "وهكــذا عــاش القبط في راحة كل بــــاقي أيــــام الدولة الأيوبية في ظل ملوكها الذين عرفوا أهميتهم في خدمة الحكومة والـوطن؛ فقـدروهم حق قـدرهم رغما عما كـان بين هؤلاء الملوك والإفــرنج من الحـروب الدينية المتواصلة، ولم يصب الأقبـاط في أيـامهم ضـرر

بل ربما نـالهم الضـرر من ذات الإفـرنج الـذين ادعـوا أن القصد من حـروبهم الصـليبية حماية الـدين المسـيحي والمسـيحيين؛ وذلك أنه لما استولى الإفرنج على مدينة القـدس في حـربهم الأولى منعـوا القبط من زيـارة الأرض المقدسة ولم يـدخلوها حـتى خلصـها من يـدهم السـلطان صلاح الدين، وفي سـنة 1204م في أيـام الملك العادل الأيوبي فاجأ الإفرنج مصر من جهة رشيد وتقـدموا إلى فـوة وتحصـنوا فيها، وكـانت غاصة بالأقباط ولها أسقف مخصوص فقتلـوا بعض من بها وطردوا البعض وسـبوا البعض والبعض الآخر لم يسـعه إلا الهـرب، أما الأسـقف فإنه لما وجد نفسه وحيـدًا تركها وذهب إلى مصر وأقـام بها حتى وُلي مطرانًا على بلاد الحبش.

وأشـــار إلى أن الملك الكامل بعد أن أوقع بهم عاد فـأنس إليهم وعلم أن لا مطمع لهم في شيء إلا أن يعيشـوا في أوطـانهم عيشة راضـية آمنين على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم، وأن لا هم لهم غـير احـترام ديـانتهم وعوائـدهم وعـدم التعرض لهم في شيء منها، ركن إليهم وقـربهم منه ورفع مقـــامهم وعمل على ما فيه راحتهم، وأذن لهم ببناء كنائسهم الـتي خربها المسـلمون بسبب هذه الفتن والقلاقل والحـروب وأبـاح لهم فتح ما أغلق منها وإقامة شـــعائرهم الدينية فيها جهـارًا بغـير معارضة؛ ولـذا تـراهم يـذكرون للآن في صـلاتهم اليومية هـذه العبـارة: "وحنن اللهم

قلوب المتولين علينا". وقاموا بما عهد إليهم من الخـــدم أحسن قيـــام، وبما توجبه عليهم الذمة الوطنية، وبهذه الحالة حفظـوا لأنفسـهم مركـزًا مهمًا في الـــوطن فكـــانوا عضـــدًا عظيمًا ليس للحكومة فقط بل ولسائر رجالها وأمرائها الـذين ائتمنوهم على خزائنهم وأموالهم فحافظوا عليها وسلموهم مصالحهم فسيروها على أحسن حال. وتأكد للكل عدم الاستغناء عنهم أو إمكان تسيير الأعمال بـدونهم في كل زمـان رغمًا عن تصـدي بعض الملـوك المتغشـمين لهم وتعمـدهم إخلاء الديار منهم كما سترى.

كما قـــال "ويـــذكر بالثنـــاء على الخلفـــاء الفـاطميين وملـوك الدولة الأيوبية أنهم أطلقـوا للأقباط عنـان الحرية للمدافعة عن دينهم فـألف بعضهم مؤلفـات واسـعة جـديرة بالاعتبـار أثبتـوا فيها بـــالبراهين القاطعة والحجج الدامغة صـــحة معتقـداتهم وديـانتهم، وقد وصل إلينا بعض هـذه المؤلفـــات فألفيناها آية في الفصـــاحة والبلاغة تشهد لمؤلفيها بغزارة المادة في العلوم العقلية والنقلية وتمكنهم من اللغة العربية الفصـــــحى. وكان يمكن للأقباط تحسين حالهم أكثر والتدريج في العلـــوم والمعـــارف لو لم تشـــغل كبـــارهم وعلماؤهم ولا سيما سكان العاصمة المنافســات والمخاصمات الداخلية في غالب الأحيان بســبب مطـــــامع بعض أئمتهم واهتمـــــامهم بمنفعتهم الشخصـية أكـثر من الفائـدة العمومية، خصوصًـا

النزاع الذي حصل في أيـام الدولة الأيوبية الـذي دامت مدته نحو ثلث جيل.

وبـدأت حقبة جديـدة من تـاريخ مصر تعـرف باسم المماليك الــذين ظهــروا لما كــان الملك الصــالح نجم الــدين الأيــوبي قد أكــثر شــراءهم وجعلهم حرسًــا له وجعل معهم أمــراء فقــويت شــــوكتهم. ولم يكن لهم علم بالسياســـية أو الإدارة وإنما كانوا مقـاتلين فتولـوه وحمـوا مصر من غـزو الصـليبين والتتـار واكتسـبوا انتصـارات مدوية. ولكنهم وكلـوا الإدارة إلى بعض الأعــوان الذين بدورها وكلوها إلى أعوان آخـرين؛ فتفشى الاســتغلال والظلم، كما أن اختلافـــات هـــؤلاء المماليك فيما بينهم أشـــاع الفوضى فـــاعتبر المؤلف أن نجم الأقباط أخذ في الأفول بدءًا من ظهــور عز الــدين أيبك الــذي اســتظل بالملك وتزوج شـجرة الـدر. وكـانت أول مصـيبة حـاقت بهم على يد شرف الدين أبو القاسم هبة الله بن صــاعد - الــذي كــان قبطيا فأســلم ووصل إلى أعلى المناصب - "وحينئذ أظهر ما دل على خسته ودناءة أصله؛ فأحـدث مظـالم كثـيرة بين الناس، وأول مظلمة بـدأ بها أنه تصـدى للأقبـاط فحصل منهم على الجزية مضــاعفة وقــرر على التجـار وذوي اليسـار منهم أمـوالا يـدفعونها في كل سنة، وأحدث التقويم والتصقيع على الأملاك ورتب مكوسًــا على الخيل والبغــال والحمـــير وســـائر الحيوانــــات وعلى الرقيق من العبيد

والإمـاء وعلى سـائر المبيعـات، وضـمن الخمر والمزر والحشيش وبيوت الزواني بأموال سماها بالحقوق السلطانية والمعـاملات الديوانيـة. (ص 206)

وبعد قليل رزئت الأقباط برزيئة أخرى كـانت أشد وقعًا وأكـثر تـأثيرًا فيهم من المصـيبة الـتي نـالتهم على يد الأسـعد شـرف الـدين الـوزير القبطي المرتد عن دينه وذلك أنه في سـنة 663هـ حصل بمدينة القاهرة حريق هائل اتخـذه بعض المبغضـين للنصـارى وسـيلة للإيقـاع بهم؛ فوشـوا للملك وهو إذ ذاك الظـاهر بيـبرس البندقـداري أن هـذا الحريق من فعل النصارى واليهود، ولكي يزيـدوا نار غضب الملك على النصارى انتحلوا له سببًا لا يبعد على بيبرس تصديقه بأن قـالوا له: إنهم في كدر منذ علموا بغلبة الإفرنج وانتصار المسـلمين عليهم في سوريا وصاروا يحسنون له في القول حتى جعلوه يصدق اختلاقاتهم وتمويهاتهم التي لا أصل لها، ومع أن هـذا الملك كـان موصـوفًا بصفات حميدة إلا أنه كان عجولا سـريع الغضب، وكان في نفسه شـيء من جهة كتـاب الـدواوين فحمي غضـبه وأمر بجمعهم وإخـراجهم خـارج المدينة وإلقائهم في حفـرة ليحرقـوا، وكـان بين رجال الدولة رجل يسمى فـارس الـدين إقطـاي رئيس العساكر فـرثى لحـالهم وصـار يتوقع على الملك حتى سمح بالعفو عنهم بشرط أن يدفعوا

إلى بيت المال خمسين ألف دينار نظـير الأملاك التي اتهموا بحرقها.

ويحكي أنه لما جمعت النصـــارى واليهـــود وأخذوا ليحرقوا بظاهرة القاهرة على مشهد من الملك وأمرائه بـــــرز إليه من بين الجمع رجل يهودي يسمى ابن الكازروني - كـان صـيرفيًا في أحد الـدواوين - وقـال للسـلطان سـألتك بالله لا تحرقنا مع هــــؤلاء الكلاب الملاعين أعــــدائنا وأعدائكم، أحرقنا ناحية وحدنا؛ فضحك السلطان والأمــراء وحينئذ تقــرر الأمر على ما ذكــر. وقد ذكر هـذه الواقعة المقريـزي ولا أرى إلا أنها من مبالغات الكتاب.

وحـــدثت معركة بين بعض الأقبـــاط وبعض أتباع الأمراء أدت إلى غضب السلطان لما ادعوا على الأقبـاط من وشـايات فـأمر بـإحراق كُتَّاب ديوانه النصارى قائلا: لا أريد أن يكون في دولتي ديوانا نصـرانيًا، ولكن بعض الأمـراء تشـفعوا وما زالوا بالسلطان حتى سمح بـأن من يسـلم منهم يستقر في خدمته ومن امتنع يقتل، فخــرج إليهم الأمــير وأعلمهم ذلك فــآثروا الاستســلام على القتل؛ وبــذلك نجــوا بحيــاتهم وكتبت شــهادات عليهم بــــذلك وأخــــذها بيــــدار ودخل بها إلى الســـلطان فـــأمر بـــالخلع عليهم وإبقـــائهم في خـــدماتهم، وفي عصـــارى اليـــوم أخـــذوهم إلى مجلس النـــائب وقد اجتمع به القضـــاة فجـــددوا إسلامهم بحضرتهم.

ومن أســـوأ ما حـــدث في هـــذه الحقبة ما ســـجله المؤلف تحت عنـــوان "واقعة هـــدم الكنائس وإحراق الجوامع". وقـدم لها بـأن جهل المماليك بـالإدارة جعل مصر في أيـامهم ميـدان قتال وفتن وحـروب داخلية، وأن المماليك كـانوا منقسمين إلى أقسام وأحزاب شـتى يحـاول كل حزب الاستيلاء على الحكم فسادت الثورات وما يصحبها من اغتصاب ومصادرة الخ... فحـدث أن شـرع السـلطان قلاوون في بنـاء ميـدان فسـيح بالجهة المعروفة الآن بالناصـرية وفي وســطها فسقية واسعة على شبه بركة فسيحة وكان في الموضع الـــذي اختـــاره لـــذلك كنيسة للأقبـــاط تسمى كنيسة الزهري واسـعة الأطـراف محكمة البنــاء، فلم يُـرد أن يأخـذها منهم بـالرغم عنهم وكـــذلك هم لم يخطر ببـــالهم أن يتنـــاولوا عنها إكرامًا له أو ابتغاء مرضاته، ولو فعلـوا هكـذا لما حل بهم ما حل. فأمر أن يتركوها ويحفروا حولها طمعًا في ســقوطها من تلقـــاء ذاتها وإذ كـــانت على جـــانب عظيم من المتانة لم تســـقط، فعد المسلمون هذا التساهل من قبل السـلطان ميلا للنصارى، وتصـميم النصـارى على عـدم التنـازل عن الكنيسة للسلطان وقاحة منهم. فلما كـثرت العمـارات بالعاصـمة وكـانت تحتـاج إلى أنقـاض وأخشـــاب ورخـــام وكـــانت جميع هـــذه متـــوفرة بكنائس النصارى، وإذا هدمت واحدة منها جددت أو قـامت غيرها أعظم وأحسن من الأولى تواطأ

المسـلمون وبعض الأمـراء على هـدم الكنـائس واستخدام أنقاضـها وأدواتها في العمـارات الـتي كلفوا بإقامتها، وانتقاما من النصارى على تعنتهم وعدم تفكرهم في إهدائه للسلطان حال كــونهم لا يجهلــون احتياجه إليهــا. وفي أحد أيــام الجمع بينما كان الناس يصـلون في الجوامع قـام فقـير عند نهاية الصلاة ونادى بصـوت عـال قـائلا "الله أكبر هيا بنا نهدم كنـائس النصـارى". فلم يشـعر النصارى إلا والهدم دائر في كنائسهم وسـلب ما بها من الأواني والمقتنيــات وبعضــهم هجم على الــبيوت ونهبوها؛ فعلا الضـجيج والصـراخ وارتفع الغبــار في الجو وهــاج النــاس ومــاجوا ووصل الصياح آذان السلطان وأرسل يسـأل عن الخـبر فقيل له: إن النــاس يهـدمون كنـائس النصـارى ويقولون إن هذا بأمرك؛ فاندهش غاية الاندهاش وتعجب من الافتراء عليه بهذه التهمة الباطلة.

وأرسل السـلطان أيضًــا بعض الأمــراء إلى جهات أخرى من مصر ليمنعـوا النـاس من هـدم الكنـائس وإبعـادهم عنها ولكن هـؤلاء لم يفعلـوا كما فعل الأمــير الأول بل توانــوا وابطــأوا في السير حتى إذا ما وصلوا إلى الجهات المقصودة وجــدوا الكنــائس قد هُــدمت عن آخرها ونهب الناس ما بها، وهكذا لم ينج من الهدم والنهب إلا كنائس بابليون والبيوت التي بها، ولم يقف الأمر عند العاصـمة فقد جـاءت الأخبـار من مـديريات الغربية والشرقية والإسكندرية.

وقبض على اثنين وجدا خـارجين من مدرسة عقب ظهـــور النـــار، كما قبض على رجل آخر بجامع الظاهر كـان معه أكيـاس فيها نفط ونـار، واعـترفوا أنهم رهبـان من دير يعـرف باسم دير البغل جهة طـــرة، وأنهم مع ســـبعة عشر راهبا تعاهــدوا على إحــراق مصر والفســطاط انتقاما لهــدم كنائســهم، ومن ثم جــرت مذبحة كبــيرة للأقباط، وختم المؤلف بسرد هـذه المأسـاة مما تقدم ولكن كانت هذه الأفكـار السـليمة قاصـرة على بعض الأفراد. ولما اشتد الهيـاج لم يجـرءوا على إظهارها لئلا يصيبهم أكثر مما أصـاب كـريم الدين وما نجم عنه من الأذى الذي حل بالذين لا يبعد أنهم كانوا أبرياء.

ولما هــدأت الحــال وعــاد النظــام لم يفت السلطان مصالحة أفكار النصارى بأن صرح لهم ببناء بعض الكنائس التي هدمت بناء على طلبهم ذلك منه على شرط أن لا يتوسعوا فيه أو يزيدوا عليه شـيئًا مما كـانت عليه قبل الهـدم، غـير أن بعضها هدم بعد تمام عمارتها بدعوى أنها لم تُبن على حالتها القديمة، أو أنهم زادوا في زخرفتها وإعلاء بنائها. ومع أن هذا السلطان منع النصارى من التظـــاهر بالأبهة وركـــوب الخيل والتجمل بلبس الثياب المصقولة والعمـائم البيضـاء إلا أنه من جهة أخــرى لم يخــلُ منهم دواوين الحكومة بالمرة لعـدم إمكـان تسـيير أعمالها بـدونهم، ولا ســيما الحســابية، ولكن يظهر أنه جــردهم من

الرئاسة والوظـــائف الإدارية ومن ثم اقتصــــروا على الحســـابية منها؛ فتفننـــوا فيها وجعلـــوا لها قواعد وروابط دقيقة لم يتسن لغـــيرهم إتقـــان معرفتها فصـاروا يمارسـونها للآن؛ وبـذا حفظـوا لأنفسهم مركزًا مهما في الحكومة.

وبذلك استقل النصارى الـذين في الـدواوين بنـــوع ما بالأعمـــال الإدارية فكـــانوا في راحة لا منـــازع لهم في أعمـــالهم مـــدة بـــاقي حيـــاة السلطان الناصر وقليلا بعده.

وتحـــدث الكتـــاب طـــويلا عن محـــاولات الكاثوليك واللاتين جـذب الأقبـاط وفشـلهم في هـــذا، وأجمل حـــال المصـــريين عمومًا والقبط خصوصًا في عهد الدولة العثمانية: "لم تكن حالة مصر في عهد الدولة العثمانية أحسن مما كـانت عليه في أيـــــــام دولـــــــتي المماليك البحرية والجراكسة، فإنه لم يكن للـــــولاة هم ســـــوى استنزاف أموال الناس بأية طريقة كانت وبـدون اســتثناء ولا تميــيز بين مســلم ولا نصــراني ولا ســيما لأن الــولاة الــذين كــانوا يــأتون إليها من القســطنطينية لم تطل مــدة ولاية الواحد منهم أكثر من سنة، وإذا سـمح له بالبقـاء في منصـبه أكثر من ذلك لا يكـون إلا ببـذل الأمـوال الطائلة طمعًا في تحصـــيل ما يزيد عما دفعه أضـــعافًا.

وزيــادة على ذلك انقســام المماليك على ذاتهم وقيـامهم على بعضـهم تـارة وعلى الـوالى تـارة أخـرى وانتهـاز أهل الفسـاد - ولا سـيما العـرب المعـــروفين بـــالهوارة - هـــذا الاختلال فرصة للسـلب والنهب وسـفك دمـاء الـذين لا لهم ولا عليهم.

أما حــال القبط فكــانت هادئة نوعًا في أول أيام هذه الدولة؛ لرفع الاضـطهاد عنهم وتشـاغل المبغضين لهم من المسـلمين؛ بسـبب الكـوارث الـتي كـانت تتسـاقط عليهم من وقت إلى وقت عن تحــريض الحكومة ورجالها على الإيقـاع بهم أو إكـراههم على الاستسـلام، وعاشـوا كل هـذه المدة مع إخـوانهم المسـلمين على أحسن حـال مشـاركين لهم في السـراء والضـراء غـير أنهم كــانوا يزيــدون عنهم في المصــائب من جــراء الجزية التي صـارت تسـمى بالجالية أو الجـوالي واستعمال طرق الجور والعسف في تحصيلها.

وهكذا كانت عيشتهم في هذه المدة راضــية نوعًا لا يكدرهم إلا الحوادث والرزايا الـتي كـانت تطــرأ أحيانًا بســبب اختلال الأحــوال كما تقــدم القول، فتعم النصارى والمسلمين على الســواء. وكذلك الكُشّاف الذين هم أشـبه بالمـديرين الآن والصـناجق. وكبـار المسـلمين وعظمـاؤهم فضلا عن الـــولاة والحكـــام جعلـــوهم موضع ثقتهم وسلموهم إدارة مصالحهم وأشغالهم وحساباتهم

فقاموا بها أحسن قيـام، وكثـيرًا ما كـانوا يكنـون بأسمائهم فيقـال مثلا المعلم غبريـال السـادات، والمعلم يوسف الألفي، والمعلم منقريـــــــوس الموره لى، وغير ذلك نسبة لمخدوميهم.

وســجل المؤلف تكـــاثر عـــدد المرســلين الكاثوليك في القـرن الثـامن عشر وتوطنـوا في بعض بلاد الوجه القبلي وانضم إليهم بعض الأفـــراد من أبنـــاء الأمة القبطية؛ فنتج من ذلك حصول نشوز بين أفراد العائلات وانقسام بسبب التركـــات والـــزواج، فاشـــتكي كبـــار الكتـــاب لمخـدوميهم الأمـراء من سـوء تصـرف قسـوس اللاتين وتعـديهم على حقـوق بطريـركهم؛ فعقد لـــذلك مجلسا بحضـــورهم وحضـــور البطريـــرك وقســـيس اللاتين الكاثوليك بالمحكمة الكـــبرى الشرعية، وبعد سماع أقوال المشتكين واحتجاج المشتكى عليهم تقرر التصريح لبطريرك الأقباط باســـتعمال ســـلطته الدينية على أبنـــاء أمته والتصرف فيهم بما توجبه قوانينه المرعية وعدم التعـــرض له أو التعـــدى على حقوقه، وتحـــررت بذلك حجة من المحكمة وسلمت ليد البطريرك.

وكـان الأقبـاط قد منعـوا لأسـباب لم يقف المؤلف عليها من زيارة الأراضي المقدسة.

وفى سـنة 1753م (سـنة 1166هــ) سـعى الأقباط بواسطة كبـارهم في تجديد هـذه العـادة السـنوية ومع كـــونهم لم يجـــدوا معارضة من

الحكومة تصدى لهم بعض كبار المشايخ فخــابت مساعيهم.

وانتقل المؤلف إلى ذكر "المعلم رزق والمعلم إبـــراهيم الجـــوهري" وقد ارتبط الأول بعلي بك الكبــير، ولما اســتقل بالأحكــام صــار المعلم رزق هو الآمر الناهي بمصر رقّــاه وجعله نـــاظرًا على دار الضـــرب ورفع مقامه؛ فكـــان مســموع الكلمة عنــده ويعــوّل عليه في ســائر أحواله وأموره ويعمل بحسب إشارته.

ولما هــزم علي بيك الكبـــير أمـــام مملوكة الســـــابق الـــــذي انقلب عليه واتصل بالدولة العثمانية محمد بك أبو الــــذهب عـــــزل المعلم رزق، أما المعلم إبــراهيم الجــوهري فأبقــاه في وظيفتـــه. ولما مـــات محمد أبو الـــذهب تقاسم السلطة إبراهيم بك ومــراد بك، واختص إبــراهيم بك بمشـــــيخة البلد فـــــولى المعلم إبـــــراهيم الجــوهري رئاسة كتــاب جميع القطر المصــري، وكــان ســليم النية طيعًا صــادقًا أمينًا محبًا لعمل الخــير لا يمــيز في أعماله الخيرية بين مســلم أو نصــراني؛ فأحبه إبــراهيم بك حبًا زائــدًا وعــززه وأكرمه ولما مات أسف عليه ومشى في جنازته إكرامًا له وإظهــاره لما كــان له عنــده من علو المنزلــة. واشــترى في حــال حياته أملاكًا كثــيرة وأوقفها على الكنائس والديور وأصلح كثــيرًا مما كان تخرب منها، ولم تــزل غــرر مــآثره موجــودة في كل جهة ومكـــان حـــتى في مدينة القـــدس.

ومن محاسنه التي تذكر أنه كان يقابل السـيئات بالحســـنات، ومما يحكي عنه أن أخـــاه وهو: المعلم جــرجس الجــوهري شــكا إليه يومًا من رجل من صـغار المسـلمين أنه يسـبه ويشـتمه كلما مر به وقد تكــرر ذلك منه حــتى أنه كــره المـــرور من ذاك الطريق، وليس هنـــاك طريق آخر يمر منه، فقــال له المعلم إبــراهيم: لا شك في أن هـذا أمر لا يجب السـكوت عنه ولابد من مجازاة هذا الرجل بقطع لسانه، وأخذ يبحث عنه وعن حاله وجهة سكنه وأرسل إليه قمحًا وسـمنًا يكفي لمؤنة عياله نحو سـنة، فصــار كلما مر به المعلم جــرجس يقــوم له ويصــافحة ويــدعو له ولأخيه بخير وبذا قطع لسانه عن البــذاء وأطلقه بالثناء.

وأنفذت الدولة العثمانية جيشًا بقيـادة حسن باشا قبطـــان ليقاتل إبــــراهيم بك ومــــراد بك فقاتلهما وانتصر عليهم وفــــــرا من أمامه إلى الصــعيد وهنــاك أخذ يعيثــان في الأرض فســاد ويذيقان أهل البلاد أنواع العذاب.

ولما دخل حسن باشا القـاهرة أسـاء معاملة المماليك والأقبــاط على حد ســواء واستصــفى أمــوالهم وكــان حظ الأقبــاط من المصــادرات أعظم، كما فـرض مزيـدًا من الضـرائب والعوائد السنوية. وبعد هـذا حل بمصر وبـاء شـديد مـات بســببه الألــوف المؤلفة من المصــريين، وعــاد إبـــراهيم بك ومــراد بك وواصلا العسف والظلم

والقتـال حـتى جـاء نـابليون بحملته سـنة 1798 وهزمهما ودخل القاهرة.. وكان مـراد بك قد أعد لنفسه قصرًا واسعًا بجهة الأزبكية فكلف نابليون المعلم: جرجس الجوهري رئيس المباشـرين أن يعد هــــذا القصر له "ومن ذلك الحين عــــرف نــابليون المعلم جــرجس وأهــداه جبة مزركشة بالقصب ليلبســها، وأورد المؤلف ترجمة للمعلم جـرجس الجـوهري وأشـار إلى ما امتـاز به من العقل وكرم الأخلاق وعـدم التميـيز بين مصـري ونصــراني، كما أورد ما كتبه الجــبرتي "ومــات المعلم جــــرجس الجــــوهري القبطي كبــــير المباشـرين بالــديار المصـرية، وهو أخو المعلم إبــراهيم الجـوهري. ولما مــات أخــوه في زمن رئاسة الأمراء المصـرية تعين مكانه في الرئاسة على المباشــــرين والكتبة وبيــــده حل الأمـــــور وربطها في جميع الأقاليم المصـرية، نافذ الكلمة وافر الحرمة، وتقدم في أيام الفرنسـيس فكـان رئيس الرؤســـاء وكـــذلك عند مجيء الـــوزير والعثمانيين وقدموه وأجلسوه؛ لما يسـديه إليهم من الهدايا والرغائب حتى كانوا يسمونه جرجس أفندي. ورأيته يجلس بجـانب محمد باشا خسـرو وبجــانب شــريف أفنــدي الــدفتردار ويشــرب بحضــرتهم الــدخان وغــيره، ويراعـــون جانبه ويشـــاورنه في الأمـــور، وكـــان عظيم النفس ويعطي العطايا ويفـرق على جميع الأعيـان عند قدوم شهر رمضان الشـموع والعسـلية والسـكر

والأرز والكســـاوى والبن ويعطي ويهب. وبـــنى عدة بيوت بحـارة الونـديك والأزبكية، وأنشأ دارًا كبيرة وهي التي يسـكنها الـدفتر دار الآن ويعمل فيها الباشا (محمد علي) وابنه (إبـــراهيم باشـــا) الــدواوين عند قنطــرة الدكــة. وكـان يقف على أبوابه الحجـــاب والخـــدم. ولم يـــزل على حالته حتى ظهر المعلم غـالي وتـداخل في هـذا الباشا وفتح له الأبـواب لأخذ الأمـوال والمعلم جـرجس يـــدافع في ذلك، وإذا طلب الباشا طلبًا واســـعًا منه يقول له هذا لا يتيسر تحصيله فضـاق خنـاق المعلم جـرجس وخـاف على نفسه فهـرب إلى قبلي ثم حضر بأمـــان كما تقـــدم وانحط قـــدره ولازمته الأمراض حـتى مـات في أواخر شـعبان، وانقضى وخلا الجو للمعلم غـالي وتعين بالتقــدم ووافق الباشا في أغراضه الكلية والجزئية وكل شيء له بداية وله نهاية والله أعلم.

وقبل قيـام المعلم جـرجس إلى الصـعيد إما هاربًا أو منفيًا كما قيل جمع كل حجج أملاكه وســــلمها في البطركخانة لتنفق من ريعها على أهل بيته، فوضـــعت اليد عليها وبقت في حوزتها للآن.

ويشير المؤلف إلى وضع الفرنسيين الديوان وكـــان من اثـــني عشر عضـــوا، ســـتة منهم من النصـارى، وسـتة من تجـار المسـلمين، وجعلـوا المعلم ملطي القبطي رئيسًا له.

وأفــرد المؤلف فصلا لـــ "يعقــوب الجنــدي والجيش القبطي" وأنه كان من أصـحاب الأملاك والتجـــارة، ولما دخل الفرنســـيون تعلم لغتهم واتصل بهم واتفق معهم على تكــــــوين جيش قبطي فجمع من الصـــعيد حـــوالي ألفين من الشـباب الأقويـاء القـادرين على حمل السـلاح، وقبلهم الفرنسـيون وأخـذوا يـدربوهم التـدريب العسكري.

ويسـتطرد المؤلف "وسـار يعقـوب هـذا في خطة تحالف ما كـان عليه أبنـاء جنسه من حيث الهــدوء والســكينة والصــبر والاحتمــال وفــداء أرواحهم وأعراضـــهم في بعض الأحـــوال ببـــذل المـال والعطايا، فإنه فضلا عن مخالفته لهم في الـزي والحركـات اتخذ له امـرأة من غـير جنسه بطريقة غـير شـرعية، على أن رجـال الـدين ولا سيما البطريرك لم يكونوا راضـين عن تصـرفاته وأحوالــه. وســمعت من بعض الشــيوخ الأقبــاط المسنين أن البطريرك نصـحه المـرات العديـدة بالعـــدول عن هـــذه الخطة وأن يعيش كســـائر إخوانه فلم يقبل، وعادوه بالنصـيحة مـرة أخـرى فجاوبه جوابًا عنيفًا فسـخط عليـه. وسـمعت من آخر أيضًا - والعهـدة عليه - أن ما كـان بينه وبين البطريـــرك من المنازعة والمشـــاحنة دفعه إلى التجـــرؤ على الـــدخول إلى الكنيسة مـــرة راكبًا جـــــواده ورافعًا ســــلاحه، وطلب منه أن يناوله السر المقــدس وهو على ظهر حصــانه معتــذرًا

عن هذه الجسارة بأن من كان جنـديًا مثله يلـزم أن يكون على الدوام في أهبة واستعداد، وهذا لا يمنعه من تأدية الفـــرائض الدينية، وربما كـــانت هـــذه الرواية من قبيل المبالغة في النقل. ومما رواه الكتــاب ولا ســيما الجــبرتي الــذي كــان معاصرًا ليعقـوب يعلم أن ما اعتقـده البطريـرك مخالفًا وحسبه تهورًا وخروجًا عن الحد كان سببًا في حفظ حياته وحيــاة كثــيرين من الأقبــاط ولا ســيما ســكان الأزبكية حينما اختل النظــام عند اســتعداد الفرنســيس للجلاء عن مصر ودخــول عســـاكر العثمـــانيين وتحـــريض نصـــوح وقيل (ناصيف) باشا قائدهم على الفتك بالنصارى.

وأشـــار المؤلف للمعلم غـــالي الـــذي عمل تحت إمرة محمد علي وقال إنه كان على جـانب عظيم من الـــذكاء والنباهة "ويعـــرف من أين يؤكل الكتف" فلم يظهر للباشا معارضة.

ولما قصد محمد علي باشا تأســيس حكومة منتظمة وكـــان لا يخفي على المعلم غـــالي أنه توجد أراض كثيرة يزرعها أصحاب الاقتـدار بغـير دفع أمـــوال عليها؛ شـــرع في مســـاحة عمـــوم أراضي القطر المصـــري، فـــأظهر جملة أراض فـربطت عليها الأمـوال، وبـذلك تمت الإيـرادات فكانت هذه خدمة وطنية عظيمة قام بها، وقسم أطيــان كل بلد إلى حيضــان وقبائل، وجعل لكل بلد زمام مخصـوص وغـير ذلك مما تخفى فائدته فلا حاجة لإطالة الشرح فيه.

ولكن المعلم غـــــالي لم يفلت من غضب محمد علي الذي كـانت حاجته إلى المـال تجعله يكلف أعوانه بما لا يطيقونه، ولما يعجزوا يصادر أموالهم ثم يقدم لهم شفعاء. فيعيدهم شرط أن يـدفعوا مبـالغ أخـرى، ويقـول المؤلف وتكـرر حصـول ذلك من الباشا فكـان يغضب عليه تـارة ويعزله ويقلد غـــــيره من رفقائه ويرضى عليه أخـرى فـيرده إلى منصـبه بعد دفع مبلغ طائل لا يستطيع القيـام به من ماله الخـاص، فيختص هو بجـانب منه ويـوزع البـاقي على زملائه وغـيرهم من رؤساء الكتبة.

واتفق أن الباشا كـــــــــان قد توجه إلى الإسـكندرية لمهمة واحتـاج لنقـود فحـول على المعلم غالي صرف ستة آلاف كيس كـانت باقية عليه، فاعتذر بعدم الاقتدار على أدائها في الحال بـدعوى أنها بـواقي على أربابها وهو سـاع في تحصـيلها، فلم يقبل هـذا العـذر منه وأرسل إلى كتخـــداه في مصر بـــالقبض عليه، وعلى أخيه فرنســيس، وأمينه المـــدعو المعلم ســمعان وسجنهم في القلعة حتى يدفعوا هذا المبلغ.

وبعد قليل شـــرع الباشا في تغيـــير هيئة الــدواوين واســتبدالها بغيرها تكــون أنظم منها، وتعود بالفائـدة على الخزينة فرضي على المعلم غـالي وأناطه بـذلك، فقسم البلاد إلى مـديريات وأقسام والأطيان إلى أحواض وقبائل.

وبعد أن غــاب المعلم غــالي نحو ســنة في الصــعيد وهو يشــتغل في ذلك عـــاد إلى مصر،

وكان المتولي إمارة الصعيد من يدعى محمد بك الـــدفتردار فلما قصد المعلم غـــالي العـــود إلى مصر زوده بكتــاب منه للباشا يمــدح فيه نصــحه وسعيه في فتح أبواب تحصـيل الأمـوال للخزينة، وأنه ابتكر أشـياء وحسـابات يتحصل منه مقـادير وافــرة من المـــال؛ فقابله الباشا بالرضا وأثـــنى عليه ومن ثم اتخذه كاتبًا لسره وخصه بمباشـــرة الأعمال الحسابية التي ابتكرها، فكانت يده فوق يد الجميع حتى حكام الأقاليم، واسـتمر في هـذا المنصب الجليل إلى أن قتل في ســـنة 1821م لأسباب لا تزال حقيقتها خافية علينا.

وكـــان للمعلم غـــالي ثلاثة أولاد ذكـــور وهم باســـيليوس وطوبيا ودوس. ولما قتل دعا محمد علي باشا باســـيليوس وقـــال له "إن أبـــاك قد مات". فقال "حاشا لله يا سيدي فإني لا أعــرف لي أبا غـــير أفنـــدينا". فسر الباشا لجوابه هـــذا وخلع عليه وجعله محاسبجي الحكومة المصرية، وغمـــره بإنعاماته وإحســـانه وأنعم عليه بالرتبة الثانية، وهو أول من حازها من النصــــارى وبقى في هذه الوظيفة حتى مات. وكان محبوبًا مقبولا عند الباشا، ولما مات حزن عليه وأسف لفقــده. ولا يزال اسـمه يـذكر بين النصـارى والمسـلمين بالثناء والتبجيل. وكان المرحوم محمد علي باشا يعـول عليه كثـيرًا في بعض الأمـور، ومما يحكي عنه أنه غضب عليه مرة وأمره أن يلازم بيته ولا يخرج منه، واتفق أنه كان جالسًـا مـرة مع ذوات

حكومته فسـألهم إذا كـان يوجد نـوع من الـزرع يعطي الفـــدان منه أربعين أو خمســين أردبًا، فقـــالوا لا يوجد، فأرسل في الحـــال وأحضر بسـيليوس بك وسـأله هـذا السـؤال فقـال نعم يوجد ما يعطي أكــثر من ذلك بكثـير جــدًا وهو النخل والبصل فسر الباشا لجوابه ورضي عليه.

وعن حـال الأقبـاط في ظل العائلة الخديوية قـــال "ليس من ينكر أن الأمة القبطية أخـــذت تظهر في عالم الوجود ثانية منذ أيام المغفور له محمد علي باشا جد العائلة الخديوية، فإنه رحمه الله أظهر من أول وهلة ما دل على اعتبـــاره جميع المصـــريين على اختلاف مـــذاهبهم وأجناسـهم بمسـاواة واحـدة؛ فأبـاح لهم التمتع بالحرية والحقوق الوطنية على حد سواء، وكـان يجـــري عليهم الأحكـــام بالعـــدل والإنصـــاف والمســاواة ووزع خدمة الــوطن على أهله، كل بما له من الأهلية فخص القبط بما امتـــازوا به من الأعمـــال الحســابية وضـــبط الإيـــرادات والمصروفات، حتى قال أحد الإنجليز الذي حضر إلى مصر في أيامه لقصد التســـوح في تقرير رفعه إلى رئيس مجلس وزراء إنكلـترا وعــرض على البرلمــان "إن الأقبــاط للقلم بمثابة الفلاح للمحـــراث". وخص المســلمين بالمجـــالس والأعمال الإدارية والتحريرية، واليهود المصـريين بالائتمــان على خــزائن الــدواوين والمصــالح والمديريات، غير أنهم لم يلبثوا أن تركوها لعـدم

رضـاهم الشـغل في يـوم السـبت، فكـان في تركهم الخدمة الخير العظيم لهم؛ لأنهم اشـتغلوا بالتجـارة والمصـارفة فنجحـوا فيها نجاحًا عظيمًا واســـتغنوا بـــذلك عن ذل الخدمة وما فيها من صغر النفس.

وبتوسع محمد علي باشا في المصـــــــالح والـدواوين ازداد عـدد المـوظفين الأقبـاط في دوائر الحكومة، وبعد أن كـــــــانت وجاهة الأمة تنحصر في بعض أفراد قليلين أصبح بينهم وجـوه كثيرة في كل أنحاء القطر المصري.

ويخصص المؤلف فصلا خاصًـا للبابا كـيرلس الرابع الكبير فيعـرض بتفصـيل ملابسـات شـغله لهـذا المنصب سـنة 1853 ثم يقـول ومن ذاك الحين أخذ يباشر أعمـال البطركخانة وكـان أول عمل باشـــره بنـــاء مدرسة - وهى أول مدرسة أقيمت لتعليم شـبان الأقبـاط - فاشـترى عـدة منـازل وهـدمها وأقـام على أنقاضـها مدرسة فسيحة، فكان بناؤها موجبًا لإجمـاع الجميع على اختيـاره وفي ليلة الأحد 11 بؤونة سـنة 1570 قبطية الموافق (سـنة 1854م) سـيم بطريركًا بحضـور جميع الأسـاقفة ما عـدا أسـقفي إخميم وأبي تيج ولقب كيرلس الرابع.

فلما أصـــبح مســـتقلا في عمله شـــرع في إخراج مقاصـده من حـيز الفكر إلى الفعل فـأتم بناء المدرسة وأحضر لها أساتذة ماهرين، وكـان يقبل التلامـــــذة فيها على اختلاف جنســـياتهم

ومــذاهبهم ويصــرف لهم الكتب والأدوات مجانًا وكــان يباشر التعليم بنفسه فلا يمر عليه يــوم لا يتفقد فيه حالتها مــرة أو اثــنين أو أكــثر، ولمزيد الاعتناء بها اتخذ له محلا فيها لاستقبال الزائــرين فــإذا أتى إليه من الأجــانب أو غــيرهم من ذوي المعرفة باللغـات والعلـوم وطـرق التعليم يكلفه زيارة المكـاتب وفحص التلامـذة وإبـداء ملاحظه فيما يعود بتحسين حالتها وتسهيل طــرق التعليم فيهـا. وكثـيرًا ما كـان يطيل الإقامة في المكتب مصـغيا لما يلقيه الأسـتاذ على الطلبة ثم يقــول مخاطبًا التلامـــذة قبل خروجه: "قد اســـتفدت معكم اليــوم فائـدة لم أكن أعرفها قبلا"، وكـان أحيانا يلقي على التلامذة عبـارات أدبية وتاريخية مما يناسب ســـــنهم وإدراكهم وقد جعل اللغة القبطية جبريًا، وكـــان يلاحظ ســـير دروســـها بنفسه، ولما رأي أن بعض الطلبة يـــــأتون من جهات بعيدة، مثل حارة السقائين، شــفق عليهم وأنشأ مدرسة وكنيسة هناك.

وعهد إلى أحد قســـــــوس كنيسة الأزبكية المسمى القمص (تكلا) المشـهود له بإتقـان فن الموســيقى والألحــان الكنائســية أن ينتخب من بين تلامـــذة المدرسة الشمامسة عـــددًا معلوما من ذوي الأصـــوات الحســـنة وأناطه بتعليمهم التراتيل الكنائسية بطريقة مضبوطة، وجعل لهم ملابس مخصوصة على طـــــــراز جديد لطيف

يلبســونها أثنــاء وجــودهم في الكنيسة في أيــام الآحاد والأعياد والمواسم.

ولم يمض زمن حـــتى خـــرج من هـــاتين المدرستين عـدة تلامـذة، واتفق إنشـاء مصـلحة السـكة الحديد بالـديار المصـرية فـانتظموا في خـــدمتها وانتشـــروا في جميع محطاتها وكـــانوا يـــؤدون أعمـــالهم باللغة الإنكليزية وبعضـــهم استخدم في البنوك وعند التجار لمعـرفتهم اللغة الطليانية.

وأنشأ أيضا مطبعة استحضر أدواتها من أوروبا على يد المرحـــــــوم الخواجه رفله عبيد الـرومي الأرثوذكسي، وقبل إحضـارها اختـار من أبنــاء الأمة أربعة من شــبان الأقبــاط ورتب لهم رواتب شـهرية وملابس سـنوية تصـرف لهم من الـدار البطريركية، وتحصّـل على أمر من سـعيد باشا بقبولهم في مطبعة بولاق ليتعلمـوا صـناعة الطباعة.

ومما يـدل على شـدة احترامه للعلم ورغبته في نشرة وتنشـيطه أنه لما علم بوصـول أدوات المطبعة إلى الإســـكندرية - وكـــــان في دير أنطونيــوس بالجبل - بعث إلى وكيل البطركخانة بمصر يـأمره باسـتقبالها عند وصـولها باحتفـال رسمي يقوم فيه الشمامسة بالملابس الرسـمية المختصة بالخدمة الكنائسـية ويقابلونها من بـاب البطركخانة بالتراتيل والأناشـيد. وتحـدث النـاس كثيرًا بغرابة هذا الاسـتقبال، ولما عـاد من الـدير

وعلم بحـــــديثهم قــــال لبعضـــــهم إنى أتعجب لاســـتغرابكم هـــذا الاســـتقبال مع أنى لو كنت حاضـــرًا لرقصت كما رقص داود أمـــام تـــابوت العهـد. ولكن من الأسف إنه لم يـذق من ثمـرة أتعابه فإن التقادير لم تفسح له بالأجل حتى يرى بالعيـان ما كـان يتمـنى أن يـراه إلا من على بعد كما رأي موسى أرض الموعد.

وقد عـــرف المغفـــور له إســـماعيل باشا الخـديوي الأسـبق مقـدار هـذه الخدمة الوطنية فاستدعى إليه الأنبا دمـتريوس البطريـرك خلف الســعيد الـــذكر الأنبا كـــيرلس وأظهر ارتياحه للخدمة الوطنية الـــتي قـــامت بها المـــدارس القبطية وأنعم عليه بـــألف وخمســـمائة فـــدان ليتساعد بإيراداتها على توسيع نطاق المــدارس، ورتب لها أيضا مائتي جنية مصري ســنويًا، ولكن هـــــذه منعت فيما بعد بســـــبب عسر المالية واضطرار الحكومة للاقتصاد.

ويُجمل المؤلف "تاريخنا الحـــــديث وحالتنا الحاضـرة": كـانت الأمة القبطية قد وصـلت في أوائل الجيل التاسع عشر الحاضر إلى أقصى درجـــات الانحطـــاط واســـتحكام الجهل والفقر بســـبب فســـاد الحكـــام والمصـــائب المتوالية والنــوائب المتتابعة الــتي لو حلت بأمة غيرها ما أبقت منها بقيـــــة. ولما قيض الله لمصر الدولة المحمدية العلوية التي بذلت كل مرتخص وغـــال في إصلاح شـأن البلد وراحة العبـاد على اختلاف

أجناسـهم، عمت هـذه الإصـلاحات الأمة القبطية أيضًـا ومن ثم أخـذت تظهر في عـالم الوجـود بمظهر جديـد. ولو قابلنا حالتها الحاضـرة بـالتي كـانت عليها في أوائل هـذا الجيل لوجـدنا بين الحـالتين فرقًا عظيمًا ليس في التربية فقط بل وفي الأخلاق والعـادات واللبـاس والـزي والمسـكن. وما الفضل في ذلك إلا لعـدل الحكومة أولا والتربية والتعليم ثانيًا والاختلاط بالأجانب والتشبه بهم والنقل عنهم ثالثًا.

ويـذكر أن المـدارس الـتي أقامها كـيرلس الرابع لم تجدد نفسها مما جعلها دون المـدارس الأخرى. ولهذا فإنه تحت عنوان "النهضة الأولى" يشير إلى قيـام بعض المصـلحين بتكـوين جمعية سموها الجمعية الإصـلاحية وكتبـوا تقريـرًا ببيـان رداءة الحال ورفعوه إلى المطران (الأنبا مرقص مطران الإسـكندرية، الـذي قـام بأعمـال منصب البطريـرك بـدلا من البطريـرك دمـتريوس). وطلبوا إليه أن يهتم بتنفيذ رغـائب الأمة بإصـلاح حـال المـدارس والفقـراء بنفسه قبل أن تضطرهم تعاسة الأحوال إلى التدخل بالقوة.

فلما وصـله التقرير دعا عقلاء أعيـان الأمة بالقـاهرة وأطلعهم عليه فقـالوا له إن الطلب عـادل، وإنهم هم أيضًـا يزيـدون على ما تضـمنه التقرير أن الفسـاد قد تطـرق إلى الأوقـاف والقضايا. والرأي عنـدهم أن يتلافى الأمر بحكمة ويعقد جمعية من أبنـاء الأمة بالعاصـمة ويطلب

منهم انتخـاب أربعة وعشـرين شخصًـا يؤلفـون مجلسًـا لمعاونته وتعضـيده في تسـيير الأعمـال على محور الاسـتقامة وإجـراء الإصـلاحات الـتي يقتضــيها الحـــال. ولما تم ذلك طلبـــوا منه أن يلتمس من الحكومة صـــــدور الأمر باعتمـــــاد المجلس بصـفة رسـمية، فلـبى طلبهم وعـرض على الحكومة التماسًا يرجوها فيه الإقرار بتعيين مجلس إدارة للطائفة لمســـاعدته على تـــدبير الأمور؛ فأجابت الحكومة سؤاله وصدر بذلك أمر عــال بتــاريخ 15 الحجة ســنة 1290 وســمي المجلس الملي.

وهكـــــــذا ظهر المجلس الملي، ولكن من المؤسف أن حــدثت صــراعات ما بين أعضــائه والبابا كيرلس الخـامس مما أدى إلى حله لمـدة سبع سنوات، ويرى المؤلف أن "النهضة الثانيـة" جــاءت مع تكــوين الجمعيــات الحديثة القبطية وأولها "جمعية المساعي الخيرية، وكذلك جمعية طنطا ومدرستها وكذلك تأسست جمعيات خيرية في جهات كثـيرة في الـوجهين القبلي والبحـري مثل المنصــورة وقليــوب ودمنهــور والســويس وبــني ســويف والفيــوم والمنيا وأســيوط وقنا وغــيرهم وكلها تــرمي لغـرض واحد وهو معاونة الفقير وتربية اليتيم المعدم.

وشــرح المؤلف بنــوع من التفصــيل الأزمة الـــتي اســـتفحلت بين المجلس الملي ورئيسه بطــرس غــالي وبين البابا كــيرلس الخــامس إذ

داخل بعض الأعضاء حب الاستئثار ونفوذ الكلمة، ووسوس بعضهم للبطريرك أن يكون مستقلا مطلق التصرف. مما جعل الخديوي توفيق لا يقابل البابا كيرلس ونيافة مطران الإسكندرية وبعض الرؤساء الروحيين عندما توجهوا إلى سراي رأس التبين لتأدية رسوم التهاني في الحضرة الخديوية. أعقب ذلك أن طلب بطرس باشا غالي إلى الخديوى إبعاد البابا إلى دير اليرموس؛ فصدر بذلك الأمر العالي، ولكن ما كاد البابا يرحل إلى منفاه حتى ندم المجلس الملي وبذلت المساعي لدى الخديوي حتى أجابه بنفسهم وعاد البابا وسط فرحة عالية يوم 4 فبراير سنة 1893م. (إلى هنا انتهى الاستشهاد من كتاب تاريخ الأمة القبطية).

لعلنا نستخلص من هذا العرض بعض الخطوط العريضة:

1- احتفظ الأقباط لأنفسهم الأعمال الخاصة بمسح الأراضي وتحديدها، وتقاضي الضرائب وحسابات ذلك، وعجز كل الولاة عند دخول عمرو بن العاص عن زحزتهم عنهم، حتى عندما أصبحت الكتابة بالعربية، واحتفظ كبيرهم – الذي يمكن أن نسميه جابي الجباة – بمنصب يشبه إلى حد كبير منصب وزير المالية، بمنزلة رفيعة في الدولة تحدث عنها الجبرتى ومن سبقه، ومن خلفه ولم يخرج هذا الاحتكار عنهم إلا

عند تحـديث مصر وتأسـيس مـدارس حديثة لتخـريج المسـاحين والصـرافين الخ... الأمر الـذي امتعض له الأقبـاط ولكن لم يكن منه بد.

2- إن الأقباط بصـفة عامة احتفظـوا بحريـاتهم الدينية ولم يحاربوا في عقائدهم إلا مــرة أو مــرتين، وبعد اتهامـات بحـرق المسـاجد أو الاتصــال بالحبشة، وقد قبل الــذين اتهمــوا وخـيروا بين الإعـدام أو الإسـلام أن يقبلـوا الإســلام وخــالفوا بــذلك أســلافهم الــذين قـــاوموا الاضـــطهاد البـــيزنطي بشراسة لأسباب عديدة، أولها أن الإسلام أصـبح دين مصـــر، وأنه قـــريب من المســـيحية وأن الخُلْطة الوثيقة بين المســـــلمين والقبط هيأتهم لقبول الإسلام.

3- إنه لم يحـــدث أن اتفق الحكـــام وعامة الشـعب على عـداوة الإقبـاط فالـذي كـان يحـــدث في الأغلب الأعم أن يســـتبد بعض الحكـــام ويفـــرض ضـــرائب ثقيلة على المسلمين والأقباط، حـتى وإن كـان نصـيب الأقبـاط من هـذا التعسف أكـبر شـيئًا مـا. وعنــدما يخص الأقبــاط وحــدهم نــوع من العسف، فإن الشعب من المسـلمين كـانوا يأســون لهم ويؤاســونهم. ولم يحــدث أن نشـأت عـداوة بين المسـلمين والأقبـاط إلا في أواخر عهد الدولة الأيوبية، وفي عصر المماليك عنــدما انحط الــوعي الإســلامي

وأصـــــــبح يخضع لبعض المهوســــــين أو المتعصــبين الجهلــة. ولكن هــذا ما كــان ليستمر. وما كان هذا الهوس يشمل إلا قلة من المسلمين.

هي صفحة سـيئة، ولكنها مع هـذا كله أفضل مما كان شائعًا في العصـور القديمة فقد تعـرض الأقبـاط لمـذابح على يـدي البيزنطـيين أُريد بها استئصــالهم، كما استؤصــلت بالفعل بقايا العهد الإسلامي في أوروبا، ويلحظ فيها أنه كـان يعقب فــترات العسف إصــلاح ما أفســدته من بنـــاء الكنـــــــــــــــــــــــــــــــــــائس أو تعويض المتضررين.

ويجب أن نعلم أن الحكم الذي يوصف عـادة "بــالحكم الإســلامي" لم يكن إســلاميا حقًا لأن الحكم الإســــلامي لم يظهر إلا لمـــــدة خمسة وعشرين عامًا طوال تاريخ الإسـلام. عشـرةٌ في عهد الرســــــول واثنا عشر هي خلافة أبى بكر وعمر. وبعدها بدأ الهرج وانتهى الحكم الإسلامى "رسميا" سنة 40 هجرية عندما حـول معاوية بن أبى ســـفيان إلى ملك عضـــوض. وبالتـــالي لا يحسب هذا الحكم على الإسـلام – أي منذ سـنة 40 هجرية حــتى نهاية الخلافة العثمانية في عهد مصـطفى كمـال، فهـذا حكم حكـام وليس حكم إســلام، وقد عــانى المســلمون منه كما عــانى غيرهم.

4- إن هذه الصور تقترف مع دخول مصر العهد الحديث، وعلى يـدي محمد علي وخلفائه إذ طـويت آثـار العهد القـديم مع إلغـاء سـعيد باشا للجزية سنة 1850 والسـماح للأقبـاط

للانخـــــراط في الجيش وتعـــيين قضــــاة، ومـدیرین من الأقبـاط بحيث تحقق إلى حد كبـــير ما يقـــوم عليه العصر الحـــديث من حريات ومساواة مما سنعرض له في النبذة التالية.

- 2 -

أشــرت في الفصل الأول من هــذا الكتــاب عند الحــــــديث عن الأقلية القبطية إلى الأقلية اليهودية الـــتي تعد مدرسة الأقليــــات والـــتي توصـلت إلى سـلاحين يمكن لها بهما أن تعـوض نقصها العددي بحيث تتســاوى مع الأغلبيــات، بل وتهيمن عليها، هذان هما العلم والمال.

وقد توصــلت الأقلية القبطية المصــرية إلى ذلك بحكم وعيها الفطــري واســتطاعت بالفعل أن تثبت وجودها بفضل هـــــــذين، وإن لم يكن عملها منهجًا وبعد أن كـــــان مطمحها الأول هو الاحتفـــاظ بمهمتها التقليدية في خدمة الحكومة كوسيط ما بين الحكومة، والفلاحين يقوم بتحديد مســــــــــاحات الأرض وحيازاتها وما عليها من ضــرائب، كما يقــوم صــراف القرية بالتحصــيل الخ... فإنها بـــدأت تتجه اتجاهـــات تقـــوم على تحصـــــــيلها للعلم والمعرفة من ناحية ودخولها مجال الأعمال الـذي كـانت صـورته الأولى تملك مسـاحات كبـيرة من الأراضي ثم دخلت مجـال الشركات والبنوك والتجارة الخ...

وكما لاحظ مؤلف "تاريخ الأمة القبطيـة" أن اليهـود عزفـوا عن شـغل وظـائف مالية عرضـها عليهم محمد علي لأنها تجعلهم يعملـــون يـــوم السبت فكان ذلك حرصهم لأنهم جعلهم يعمـلون

في التجارة والاقتصـاد والمـال بحيث اسـتحوذوا على ثروات كبيرة.

وقد بـــدأ دخـــول الأقبـــاط مجـــال التعليم بالمـــدارس الـــتي كونها البابا كـــيرلس الرابع والمطبعة الـــتي اســـتوردوها. ثم حـــدثت دفعة جديـدة بتكـوين جمعيـات اجتماعية ثقافية خيرية يدخل في برامجها إنشاء مدارس. وأخيرًا جـاءت الخطوة المنظمة المنهجية بظهور مدرس الأحد.

ولو كـــان لـــدى الكنيسة القبطية الانفتـــاح والفهم ومسـايرة العصـر، لاسـتطاعت أن تفعل كما فعلت الإرساليات الكاثوليكية والبروتستانتية الـتي جـاءت أساسًـا للتبشـير، ولما وجـدت أن التبشير المباشر صعب وفاشل لجأت إلى تكوين مدارس ذات مستوى فنى متقدم ويعنى باللغات الأوروبية الحديثة، وجذبت هذه المـدارس معظم أبناء وبنات الطبقة الوسطى والطبقـات الثريـة، ولكن أفق الكنيسة القبطيـــة، كـــأفق المؤسسة الإسلامية لا يزال محدودًا يمثل الحفـاظ والتقليد أكـثر مما يمثل التقـدم والانفتـاح فوقف دخولها مجـــال العلم مع مـــدارس البابا كـــيرلس الرابع والمطبعة الـــــتي اســــتوردوها. ثم جـــــاء دور الجمعيـــات الخيرية الثقافية الـــتي عـــنيت بفتح مدارس تخرج منها كثيرون من قادة الرأي العام والسياسة ورجال الإدرارات مثل بطـرس غـالي وحســين رشــدي ممن تقلــدوا رئاسة الــوزارة ومحمــود عبد الــرازق الــذي كـان وكيلا لــوزارة

الداخلية وقليـني فهمي وغـيرهم، وأخـيرًا جـاءت الخطـوة الحاسـمة بتكـوين مـدارس الأحد على يدي حبيب جرجس.

ورأي مؤلف كتـــــاب "الأقبـــــاط والقومية العربية" أن حبيب جـرجس يمثل اتجـاه الإصـلاح من داخل الكنيسة ويقول عن هذا الاتجاه:

أما الاتجـــاه الأول فقد بــــرز فيه منذ عــــام 1898 حــبيب جـرجس (1876-ـ 1951) الـذي أصــبح مــديرًا للمدرسة الأكليريكية عـام 1918 وقد قـــرن دعوته - أي ترقية المســتوى العلمى والثقـافى لرجـال الأكلـيروس - بجمع الأطفـال وتدريســهم مبـادئ الـدين المسـيحي. ثم طـور عمله فأنشأ في عــــام 1900 ما عـــــرف باسم "جامعة المحبــة" وأصــبح من مهامها في 1905 تعليم طلبة المدارس الأميرية الـدين المسـيحي. ودعا الشـــــباب المتعلم إلى التطـــــوع لإلقــــاء الـدروس الدينية على الأطفـال، واكتملت حركة مـدارس الأحد في صـورة مؤسسة داخل نطـاق الكنيسة القبطية في عام 1918م.

وكـان من الواضح أن من بين الـدوافع الـتي أدت إلى تشكيل مـدارس الأحد مواجهة مسـعى الكنيسة الإنجيلية إلى اســــتقطاب الشـــــباب الأرثوذكسى إلى مدارسها التي كانت قد سـبقت إلى تنظيمها.

ثم اتسع نشاط مدارس الأحد في الأربعينات ليشـــمل أنشـــطة اجتماعية ذات صـــبغة خيرية بحتة.

ولكن في مرحلة الخمســـينات تم تطـــوير بـــرامج هـــذه المـــدارس وتعـــددت مســـتوياتها التعليمية لتلائم الأطفـــــــال وتلاميذ المراحل الابتدائية والثانوية، كما تضمنت توجيه المدرسين المتطوعين إلى العمل في القرى وفي الأوساط العماليـة. وتضـمنت بـرامج الدراسة مـواد مثـل: التـــــاريخ وعلاقة الكنيسة بالدولة والمجتمــــع، والخلافـــــــــــــات المذهبية مع الكاثوليكية والبروتســتانتية وغيرهــا، كما تضــمنت أســاليب الخدمة الاجتماعية استخدام الإحصاء لحصر عدد الأقباط في القرية. وفيما يتعلق بالعمال تضــمن البرنـامج شـرح العلاقـات الاجتماعية على ضـوء المبادئ المسيحية "لتحصين العمـال ضد أخطـار البيئة وسموم التعاليم والأفكار الخاطئة".

هنا نلاحظ ملاحظة ســريعة وهي أن تطــوير مدارس الأحد وتوســيع أنشــطتها الاجتماعية لابد وأن يفضي – وبحكم منطقه الداخلي على الأقل – إلى الاقـــتراب المحتـــوم من تخـــوم الحيـــاة السياسية، والعمل السياسي.

ثم اتجهت حركة الإصـــــــــلاح الكنسي إلى تحقيق نهضة قوية وهي النهضة الــتي يقــدر أنها انطلقت عام 1948 تحت تأثير نواة محدودة من الرهبـــان - ســـوف يكـــون منهم فيما بعد الأنبا

شـنودة الثـالث البطريـرك الحـالي والأب مـتى المسكين والأنبا صـموئيل أسـقف الخـدمات (ت 1981) وغـــيرهم - وتـــوالى تـــدفق الرهبـــان وانتشـــروا في العديد من الأديـــرة، ولوحظ لأول مرة أن كثيرين منهم من بين خريجي الجامعات.

واســـتمرت مـــدارس الأحد تنمو في داخل الكنيسة وانتظمت فيه أعداد كبـيرة من الأجيـال الشـابة بما في ذلك طلاب الجامعـات والمعاهد العليـــا. وفي صـــفوفهم بـــرزت قيـــادات دخلت معـارك دمقرطة نظم انتخابـات البابا والمجلس الملي، حـــتى إذا ما طـــرحت مســـألة ترشـــيح البطريـــرك الـــذي يخلف يوســـاب الثـــاني (ت 1956)، تقدم عشرة من المرشحين كانوا كلهم من تلاميذ مدرسة الأحد (من بينهم الآن أبـــــرز الشخصـيات الدينية حاليـا: البطريـرك الحـالي وغريغوريـــوس أســـقف عـــام الدراســـات العليا والثقافة القبطية والبحث العلمي. والأب مـــــتى المســـكين). وفي عـــام 1959 عنـــدما أصـــبح كـــيرلس الســـادس بابا وبطريـــرك الكـــرازة المرقســـية كـــان أقـــرب مستشـــاريه هم من الرهبان العشرة الذين أشرنا إليهم.[6]

وهـــذا الجيل – جيل الأربعينـــات – كـــان هو "جيل القـرار الصـعب، جيل كـان عليه أن يختـار طريقه. بالطبع كان الكثـير من أبنـاء هـذا الجيل

---

6 (?) **الأقبـاط والقومية العربية، للأسـتاذ: أبو سيف يوسف ص 140 – 141.**

قد وجد طريقة إلى الحيـاة العامة في المجتمـع، والبعض قد ابتعد عن الكنيســة، ولكن جــزءًا من الطبقة الوسطى التف حول الكنيسة وتعلق بها، وأيضًا كـان للكنيسة دور كبـير في حيـاتهم، فعن طريق مدارسها نالوا حظًا وافرًا من الثقافة.

ورأي أن هـذا الجيل هو جيل الصـدام الـذي تجسد في صدام الكنيسة والدولة أو صدام البابا شنودة الثالث وأنور السادات.

ويلحظ أن هـــــــذا الجيل بعد أن تعلم في مـــدارس الأحد واصل تعليمه حـــتى تخـــرج من الجامعـــات ثم دخل الـــدير فتلاقت المكونـــات المدنية مع المكونات اللاهوتية؟ وكان ذلك إيـذانا بـــدخول الكنيسة مرحلة جديـــدة، مرحلة تـــدخل الدين في الدنيا، والكنيسة في السياسة والعمل العـــام وتتوقف النتيجة على درجة تـــوازن هـــذه القوى في نفس الجيل، ويبـــدو أنه رغم الدراسة الجامعية "العلمانية" فإن أقباء الـدير الموحشـة، والدراســات اللاهوتية والتركـيز على الكنسـيات كــــان أقـــوى، وجعل رجـــال الكنيسة يـــبرزون المضمون القديم، ولكن بأسلوب حديث.

وقد يجــوز لنا أن نقـارن بين حركة الإخــوان المسلمين التي أدخلت "الدعوة" في الجامعات، وبين حركة جيل الأربعينـــات المســـيحي الـــذي أدخل الجامعة في الدير.

على كل حـــال، فـــإن هـــذا كـــان شـــأن المجموعـــات الـــتي أرادت الإصـــلاح من داخل

الكنيسة، وكان هذا فريقًا محـدودًا، أمـام الفريق الأكـثر عــددًا فقد رأي أن ســبيله الطــبيعي هو اقتحام المدارس والجامعات التي أقامتها الدولة ومنحها للجميع دون أن تعتد بدين أو عـرق الخ... واسـتطاع الأقبـاط أن يجـاوزوا نسـبتهم العددية في دخول الجامعات، وبوسـائلها. وقد ذكـرت د. سميرة بحر أن 40% من أسـاتذة الطب و40% من طلبتها كانوا من الأقباط وكانوا يشتغلون في وزارة المالية 60% من الوظائف العادية و90% من الوظائف العليا و100% في وظائف معينة.

وتستطرد د. سـميرة بحر "وقد قـام الجهـاز المركزي للتعبئة والإحصاء بعمل حصر للمديرين في مجـالات الإدارة بقطـاع النشـاط الاقتصـادي العـــام في جمهورية مصر العربية عـــام 1974 وإن كــان حصــرًا مــوجزًا لا يوضح ما إذا كــان المقصود بهؤلاء المـديرين الموجـودين بوظـائف الحكومة فقط أم أنه يشـــمل أيضًـــا مـــديري شــركات ومؤسســات وهيئــات القطــاع العــام والجهـــــات الرســـمية المســـتقلة مثل رئاسة الجمهورية ورئاسة الــوزراء، ومجلس الشــعب، وأكاديمية البحث العلمي، والمجلس الأعلى للرياضة[7] الخ...

مسلمون	العدد	100.27	النسبة
79.2			

[7] **(7) الأقباط في الحياة السياسـية المصـرية. د. سميرة بحر. ص165**

أقبـاط	العدد	6.837		النسبة
	20.0			
أخرى	العدد	271	النسبة	8

هذا ومعلـوم أن نسـبة الأقبـاط إلى مجمـوع السكان هي 7% تقريبا.

أما بالنسـبة للاستحواذ على الأراضي الزراعية الـتي كـانت قبل التطـور الاقتصـادي الحـديث هي رمز الـثراء، فقد جـاء في كتـاب: "الأقبـاط في السياسة المصـرية" للـدكتور مصـطفى الفقي "وتظهر دراسـات تـاريخ ملكية الأراضي في مصر الحديثة أن الأقبـاط كـان لهم وضع خـاص في ذلك المجـال منذ عهد محمد علي، ففي أوائل عـام 1846 امتلك باسـيليوس بك بن المعلم غالي، عددا من الضياع في الدلتا، كانت مساحة إحـداها ألفي فـدان من الأراضـي، وفي عـام 1870 ورد في بعض الكتابـات ذكر مالك أراضي قبطي كبير اسمه بطرس أغا. كان يمتلك أكـثر من ألفي فـدان بـالقرب من جرجـا. وكـان يـربي خيـولا وماشـية وأغناما على نطـاق واسـع. واسـتثمر عـددٌ من الأقبـاط الأثريـاء من مصر العليا رءوس أمـوالهم في الأراضي والمـزارع في الـدلتا. وهي المنطقة المتطـورة المتقدمة في ذلك الـوقت. فامتلك تـاجر قبطي هو جـرجس اسـطفانوس – من مصر العليا – على سبيل المثال، أكثر من ألفي فدان بـالقرب

من مدينة أجـا، وبعض المنـاطق الأخـرى، وقـام بـــتركيب كثـــير من مضــخات الــري على ترعة المنصــورية، واشــترى محلجا للقطن، ومعصــرة لقصب الســكر، وبــنى قصــرًا تحيطه حديقة في قريتـــه، وكـــان عـــدد من الأقبـــاط من مـــالكي مضـــــخات الــــري في مصر الســــفلى (الوجه البحــــــري) خصوصًــــــا في المنوفية والدقهلية (حوالى 9% في كل منهمـا). وعـدد أقل إلى حد ما في الغربية (4.2%) وفي عـــام 1819 كـــان عـــدد قليل من العـــائلات القبطية الـــتي تمتلك ضياعا في مصر العليا يـأتون في المرتبة الرابعة بين أكــثر الجماعــات أهمية بالنســبة لمســاحة أملاكها من الأراضي (بعد الدولـــة. وعائلة محمد علي. وطبقة كبــار المــوظفين) ويركز عــدد من الكتب التي صدرت في بداية القرن الحالي على أهمية الأقبــاط بصــفتهم كبــار ملاك أراضي في مصر العليا، وبالإضـــــــــافة إلى ملكية الأراضي القبطية كأفراد توجد أيضًا الأوقاف القبطية.

وحيث إن نظــام الوقف الإســلامى يســمح لأبنـاء الطوائف الدينية الأخـرى الـذين يعيشـون في دولة مســلمة (أهل الذمــة) بتحديد أوقــاف على أغراض يحددونها. ووفقا لذلك قـامت بعض الأقليـــات المســيحية بإنشـــاء أوقـــاف لصـــالح معاهـــدهم الدينية فتم وقف مســـاحات كبـــيرة لمساعدة البطريركية الأرمنية. وأخرى للكاثوليك اليونانيين، إلا أن المنح والأوقاف الضخمةالكبيرة

كـانت تخص الطائفة المسـيحية الرئيسـية وهي الأقباط الأرثوذكس.

وقد ورد في تقرير قدمه "المجلس الملي العــام للأقبــاط الأرثــوذكس" عــام 1906 أن كنائسهم وأديرتهم كـانت تمتلك حـوالى 15 ألف فـــدان من الأراضـــي. وأن المســـاحة الكلية للأوقــاف القبطية الــتي كــانت تخص الأديــرة والبطريركية بلغت 32 ألف و124 فـــدانا، وأنه لمن الصــعب بمكــان التوصل إلى تقــييم دقيق فيما يتعلق بتطـور الأوقـاف القبطيـة، فقد كـان هناك صراع مرير تدور رحاه طـوال ثمـانين عاما بين رجـال الـدين الأقبـاط والرهبـان. والمجلس الملي. حـول موضـوع إدارة الأوقـاف القبطيـة، وكــان أحد الأهــداف الواضــحة الــتي من أجلها أنشــــيء المجلس الملي عـــام 1874 هو أخذ مسئولية إدارة الأوقاف من رجال الـدين، الـذين كــانوا ما يزالــون يــديرون شــئونه حــتى ذلك الوقت".

"وأية دراسة للأرقـام الخاصة بتوزيع الـثروة في مصر عند نهاية القرن التاسع عشـر، سـوف تكشف النقــاب عن عامل هــام ذي مغــزى في تقــييم الحيــاة القبطية في ذلك الــوقت. **فقد كــانوا يملكــون خمس الأراضي الزراعية والمباني بالإضافة إلى ما كـانوا يملكونه في البنوك، ومع أنهم كانوا يمثلــون 6% من ســكان مصــر، فقد كــانوا يــدفعون**

16% من ضـرائب الأراضي الزراعية مما يعـــني أنهم كــانوا يتمتعـــون بوضع اجتمـــاعي أفضل نســـبيا من بقية المصـريين، كما أن هـذا يفسر ويـبرر – في الــوقت نفسه – النهضة والارتقـاء في مستوى تعليمهم".[8]

وعني الأقبـاط بإصـدار صـحف عامة (تفرقة لها عن الصحف التي كانت تصـدر عن الكنيسـة) وكانت الصحيفتان الرئيستان هي الوطن ومصر، وقد أنشأ صـحيفة (الـوطن) ميخائيل عبد السـيد عـــام 1878م وهو قبطي تخـــرج من مدرسة الأقبـــاط، ثم درس في الأزهر الشـــريف، وقد بدأت صـحيفته صـدورها بتوجيه النقد إلى جمـال الدين الأفغاني ونزعته الدينية.

وتـــوقفت "الـــوطن" عن الصـــدور إلى أن عــادت مــرة أخــرى تحت إدارة ورئاسة تحرير جنـدي إبـراهيم سـنة 1901، وفي سـنة 1895 أصدر تادروس المنقبادي صـحيفة "مصـر" ولقى تشجيعا ودعما من بطـرس غـالي باشا الـذي لم يكن على علاقة طيبة مع عبد الســـــيد رئيس تحرير "الــوطن" ولعبت صــحيفة "مصــر" دورا رئيسيًا في الدعاية للمؤتمر القبطي سنة 1911 وكانت لسـان حـال التيـار القبطي المتعصب؛ إذ

---

8 **(?) الأقبـــاط في السياسة المصـــرية: د. مصطفى الفقي – دار الشروق ص 29، 30، 31.**

كان ميخائيل قرياقوص – الممثل القبطي الدائم في لنـــدن – مراســـلها هنـــاك. وقد تبـــادلت الصحيفتان القبطيتان الانتقاد إلى أن التقتا حول قضية مشتركة تتعلق بـالمؤتمر القبطي. وبـدأت صحيفة "مصر" من سنة 1918 تتخذ جانب سعد زغلول ورفاقه"[9].

وهكــذا نــرى أن الأقبــاط كــان لهم وجــود ملموس في المجال الاقتصادي بشقيه الــزراعي والمصــرفي. كما كــان لهم وجــود في اقتصــاد الخــــدمات، وكــــان لهم صــــحافة خاصة داخل الكنيسة، وصحافة عامة للجمهور المصـري. وأن الأقباط بشـرائحهم الثلاث انـدمجوا في المجتمع المصــري ودخلت كل شــريحة مع ما يماثلها من المسلمين فالشريحة العليا تتمثل في كبار ملاك الأراضي والرأسـماليين. أما الشـريحة الوسـطى فهي تضم مختلف المهن من طب، أو محامــــاة، أو محاســبة أو المــوظفين في الدولة مع تركــيز في بعض القطاعــــــات مثل الســــــكة الحديد والتليفونــــات. أما الجمعة الأخـــــيرة فهي تمثل الفقــــراء الـــذين كـــانوا يعملـــون مع أمثـــالهم المســـلمين في الزراعة أو بعض المهن كالبقالة وغيرها. وكانت نسبة وجودهم في هذه المجالات تتجاوز بكثير نسبتهم العددية.

---

9 **(9) كتاب الأقباط في السياسة المصـرية. د. مصطفى الفقى. من ص30 إلى ص36**

إن المجـال الوحيد الـذي لم يدخله الأقبـاط كــــان مجــــال الســــلطة والحكم رغم أنهم، وكنيسـتهم كـان لهم مسـاهمة وطنية خاصة في وقت الأزمات كالحروب أو الثورات أثبتت صـدق وطـنيتهم، فكـانوا ضد الصـليبيين حـتى الحملة الفرنسـية، فكـانت حلقة جمـال الأفغـاني تضم عناصر مســـيحية، وأنه لم يكونــــوا من القبط وأيــدوا عــرابي رغم ما في ذلك من المخــاطر، نقـول رغم ذلك فـإنهم لم يطمحـوا إلى مناصب الحكم. فقد دخلـوا المجـالات السـابقة كأقبـاط مصـريين، لأن التجـارة أو الاقتصـاد ينعـدم فيها التميـيز؛ لأن النقـود لا رائحة لهـا، ولا جنسـية أو دين أيضًـا، أما مراكز الحكم – خاصة في العهـود القديمة فـإن الحكم يقـوم على الـدين، أو يتصل به اتصالا وثيقًا.

وكان الوصـول في مناصب السـلطة وحـتى الانتخابـات النيابية يتطلب نوعًا من التجـاوب مع مشـاعر الجمهـور، بل ودغدغة هـذه المشـاعر، وكــــان الإســــلام أبرزهـــا، على أن روح الحقبة الليبرالية سـمحت بـأن يشـغل مناصب الـوزارة وزراء أقبـاط، بل ويهـود فكـان يوسف قطـاوي وزيـرًا للماليـة، وكـانت زوجته كـبرى وصـيفات الملكـة. وكـان هنـاك وزيـرًا و وزيـران في كل وزارة لا لمطالبة الأقباط، ولكن لأن روح العدالة والإنصاف وضرورة تمثيل الشـعب كـانت تقضي بذلك. وبالطبع ففى ثـورة 19 ارتفع المد القـوي

بحيث رشح الوفد قبطيًا في دائـــــرة ليس فيها قبطي واحد ونجح، وقــال هو نفسه: أنا النــائب القبطي في دائـــرة ليس فيها قبطي إلا نائبهــــا. ولكن هذا كـان وضـعًا اسـتثنائيا، لم يُنَهَّج أو يُقَعَّد أو يتـابع، ولم يحـاول الأقبـاط مجـاوزة ما لحظه المجتمع من تلقاء نفسه من تمثيلهم في مجلس الوزراء لأنهم كانوا من الذكاء بحيث يعلمــون أنه ما دام العلم والمــــال في أيــــديهم، وما دامـــوا سـالمين في عقيـدتهم فـإن عـدم تمـثيلهم في السـلطة لم يكن هاما، وكـانوا من الـذكاء بحيث يعلمــون أن العلم والمــال أقــوى من السياسة، وأن السياسة محتاجة إليهما أكـــثر من حاجتهما إلى السياسة. فلم يكن ذلك "سلبيّة" كما تصــور الجيل الـــذي مثله شـــنودة، ولكنه كـــان ذكـــاءً وتواءما مع الوضع.

والحقيقة إننا لا نـرى في الأقبـاط نزوعًا نحو السـلطة أو إحساسًـا بالحرمـان من مناصـبها إلا بعد الاحتلال، وبعد أن وضع الإنجلـــــيز بــــــذرة الحساســية الدينية وأوعــزوا إلى الأقبــاط عقد المؤتمر القبطي سـنة 11 وهو مـؤتمر لم تباركه الكنيسة ولم يمثل معظم الأقبـاط، وفي الـوقت نفسه فإنه لاحظ الاعتبارات العامة قدر ما لاحظ الاعتبارات الخاصة (أي القبطية) وعنـدما قـامت ثورة 19 اكتسـحت ونكست تماما كل ما وضـعه الاحتلال وحققت وحـــــــــدة حقيقية، وجعلت الصـــحيفة الـــتي تمثل الأقبـــاط تكتب بالخط

العـــريض "ليس للأقبـــاط مطـــالب". وجعلت ســـرجيوس يقـــول إذا كـــانت بريطانيا في مصر لحماية الأقباط فليمت الأقباط ولتحي مصر حرة مستقلة.

ومن المؤسف أن حـزب الوفد الـذي اعتـبر نفسه ممثل ثـورة 19 لم يؤصل هـذه الوحـدة، ولهذا فإن شعلتها انطفأت بعد ذلك. ولكن أثارها بقيت وكفلت السلام طـوال المرحلة الليبراليـة، حـتى قـامت حركة 23 يوليو الـتي أخرست في عهد عبد الناصر الصوت الديني مسلمًا أو قبطيًا، فلما فتح الســادات أبـــواب الحرية عـــادت كل ســوءات الحكم الناصــري – كما اقــترن عهـده بظهور جماعات العنف الإســلامية بانتخـاب البابا شنودة بطريركيا فتهيأ المسرح لموجـات متتالية من "الفتنة الطائفية".

الفصل الرابع
خيار المواطنة

تقدم المواطنة خيـارًا مريحًا للأقلية الأقبـاط فالمفروض أن المواطنة إنما تنشأ عن "الوطن" الـــــذي يعيش عليه الإنســـــان، وينسب إليه، والأقبـاط يعيشــون على هــذه البلاد حــتى قبل ظهـــور الإســـلام فلا يمكن لأحد أن ينكر عليهم أنهم "مواطنون ومواطنون أصلاء".

ويقــترن بالمواطنة المســاواة في الحقــوق والواجبات فهذا شرط أساسي لقيـام وطن حـر. ومجتمع ســـــليم يخلو من العقد والمشــــاكل. ويفترض بالطبع أن يكون هذا التسـاوي حقيقيًـا، وأن يكون مستنده هو المواطنة، التي كما ذكرنا حق ثـــابت للأقبـــاط.. وأي ممارسة أو إجـــراء يخـالف قاعـدة المســاواة يعد مخالفًا لدســتور المواطنة الذي هو في أصل كل الدساتير.

ومن زاوية الفكر الإسلامي، فـإن الإسـلام لا يــرفض المواطنة بل يأخذ بهـا، بل يمكن القــول إن الإسـلام كـان أسـبق النظم إلى التوصل إلى هــذا المبــدأ وتقريـــره بالفعـــل. فعنـــدما دخل الرسول المدينة وجد فيها الأنصار، وهم السـكان الأصـــليون للمدينـــة، ووجد معهم اليهــود الـــذي

أقـاموا في المدينة واشـتغلوا بالتجـارة والحـرف وأقاموا لهم آطاما أو حصـونا وعقـدوا محالفـات مع الأنصار كما كان هناك المهـاجرون الوافـدون على المدينة هربا من الاضـطهاد في مكـة. كـان من الأعمــــال الأولى للرســــول أن كتب وثيقة يطلق عليها في الكتب التراثية "صــــــــــحيفة الموادعــة"، ويطلق عليها في الكتابــات الحديثة دســــتور المدينة، جـــــاء في هــــذه الوثيقة أن المهــاجرين الوافــدين - والأنصــار وهم ســكان المدينة الأصلاء واليهـود المتحـالفين مع الأنصـار "أمة واحــدة"، للمســلمين دينهم ولليهــود دينهم وهم يتكــافلون بــالمعروف ويــدافعون معا عن المدينـة. ومعـنى هـذا أن هـذه الوثيقة اعتـبرت اليهود، الذين لم يكونـوا سـكانًا أصـلاء مواطـنين كالمسلمين وأنهم معا يكونون أمة واحدة.

ونحن نعترف أن هـذه السـابقة لم تتـابع في نظم الحكم الإسـلامي، وأن صـورة أخـرى حلت محلها لم تكن هي الصـــورة المثلى، ولكنها بنت الضـرورات والأحكـام الـتي انتهى إليها الفقهـاء، وكــانت تعــارض في قضــية المواطنة ما قــرره الرســول، وما كــان يجب أن يؤخذ بــه، وهنــاك احتمــال - إذا قــامت دولة إســلامية، تأخذ بما وضـعه الفقهـاء (وليس ما قــرره الرســول) أن يحيف على الأقباط أو غيرهم من الأقليـات، وقد كان هذا أحد الأسباب - حتى وإن لم يكن أقواها - في أننا اســــتبعدنا أصلا فكــــرة إقامة دولة

إســـلامية وعرضـــنا مـــبررات ذلك في كتابنـــا: "الإسلام دين وأمة وليس دينًا ودولة.."

ولكن للقضية أبعاد أخرى..

فمع نيل فكـرة المواطنـة، فإنها ترتكز على عنصر "الانتمـــاء" وإنها لا تثمر ســـوى الوطنية، والوطنية عاطفة نبيلة دون شك ويجب أن يتسم بها كل من يعيش على أرض الـــوطن، ولكن ما أكثر ما أسيء فهم "الوطنية"، وما أكثر ما شنت حـروب وسـفكت دمـاء باسـمها.. وما أكـثر ما يحدث أن يصل التعصب بها إلى "الشوفونية".

وقد عايشنا صـورة بغيضة لها عنـدما احتـدم الصراع ما بين سعد زغلول وعدلي ونـادى بعض غلاة الوفد: "الحماية على يد ســـعد أفضل من الاســـتقلال على يد عـــدلي". "ولو رشح الوفد حجـــرًا لانتخبت الوفـــد". وعنـــدما أطلق ســـعد زغلـول على اللجنة الـتي وضـعت دسـتور 23 "لجنة الأشـقياء" وقد كسب بعد ذلك جـزءًا من مجده بالدفاع عن هذا الدستور نفسه.

والأمر بعد لم يقف عند هذا..

فبجـانب عاطفة الانتمـاء توجد في الإنسـان عاطفة أخرى يمكن أن نسـميها الـولاء، وعاطفة الانتمـاء تعـود إلى الأرض. وعاطفة الـولاء تعـود إلى الفكر الـــذي نجد أكـــثر بلورته تركـــزًا في الدين، وهكذا نرى مرة أخرى عـاطفتين – وليس عاطفة واحـــدة – تتقاســـمان نفس الفـــرد، وقد يحق لأصحاب الأديان أن يقولوا إن عاطفة الولاء

الـــتي تأخذ شـــكل الإيمـــان أقـــوى من عاطفة الانتماء الـتي لا تعـود إلا إلى مصـادفة هي ولادة الفــرد على هــذه الأرض. وقد رأينا المونســتيور باسـيليوس يقـول: إن المسـيحي لا يعـدل بدينه دينًا آخــر، وأن التســاهل في المعتقــدات يكــون على حساب نقاء عمق الإيمان.

من هنا فإن خيار المواطن، وإن قــدم مظلة يسـتظل بها الجميـع فإنها لا تنفي وجـود ولاءات مختلفة داخلهـا. وهي وإن كـانت مقصـورة على العقيدة دون غيرها من المجالات، فإن المجالات الدينية تتفتح على مجالات أخــرى وتسـحب على الأعيـــاد، والأضـــحية بحيث تتغلغل في ســـرادب الحياة الاجتماعية.

وهذا كلام كله صحيح، ولكنه لا يمثل مشكلة لأنه ليس هنــاك تعــارض ما بين الانتمــاء للأرض والـــولاء للـــه، لأن مجـــال كل واحد مختلف عن الآخر فيفـترض أن يكـون الفــرد وطنيا مخلصًــا، وفي الـوقت نفسه مؤمنا خالصا لدينه – إســلامًا أو مســيحية – فليس هنــاك تعــارض، فالانتمــاء الوطـــــــــــــــــني لا يرتفـــــــــــــــــق، ولا يضـــيق بالإيمــان الــديني، والإيمــان الــديني يرفض الوطنية، وقـديما علمونا حب الـوطن من الإيمان..

بل يمكن القــول إنهما يجتمعــان في النهاية لأنهما معا يمتان إلى عالم القيم، ولأن الخــير أن يوجــدا معًا لأن إحــداهما تصــلح الأخــرى كأنهما

اليدين تغسل إحداهما الأخــرى فالــدين يكبح من جماع الوطنية والوطنية تنزل الدين من سماواته إلى الأرض والناس.

الفصل الخامس
خيار التمثيل النسبي

قد يكـــون التمثيل النسبي "مطلبـــا" وليس خيـارًا، خاصة وأنه يقتصر في المطـالب القبطية على التمثيل في المجالس النيابية. إن حقيقة أن الأقبــاط جــزء من شــعب مصر، جعل الأقبــاط يعيشون في كل أنحاء البلاد من إسكندرية حــتى أســوان. ففي كل قرية تجد عــددًا من الأقبــاط ولما كانت الانتخابات النيابية تجري على أســاس أعداد الأصوات، وأصوات الأقباط أقلية فــإنهم لا يظفرون عـادة إلا بأقل الأصـوات الـتي لا تحقق لهم الفوز في الانتخابات.

وهــذه في حقيقتها – مشــكلة "هيكليــة" أي أنها نابعـــة من واقع بعـــثرة الأقبـــاط على كل المحافظـات بصـورة لا تجعلهم أغلبية أو تمكنهم من الحصـــول على الأصـــوات الـــتي تكفل لهم الفـــوز في المعركة الانتخابيـــة، وقد يتبـــادر إلى الذهن أن الحل الوحيد لهم هو التمثيل النســبي، وقد ثارت تلك القضية في وقت مبكر، عند وضع دســتور 23، وكــان في اللجنة المكلفة بـــذلك توفيق دوس والأنبا يؤنس - مطران الإســكندرية - وقليني فهمي وإليـــاس عـــوض، وكـــان رئيس الوزراء حســين رشدي حريصًـا على أن يتضـمن الدســتور نصا يحمي حقـوق الأقليـات؛ لأن هـذا كان يمثل أحد التحفظات الأربعة الــتي احتفظت

بريطانيا بها لنفسها في تصريح 28 فـبراير سـنة 22 الذي نص على استقلال مصر، فكان حسـين رشدي يريد أن يفوت على الإنجليز تحفظهم هذا واقترح نصًا يتضمن المساواة في الحريـات وفي الحقوق المدنية والسياسية وفي ممارسة شعائر الدين والتعليم واستخدام اللغات، وهو نص كـان قد وضعه الإنجلـيز في مشـروع كـيرزون. وقـال توفيق دوس إن تمثيل الأقليــات لا يعني التفرقة بين المصريين، وأن عدم تمثيلهم هو الذي يحمل على العكس إذا حدث أن كان عدد ممثليهم أقل من أن يرتضـوه لأنفسـهم، ولا سـيما أن للعقائد الدينية تـأثيرًا كبـيرًا في نظـرة المصـريين جميعا للشـئون السياسـية وقد انضم إلى هـذا الـرأي الأنبا يؤنس مطران الإسـكندرية وأليـاس عـوض وعلي المــنزلاوي الــذي قــال: إنه بصــفته من الأكثرية يــــرى في تمثيل الأقليــــات نفع عظيم للاسترشــاد برأيها والانتفــاع بــذوي المــواهب المختلفة من أبنائها؛ حــــتى لا يجد الأجنبي حجة للتــدخل في شــئون مصر والوقيعة بين أبنائهــا، كما انضم إلى هذا الـرأي عبد اللطيف المكبـاتي الذي قال إن الفارق الديني أمر شخصي محض، ولكنه – ضمانا - لوحـدة أبنـاء مصر يوافق على تمثيل الأقليات.

وأما الــرأي المعــارض فكــان يتزعمه عبد الحميد بــدوي على أســاس أن في مبدأ التفرقة بين الأكثرية والأقلية ما يتنــــــــــافى مع تقاليد المصـريين؛ لأن الأقبـاط عاشـوا مع المسـلمين في وئام منذ قيام النظام النيابي في مصـر، ولم يكن هنــاك ما يســمى بالأقليــات، ولأن الفــارق

الـديني ليس له إلا آثر طفيف جـدا على الرابطة الـتي تجمع بين الأقبـاط والمسـلمين، وأن هـذا الأثر الطفيف لن يلبث مع الـــزمن أن يـــزول ويمحى، وأن فكــرة وجــود أقلية وأكثرية يــؤدي إلى انقسام خطـير بين أبنـاء البلد الواحـد.. وقد أيد عبد الحميد بدوي في هذا الرأي قليني فهمي وإبـــراهيم الهلبـــاوي ومحمـــود أبو النصر وعبد الحميد مصــطفى وأحمد طلعت، كما أيــده عبد اللطيف المكبــاتي الــذي اســتنكر أن يــرد في الدستور نص يعـترف بوجـود أقليـات لأن الجميع مصريون ولكي لا يحتج الإنجلـيز فيما بعد بوجـود هــذه الأقليــات فيعــودون إلى إدعــاء حمايتهــا، فيكون هـذا حجة لتـدخلهم في المسـتقبل، فضلا عن أن هذا النص يتضمن مخاطر اسـتفحال روح التفرقة بســبب الــدين، في حين أن الحقــوق المدنية شيء والعقيدة الدينية شيء آخر. وقــال علي مــاهر إن الشــعب المصــري لا يفــرق بين القبطي والمسلم، وقـال قليني فهمي إن فكـرة تمثيل الأقليات هادمة للوحدة الوطنية وهذا مــالا نود وقوعه، وكان زعماء الوفد وزعيم الأمة كلها سـعد زغلــول يــرون أن الطوائف المختلفة في الدين والمتحـدة في المصـالح أمر غـير مفهـوم، وإنما هو مــدعاة للتفرقة والانقســام. ثم أصــدر الوفد بيانا رسميا قال فيه "ليس في البلاد أقلية ولا أكثرية وإنما الجميع مصــريون، إن الأقبـــاط والمســلمين لا يــدينون إلا بــدين واحد هو دين الحرية والاســتقلال". وقد وقع هــذا البيــان من الأقباط واصف غالي وويصا واصف ومرقس حنا وجــورج خيــاط، وقد كتب ويصا واصف يقــول:

"ليس في مصر إلا المصريون، وهم جميعا سواء بغــير تميــيز بين أكثرية وأقليــة، ومن ثم فــإن الـزعم بـأن الأقبـاط يكونـون أقلية هو في حكم اعتبارهم أجانب عن مصـر.. إنهم لم يكونـوا في يوم من الأيام موضوع قانون اسـتثنائي، بل إنهم يتمتعــون دائمًا بجميع الحقــوق الــتي يتمتع بها المسلمون سواء بسواء".

وكـان هـذا هو رأي كبـار الأقبـاط من رجـال الوفد الآخــرين من أمثــال فخــري عبد النــور ونجيب إسكندر وكامل سيف صالح.

وكـــان توفيق دوس قد علل أمـــام اللجنة العامة قومة الأقبـــــــاط ضد فكرته بما يرونه مصـــــلحة لهم بـــــرغبتهم في أن لا يغضـــــبوا المسلمين "فتظاهروا بأنهم لا يريدون التمثيـل"، "وإذا لم تمثل الأقليـــــات" فقد يتظـــــاهرون بالوطنية الحـادة وأنهم لا يريـدون هـذه الحماية في حين أنهم يريدون التشـدد في التمسك بهـا، وأنه كقبطي لا يجب عليه أن يتهم الأقلية في شعورها الوطـني، ولكن إزاء غلبة الأمية والجهل في صفوف الأكثرية والأقلية، وإزاء مصلحة البلد يقــول الحقيقة ومن الخطأ الظن بــأن الأقبــاط يريـــدون حقًا مقصــــورًا عليهم لأن الأمر يتعلق بالمصـلحة الوطنيـة. وأن كثـيرا ممن يجهـرون برفض تمثيل الأقلية يُسِرون العكس.

وأثـــير الموضـــوع على مســـتوى شـــعبي ونشط[10] فيه شخصـيات مثل محمــود عــزمي

---

[10] **(10) المسلمون والأقباط في إطار الجماعة الوطنية – دكتــور طــارق البشــري (الهيئة العامة للكتاب) ص177 – 193، وقد عدنا إليه**

وعزيز مــيرهم إللــذين كانا قد أسسًــا الحــزب الــديمقراطي وأبــدا معا فكــرة التمثيل النفسي على حين عارضه طه حســـين. وكـــانت لجنة الدســتور تســتأنس باتجاهــات إلــرأي العــام وتتحسس مــوازين القــوى بشــأن تــرجيح أحد الحلـول كما ذكر ذلك الـدكتور طـارق البشـري واستطرد فقال: "كما طالب المكباتي باسـتدعاء كبارهم لسماع وجهات نظرهم، واقترح الهلباوي أن ينشر باسم اللجنة رأييّ دوس وبـــــــدوي فعورضت هـذه الاقتراحـات واسـتقر الأمر على أن ينشر كل من دوس وبـــدوي رأيه بصـــفة شخصــية، ثم كتب إبــراهيم دســوقي أباظة في الأهرام يخبر بـأن دوس هو من طـرح المسـألة، بما يفهم منه أن للقبط طلبا لــدى المســلمين، ويحكي توفيق دوس أن "هـــذا التصـــوير جعل القبط يقومـــون رافضـــين ما طلب". وقد نشر دوس مقالته الأولى بـأهرام 15 مـايو، ورد عليه بدوي باسمه وباسم "قانونى جليل" في اليومين التاليين.

وتراوح رأي الأنبا يـؤنس ما بين تأييد التمثيل النسبي وبين وجوب الحفاظ على الوحدة "فـإذا كانت المصلحة في عـدم تمثيل الأقليـات فـذلك ما يجب أن يلحظ في تكـــوين البرلمـــان، وإذا كـــانت في التمثيل فـــذلك ما يجب أن يلاحظ أيضا". ويلاحظ أن هذا الموقف أقرب إلى التردد وعدم التحديد، وقد يكون السـبب أن البطريـرك رأى أن يبتعد عن الحسم في مسألة اختلف فيها القبط، مما أملى عليه البعد عن الحسم.

بصفة رئيسية في هذا الفصل.

وكـــان ممن أيد تمثيل الاقليـــات برســـائل أرســـلت إلى لجنة الدســـتور، المجلس الملي القبطي الإنجيلي العـــــــــام، والمجلس الملي للاقبــاط الأورثــوذكس ومطــران كل من إســنا والدير المحرق والمنيا وصنبو، والجمعية الخيرية القبطية بالمنيـــا، وقد دعت صـــحيفة "مصـــر" المجــــالس المالية الفرعية والمجلس العــــام للاجتمـــاع وتقرير رأيهم ردا على البيـــان الـــذي أصدره الوفد، ثم عـادت وحثت المجـالس الملية وسائر الجمعيات القبطية بالتقدم لطلب التمثيل إلى لجنة الدسـتور. ولكن لم يكن أن كـان لهـذه الدعوة صدى كبـير، ولم يمكن التقـاط أكـثر من أسماء أصحاب البيانات المشار إليها فيما سبق.

وقد أصـــــــدر محمد علي علوبه عضو لجنة الدستور ما أسماه "رجاء" طالب فيه بـأن تبـدي الأقليـــات رأيها في الأمـــر، وأوصى بـــأن يأخذ الجميع "بما يــراه أصــغر الأخــوين منا فيما نحن فيه مختلفـون". كما أرسل بعض أعيـان أسـيوط برقية إلى لجنة الدســتور يطلبـــون فيها تمثيل الأقليـــات، ووقع عليها بعض القبط وعـــدد من المسلمين من كبار الأعيان هناك، منهم محفوظ باشا وخشبة باشا. ويقال إن توفيق دوس سـافر إلى أسـيوط لبث دعوته هنـاك وكتابة العـرائض المؤيدة له.

وكان حزب الوفد أشد الجميع رفضًـا لفكـرة التمثيل النسـبي وبـرز في هـذا الـرفض زعمـاء الأقباط.

وكـان لسـعد زغلـول رأي قـديم أبـداه ضد التمثيل الطـائفي عند مناقشـته قـانون الجمعية

التشريعية الذي أقر هذا المبدأ. قال إنه إذا كـان من المفيد "تمثيل الطوائف المختلفة في المصـــالح المادية والاجتماعيـــة"؛ لأن أهل كل مصـلحة أعـرف من غـيرهم بما ينفعهم وما يضر بهم، والمصـلحة هي موضـوع القـانون، إذا كـان ذلك فـإن تمثيل "الطوائف المختلفة في الـدين والمتحدة في تلك المصالح غير مفهوم".

وأدلى ويصا واصف عن هـــذا الموضـــوع بحــديث إلى البــورص إجبشــيان، بــأن مصر لا تعـرف أكثرية وأقليـة، والقـول بـأن القبط أقلية حكم عليهم بـــأنهم أجـــانب. ولن يكـــون في البرلمـان إلا أحـزاب سياسـية بمعناها العصـري يكــون القبط فيها مبعــثرين. لم يكن القبط في أي وقت موضـعا لتشـريع اسـتثنائي، بل عوملـوا دائما كمصريين يتمتعـون بكافة الحقـوق **"حتى كان تمتعهم بها قبل الاحتلال أحسن من تمتعهم بها بعـده"**. وليس في مصر إلا جنس واحد كونته القرون المتعاقبة، وامـتزجت الـدماء بقوة التوارث بما يقوى على أي فارق ديني، كما امتزجت دماء الشـهداء بعد ذلـك. والأمم تتكـون بفضل جهادها ضد المستعمر كما هو الشـأن في نشوء الولايات المتحدة، والحـديث عن الأقليـات يعوق سير التطور. وإذا كان البرلمان يتكون من أحــزاب سياســية فقط فلا ضــير ألا يكــون فيه قبطي.

وقدم محـامو القـاهرة عريضة ينكـرون فيها تمثيل الأقليات وقع عليها عـدد كبـير من القبـط. وأرسلت برقيات بهذا المعنى من طلبة مـدارس التوفيق القبطية ومن الجمعيـــات القبطية في

بورسعيد والبلينا ومنيا القمح، وعقدت اجتماعات للقبط في طنطا والمحلة الكـــــبرى وملـــــوي وأسـيوط والبحـيرة وجرجا وغيرهـا، كـانت توجه نداءات بـرفض التمثيل يوقع عليها قـوائم تحـوي عشرات الأسماء، كما وجه أحاديث بذات المعنى وكيل الشـــريعة القبطية في كل من طنطا وبنها وغيرها.

ودعا جميع الأقباط الوفدين وغيرهم في 18 مايو إلى اجتماع بالكنيسة البطرسية يعقد صـباح اليــوم التــالي. فحضــره نحو 500 قبطي بــدأوا بالهتـــاف لســـعد زغلـــول والزعمـــاء المنفـــيين ولسلامة ميخائيل ووليم مكـرم عبيـد. وألقى فيه ســــلامة خطـــابين هــــاجم فيهما بدعة التمثيل الطائفي وضررها، وحذر من الـدعاة لهـا. وحكى للجمع عن نفسه عندما كان يعمل بالقضاء ونقل من القاهرة إلى أدفو جـزاء على تشـيعه للوفـد، فكـــــــان يقابل في ســــــفره عند كل مدينة باســتقبالات شــعبية تقــام لـــه، وذكر كيف أن مـرقس حنا انتخب نقيبا للمحـامين ثلاث مـرات متتالية، وكذلك أنطون أرقش السوري في بلدية الإســكندرية، ثم قـــال "أنتم ممثلـــون فعليا في الوفد المصــري والأغلبية لكم فيــه، يريــدون أن يضيعوا عليكم هذا التمثيل المبني على شـعور... واســتبداله بتمثيل غــير قــانوني"، وأرسل كامل صـــدقي إلى الاجتمـــاع برقية في هـــذا الشـــأن، وتكلم أنطون جرجس أنطون وويصا واصـف، ثم الشيخ مصطفى القاياتي وغيرهم، ثم صدر قـرار الاجتماع يهـاجم تمثيل الأقليـات ويطـالب بعـودة الزعمـــاء المنفـــيين والإفـــراج عن المعتقلين

السياسـيين ورفع الأحكـام العرفيـة، مع التمسك بوحدة مصر والسـودان. فكـان اجتماعا سياسـيا كاملا في مضمونه[11].

وانتهت معركة التمثيل النسبي بـالرفض من الجماهير وكذلك من اللجنة العليا للدستور.

ولكن المشـكلة لم تنتـه، وقد تصـور عبد الحميد بـدوي أن المشـاعر الدينية لابد وأن تضعف مع الزمن وزيـادة المدنية كما هو الشـأن في بقية دول العـالم. وكـان هـذا تصـورًا خاطئًا وقياسا لا يسـتقيم. فـإن المشـاعر الدينية في أعمق أعماق الشعب وإذا كبتت أو تجوهلت فقد يحدث ما يشبه البركـان وقد عـبرت عن نفسـها في القومات التي أخذت اسم الفتنة الطائفية.

وحاولت بعض الحكومات إصـلاح نقص عـدم تمثيل النـواب بتعـيين عـدد (قرابة عشـرة) من الأقباط. ولكن هذا الحل لم يرض الأقباط فالعدد قليل والحكومة هي الـتي تعين، وقد تعين من لا يمثل الأقبـاط حقيقـة.. ولهـذا لم تنجح هـذه المحاولة.

وإذا أخذنا باتجاهات الأقبـاط – وهم أصـحاب المشـكلة – لوجـدنا أن معظمهم يؤيد التمثيل النسـبي لأن ما حـدث في ثـورة 19 كـان فـورة لابد أن تخمد، ولا يمكن اعتبارها السياق العادي، ولأن التمثيل النسـبي لا يعمق "الطائفيـة" لأن من المسلم به أن المصلحة العامة واحدة، وإنما تكون قيمة التمثيل أنها تعرف بقية النـواب على وجهة النظر القبطيـة، ولكن الأمر في النهاية هو أمر المصلحة العامة، وهو قرار الأغلبية.

---

[11] **(11) عن كتـاب الـدكتور طـارق البشـري - مرجع سابق.**

وإذا كـان التمثيل النسـبي هو إرادة الأقبـاط حقـا، فأنا لا أرى مانعا منـه، لأنه يحقق العدالـة، ويحقق الديمقراطية ولا يخـــالف الأصـــول أو السـلامة العامـة، ويجب عندئذ أن يكـون بعـدد يتفق مع نسبة عدد الأقباط.

وفى هـذه الحالة ينبغي البحث عن الوسـيلة الفعالة لتحقيق هذا التمثيل وهي نقطة لم تظفر بالمعالجـــة، ربما لأن الـــرأي كـــان قد انتهى برفضها.

على أن التمثيل النســــبي ليس هو الحل الوحيد، إذ يمكن للأقباط أن ينضـموا إلى حـزب أو حـــزبين وســيكون لهم بهـــذه الطريقة وزن بحيث يرشح الحـزب عـددًا منهم ويكـون حظهم من النجاح هو بقدر حظ الحزب من الشعبية.

كما يمكن أن يـبرز من الأقبـاط شخصـيات متميزة في الثقافة، والأمانـة، وخدمة البلاد، وأن يكونوا من الذكاء والكياسة بحيث يكسـبون تأييد الأغلبية المســـلمة، بما يظهرونه من تقـــدير واحترام للإسلام عن إيمان وإخلاص؛ لأنه بالطبع لا يخالف الحقيقة الموضوعية. وجـدير بمثل هـذا المســلك أن يظفر بتأييد الأغلبية المســلمة، والناخبون لا يرفضون المرشح لأنه قبطي، ولكن لأنه لا يظهر من المشاعر ما يتجـاوب معهم لأنه عادة من الشخصيات التي لها بروز بين الأقباط، وهو يسـلك هـذا المسـلك الحيـادي لظنه أن أي مـــديح للإســلام، ولرســول الإســلام يجــافي المسيحية، وهذا بالطبع خطـأ، وحـتى لو لم يكن خطأ، فلا يكــون من ذنب الأغلبية إذا انتخبت من هو أقرب إليها.

وفي نظـــري أنها مســئولية الدولة أن تـــتيح للأقبــاط فرصة التمثيل في مجلس الشـــعب بنسـبة تتفق مع وزنهم العـددي الـذي يـتراوح ما

بين 5% و10%، أي أن يكــون لهم قرابة ثلاثين نائبًا، فـإذا كـان للحكومة حـزب، كما هو الشـأن عنــدنا فيجب أن يضــمن مرشـحيه هـذا العـدد، ويجب أن يعمل على نجـــــاحهم وهو لا يعـــــدم الوسائل، بل هو يجيدها ويمارسـها وهي السـبب في نجاح مرشحيه ويفترض أن يسـتخدمها أيضًـا بالنسبة لمن يرشحهم من الأقباط.

ونحن نقـــول بملء الفم إنه من العـــار على الحزب الوطني أن لا يرشح في انتخابات 2005 إلا نائبين، ولا أدري كيف دقت هـذه النقطة على فطنة قادته، ولا يمكن القول إنهم أنصار للإسلام أعداء للأقباط.

والدلالة الوحيدة لهذا الموقف هو أن الحزب الوطني الـذي يعـرف جيـدًا فيما بينه وبين نفسه مشاعر الناس نحوه، وأنها كارهة وناقدة له فـإذا هو رشح قبطيًا فقد يكــون هــذا عــاملا إضــافيا لخسارته، ولو كان الحزب قويًـا، مـؤثرًا، محترمًا من النـــــاخبين، له ولو بعض تـــــأثير الوفد في العشــرينات لرشح الأقبــاط ولنجحــوا، ولكنه إذا فقد القوة الشعبية فإنه تميز في وسـائل إنجـاح مرشحيه بهـذه الوسـيلة أو تلك، وكـان يمكن أن يمارسها مع من يرشحهم من الأقبـاط كما ذكرنا آنفا.

ومن الحلول التي لا تفيد في هذا المجال أن يكــون الأقبــاط حزبا ويتــولى هو ترشــيح نــواب الأقبـاط, فمن المؤكد أن يفشل كل المرشـحين في نيل أغلبية؛ لأن الأقبــاط كما ذكرنا مبعــثرين على أنحاء الجمهورية، لا يمثلون أغلبية حتى في أســيوط أو شــبرًا. وهــذا لا يعــني أن لا يكــون للأقبـاط حـزب، فـإن لهم هـذا الحق بحكم حرية التعبـــير، ولكن العـــبرة بما يمكن أن يقدمه من

فائـــدة، فقد يكـــون مدرسة لتنمية المشـــاعر الفئويـة، وبهـذا يسـيء إلى الأقبـاط والمصـلحة العامة معًا، كما قد يمكن أن يقوم بدور للتعريف بأوضاع الأوضاع أو حتى للتقريب ما بين الأقبـاط والمسـلمين خاصة عند الأخذ بخيـار المواطنة أو خيار التعـايش الإيمـاني، وقد يخفف العبء على المجلس الملي الـــذي يعد الهيئة المدنية الـــتي تمثل الأقباط.

الفصل السادس
خيار التحدي

ليس من الطـبيعي أن تحـاول أقلية – خاصة إذا لم يزد عددها عما بين 5 ، 7% من مجموع السـكان - تحـدي الأكثريـة، لأن هـذا يشـبه رجلا يجد نفسه وسط عشـرة رجـال آخـرين فيكـون موقفه الطـبيعي تحاشـي عـداوتهم أو الـدخول معهم في معركـــة، ولكن قد تظهر عوامل تــؤثر على الخيــارات ولا تجعلها خيــارًا طبيعيًــا، ولكن موقفًا اسـتثنائيا.. وقد يجـاوز حـده وما قـدر له خاصة إذا تـــورط فيه بابا الكنيسة نفســـها، وهو احتمال شاذ غاية الشذوذ، ولكنه حـدث بالفعـل، وقد يحدث بسيطرة فكر متعصب على كاهن، أو كنيسة أو هيئة، ويكون خيارًا من ناحية أن الـذين قـاموا به قـاموا به مختـارين، ولكنه لا يعد خيـارًا لأنه ليس من الطـــبيعي أن تتمـــرد الأقلية على الأكثريـة، وبالـذات عنـدما تكـون كنيسة يقضـي دينها بأن لا تتدخل في الدنيويات.

ولما كان التحدي العملي مستبعدًا لما أشرنا إليه من استحالة، فيغلب أن يأخذ شــكل التحدي طـابع "الاحتجـاج" الـذي يتمثل في مـؤتمرات أو هيئات أو حركات ضغط..

وقد مارست الأقلية القبطية صورة من صور التحدي عندما أقامت المؤتمر القبطي المشـبوه سـنة 1911 بـدفع خفي من الإنجلـيز وفي آثـار

اغتيـال بطـرس غـالي "كبـير الطائفـة"، وكـانت تجربة تعسة ولم يسعد بها الأقباط أو يمضـوا بها إلى النهاية بل لعلها أوضـــحت، بعد أن عقــــدت الأغلبية المسـلمة المـؤتمر المصـري، أن هـذه الوسـيلة مما لا يحسن الالتجـاء إليها، وكـان من آثار ذلك أن لم يلجأ الأقباط إليها إلا عندما حدث نوع من النشاز والشذوذ بدفع بعض المستجدات على الساحة التي غـيرت من السـياق المـألوف وسـيطرت على الموقـف. مثل تكـوين "جماعة الأمة القبطية" التي وصفها الدكتور غالي شكري وصـــفًا دقيقًا تحت عنـــوان **"اليمين الـــديني يشهر السلاح"** فبعد أن أشــار إلى ما حفل به عام 1954 من أحداث، قال: "غير أن أبـرز أيـام ذلك العام المثير لا يكاد يذكره غالبية المصريين، رغم أنه أكثرها احتفالا بـالغرائب الـتي تصل إلى حد التفـــرد والاســتثناء في التـــاريخ المصـــري الحـــديث، إذ قـــام خمسة شـــبان مســـيحيين مسلحين باقتحام بطريركية الأقباط الأرثوذكس، الــتي تحتل شــارعا صــغيرًا متفرعا عن شــارع كلوت بك؛ فاعتقلوا الحـرس ثم توجه قائـدهم – وهو محـــــــام يبلغ من العمر 34 عاما في ذلك الـوقت ويـدعى إبـراهيم هلال – برفقة ثلاثة إلى القصر البـابوي. كـان الـوقت فجـرًا، بين الرابعة والخامسة صـباحا، فلم يبـذل الحـرس الخـاص للبابا يوســاب الثــاني أية مقاومة والنـــوم يعقد جفونهم. وأخيرًا وصل الشباب الأربعة إلى غرفة نوم البطريرك.

ورغم أن تــاريخ الكنيسة الوطنية المصــرية قد حفل بالبابوات المرتبطين بالعمل السياسـي،

غــير أن واحــدًا منهم لم يوقظه المســدس من نومه يومـا. فـإذا علمنا أن الأنبا يوسـاب لم تكن له أية علاقة من قــريب أو من بعيد بالسياســة، نســتطيع أن نتصــور الرجل العجــوز وقد تخيل الأمر كله مجــرد "كــابوس" مــزعج. ولكنه حين جلس على فراشه وفـــرك عينيه بين مصــــدق ومكـــذب لما يـــرى، أيقن بعد قليل أنه لا يحلم، وأن "لصوصـــاً" تجرءوا على الحــــرم البـــابوي. ولكنه فوجئ بالشباب يمهلونه خمس دقائق في حضورهم ليرتدي ثيابه. وما أن فعل حتى قــدموا إليه "وثيقة تنـــازل عن العـــرش البطريـــركي" ليقوم بتوقيعها، ووثيقة أخـرى يـأمر فيها المجمع المقـــدس والمجلس الملي العـــام للاجتمــــاع والإعــداد لانتخابــات بابوية جديــدة، والتوصــية بإعـادة النظر في "اللائحة الانتخابيـة" المعمـول بها حـــتى يمكن تصـــحيحها بما يســـمح لغالبية المسيحيين الأرثـوذكس المصـريين أن يشـاركوا في عملية الانتخاب.

وبعد أن قـام يوسـاب الثـاني بتوقيع الأوراق المطلوبة اصـطحبه الشـباب المسـلحون حـتى البـاب الخـارجي، ولم يكن قد اسـتيقظ أحد من الرهبان المقيمين في جناح آخر، وكـان الحـرس الداخلي والخـارجي وقد أفـاق تمامًا في ذهـول لا يســـتطيع أن يتحـــرك، كما كــــان الاتصــــال التليفوني قد قطع، وعند البـاب الرئيسـي كـانت هنــاك عربة ســوداء فارهــة، فتح أحــدهم بابها الثــــاني من جهة اليمين إلى الخلف ودخل قبل البطريرك، ثم طلب من البابا أن يتفضل مفسحًا مكانا لثـالث. وفي مقعد السـائق جلس أحــدهم

وإلى يمينه زميله الــذي طلب إســدال الســتار على الزجــــــاج الخلفي أما قائد المجموعة فقد أخذ الأوراق وأعطى إشـــارة التحـــرك، فمضى السائق على الفور، واختفى هو.

كــانت الســاعة قد بلغت السادسة تقريبًــا، وأمثال هـذا الحي الشـعبي تبكر في فتح محلاتها ومقاهيها، ويزدحم الترام بالعمـال الـذاهبين إلى مصـــانعهم، وتمتلئ الشـــوارع بباعة الصـــحف وضجيج المسافرين القادمين والذاهبين إلى بقية أنحاء مصر من المحطة الرئيسية للقـاهرة. ولأن الناس كانت تسأل عن أشياء أخـرى لا علاقة لها بالبابا أو غـيره من رجـال الـدين، فـإن "الحـادث الاســــــتثنائي" لم يشــــعر به أحد طيلة الثلاث سـاعات. فحـتى الحـراس الـذين أفـرج عنهم، بمجرد تحرك السيارة لم يفهموا ما حدث تمامًا، ولم يحــاولوا تعقب المحـــامي الشـــاب الـــذي إســتأجر أمــامهم تاكســيا ومضى به ولم يكلف أحــدهم نفسه عنــاء التقــاط رقم الســيارة، أو إيقاظ أحد "الآباء" النائمين.

وفى التاسعة صباحًا كان البابا يوساب الثاني قد وصل بمرافقيه إلى دير وادي النطرون قرب بحيرة مريوط غـرب الإسـكندرية في الصـحراء، وقد فوجئت رئاسة الـدير والرهبـان بــ "سـيدنا" كما ينادونه وهو "يــزورهم" بغــير موعد ســابق ودون مـــــــــوكب رسمي تقليدي ودون مرافقة أكليريكية عالية الرتبة الكهنوتية وفي وقت أبعد ما يكون عن مواسم الصوم أو أعياد القديســين. ولابد أنهم دهشوا للوجوه "الغريبة" – العلمانيــة،

أي التي لا يرتدي أصحابها الثياب الدينية – التي تحيط به. ولكن أحدهم بادر رئيس الدير قائلا: البابا مريض قليلا وسيرتاح عندكم. وركب مع زملائه السيارة وقفلوا راجعين دون أي تفسير آخر.

وفى الوقت نفسه كانت معظم كنائس القاهرة والإسكندرية والمحافظات الرئيسية في مصر، وكذلك دور الصحف ووكالات الأنباء قد تلقت بيانا عن "جماعة الأمة القبطية" يعلن تنازل البطريرك المصري عن العرش ويندد بالفساد الذي عم أرجاء الكنيسة في عهده، ويدعو إلى انتخابات عاجلة يشارك فيها "الشعب القبطي" ويطلب من الحكومة ألا تتدخل "فى شئون الأقباط الداخلية" وينتهي البيان بشعار يقول "الإنجيل دستورنا والقبطية لغتنا والموت في سبيل المسيح أسمى أمانينا".

وقد تبين أن وزارة الشئون الاجتماعية المصرية قد منحت فعلا المحامي إبراهيم هلال ترخيصا لإقامة جمعية دينية اتخذت لها اسما هو "جماعة الأمة القبطية". كما تبين أن بعض أعضاء مجلس قيادة الثورة قد أرسلوا لها بطاقات تأييد أو تهنئة بإحدى المناسبات. ومن بين يدي هذه البطاقات علقوا بطاقة باسم "أنور السادات" في إطار عند المدخل الرئيسي لمركز الجماعة في القاهرة. إلا أن وزارة الداخلية اكتشفت بعد الحادث أن الجماعة قد نشطت خلال عام واحد نشاطا لا يوازيه سوى نشاط الإخوان المسلمين. وكان واضحًا لأي

إنسان بسيط أن شعارها هو نقل حرفي معاكس لشـعار الإخـوان المعـروف "القـرآن دسـتورنا والرسول زعيمنا والموت في سبيل الله أسـمى أمانينا". وكالإخوان أيضًا كانت "الجماعة" تنظيما سياسيًا يستتر بالدين، وأنها تمثل انشقاقًا للجناح المتطـرف لما يسـمى "بمـدارس الأحـد" الـتي تكتفي بتعليم الـــدين للناشـــئين، وقد تغلغلت الجماعة بسـرعة في أنحـاء المـدن والأقـاليم. كانت "مدارس الأحـد" في مصر ولا تـزال تعمل في حـــدود "الشـــرعية" أي في ظلال الكنيسة الرسـمية. أما الجماعة الجديـدة فقد هـاجمت رجال الدين مباشـرة، وطـالبت علنا بتعليم اللغة القبطية للمسـيحيين ولم تنتظر أحـدًا للتنفيذ بل عملت من أجل تحقيق هذا الهدف بافتتاح فـروع مجانية في المحافظات والقـرى، يعلم فيها هـذه اللغة المنقرضة شـــباب متوقد بالحمـــاس والتعصب لدرجة رفضـــهم كلمة "مصـــري" بل حرصوا وأصروا على استخدام كلمة "قبطي".

ولم يلتفت القضـــاء المصـــري إلى فحـــوى الشـعار الـذي تطرحه الجماعـة، فـالعودة إلى إحدى اللغات المصرية القديمة (رغم استحالتها) وتحويل الإنجيل إلى دســـتور رغم خلـــوه من التشريع. والاستشهاد في سبيل المسيح رغم أن المسيحية ليست في عصر الشـهداء. هي دعـوة سياسة صريحة إلى قيام "دولة قبطية" مسـتقلة عن دولة مصر المركزية. ولأن هـذا الالتفـاف لم يحـدث، لا من القضـاء ولا من السـلطة ولا من المثقفين، فقد أودعت المحكمة إبـــراهيم هلال وزملائه السـجن لمـدة ثلاث سـنوات "لحيـازتهم

سلاحًا غير مرخص به" و"احتجـازهم أحد الأفـراد عنـــوة". وليس المهم العقوبة في ذاتهـــا، بل الحيثيـــات الـــتي لم تـــدرك مـــاذا يجري في مصر[12]". انتهى الاقتباس من د. غالي شكري.

وهنــاك تعليق هــام ولا يخلو من دلالة على الجملة الأخـيرة في وصف الـدكتور غـالي. فقد كان محامي الحكومة هو الـدكتور وليم سـليمان قلادة الـــذي وضح للمحكمة أن غـــرض هـــذه الجماعة هو إقامة دولة قبطية في مصـــر، ولكن المحكمة فيما يبـــدو لم تجد عقوبة محـــددة أو آثرت أن تحكم بناء على وقائع محددة.

* * *

على أن حالة جمعية الأمة القبطية رغم دلالتها ورغم أنها ضــمت قرابة 93000 عضــوا، وهو عدد كبير معظمهم من الشبان، وكـونت لها فروعًا في كثـــير من المحافظـــات وأنشـــأت مدارس تعلم اللغة القبطية. نقول كـانت صـفقة خاســـرة، وقد قضت هي نفســها على نفســها بحكم الطــابع الطــائفي المصــمت الــذي كـان يخـــالف بدائه الوضع المصـــري خاصـــة، وأن المجتمع المصري في عهد عبد الناصر قد شـغل تمامًا عن قضــية الأديــان بما أثــاره من قضــايا سياســـية كالقومية العربيـــة، والاشـــتراكية وما تورط فيه من عداوة مريرة للإخـوان المسـلمين كان لها دون شك آثارها على الأقباط، ثم جـاءت هزيمة 67 الـــتي جعلت الجميع يعيشـــون "فى

---

12 **(12) دكتور غـالي شـكري "الثـورة المضـادة في مصر – طبعة الأهالي ص290 – 293.**

مـأتم واحـد" وظل الأمر كـذلك حـتى تـوفي في سبتمبر 1971م.

وكــانت وفــاة عبد الناصر إيــذانا بعهد جديد فقد تـــولى رئاسة الجمهورية نائبه محمد أنــــور الســــادات، وكــــان له اتجــــاه مختلف عن عبد الناصر، واســتطاع في 15 مــايو أن يتخلص من كل "الحرس الناصري القـديم" الـذي كـانت في يده مقاليد السلطة، وانفتح أمامه المجـال ليبـدأ عهده الجديد. وكـان مما يـدعم هـذا العهد – بعد أن قضى على أعدائه – أن يكتسب تأييد الإخوان المسلمين الـذين كـان عبد الناصر قد أعلن حربًا شــعواء عليهم واعتقل عشــرات الألــوف منهم وزجهم في المعتقلات واستخدم وسائل التعذيب الوحشـية، فلما ولي السـادات وكـانت سياسـته مخالفة لعبد الناصــــــر، ولا يمكن أن يــــــأتمن الناصـريين. فإنه كـان بحاجة إلى قاعـدة شـعبية تؤيده ولم يكن هناك سـوى الإخـوان. وقد كـانت علاقته بهم قديمة، تعـود إلى ما قبل 52، وكـان الأســتاذ حسن البنا رحمه الله هو الــذي يسر له لقــــاء عزيز المصــــري، ثم لما تشرّد وعضــــته الحاجة بنابها خصص له الأستاذ البنا مرتبا شهريًا قدرة عشـرة جنيهـات. وكـان فيه فضلا عن هـذا عــــرق إســــلامي ورثه فيما ورث من خصـــائص القروي المصري الذي كان السـادات تمـثيلا لـه. ففتح بـــاب المعتقلات وســـمح للإخـــوان بحرية جزئية كان من آثارها إعادة إصدار مجلة الدعوة، ولكن الســـادات كـــان – كعبد الناصر – حريصًـــا على الانفراد بالسلطة ولم يكن مستعدًا ليسـمح

للإخـــــــوان بحرية يمكن أن تصل إلى معارضة (الأمر الذي حدث بالفعل) ولهذا كـانت الحريـات التي سمح لهم بها محـدودة. ولكنه انزلق عنـدما أطلق العنان لطلبة جامعة أسيوط والذين كــانوا أكثر تشددًا من الإخـوان، ليقضـوا على خصـومه السياسـيين وقد قضـوا بالفعل على الناصـريين والشـــيوعيين، ولكنهم لم يقفـــوا عند هـــذا، بل حاولوا السـيطرة على الجامعـة، وعـدم الالـتزام بــآداب الســلوك الجــامعي نحو أســاتذتهم كما تصرفوا تصرفات شاذة نحو الأقباط.

وشيئًا فشيئًا تضخمت "الجماعات الإسـلامية المتطرفــة" وهي ثــاني نقطة من نقط التحــول في المجتمع المصري. بعد ظهور السادات الذي كان يعُد النقطة الأولى.

وجــــاءت النقطة الثالثة مع انتخــــاب الأنبا شـنودة بابا للكنيسة الأرثوذكسـية المصـرية[13].

---

13 **(13) أسـفرت الانتخابـات الـتي عقـدت في يوم الجمعة 29 أكتوبر سنة 1971 عن اختيار ثلاثة من الخمسة الـــذين رشحـــوا لمنصب البابـــوية هم الأنبا صـــمويل (440 صـــوتا) والأنبا شنـــــودة (434 صـــوتا) ثم القمص تيموثاوس (313 صـوتا) وكـان يجب بالتـالي انتخـاب الأنبا صـمويل. ولكن كـان هنـاك ما يســـــمونه القرعة الهيكلية (الطفل داخل الحجرة المظلمة) يـوم الأحد التـالي؛ فأدخل طفل عمـــره ست ســنوات واســمه أيمن وعصــبت عينــاه بمنــديل أحمر وقـــدم إليه صـــندوق فيه ثلاث ورقـــات كتب على كل ورقه اسم أحد المرشـــحين الثلاثـــة. ومد الطفل يـــده وأخذ ورقه أخــــذها منه الأنبا أنطونيــــوس - المشـــــرف على العملية الانتخابية - وأخذ الورقة وقـــرأ الاسم عليها**

وكان قوي الشخصية جريئا مقداما يدفعه للعمل طمـــوح للنهضة بالكنيسة وإعلاء شــأنها، ولكن كان في أحاديثه نبرة غريبة على المألوف أثارت مخاوف البابا كـيرلس السـادس الـذي قـرر نفيه إلى دير وادي النطرون، ولكنه أعاده بعد فترة.

"الأنبا شنودة".

وقد انتقد فكـرة "القرعة الهيكليـة" حـبر جليل من آبـــاء الكنيسة القبطية هو نيافـــة الأنبا كـيرلس مطـران قنا في حـديث له مع مجلة مصر نشر في العـــدد الصـــادر في 10 ســبتمبر ســنة 1958 (الصــفحة الخامســة) لمناسبة وضع لائحة انتخاب البطريرك قـال: "إن الكنيسة تمر اليوم بفـترة قاسـية عاتية، وأنا أروي لك التاريخ وأترك لفطنتك التعليق – ففي صـيف العــام الماضـي حضـرت إلى القاهرة كعـادتي كل صـيف ووجـدت المجمع المقدس مشغولا بوضع لائحة جديدة لانتخاب البطريرك.

فسألني نيافة القائمقام البطريرك وأخوتي المطارنة عن رأيي فيما صنعوا".

فقلت لهم صـراحة إن اللائحة لا توضع إلا في وجود البطريرك، وأي تفكير غـير هـذا لا يلتقي بقوانين الكنيسة ومصــلحتها، ولكنهم ردوا عليّ بأن اللائحة قد وضعت وأطلعــوني على صورة منها فوجدت بها أخطاء جسيمة؛ فحدثتهم فيها بصراحة فوعدوني بأن يعدلوا عن طلب إصـــدارها، وأن يضـــعوا الأمر في نصـــابه أو – في القليل – يـــتركوا الأمـــور تصـرف بواسـطة القائمقـام كفـترة انتقـال لتصفية الجو.

ولكن، لم تمض إلا أيام حتى عدلوا قرارهم وقـــالوا إن ما وقعـــوه لا يـــتراجعوا فيه ثم صدرت اللائحة – أثنـاء وجـودي في القـاهرة وبها أخطـاء جسـيمة كثـيرة أهمها – القرعة الهيكلية – لأنها تجربة للـــــرب ولا معـــــنى

إن ظهـــور الســـادات وظهـــور الجماعـــات الإسلامية. وظهور البابا شنودة في فـترة واحـدة أو متقاربة 71-72 أدت بســـرعة إلى التهـــاب المشــاعر. وإيجــاد حالة نفســية جمعية لم تكن موجـــودة قبلاً؛ لأن كل عنصر من هـــذه العناصر الثلاث كـــان له توجهـــات خاصة ولديه طمـــوح وإقدام لتحقيقه، مع أن هذه التوجهات متصادمة، متضــادة، فتهيأ المســرح لظهـــور ما أطلق عليه "الفتنة الطائفيـــة"؛ فبعد تـــأجيج الحماســـات وإرهــاب الحساســيات الحكوميــة، والإســلامية، والقبطيــة، كــان يمكن لأي احتكــاك فــردي أن يتطور إلى صراع فئوي وأن يأخذ طابعًا دينيا.

ويجب أن لا ننسى أن الســـادات في رغبته تدعيم وضعه، أجرى تعديلا في دسـتور 71 يجـيز أن يعـــاد انتخـــاب رئيس الجمهورية من "مـــدة أخرى" إلى "مـدد أخـرى". ولكي يتقبل الشـعب هـــذا التعـــديل الـــذي لم يكن يعنيـــه، بل لعله

للقرعة بعد انتخاب الشعب، وأفهمت الأخـوة المطارنة هــذا الخطأ، وقلت لهم إن القرعة في النظــــام الكنســـــي لا تكــــون إلا بين متســـاويين في جميع الصــــفات ولا يمكن التمييز بينهم بقدراتنا البشرية.

ولهذا نلجأ إلى القدرة الإلهية، أما القرعة المفتوحة فهي أقرب إلى عمليات اليانصيب وقد يفـــوز بها الثــالث، ولو كــان بينه وبين الأول من الأصوات ضعف ما ناله الأول.

واللائحة بها أخطـاء أخـرى كـانت موضع ســخط الشـــعب وثورته، ولكنهم رغم هـــذا ورغم مما قلته أصر الأخـــــــوة المطارنة – الكثرة منهم – على تنفيذ اللائحة!" انتهى.

وطبقا لكلام الأنبا كيرلس يكون انتخـاب شــــــنودة خطأ لائحيًا وليس تطبيقا لإرادة ألهيه.

يعارضه، فإنه أوجد تعـديلا آخر تكـون به "مبـادئ الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريع".. وبهذه الإضافة تقبل الشعب الدستور.

ولا جدال أن هذا التعديل الذي يجعل مبــادئ الشـريعة أصلا للتشـريع أثـار حماسة الجماعـات الإسلامية بقدر ما أثار المخاوف والهواجس لدى الأقباط.

فى هـــذا المنـــاخ من الـــترقب والـــتربص، وإرهـــاف الحـــواس والتهـــاب المشـــاعر وقعت أحــداث الخانكة، وهي واقعة كـان يمكن أن تمر دون أن يشعر بها أحد.. لولا الظروف الاستثنائية التي أشـرنا إليهـا. ولعل أهمها كـان إقـدام البابا شنودة على انتهاج سياسة التحدي.

وبالنسبة لما أثارته أحـداث الخانكة من دوي فقد طلب الرئيس السادات من مجلس الشعب تكـوين لجنة لتقصـي الحقـائق، وتكـونت هـذه اللجنة بالفعل برئاسة الـدكتور: جمـال العطيفي وقـامت بواجبهـا، وقـدمت تقريـرًا مسـهبًا عن الحادثة وما سـبقها وما يمكن أن يعقبهـا، ولما كـان هـذا التقرير هو خـير ما يعـرض لنا أحـداث الخانكة وأسـبابها وملابسـاتها، فقد آثرنا أن نأخذ الفكـــرة عن هـــذه الحادثة عن طريقـــه، وكما صـورها بنقله كـاملا، وكما تلاه الـدكتور جمـال العطيفي على المجلس في جلسة 26/11/1972م.

قرار تشكيل اللجنة:

أصدر مجلس الشعب بجلسته المنعقدة يوم الاثـــنين من شـــوال 1392 الموافق 26 من

نوفمــبر 1972 قــرارًا بنــاء على طلب الســيد رئيس الجمهورية بتشكيل لجنة خاصة باستظهار الحقــائق حــول الأحــداث الطائفية الــتي وقعت أخيرا في مركز الخانكة، وإعـداد تقرير للمجلس عن حقيقة ما حــدث. وقد شــكلت هــذه اللجنة برئاسة الدكتور: جمــال العطيفي وكيل المجلس وعضـوية السـادة أعضـاء المجلس: محمد فـؤاد أبو هميلــة، وألــبرت برســوم ســلامة، وكمــال الشاذلي، والدكتور رشدي سعيد، وعبد المنصف حسن زين، والمهندس: محب إستينو.

حدود مهمة اللجنة:

يعتــبر هــذا القــرار أول ممارسة في ظل الدســــــتور الجديد لما أجازته اللائحة الداخلية للمجلس من جواز تشكيل لجنة خاصة لاستظهار الحقائق في موضوع معين، وذلك طبقًا للمادتين 16، 47 من اللائحة.

ومع أن قــــرار تشــكيل اللجنة ينــــوط بها اسـتظهار الحقـائق في الأحـداث الطائفية الـتي وقعت أخـــــــيرًا في الخانكة إلا أن اللجنة رأت بمناسبة بحثها لظروف هـذه الأحـداث والعوامل الــــتي أدت إليها أن حادثة الخانكة - وهي إحدى الحوادث التي تكررت خلال هـذا العـام - يطـرح بصفة عامة وأساسية موضـوع العوامل المـؤثرة على العلاقـــات بين طوائف الشـــعب، وما إذا كانت هذه العوامل مصطنعة أو مغرضـة، ومـدى تهديــدها للوحــدة الوطنية في هــذه الظــروف الدقيقة التي يجتازها شعبنا ضد العدو الصـهيونى والاستعمار العالمى، ومن ثم فإن اللجنة تعــرض في تقريرها لموضــوع حــادث الخانكة باعتبــاره

حادثًا مميزًا يعبر عن مناخ غير صحي ساد العلاقات الاجتماعية خلال هذا العام: ثم تتناول بعد ذلك هذه العلاقات بصفة عامة وتعرض تحليلا واقتراحات محددة لعلاجها.

إجراءات اللجنة:

بدأت اللجنة عملها، باجتماع عقده رئيسها مع السيد نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والسيد النائب العام في صباح اليوم التالي لصدور قرار تشكيلها؛ وذلك للوقوف على ظروف هذا الحادث لتبدأ عملها في ضوء تصور واضح، ولما كانت النيابة العامة لا تزال تباشر التحقيق، وحتى لا يقع تداخل بين الإجراءات التي تتخذها اللجنة وإجراءات التحقيق الجنائي، فقد رأت اللجنة الاكتفاء بطلب تقرير آخر على أن يتضمن سردًا للحوادث المماثلة التي تكون قد وقعت في العام الأخير، ثم بدأت اللجنة إجراءاتها كالآتي:

1- في صباح يوم الثلاثاء 14 من نوفمبر 1972 عقدت اللجنة اجتماعا عرض فيه رئيسها التصور المبدئي للحوادث التي وقعت في الخانكة، يومي 6 نوفمبر و 12 نوفمبر 1972 في ضوء المعلومات الشفوية التي تلقاها من السيد نائب رئيس الوزراء ووزير الداخلية والنائب العام.

ففي يوم 6 نوفمبر وضع مجهولون النار في دار جمعية الكتاب المقدس، التي كان يتخذها أهالي مركز الخانكة من الأقباط كنيسة بغير ترخيص لإقامة الشعائر الدينية.

وفى 12 نوفمبر وفد إلى الخانكة عـدد كبـير من القساوسة قــدموا إليها بالســيارات ومعهم بعض المواطـنين من الأقبـاط وسـاروا إلى مقر جمعية أصــدقاء الكتـــاب المقــدس المحـــترق وأقاموا شعائر الصـلاة فيهـا، وتجمع في المسـاء عدد كبير من المواطـنين في مسـجد السـلطان الأشرف وخرجوا في مسيرة احتجاج على ذلـك، نسب فيها إلى غالي أنيس أنه أطلق أعيرة نارية في الهواء على رؤوس المتظاهرين من مسدس مرخص له بحمله؛ فتوجه بعض المتظـاهرين إلى مسكن هذا الشخص وإلى أماكن آخرين وقــاموا بوضع النـــار فيها وإتلافها دون أن تقع إصـــابات، وبعد أن اســـتمعت اللجنة إلى هـــذا العـــرض المبـدئي للحـادث ناقشت خطة عملها وحـددت البيانـــات والمعلومـــات الـــتي تحتـــاج إليها من الجهات المختلفة.

2- في يوم الأربعاء 15 نوفمـبر 1972 انتقلت اللجنة بكامل هيئتها إلى مركز الخانكة يصـحبها السـيد اللـواء: مصـطفى الشـيخ، وكيل وزارة الداخلية لشـئون الأمن، والـذي ندبته الوزارة بناء على طلب اللجنة لتسهيل مهمتهـا. وقد بـادرت بزيـارة الأمـاكن الـتي جــــرت فيها هــــذه الأحـــــداث وناقشت المسئولين في مركز الشرطة وفي مجلس المدينة وفي الاتحـــــاد الاشـــــتراكي، كما استمعت إلى ملاحظـات الـذين وقع اعتـداء على مســاكنهم وحـــوانيتهم فعـــاينت دار جمعية الكتاب المقدس الـذي كـان الأقبـاط من ســكان المركز قد جــروا أخــيرًا على

إقامة الصلاة فيه، والذي تعرض لوضع النـار فيه صـبيحة يـوم الاثـنين 6 نوفمـبر 1972، كما شاهدت آثار النـار والكسر في مسـاكن جــرس عريــان ســليمان، وبريــال جــرس عريـان، وحليم حنا نعم اللــه، وغـالي أنيس سعيد بشاي.

3- في مســـاء اليـــوم نفسه اســـتقبلت اللجنة أمين الاتحاد الاشــتراكي بمحافظة القليوبية وأمين وحدة المركـز، كما اسـتقبلت السـيد عبد القــادر الــبري عضو المجلس الشـعبي للمحافظة المختـــار عن وحـــدة الاتحـــاد الاشتراكي بالمركز – والذي كـان قد اتهمته بعض المجني عليهم في التحقيق بالتحريض على ارتكاب الحادث، كما اسـتقبلت الشـيخ زين الصاوي البدوي إمام مسجد السـلطان الأشرف الـذي تجمع فيه أهل مركز الخانكة مسـاء يـوم الأحد 12 نوفمـبر سـنة 1972، وطلبت اللجنة من الســـيد أمين الاتحـــاد الاشـــتراكي بمحافظة القليوبية بتقـــديم معلوماته وملاحظاته، وقد وافاها بعد ذلك.

4- في يـــــوم الخميس 16 نوفمـــــبر 1972 اجتمعت اللجنة بقداسة البابا شنودة الثـالث بطريرك الأقباط في دار البطريركيـــة، وفي هذا الاجتماع استمعت اللجنة إلى ملاحظات البابا شــنودة، كما اجتمعت اللجنة بفضــيلة الإمـام الأكـبر محمد الفحـام شـيخ الجـامع الأزهر وشهد هذا الاجتماع أمين عـام مجمع البحــوث الإســلامية فضــيلة الــدكتور عبد الــرحمن بيصــار، ومــدير البعــوث بــالأزهر

الــدكتور عبد المنعم النمــر، ومــدير مكتب شــيخ الأزهر وفضــيلة الشــيخ صــلاح أبو إسماعيل.

5- في مساء اليوم نفسه استقبل رئيس اللجنة أحد المبلغين الذي أرسل إلى الســيد رئيس مجلس الشعب بأن لديه معلومات لتوضــيح ملابســـات الحـــادث، وقد أعـــادت اللجنة مناقشته بعد ذلك مساء السبت 18 نوفمـبر وأخطرت النيابة العامة لسؤاله.

وكــانت اللجنة قد تلقت أيضًــا برقيــتين من الحوامدية من كل من الســيد إبــراهيم والســيد ســـــعد العباســـــي، رئيس لجنة الرعاية الدينية الإســلامية بالحوامديــة، تنــذر بخلاف حــول قبة لمبنى جمعية أنصار الكتاب المقـدس بالحوامدية المتخذ كنيسة منذ بضـعة أعـوام بغـير تـرخيص، وقد رأت اللجنة مثل هـذا الـنزاع يعطي صــورة عن بعض جــوانب الاحتكــاك الــذي تكــرر نوعه فـــدعت إليها الشــــاكين، وقد أمكنها تســــوية الموقف وإبقاء الحالة على ما هي عليه.

6- وقد تلقت اللجنة في نفس اليــوم إخطــار من الـدكتورة عائشة راتب وزيـرة الشـئون الاجتماعية ببيــان المبــالغ الــتي صــرفتها الوزارة لمن لحقتهم خسائر من جـراء هـذه الحــوادث بالخانكــة، وذلك بعد أن قــامت الســيدة الــوزيرة ورجــال الــوزارة بزيــارة مكان الحوادث يوم 16 نوفمبر.

كما تلقت اللجنة في نفس اليوم إخطارًا من السـيد محمد حامد محمـود الأمين الأول للإتحـاد

الاشتراكي العــربي بــأن أحد الشمامسة بكنيسة كفر أيوب بمركز منيا القمح كان يــوزع في يــوم 6/ 11 كتيبات من مؤلفاته أشتبه في مضمونها.

كما تلقت اللجنة برقيـــــتين إحـــــداهما من الـدكتور القس عبد المسـيح إسـكفانوس يشـكو فيها من واقعة قديمة بما أسـماه اغتصـاب أرض دار الكتـاب المقـدس بالإسـكندرية بـزعم إقامة مسـجد عليهـا، والأخـرى من عبد الفتـاح بشـير وتتضـمن اتهاما عامًا لعناصر لم يـذكرها تحـاول إحــداث فتنة بهيئة النقل العــام، وقد أخطــرت الجهات المختصة بالبرقيتين.

7- وفي صــباح يــوم الأحد 18 نوفمــبر 1972 اسـتقبلت اللجنة بعض أهـالي مركز الخانكة الــذين قــدموا معلومــات عن الحــادث، وقد رأت إبلاغها إلى النائب العام.

وفي مساء اليوم ذاته اســتقبلت اللجنة الأنبا صموئيل أســقف الخــدمات، والأنبا ديمــاديوس، واستمعت إلى ملاحظاتهم.

القسم الأول: وقائع حوادث الخانكة.

اســـتعانت اللجنة أساسًـــا في تحديد هـــذه الوقـــائع بتقـــارير النيابة العامة وهي الســـلطة القضائية المختصة بالتحقيق، وفي نفس الــوقت فإنها قد راجعت ما قدمته إليها الجهـات الأخـرى المختصــة، كما أطلعت على تقرير أعد عن هــذه الحــوادث وقــدم إلى قداسة البابا شــنودة، ومن

خلال قيامها بالانتقـال والمعاينة والمناقشة الـتي أجرتها مع هــذه الأطــراف المعنيــة، أمكنها أن تستخلص الوقائع الصحيحة.

حادث يوم الإثنين 6 نوفمبر 1972

منذ عــام 1946 وجمعية أصــدقاء الكتــاب المقـــدس تباشر نشـــاطها في الخانكة كجمعية دينية مسـجلة بـوزارة الشـئون الاجتماعية، ومنذ حــوالي ســنة قــام المحــامي أحمد عــزمي أبو شريفة ببيع قطعة أرض صـغيرة يملكها مجـاورة لمنزلة بــالحي المســمى الحي البــولاقي بمدينة الخانكة إلى من يـــدعى محمد ســـعد الجلـــدة، العامل بمزرعة الجبل الأصفر، الذي باعها بدوره إلى أحد المسيحيين، وتسلسلت عقـود بيعها إلى أن انتهت ملكيتها إلى الأنبا مكسيموس مطــران القليوبيــة، وكــان الظن وقتئذ أنها ســتبنى مقــرًا لهــذه الجمعيــة، وقد ســورت فعلا وألحقت بها حجرات نقلت إليها الجمعيــة، غـير أنه في مطلع الصيف هذا العام أقيم فيها مــذبح للصـلاة ورتب فناؤها بما يســمح بإقامة الشــعائر الدينية فيــه، وتولى القس مرقس فــرج وهو راعي كنيسة أبو زعبل الـــــتي تبعد قرابة ثلاثة كيلومـــــترات من الخانكة " إقامة الشـعائر الدينية فيها " في أيـام الجمع لانشغاله أيام الآحاد بكنيسـته الأصـلية في أبي زعبـــل. ولما كـــانت الجمعية لم تستصــدر قــرارًا جمهوريًا بــالترخيص بإقامة كنيســة، فقد أخـذت الإدارة تعهـدًا على رئيس الجمعية شـاكر غبور بعـدم اسـتخدامها ككنيسة إلا بعد الحصـول على تــرخيص، وقد أثــار اسـتخدام هـذا المكـان

ككنيسة بغـــير تصـــريح بعض المقيمين بمدينة الخانكة ومن بينهم عبد القادر البري وهو مفتش مــــالي وعضو المجلس الشــــعبي بمحافظة القليوبيــة، وليس هنــاك ما يــدل على أن هــذا الاعـتراض قد اتخذ مظهـرًا عنيفًا أو كـان موضع اهتمام عام.

وفي صبيحة يـوم الحـادث 6 نوفمـبر 1972 وهو أول أيام عيد الفطر المبارك أخطرت النيابة العامة بحدوث حريق في هذا المبـنى، وقد تـبين أن النار قد أتت على سقفه وهو من الأخشــاب، كما امتــدت إلى موجــودات، ولكنها لم تمتد إلى جدرانه المبللــة، ولم تتوصل التحقيقــات الــتي أجرتها النيابة إلى معرفة الفاعـل، غـير أن بعض الذين كانوا يـبيتون في المبـنى لحراسـته قـرروا في تحقيق النيابة أنهم شــاهدوا جملة أشــخاص يلقون زجاجات مشـتعلة من الخـارج، وقد أمكن لرجـــال المطـــافئ إخمـــاد النـــار بمعاونة بعض الأهالي من المسلمين والمسيحيين.

ودون تدخل في إجــراءات التحقيق الجنــائي وما يمكن أن تستخلصه النيابة العامة من ثبــوت التهمة أو عـدم ثبـوت التهمة فـإن هنـاك حقـائق يجب أن تؤخذ في الاعتبار:

1- إن أهالي مدينة الخانكة كانوا يعيشون دائما في وئــام، وقد ضــربوا المثل في التعــاون والوحدة حينما تعرض أحد مصـانع أبو زعبل القريبة من الخانكة لغــــارات طــــائرات إسـرائيل الفـانتوم في فـبراير 1970 حيث قتل 70 عاملا وأصـيب 69 غـيرهم بجـراح؛

مما عبأ الجميع ضد العدو، لأن القنابل الـتي ألقيت لم تفرق بين المسلم والقبطي.

2- إن رئيس مجلس المدينة السابق كـان من الأقبـاط، وقد ظل في مركـزه قرابة اثـني عشرة سنة وهو السـيد أديب حنـا، ولم يـثر أي حساسيات طوال هـذه السـنين. وحينما عين خلفه الحالي السيد عادل رمضـان في مـارس 1972 احتفلت به جمعية أصـدقاء الكتـاب المقـدس في مبناها الجديد الـذي انتقلت إليه، ويشغل عدد كبـير من الأقبـاط وظـائف هامة وخاصة في قطـاعي الصـحة، والصـــحة النفســـية حيث تزايد نســـبة المـوظفين الأقباط على السـتين في المائة إذ يبلغ عـــــددهم 38 من بين 59 موظفًا (طبقًا للبيانـات الـتي قـدمها رئيس مجلس المدينـة)، ويبلغ مجمـوع المـوظفين الأقباط في هـــذا المركز 111 من بين مجمـــوعهم البالغ 856 موظفا.

3- إن مبنى جمعية أصـدقاء الكتـاب المقـدس الذي احترق سقفه واحــترقت موجوداته هو مبـــنى صــغير يقع في مكـــان مـــنزوٍ غـــير مطـروق يقع في الجهة الشـرقية للمدينـة، ويقوم حوله بعض مسـاكن المسـلمين، ولم يكن مرخصًا كبناء فضلا عن عدم الــترخيص به ككنيســـــة، ولكن من ناحية الأمر الواقع كانت تباشر فيه الشعائر الدينية دون تعرض من جهات الإدارة وبتسامح منها، وقام بعض المسلمين من أهالى الخانكة بجمع تبرعـات

لإقامة مسجد شديد القرب من هذا المكان وشرع فعلا في بنائه.

4- إن عـدد سـكان الخانكة كما جـاء بالتعـداد العـام للسـكان المنشـور عـام 1960 بلغ 21863 منهم 615 أقباط، غير أن البيانـات الـتي قـدمت إلى مجلس المدينة تفيد بـأن عدد المسيحيين لا يجاوز ستًا وثلاثين أسرة. وقد طلبت اللجنة بيانًا من الجهـاز المركزي للتعبئة والإحصاء بعد اتصال قـام به رئيسـها بالفريق جمال عسكر، ويتبين من الرد الذي تلقته إنه كـان في مدينة الخانكة في عـام 1966 عدد 692 مسيحيا فـزاد عـام 1972 إلى 802 مسيحيين، بينما جملة المسيحيين في مركز الخانكة (مدينة وقـرى) بلغ في عـام 1966 عـدد 2552 وزاد في عـام 1972 إلى 2963.

5- إنه قد بولغ في تصـوير هـذا الحـادث على قداسة البابا عن معلومـات عنـه، وزاد من حدة التوتر أنه سبقه منذ عـدة شـهور قليلة حادث مماثل في سنهور بجهة دمنهـور. وقد ورد في التقرير الذي قـدم إلى قداسة البابا عن هذا الحادث ما يفهم منه أن المكـان قد حـرق بالكامـل، وصـور الحـادث على أن المطافئ تباطـأت في إطفـاء الحريـق، وأن المتآمرين قد منعوا رجـال الإطفـاء من أداء واجبهم، كما تضمن هذا التقرير تشكيكًا في سلامة إجراءات التحقيق وعدم حيدتها.

وقد أثبتت المعاينة الـتي قـامت بها اللجنة بالإضـافة إلى المعاينة الـتي أجرتها النيابة أن

الحريق لم يمتد إلا للسقف الخشبى وإلى الموجودات الخشبية وأنه لولا تدخل رجال الإطفاء لما كانت النار قد أخمدت دون أي خسائر أخرى. كما وصفت الحوادث أنه حريق لكنيسة (بينما لا توجد كنيسة مصرح بها رسميا) وأنه بذلك ينطوي على امتهان المقدسات المسيحية، وقد أضفى على تصوير الحادث طابع الإثارة.

وقد عرضت اللجنة على قداسة البابا الوقائع الصحيحة التي تخلصتها، فوافق قداسته على عدم اعتماد المعلومات التي قدمت إليه انتظارا لما يسفر عنه التحقيق.

6- على أنه من ناحية أخرى، فقد أحالت اللجنة كل ما قدم إليها من معلومات عن اتهام أشخاص معينين بالاشتراك أو التحريض على ارتكاب هذا الحادث إلى النائب العام ليجري شئونه فيه.

حادث يوم الأحد 12 نوفمبر 1972

في صبيحة هذا اليوم اتجهت إلى مدينة الخانكة بعض سيارات أتوبيس السياحة والسيارات الخاصة والأجرة ويستقلها حوالى 400 شخص يرتدي الملابس الكهنوتية الخاصة بالقساوسة والشمامسة، وقد كان نمى إلى علم السلطات إن قرارًا قد اتخذه مجمع الكهنة في القاهرة بإقامة الصلوات يوم الأحد في مقر جمعية الكتاب المقدس التي كان يتخذها الأقباط المقيمون بالخانكة كنيسة لهم، وقد استوقفتهم قوات الأمن التي قدمت على عجل من عاصمة

المحافظة عند قرية القلج الـــتي تقع في طريق الخانكـة، وذلك في محاولة لإثنـائهم عن عـزمهم خشية أن يؤدي هذا الجمع الكبير إلى إثـارة غـير محمودة العواقب والاكتفـاء بعـدد محـدود منهم، ولكنهم صـــمموا على أن يمضـــوا في تنفيذ ما اعــتزموه، فاتخــذت قــوات الأمن الاحتياطــات اللازمة ومضـوا سـيرًا على الأقـدام في مـوكب طويل مـــــرددين التراتيل الدينية يتقــــــدمهم القساوسة، وحينما وصلوا إلى مقر الحادث ثبتوا مكبرات الصوت وبدأ القداس على مرتين، حـتى يتسع الاشـــتراك فيه لهـــذا الجمع الغفـــير، ثم انصـــرفوا بعــدها دون أن تقع أي حـــوادث، وقد نسب إلى بعض الغلاة منهم تفـــــوه بعبــــارات غليظة في الاحتجاج على ما وقع من حــادث في هذا المبنى في الأسبوع الماضي، وتصويره على أنه عــداء طــائفي لم تتخذ ســلطة الدولة حياله الإجراءات المناسبة.

وفي المسـاء حينما عـاد إلى المدينة شـبانها المسـلمون الـذين كـانوا في الجامعـات أو في المصـانع أو المكـاتب خـارج المدينة ورويت لهم صورة لما جرى في الصـباح اعتـبروا ذلك تحـديًا واســـتفزازا لشـــعورهم فـــاجتمعوا بمســـجد الســـلطان الأشـــرف الـــذي يقع بالجهة الغربية بالمدينة ومعهم الشيخ زيد الصاوي البدري إمــام المســـجد وتوجهـــوا إلى مركز الشـــرطة في مسيرة تكبر باللــه، وقد طلب منهم المسـئولون الانصراف، وانصرف الشـيخ زيد الصـاوي بعد أن نصـــحهم بـــالتفرق، بينما اســـتمر البـــاقون في مســـيرتهم إلى مقر الاتحـــاد الاشـــتراكي، وفي

مـرورهم على حـانوت بقـال يـدعى غـالي أنيس بشاي سـمع صـوت طلقـات نارية نسب البعض إطلاقها إلى هــذا البقــال، الــذي تــبين فعلا أنه يحمل مسدسًا مرخصًا به، وإن كـان لم يـرد في فحص الطب الشرعي ما يقطع أنه أطلق حديثا، ولكن ذلك أدى إلى إثارة الجماهير التي انـدفعت إلى منزل هذا البقال فوضعت فيه النار، وانـدس بينها من اغتنم هـــذه الســـانحة للســـرقة، كما أحــرقت مســاكن أخــرى لكل من أنيس بشاي، وحليم نعمة الله، ورزق صليب عطية، وجـرجس عريان، وبريال جرس عريان، وموجودات ستديو للتصوير يملكـه رزق صـليب عطية – كما تحطم زجاج صـيدلية الـدكتور كامل فهمي أقلاديـوس ، وتوجه بعض المتظــــــــاهرين إلى مقر جمعية أصــدقاء الكتــاب المقــدس وأشــعلوا النــار في إحــــــدى حجراتها الملحقة ببنائها المتخذ كنيسة للصــلاة، ومع ذلك فلم تحــدث أي خســائر في الأرواح وأصيب ثلاثة أشخاص عرضًا بينهم اثنــان من المسلمين بإصـابات بسـيطة وقد قبض على عــدة أشــخاص متهمين بالســرقة أو الحريق أو الإتلاف، وقـررت النيابة العامة حبس تسـعة من المتهمين منهم حبسًا احتياطيا.

ودون التعرض لوقائع الاتهـام الجنائيـة، فـإن هناك حقائق أمكن للجنة استظهارها:

1- أن الحادث الذي وقع يوم الاثنين 6 نوفمـبر كـان يجب أن يبقى في حـدوده الصـحيحة، وكان من حسن السياسة أن يحصر في هذا النطاق، وحسبما ذكر البابا شـنودة لأعضـاء اللجنة، فإنه قد زار بعدها الإمام الأكبر شيخ

الجـــامع الأزهر مهنئًا بالعيد دون أن يـــترك الحادث أثرًا في نفسـه، لـولا مـا بـدا له من أن يد العدالة لم تســــــتطع أن تتوصل إلى المسئولين عن هذا الحادث، وأن البعض قد خشــي أن ينتهي التحقيق إلى ما انتهى إليه حــوادث أخــرى وقعت قبل ذلــك، ولم تتخذ فيه مبادرات قوية وصريحة، وإن من ذهبــوا إلى الصـلاة في مكـان الحـادث لم يقصـدوا أن يتوجهوا إلى الخانكة في مسيرة ولكنهم ســـاروا على الأقـــدام بعد أن اســـتوقفهم السيد مدير الأمن ونائبة لإقنـاعهم بالعـدول عن المسيرة.

2- إنه كـان من المحتمل أن تتعـرض مسـيرة الصــلاة الكنســية، مع ما انطــوت عليه من مظاهر الاحتجـاج والإثـارة لاحتكـاك سـلمت منه نتيجة أصــالة الــوعي بالوحــدة الوطنية الــذي اسـتقر في قلـوب المصـريين جميعًا منذ مئات السنين.

3- إنه يجدر تسجيل الموقف المشـرف لبعض القساوسة ومنهم القمص إبـــــراهيم عطية الـــذي ألقى كلمة الصـــلاة في مقر الجمعية المتخذة كنيسة، معلنًا إن من قـام بـالحريق إنســان مغــرض لا ينتمي إلى المســيحيين أو المسلمين وأشاد فيها بالتضامن والوحدة بين عنصري الأمة.

4- إن قـوات الأمن الإضـافية الـتي اسـتدعيت في الصباح بعد تجمع القساوسة للصلاة في الخانكـة، قد عـادت بعد انصـراف المصـلين وبعد أن هــدأت الحالة وتــركت قــوة لتعزيز

قوة المركز، وبعد أن وقعت حوادث المساء دعمت بقـــــوة من الإدارة المركزية للأمن للمحافظة على النظام.

5- إن الدكتورة وزيـرة الشـئون الاجتماعية قد بــادرت إلى زيــارة موقع هــذه الحــوادث، وقــررت بنــاء على توجيهـات السـيد رئيس الجمهورية تعويضـــات فورية لمن وضـــعت النار في مساكنهم أو حوانيتهم ، فاستحقت جمعية أصـدقاء الكتـاب المقـدس 210 من الجنيهات هي قيمة الخسـائر المقـدرة، كما قــررت مبلغ مــائتي جنية تعويضًــا لخســائر لحقت مـنزل وحـانوت رزق صـليب عطيـة، ومبلغ 150 جنيها لكل من حليم حنا نعمة الله وأنيس ســـعيد بشاي وللمهجر جــــابر مسـعود جـابر تعويضًـا عن إتلاف كشك لـه، ومبلغ 30 جنيهًا لصـــــــيدلية د/ كامل فهمي أقلاديوس، وقد تلقت السيدة الوزيرة برقية شـــــــكر من وجيه رزق مـــــــتى نيابة عن المسيحيين بالخانكة.

المقدمات:

ومن الدراسة الـــتي قـــامت بها اللجنـــة، استخلصت المقدمات الـتي أدت إلى تزايد هـذه الحالة من التوتر:

1- ففي خلال عـــــــام 1970 وقع بمدينة الإسـكندرية حـادث فـردي خـاص باعتنـاق شابين من المسلمين للمسيحية تحت تـأثير ظروف مختلفة، وقد سـرت أخبـار ذلك بين النـــاس، وكـــانت موضع التعليق ونقد بعض

أئمة المساجد استنكارا للنشاط التبشــيرى، وقد أعــدت مديرية الأوقــاف بالإســكندرية وقتئذ تقريرا قدمه الشــــيخ إبــــراهيم عبد الحميد اللبان وكيل المديرية لشئون الدعوة بنتيجة بحثه لموضــوع الانحــراف العقائدي لبعض الطلاب بمنطقة جليم والرمل وقد ذكر فيه الأخطار الـتي تهـدد بعض الشـباب نتيجة حملات التبشــــير نســــبت إلى بعض القساوســــة، كما تضــمن جملة افتراضات تعكس مخــاوف مقــدم التقرير من هـــذه المخــاطر، وفي عــام 1972 أي بعد قرابة ســنتين من تقــديم هــذا التقرير الــذي يعد تقريـرًا داخليًا ليس معدا للنشـر، امتـدت يد خبيثة إليه فحصلت على صورة منه وقـامت بطباعته بالإستنسل وتوزيعه على نطــــــاق واسع.

وقد تضـمن التقرير بعض الأمـور التصـويرية المنسـوبة إلى رجـال الـدين الأقبـاط والـتي من شـــأنها أن تثـــير اســـتفزاز من يطلع عليها من المسلمين، تحمله على تصديق أمور لم يقم أي دليل على نسبتها إليهم، وبعضـها بعيد التصـديق، مما حمل بعض أئمة المســاجد بالتنديد الشــديد وكـــانت نتيجة ذلك زيـــادة اســـتياء كثـــير من المسلمين وبذر بذور الشك بينهم وبين إخــوانهم الأقبــاط، ورغم شــيوع أمر هــذا التقرير لم تقم الجهـــــات المســـــئولة والإعلامية بالتصدي له بالمواجهة والنفي، ربما ظنًا منها أن أثــــــــره سيكون محـدودًا وأنه سـرعان ما يتلاشـى، وكما أن يد العدالة لم تستطع أن تمتد إلى مروجيه.

2- وحينما بدأت مرحلة تصحيح مسار الثورة في 15 مايو 1971 دعت الجماهير إلى المشاركة في إعداد الدستور الدائم ، وكان من الواضح للجنة المختصة بإعداد الدستور الجديد التي طافت أنحاء البلاد حينئذ، بروز تيار متدفق يدعو إلى اعتبار الشريعة الإسلامية مصدرا للتشريع تقابله دعوة أخرى من الأقباط إلى التمسك بحرية العقيدة والأديان وخاصة إلغاء التراخيص المقررة لإقامة الكنائس.

ولم يكن التوضيح كافيًا بأن الدعوة إلى تطبيق أحكام الشريعة الإسلامية يتنافى مع حرية العقيدة وممارسة الشعائر الدينية التي كفلها الدستور لجميع المواطنين، وأن الإسلام والمسيحية رسالتا تسامح ومحبة يدينان بالله.

في هذا المناخ الذي سادته مفاهيم الحرية وسيادة القانون وارتفع فيه شعار دولة العلم والإيمان، انتخب الأنبا شنودة بابا لكنيسة الإسكندرية والكرازة المرقسية في آخر أكتوبر، ونصب في 14 نوفمبر في احتفال شهده رئيس الوزراء وقتئذ وكبار المسئولين في الدولة وأذيع بالتلفزيون والراديو وكان موضع اهتمام واسع من جميع وسائل الإعلام، وكان من الواضح أن البابا الجديد قد بدأ نشاطًا واسعًا في خدمة الكنيسة والوطن بمجرد انتخابه ألقى محاضرة عن إسرائيل في نقابة الصحفيين تقرر طبعها بخمس لغات وينشر في بعض الصحف حديثًا أسبوعيًا يوم الأحد وأعلن تنظيمات للكنيسة تدعيمًا لرسالتها الروحية ومعالجة لقضايا

المجتمع داخل النطـــاق بأســـلوب علمي روحي وهو أول بابا في العصر الحـــديث من رؤســـاء الكلية الإكليريكية

ويبـــدو أن بعض الحساســيات كـــانت تنشأ أحيانًا عن هذا النشاط الواسع، حتى قبل انتخاب الأنبا شـنودة للبابوية، فقد أصـدرت مجلة الهلال عــددًا خاصًــا عن القــرآن في ديســمبر 1970 ونشر فيه مقـال عنوانه " القـرآن والمسـيحية " بقلم الأنبا شنودة مبينًا فيه الالتقـاء بين الإسـلام والمسيحية، وقد تناوله بالرد بعض الخطباء على منابر المسـاجد على حد ما نشـرته مجلة الهلال في عـددها الصـادر بعد ذلك في فـبراير 1971 والذي تضمن تعليقات أخرى على هذا المقال.

كما أن إعلان البابا شــــنودة بعد انتخابه عن تمســـكه بــرفض أيه دعـــوة إلى إباحة الطلاق للمسيحيين إلا لعلة الزنـا، وأن كل طلاق يحـدث بغير هـذه العلة الواحـدة لا تعـترف به الكنيسـة، كـان يقابله على الجـانب الآخر رفض لأي دعـوة إلى تعـديل قـانون الأسـرة بالنسـبة للمسـلمين، ووضع أي تنظيم لحق الطلاق، ومثله أي حديث له عن تطوير في الكلية الإكليريكية، أو اسـتعادة الإسكندرية لمنزلتها العالمية وقيادتها الإفريقيـة، رغم أنه معنى سبق أن ردده بعض كبار الأقبـاط ممن تعـــاونوا دائمًا مع نظـــام الدولة بـــإخلاص (على سبيل المثال مقـال الـدكتور كمـال رمزي إســـتينو، بعنـــوان آمالنا في عهد البابا شـــنودة جريـدة الأهـرام في 15 نوفمـبر 1971)، ومثل هذه الحساسيات لمستها اللجنة أيضًا لـدى بعض رجـال الـدين المسـيحي بشـأن ما نشـره بعض

الكتـــاب المســـلمين عن المزامـــير والتـــوراة والتثليث.

ومن هـذه النقـاط المختلفة تفـاقم الشـعور بالحساسـية من كل من ينشـره أو يقوله رجـال الدين المسـيحي في نطـاق العقيـدة المسـيحية عن فهم للإسـلام، ومن يـدين به رجـال الشـرع الإسلامي في نطاق العقيدة الإسلامية عن فهم.

وقد اســـــــتطاعت اللجنة أن تلمس خلال لقاءاتها بالبابا شـنودة من ناحية وبالإمـام الأكـبر شيخ الجامع الأزهر وفضيلة وزير الأوقـاف، ومن ناحية أخـــرى الحساســـية المفرطة من كل ما ينشر متعلقًا بالموضوعات الدينية، حـتى وصـلت هذه الحساسـية إلى حد الاسـتياء من أي عبـارة قد ترد عرضًا في سياق مقال لكاتب أو صـحفي مما يمكن أن يســـــــــــــــــــاء تأويله أو فهمـه، وهي حساسـية يجب على المسـئولين الدينيين أن يرتفعوا فوقها وإلا أصبح إبداء الـرأي والتعليق والاستدلال محفوف بالمخاطر.

3- وبعدها تناقل النـاس أخبـار تقرير آخر غـير تقرير الشيخ إبراهيم اللبان، وقد وصف بأنه تقرير لجهـات الأمن الرسـمية عن اجتمـاع عقـده الأنبا شـنودة الثـالث في 15 مـارس 1972 بالكنيسة المرقســية بالإســكندرية، وقد أخذ هـــــذا التقرير طريقة إلى التوزيع وقد صـيغ على نحو يـوحي بصـحته كتقرير رسمي وتضمن أقوالا نسـبت إلى بطريـرك الأقبـاط في هـذا الاجتمـاع، ورغم أن هـذا التقرير كـان ظـاهر الاصـطناع، فقد تناقلته بعض النـــــــاس على أنه حقيقة مما ولد

اعتقادًا خاطئًا لدى الكنيسة القبطية حسبما جاء بهذا المنشور تهدف به إلى أن يســتوي المســـيحيون في العـــدد مع المســـلمين والسعي إلى إفقـــار المســـلمين وإثـــراء الشـــعب القبطي حـــتى تعـــود البلاد إلى أصـــحابها المســـيحيين من أيدي الغـــزاة المسلمين كما عادت أسبانيا إلى النصـرانية بعد استعمار إسلامي دام ثمانية قرون.

ورغم خطورة هذا المنشور المصطنع وأثــره على نفسية بعض المسلمين الذين يطلعـون إليه ويتناقلون مضمونه، فلم يتخذ إجراء حــازم لتنبيه الناس إلى إفكه.

وإذا كان الاتحاد الاشـتراكي قد أصـدر أخـيرًا بيانًا بتكذيب ما تضمنته هـذه النشـرة، فقد كـان المـــــــــأمول ألا يقتصر توجيهه على القواعد التنظيمية بالاتحاد الاشتراكي، وقد اســتغل بعض المتطـــرفين هـــذا التقرير المصـــطنع فراحو يوزعونه مع تعليق فيه إثـــــــــارة وحض على الكراهية.

وقد أحدث ذلك رد فعل ربما كـان من أسـوأ مظـاهره ما بـدا في مـؤتمر عقـده بعض رجـال الـدين المسـيحي بالإسـكندرية يـومي 17 و 18 يوليو 1977 واتخذوا فيه قرارات أبرقوا بها إلى الجهــات المســئولة ومن بينها مجلس الشــعب، وكلها تـــدور حـــول المطالبة لما ســـموه حماية حقـوقهم وعقيـدتهم المسـيحية، وأنه بـدون ذلك سيكون الاستشهاد أفضل من حيـاة ذليلـة، وهي مواقف كـــانت موضع اســـتياء عـــام من كافة الطوائف المسيحية نفسها.

4- وقد نبهت هــذه الظـــروف مجتمعة إلى الخطر الذي بدأ يهدد الوحـدة الوطنيـة، مما دعا السـيد الـرئيس أنـور السـادات إلى أن يبحث في دور انعقـاده في 24 يوليو 1972 موضوعًا واحدًا هو الوحـدة الوطنيـة، وخلال مــؤتمر هــذه الجلســات أعلن الــرئيس أن هنـاك محـاولات تشـكيك بالوحـدة الوطنية وأن هناك منشورات في هذا المعنى قدمت من خــــارج البلاد وبالتحديد من الولايـــــات المتحـــدة الأمريكيـــة، بينما أن أرض هـــذا الوطن واحدة وأن سـماؤه واحـدة، وشـعبه واحــد، وأعلن الــرئيس أنه سـيدعو مجلس الشـعب لـدورة طارئة حـتى يشـرع قانونا للوحدة الوطنية.

وقد دعى مجلس الشـــــــعب فعلا إلى دور انعقـاد غـير عـادي في شـهر أغسـطس 1972 حيث أعد مشروع قانون لحماية الوحدة الوطنية أصبح نافذًا بعد نشره في الجريدة الرسـمية في 27 سبتمبر 1972.

وفى صدر هذا القانون برز معـنى هـام يجب أن يكون موضع إدراكنا العميق، وهو أن الوحــدة الوطنية هي القائمة على احـــترام المقومـــات الأساســية للمجتمع كما حــددها الدســتور ومنها على وجه الخصوص حرية العقيدة وحرية الــرأي بما لا يمس حريـــات الآخـــرين أو المقومـــات الأساسية للمجتمع.

ورغم صــدور هـذا القـانون فقد وقع حـادث اعتـداء على مبـنى جمعية النهضة الأرثوذكسـية بجهة سنهور بـالبحيرة وذلك يـوم 8/ـ 9/ـ 1972

(الجناية 3103 لسنة 1972 – جنايات مركز دمنهور) وأبلغ بعدها في 29 أكتوبر 1972 (القضية رقم 654 سنة 1972 أمن دولة عليا) عن قيام بعض الأشخاص بطبع مائة نسخة من التقرير المصطنع عن الاجتماع المنسوب إلى البابا والذي أسلفنا الإشارة إليه، وأخيرًا وقعت الحوادث المؤسفة التي جرت في الخانكة.

وتود اللجنة أن تسترعي النظر إلى قانون حماية الوحدة الوطنية لا تعدو أن يكون الإطار الشرعي لهذه الحماية التي يجب أن تجد سندها لدى كل مواطن ولدى سلطة الدولة ولدى التنظيم السياسي وفي هذا الخصوص لدى المسئولين الدينيين.

الأسباب:

تدرك اللجنة قيمة ما بذل أخيرًا من جهود على المستوى السياسي والإعلامي، لتأكيد أهمية حماية الوحدة الوطنية، وخاصة البيان الذي أذاعته الأمانة العامة للاتحاد الاشتراكي العربي على مستوى تنظيماته والبيان القيم الذي أذاعته نقابة الصحفيين، والذي كان يعتبر مثلا كان يجب أن تحتذيه سائر المنظمات الجماهيرية والتأكيد في خطب الجمعة وفي دروس الصباح في المدارس على هذه المعاني ولكن ما لم ننفذ إلى هذه المشكلة في أعماقها ونتعقب الأسباب المؤدية إليها، ونقترح لها علاجًا فإن هناك خشية أن تتوقف المتابعة حينما تهدأ النفوس وتستقر الأوضاع، ويفتر بذلك الاهتمام بإيجاد حلول دائمة لا تقديم مسكنات وقتية، مما

يهدد بعودة الداء الكامن إلى الظهور أشد خطرًا وفتكا.

وقد استطاعت اللجنة من خلال المناقشـات الــتي أجرتها والدراســات الــتي قــامت بها أن تســتظهر جملة أســباب مباشــرة تولد احتكاكا مســتمرًا يمكن أن يكــون تربة صــالحة لــزرع الفرقة والكراهية لتفــتيت الوحـــدة الوطنيـــة، ونجملها تحت عناوين ثلاثة:

الترخيص بإقامة كنائس – الـدعوة والتبشـير – الرقابة على نشر الكتب الدينية". انتهى..

وأرفقت اللجنة تقريرها بخطـــاب للـــرئيس يقـــــول فيه إن هـــــذا الأمر لا يتداركه إلا رئيس الدولة بحكمته ومســــــــئوليته عن كل مواطنيها وكونه الحارس لوحدتها الوطنية.

* * *

لا جـــدال في أن هـــذا التقرير قد استقصى كافة الوقـــائع والأطـــراف المتورطة في حادثة الخانكـة، ولكن التقرير لم يـذكر بعض ما أحـاط بواقعة 12/6 الـــــتي ذكرها أو أنه أشـــــار إليها باقتضـاب مع أنها ذات دلالة بالغـة، وكشف عنها الستار كـاتب معني بالشـئون القبطية في كتابه: (الحقــائق الخفية في الكنيسة القبطية) إذ جــاء به:

" لقد عشنا سويا مسلمين ومسـيحيين على ثرى هذا الـوطن، آلاف السـنين معا في السـراء والضـــراء، على الحلو والمـــرة، يـــدا واحـــدة، والخلافات إذا وجدت بين الأخوة تصفى أيضًا بين الأخوة، دون أن يسمع الغريب".

ولكن حدث شيء غريب لم يحـدث مثله في تـــاريخ الكنيســـة، وليس له شـــبيه.. في حادثة "الخانكـة". عـام 1972 أن يـأمر رئيس الكنيسة الكهنة ويقـــــول لهم: (أنتم كم؟ مائة وســـتون، عـــايزكم ترجعـــوا ســـتة عشر كاهنـــا، والبـــاقي يفترشـــون الأرض افتراشا ويستشـــهدون". حـتى أجابه أحد الكهنـة: (لمـاذا لا تـأتي معنا يا سـيدنا علشان تستشهد أولنا؟).

وهـــذه واقعة توضح – إن صـــحت – كيف أن رئيس الكنيسة بدلا من أن يطفئ نار الفتنة فإنه يضرمها وينفخ فيها..

ولماذا هذا!؟

"... هو أن يمـوت عـدد من الكهنة والشـعب في احتكـــاك مفتعل ومثـــير وعن طريق زبانيته القلائل المعتصـمين في الخـارج يأخـذونها ذريعة للدعاية ضد الـوطن وإثـارة الـرأي العـام العـالم بدعوى أن المسلمين يقتلون المسيحيين".

إن الاستشهاد في العصور الأولى للمســيحية معنى جميل، أن يموت المسيحي لأجل مبـــدأ أنه مســيحي في عـــالم وثني لا يعـترف بالمســيحية ويحظرها.. وقد انتشـرت المسـيحية وانتهى عهد الاستشهاد منذ زمن بعيد جدا بمـوت البطريـرك بطرس خاتم الشهداء قبل ظهور الإسلام..

"أما أن تأخذ فكرة الاستشهاد وسيلة الهدف منها الدعاية ضد الدولة والتشـــنيع بـــدين الدولة الرسمي الـــذي نعيش في رحابه وســـماحته في حب ووئــــام آلاف الســـنين، لأجل أن أخلق من نفســي "زعيمـا شـعبيا" ذا صـيت واسع في دنيا

السياسة وشاشــات إلتليفزيــون.. أبني نفســي بهلاك الآخرين، فهذه أنانية وذاتية مفرطة...".

"أحلام الأنبا شـــنودة بتكـــوين جبهة قبطية للرأي العام العالمي خارج مصر الهـدف منها أن يكـون زعيما شـعبيًا، هي سـراب خـادع أضر به وبالمسيحيين في مصر..."[14].

قد يشكك البعض أو يطعن في هذه الرواية، ولكن تصـوير الأسـتاذ محمد حسـنين هيكل لها قريب مما جاء فيها. فقد قال:

"كـان سـبب الاحتكـاك هو السـبب التقليدي القديم: كنيسة قامت بغـير تـرخيص في الخانكة (أحد ضـــواحي القـــاهرة). وكـــان قيامها بنفس الطريقة القديمـــة: قطعة من الأرض اشـــتريت وأحيطت بسور من الدكاكين، ثم أصبحت الأرض الفضـــاء في قلبها ملعبـــا، ثم مدرسة ثم ملتقى دينيـا، ثم جاءها المـذبح ذات ليلـة، ودشـنها أحد الأساقفة وفتحت لإقامة الصلوات فقامت وزارة الداخلية بواســـــــطة البـــــــوليس بإزالة بعض المنشآت، ومنعت استعمالها لغير الغـرض الـذي كان مقررًا لها، ولم يسكت شـنودة، وإنما أصـدر أمـــــره في اليـــــوم التــــالي إلى مجموعة من الأساقفة أن يتقدموا موكبا ضخما من القسـس، ويسيروا صفا بعد صف في زحف شبه عسـكري إلى ما بقى من مبـــنى "الكنيســـة" ثم يقيمـــوا قـداس صـلاة حـتى بين أطلالـه، وكـانت الأوامر لهم أن يواصلوا التقدم مهما كان الأمر، حتى إذا أطلق البـوليس عليهم نـيران بنـادقهم، وحـاول

---

14 **[14] الحقـــــائق الخفية في الكنيسة القبطية للقمص اندرواس عزيزص8-9**

البوليس أن يتعرض لموكب الأسـاقفة والقسس ولكن الموكب مضى حتى النهاية، وكان المشهد مثيرا، وكانت عواقبه المحتملة خطيرة ".

كـانت التطـورات تسـير في اتجـاه تصـعيد الأزمة فإن البابا شنودة كان بعد أحـداث الخانكة قد أحكم قبضته تمامًا على الكنيسة الأرثوذكسية ومضى بها في اتجـاه التصـعيد. وكـانت الهيئـات الإسـلامية الشـاردة مثل التكفـير والهجـرة، والجماعـات الإسـلامية وجماعة الجهـاد تقوى وتـزداد وتمـارس صـورًا من العنف توجه نحو الدولة أصلا ونحو الأقباط تبعا.

فى هذا الوقت قـدمت مشـروعات بقـوانين لتطـبيق الشـريعة لمجلس الأمة وأعلن المستشـار جمـال صـادق المرصـفاوي رئيس محكمة النقض في مصر الـذي خـرج عن صـمته فجأة منذ تولى منصبة عـام 1972 ليـدلي بعـده تصـريحات مثـيرة. قـال إن اللجنة العليا لتطـوير القـوانين قد انتهت من مشـروعات القـوانين وإرسـالها إلى وزارة العـدل لتطبيقها على كل السـكان من المصـريين وغـير المصـريين المسـلمين وغـير المسـلمين عملا بإقليمية القوانين" وأوجز هذه القوانين فـإذا بها لا تخـرج عن مقترحات الأزهـر. وبخصـوص قـانون الـردة ركز على وصفه بأنه "قانون الخـروج عن الديانة الإسـلامية". وقد "اشـترط مشـروع القـانون أن يطلب إلى المرتد التوبة فإذا انقضت مدة ثلاثين يوما دون العـودة إلى الإسـلام والإصـرار على الردة عوقب المرتد بالإعدام شنقا". كما تضـمن

مشـــروع القـــانون أنه يكفي أن يكـــون هنـــاك شاهدان على الارتداد حتى يصدر الحكم.

فى هـذا الجو المتـوتر قـام الأقبـاط بما لم يقومـــــوا به منذ 1911، إذ عقـــــدوا في 17/1/1977 مـؤتمرًا جـاوزت مقرراته قـرارات أي مؤتمر آخر سـبقه. وقـال البيـان الـذي صـدر عن المؤتمر "دعت الضرورة لعقد هذا الاجتمـاع في هيئة مـــــؤتمر لممثلي الشــــعب القبطي بالإسكندرية مع الآباء الكهنة الرعاة، وذلك لبحث المســائل القبطية العامــة، وتفضل قداسة البابا المعظم الأنبا شـــنودة الثـــالث بحضـــور جلسة الاجتمــاع الأول بتـاريخ 17 ديســمبر 1976 في الكاتدرائية المرقسية الكبرى وبحث المجتمعـون الموضوعات المعروضة، كما استعرضوا ما سبق تقريـــره في اجتمـــاع اللجنة التحضـــيرية لكهنة الكنائس القبطية في مصر الحاصل بتاريخ 5 و6 يوليو 1976 ووضع الجميع نصب أعينهم – رعـاة ورعية – اعتبـارين لا ينفصل أحـدهما عن الآخـر: أولهما الإيمان الراسخ بالكنيسة القبطية الخالدة في مصر والتي كرستها كرازة مرقس الرســول وتضــحيات شــهدائنا الأبـــرار على مر الأجيــال، والأمر الثـــاني الأمانة الكاملة للـــوطن المفـــدى الذي يمثل الأقباط أقدم وأعرق سلالاته حتى أنه لا يوجد شعب في العالم له ارتباط بـتراب أرضه وقوميته مثل ارتبــاط القبط بمصــر. ثم عــرض البيــان للمســائل المطروحة للبحث وهي: حرية العقيـــدة، وحرية ممارسة الشـــعائر الدينيـــة، وحماية الأسرة والـزواج المسـيحي، والمسـاواة وتكافؤ الفـرص وتمثيل المسـيحيين في الهيئـات

النيابية والتحـــــــذير من الاتجاهـــــــات الدينية المتطرفة.

وعرض المؤتمر لهذه المسائل كالآتي:

(1) حـرية العقيـدة

حرية العقيدة تعني أن يكون كل إنسان حـرًا في اعتناق العقيـدة الدينية الـتي يـؤمن بهـا، وألا يلحقه إيذاء أو معاناة بسبب هذا الإيمان.

غير أنه قد انتشـرت أخـيرًا بعض الاتجاهـات التي تصادر حرية العقيـدة المسـيحية، وشـايعتها مع الأسف بعض الجهات الرسمية مثل مديريات الأمن وإدارة السـجل المـدني ومكـاتب التوثيق ونيابة الأحوال الشخصية وذلك بما يتعلق بحالات اعتناق الإسلام من جهـة، وبالحـالات الموصـوفة بأنها من قبيل الردة عن الإسلام من جهة أخرى.

فبالنسبة لحالات اعتناق الإسلام، ننظر بقلق بالغ إلى التيـارات الجارفة في مختلف الأوسـاط سواء الدينية أو الاجتماعية بالتعريض للمســيحية إلى حد المجــاهرة بـــدمغ الإيمـــان المســيحى بالشرك والكفـر. ويصـاحب ذلك احتمـال طـرق الإغراء واستغلال الحاجة لاصـطياد البسـطاء من المســيحيين إلى حظــيرة الإســلام. وهــذا دون مراعـــاة لما جـــرى عليه العـــرف وتضـــمنته التعليمات الرسمية من ضرورة أخطـار الجهـات الدينية المسـيحية عن طلبـات الرغبة في شـهر الإسلام قبل وقوعه. ويشـكل ذلك هـدما لسـياج

حرية العقيـــدة وفتح البـــاب على مصـــراعيه للتلاعب بالأديان وإذكاء روح الفتنة والتفرقة بين المواطنين.

أما بالنسبة لما يوصف بـالردة عن الإسـلام، فـإن الجهـات الرسـمية تدأب على أن تـرفض الاعـتراف باعتنـاق المسـيحية، بل والأدهى من ذلك أنها ترفض الاعتراف بعـودة المسـيحي إلى ديانته الأصلية التي ولد فيهـا. إذ هي تـأبى إثبـات واقع الحـــال في الوثـــائق والســـجلات وفي البطاقــات الشخصــية وجــوازات الســفر، كما يتعـــرض معتنقو المســـيحية العائــــدون إلى مســـيحيتهم الأولى – للمطـــاردة في حيـــاتهم العائلية بالتفريق بين الأزواج وبين الأبـاء بغـرض تشريدهم من الوظائف بحجة المجازاة التأديبية.

وهـــذه الإتجاهـــات الخاطئة تنـــاقض حرية العقيدة التي أعلنها ميثاق الأمم المتحدة لحقوق الإنسان على الصعيد العـالمي، والـتي نص عليها أيضًـا على الصـعيد القـومي دسـتور مصر لسـنة 1971 (وكافة الدسـاتير المصـرية السـابقة منذ فجر الاســـــتقلال) بـــــأن "تكفل الدولة حرية العقيدة" وأن لا تميز بسـبب الجنس أو الأصل أو اللغة أو الدين أو العقيدة".

فضلا عن أن المشــــرع المصــــري نفسه – بمناسـبة إصـداره قـانون المـواريث في سـنة 1943 – قد أعلن صراحة رفض الأخذ بالأحكـام الشرعية العتيقة عن الردة لأنها "وردت مشـبعة بالروح الدينية التي ظهر أنها تخالف الدستور".

(2) حرية ممارسة الشعائر الدينية

العقيدة الدينية إيمان وممارسة، ومن أسس الإيمـان المسـيحي العبـادة الجماعية ومباشـرة المؤمـنين مع طقوسـهم التعبدية كما تسـلمتها الكنيسة.

وإنه مما يحز في نفوسنا ما يلاقيه الأقباط من مشاق ومضايق، وتقييـد، وتعقيـد، بل وإيـذاء بالغ في أحيان كثيرة حد الاعتداء وسـفك الـدماء – بمناسبة بنـاء الكنـائس لأجل السـجود لله فيها بالروح والحق والصلاة والابتهال والدعاء.

وغني عن البيان أن تشييد الكنائس الجديـدة لا يقـوم به الأقبـاط على سـبيل المباهـاة أو ليكـاثروا به غـيرهم، كما وأنه لا توجد ميزانية عامة مرصودة لهذا الغرض، وإنما تبنى الكنائس القبطية بتبرعـات يـدفعها أبنـاء الشـعب القبطي من كبـيرهم إلى صـغيرهم، وبعـرق وجهد بـدافع حاجتهم للعبادة، وغير خـاف أمر زيـادة السـكان من مصر زيـادة مضـاعفة، فقد بلغ عـدد المسيحيين في مصر حاليًا أكثر من سبعة ملايين نسمة، ومن هنا كـانت الضـرورة لبنـاء الكنـائس الجديـدة لأن الكنـائس القديمة – بداهة – لم تعد تتسع لعدد الأقباط الحالي الـذي كـانت عليه منذ خمسين عاما.

ومع وضـوح ذلك للمسـئولين فلا يـزال بنـاء الكنائس وترميمها وإصلاحها مشـروطا بـترخيص ومحـددا بعـدد معين لا تتجـاوزه، ولا تـزال هنـاك أمام استصدار الـتراخيص – حـتى بالنسـبة لهـذا العـدد المحـدود – قيـود وصـعوبات ومواصـفات أضـعاف ما تشـترطه الدولة لـترخيص الملاهي

والمحال العامة. ولا يزال الأقباط تحت نير قيـود غـابرة، وتحت وطـأة قـرار إداري صـدر بـأدنى مـراتب القـرارات الإدارية في عـام 1934 من وكيل وزارة الداخلية أيـام حكومة دمغها التـاريخ الوطـني بـالظلم والاسـتبداد. ولقد بلغ الأمر أن صدرت بعد لأي ومشقة قـرارات جمهورية ببنـاء بعض الكنـــائس، ولكن لم يمكن تشـــييدها بعلم وعجز الجهات الحكومية المعنية.

بل حتى الكنائس القائمة نجدها تتعـرض في العواصم والمـــدن، وفي الكفــــور والقــــرى، لاعتـداءات وأعمـال تخريبية، ولإيـذاء المصـلين فيها ومنعهم من ممارسة شــــعائرهم الدينيــــة، وفي غمـــار الأحـــداث الأسـيفة الغوغائية الــتي وقعت خلال الســــــنوات القريبة الماضــــــية، استشعرنا قصور وسـائل الأمن الوقـائي الكفيلة بوضع حد للعدوان أو بمنع وقوعـه، وتـرتب على تلك الأحـــداث الــتي لا زالت تتكـــرر المســـاس بحرية العبادة هذا فضلا عن الإساءة البالغة لهيبة الدولة وتشـويه سـمعة مصر في أنحـاء العـالم كله.

ولقد ســـجلت ذلك كله بقـــدر طاقتها لجنة تقصـي الحقـائق الـتي شـكلها مجلس الشـعب وأثبتته في تقريرها الــذي اعتمــده المجلس في نوفمبر سنة 1972 مما دعا لإصدار القانون رقم 34 لعام 1972 بشـأن حماية الوحـدة الوطنيـة. وعلى الرغم من توصـيات اللجنة الصـريحة فـإن القيود والعقبات أمام تشييد الكنائس الجديـدة لا تزال بكل تعسف قائمة بأحداث الاعتداء تقع من حين لآخر ظالمة مظلومة، وكل هـذا يجري على

أرض مصرنا الحبيبة التي قدستها زيارة السيد المسيح له المجد والقديسة مريم أم النور منذ عشرين قرنا.

(3) تطبيق الشرع الإسلامي

ظاهر أن في مصر الآن تيار جارف ينادي باعتبار الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد لما يجب أن يطبق في البلاد. ويبين بكل جلاء من كلمات وكتابات المنادين بهذا الرأي سواء في الحال الرسمى أو المجال الشعبي، أنهم يعنون بذلك شريعة الإسلام الدينية. وهم يؤسسون وجوب التطبيق والإلزام – على العقيدة الدينية بأن أحكام هذه الشريعة أحكام إلهية وأنه لا طاعة لمخلوق في معصية التشريع الإلهي.

فليست المسألة في نظر جماعة هذا الرأي – مسألة قواعد وأحكام أصول الفقه الإسلامي. فقد سبق للمشرع المصري الأخذ منها كمصدر من مصادر القوانين الوضعية، بل وغلبها أحيانا كثيرة على المصادر الأخرى المستمدة من التقنيات المقارنة أو تطبيقات القضاء والفقه المصري.

وإنما المسألة المطروحة حاليا هي أن تؤخذ أحكام شرعة الإسلام مأخذ التطبيق برمتها جملة وتفصيلا، وذلك تأسيسًا على اعتبارها الديني العقائدي الخالص أي اعتبار القرآن والسُنة.

وليس هذا الرأي بجديد. فإننا نستطيع أن نتبع جذوره إلى سنة 1948 حين أعلنه رسميا

تحت قبة البرلمان الأستاذ حسن الهضيبي (وكان حينئذ مستشـــارًا بمحكمة النقض قبلما يتـــولى زعامة جماعة الإخـوان المسـلمين خلفا للأسـتاذ حسن البنا).

إذ قـــال: "إن لي رأيا معينا في المســـألة برمتها وليس في القـانون المـدني فقـط، وهـذا الرأي بمثابة اعتقاد لديّ لا يتغير، وأرجو أن ألقى الله عليـه.. اعتقـادي أن التشـريع في بلادنا كلها وفي حياتنا جميعا يجب أن يكـــــون قائما على أحكـام القـرآن. وإذ قلت القـرآن، فـإني أعني كـذلك بطبيعة الحـال سـنة الرسـول لأن طاعته من طاعة اللـه.. (جلسة لجنة القـانون المـدني بمجلس الشـيوخ المنعقـدة يـوم 30 مـايو سـنة 1948).

وما دامت المسـألة بهـذا الوضع يـوم ولـدت في سـنة 1948 ويـوم بعثت مـرة أخـرى سـنة 1976 – وأنها قائمة على الأســـاس الـــديني الخــــالص، فيـــترتب على ذلك حتما اســـتبعاد المواطـنين الأقبـاط من تصـور تطـبيق شـريعة الإسلام عليهم بذلك المفهوم والاقتنـاع العقائدي الإســـلامي. فالعقيـــدة هنا تتـــوفر (أو يفـــترض توفرها) فيمن يدينون بالإسلام، دون غـيرهم من أبناء المذاهب والديانات الأخرى في مصر.

ومن ثم أعلن – وبحق – سـيادة المستشـار سـميح طلعت وزير العـدل في حـديث صـحفي نشرته جريدة الأخبـار الغـراء عقب توليه منصب الـوزارة في مـايو سـنة 1976 بـأن التشـريعات الإســلامية كما ينــادي أصــحاب ذلك الــرأي لن تطبق على المسيحيين في مصر.

وغـــنى عن البيـــان أنه ما دام الأمر متعلقا بتطبيق الأحكام الواردة في القـرآن، وسُـنة نبي الإسلام، وبهذه المثابة الدينية الخالصة، فلا يتأتى أن يلـزم بهـذا التطـبيق إلا من كـان له الإسـلام دينـا. إذ إنه يعتنق القـرآن شـريعة إلهية بإيمانـه، والحـديث مثيله لأنه يـؤمن أيضًـا أن طاعة النبي من طاعة الله كما قـال الأسـتاذ الهضـيبي فيما سلف ذكره.

ومن ثم لا يســـتغرب أحد – ســـواء على الصعيد العربي أو حـتى على الصـعيد العـالمي – أن تكون شريعة الإسلام الدينية المطبقة بإطلاق في المملكة العربية الســعودية. ذلك لأن جميع رعاياها – بغير استثناء – يدينون بالإسلام. فيتفق مع إيمان كافة المواطنين هناك أن يُجرى عليهم حكم القـــرآن والسُـــنة النـــابعين من صـــميم ضميرهم الديني وعقيدتهم الإسلامية.

أما في مصر حيث يوجد أكـــثر من ســـبعة ملايين مــواطن مسـيحي (وكـذلك في أية دولة عربية تضم مواطـــنين مختلفي الديانـــة) فـــإن القول بتعميم تطبيق الشرع الإسلامي أي أحكام القرآن والسُـنة على سـائر المواطـنين، مـؤداه في واقع الأمر إلـــزام غـــير المســلمين من المواطـــنين المصـــريين بعقيـــدة الإســـلام مما يتعـــارض مع أقـــدس حقـــوق الإنســـان، وأولى حريات المـواطن المصـري في الدسـتور الـدائم وهي حرية العقيـــدة. بل وتـــأبى هـــذه تعـــاليم الإسلام ذاته حيث "لا إكراه في الدين".

ولقد إسـتلهم الميثـاق الوطـني للأمة هـذه المبادئ الأساسية حين سجل:

"إن حرية العقيدة الدينية يجب أن تكـون لها قداستها في حياتنا الجديدة الحـرة.. إن الاقتنـاع الحر هو القاعدة الصلبة للإيمان... والإيمان بغير الحرية هو التعصب، والتعصب هو الحـاجز الـذي يصد كل فكر جديد ويـترك أصـحابه بمنـأى عن التطـور المتلاحق الـذي تدفعه جهـود البشر في كل مكان.

(4) حماية الأسرة والزواج المسيحي

زواج الأقبـــاط ينبع من صـــميم العقيـــدة المســــيحية، وهو سر من أســـــرار الكنيسة المقدسة وفي هـــذا المجـــال يختلف الـــزواج المسـيحي عن النظـرة إلى الـزواج في شـرائع أخرى تعتـبره مجـرد عقد مـدني ونظـام قـانوني يتدرج ضـمن دائـرة المعـاملات فيتم بالتراضـي، وينحل بالتراضـــي و بـــالإرادة المنفـــردة وبحكم القاضي.

والصـــبغة الدينية الـــتي يصـــطبغ بها زواج الأقباط لا تتعارض مع النظام العـام في المجتمع المصــــري – إن دســـتور مصر قد نص على أن "الأسرة أساس المجتمع، قوامها الدين والأخلاق الوطنية".

فبالنسبة للأسرة المصرية المسـيحية يكـون قوامها إذن هو دينها المســـيحي الـــذي أرسى دعامة الزواج بوصية السيد المسيح له المجد أن "يكـون الاثنـان جسـدًا واحـدا.. وما جمعه الله لا يفرقه إنسان".

ولكن جد بعد صدور القانون رقم 462 لعـام 1955 بإلغـاء اختصـاص المجـالس الملية بنظر

مسائل الأحـوال الشخصـية أن نص على تطـبيق الشــريعة الإسـلامية على زيجــات المســيحيين بمجـــــرد تغيـــــير أي من الـــــزوجين لمذهبه أو ملته قبل رفع الدعوى أمـام القضـاء. وتـرتب على هـذا أن صـارت للـزوج المسـيحي في تلك الحالة سـلطة تطليق زوجته بكلمتــــه. أما لو اعتنق أي الزوجين ديانة الإسـلام، وفي أي وقت من الأوقـــــات ولو في آخر مرحلة من مراحل التقاضي، فإن انطباق الشريعة الإسلامية يضحي وجوبيا وبكافة آثـاره سـواء بالنسـبة للـزوجين أو للأبناء.

وهذا الوضع فيه تخـريب للأسـرة المسـيحية وهـدم لـبيوت الزوجيـة. ومجـاراة لكل نــزوات البغضــــاء والكيد والانتقـــام، كما ينطوي على افتئات صارخ من جانب طرف واحد على حقوق الطــرف الآخر بل على مصـير أفــراد الأســرة جميعـــا، مما يجـــافى أبسط مبـــادئ العدالة والقانون.

وغير مقبـول منطقًا وعقلا في أحـوال تنـازع الشـــرائع أنه إذا اختلف زوجـــان مســيحيان في الملة أو الطائفة تسـتبعد شـريعتاهما المسـيحية نهائيا، وتطبق عليهما شـريعة أخـرى من ديانة لا يدينان بها على الإطلاق.

فضلا عن أن من شأن اسـتمرار هـذا الوضع غير المستساغ الـذي نجم عن ثغـرة في تشـريع متعجل غامض، إيجاد التناقض بين موقف الدولة وموقف الكنيسة وهو تنـــاقض لا يريـــده أحد ولا مصلحة فيه لأحد.

(5) المساواة وتكافؤ الفرص

المساواة بين المواطنين في الـوطن الواحد مبد أساســي، تحقيقًا للعدالة وضــمانا لوحــدة الــوطن، وقد أكــده الدســتور المصــري بــأن المواطنين لدى القـانون سـواء "وهم متسـاوون في الحقوق والواجبات العامة" كما أكد مسئولية الدولة في هذا الصـدد بـالنص صـراحة، على أنه "تكفل الدولة تكافؤ الفرص لجميع المواطنين".

أما أن المواطنين الأقباط يقفـون على قـدم المساواة مع سائر أبناء مصر في أداء الواجبـات فهـذا أمر مسـلم بـه. وقد رفض القبط على مر الأجيــال وفي أشد عصــور الاســتعمار الأجنبي إغــراء أن يتمتعــوا بأي اســتثناءات أو امتيــازات فيما يتعلق بالتكاليف العامة. وفي جميع مجالات الخدمة العامة أسـهم الأقبـاط طواعية واختيـارا وبســـخاء وتفـــان وإخلاص، وبخاصة منذ بداية حركــات التحــرر والاســتقلال في أوائل القــرن العشرين.

لقد دفع مسـيحيو مصر ضـريبة الـدم، وهي أغلى وأقـــدس الواجبـــات الوطنية في ثـــورة الاستقلال الشعبية عام 1919، وكتبت أسماؤهم بحروف من نور في وثائق الجهاد الوطـني الـذي رفع لـواءه رائد الاسـتقلال الـزعيم الخالد سـعد زغلـول، وفي جميع الحـروب الـتي حاربتها مصر دفاعا عن استقلالها وردا للعـدوان كـان الضـباط والجنود الأقباط مع رفقائهم في السلاح يبــذلون الأرواح ببسالة وسماح تحت رايات جيش مصــر،

سـواء في حـرب عـام 1956 أو عـام 1967 وأخـيرا في حـرب أكتـوبر سـنة 1973 العظيمة بقيادة قائد البلاد المظفر الرئيس أنور السادات.

وعندما بـدأت حركة التحـرر الاقتصـادي منذ أربعين عاما قدم الأقباط ثرواتهم وحلي نسـائهم لتكـون رؤوس أمـوال ودعامـات المؤسسـات المالية والتجارية المصـرية، تـدعيما للاقتصـاد الوطني ولتحريـره من السـيطرة الأجنبيـة. ولما أعلنت ثـورة 23 يوليو – المبـادئ الاشـتراكية وتحديد الملكية الزراعيـة، قـدم الأقبـاط للدولة أطيانهم التي خضعت لقوانين الإصلاح الـزراعي، إذعانا للتكليف العـام وذلك لصـالح صـغار الفلاحين وعلى نفس المنـوال عنـدما صـدرت تشريعات تأميم وسائل الإنتاج.

أما إذا نظرنا إلى كفة الحقـوق في مـيزان المسـاواة، فإننا نعـاين مع شـديد الأسف اختلال المـوازين، فعلى مـدى سـنوات طويلة متصـلة يعاني المواطنـون المسـيحيون من تخطيهم في الترقيـات في سـلك الوظـائف العامـة، وفي القطـاع العـام، وأصـبحت هـذه ظـاهرة عامة لا تحتمل المجادلـة، ولم تجد للقضـاء عليها كافة التصـريحات بـإعلان النوايا الطيبة من جـانب الجهـات الرئاسـية العليـا، ولا التطلعـات والاحتجاجات من الأقباط أفرادا وجماعات وعلى كافة المسـتويات الكنسـية أو الرسـمية أو الشعبية.

ومصـداق الحقـائق في هـذا الصـدد ظـاهر للعيان بأن تراجع الجهات الحكومية ومؤسسـات وشـركات القطـاع العـام – إحصـاءاتها الوظيفية القيادية في فترة السـنوات العشر الماضـية مثلا وتستخلص إعداد ونوعيات الترقيات. فنجد بيقين أن نسبة الموظفين الأقبـاط في هـذه الترقيـات ضئيلة للغاية لا تتفق على الإطلاق مع مبدأ تكافؤ الفرص وكفاءتهم في السلم الوظيفي.

وقد بلغ الأمر أن الموظفين الأقباط كـانوا لا ينالون الترقية إلا إذا أسعفتهم في آخر المطـاف التشريعات الطارئة للرسوب الوظيفي، لترفعهم من الحضـيض قليلا أو تسـندهم في خطـواتهم الأخيرة إلى المعاش.

وكان من نتيجة التمييز وعدم تكافؤ الفـرص أن هاجر للخـارج كثـيرون من الأقبـاط من نوابغ أبناء الوطن علمًا وخـبرة بغـرض تـأمين أرزاقهم وحرصا على مستقبل أولادهم حـتى لا يضرسـوا من الحصـرم الـذي أكله آبـاؤهم. ولا يخفى أنه تـرتبت على هـذه الهجـرة أضـرار جسـيمة لا بتفريق شـمل العـائلات فحسـب، بل باسـتنزاف العقليات والخـبرات الجبـارة من جسم الـوطن. وهو أحوج ما يكون إليها في العصر الحاضر.

(6) تمثيل المسيحيين في الهيئات النيابية

يتمثل معـــــنى الديمقراطية في ممارسة الشعب سـلطة الحكم بواسـطة الهيئـات النيابية الـتي تعتـبر معـبرة عن الأمة ناطقة بلسـانها،

وقـــوام الأمة المصـــرية كــان على مر الأيـــام – باتحاد عنصريها وبالمشـاركة التامة في قضـاياها المصـــرية، وفي ســـلطاتها الثلاث التشـــريعية والتنفيذية والقضائية.

ومنذ استقلال البلاد كـانت مشـاركة عنصري الأمة في الهيئـات النيابية واضـحة كل الوضـوح وعنوانا وفخـــارا للوحـــدة الوطنيـــة. كما كـــانت الأنظمة الحزبية تحـرص كل الحـرص على قيـام واسـتمرار تلك المشـاركة وخصوصا من جـانب الأحزاب المستندة إلى قواعد شعبية وجماهيرية عريضة تضم الملايين من أبنـــــاء مصر دون أي تمييز بينهم دينيا أو مذهبيا.

ثم وضــعت ثــورة 23 يوليو النظــام الجديد للدولة، وهو يقوم على مبدأ تحالف قوى الشعب وعلى المؤسســـات النيابيـــة، وذلك على الوجه الـــذي تضـــمنته الدســـاتير والمواثيق المتعاقبة وآخرها دســـتور 1971، ولم يتخلف مســـيحيو مصر عن أن يســهموا في بنــاء النظــام الجديد والانتمــــاء بالعضـــوية العامة في التنظيمـــــات المقررة واحدا بعد الآخـر، كما كـان الاختيـار يقع بالتعيين على بعض الأسماء البـارزة من الأقبـاط في هذا المجال، سواء على مسـتوى الـوزراء أو اللجان المركزية العليا في حكومات ما بعد ثورة يوليو سنة 1952.

أما في التنظيمـــات والهيئـــات النيابية فقد اســتلفت النظر أن عـــدد الأقبـــاط فيها بلغ من القلة النـــادرة ما هو أقـــرب إلى العـــدم. ففي

مجلس الشــعب المنتخب عــام 1971 وعــدد أعضــائه بالانتخــاب 350 عضــوا (أضــيف لهم عشرة أعضاء بـالتعيين) كـان الأعضـاء الأقبـاط أقل من عدد أصابع اليد الواحدة. أما في مجلس الشـعب المنتخب في أكتــوبر سـنة 1976 فلم ينجح أحد من الأقبـــــــــاط على الإطلاق في الانتخابـات. وعلى نفس هـذه الضـآلة أو العـدم تقريبًا نجد عـــــددهم في المجــــالس المحلية والشعبية بالمحافظـات والمـدن في جميع أنحـاء القطر المصري.

وتلك ظــاهرة غــير طبيعية في تــاريخ مصر القومي، وليس باستطاعتنا تقصي الحقـائق لكي نصل إلى معرفة التيـارات والـدواعي الـتي أدت إلى ذلـــك، وخافيها أكـــثر من ظاهرهـــا، ولكننا نجـاهر بكل صـدق وصـراحة بكلمـتين خالصـتين لوجه الله والوطن:

الكلمة الأولى: أنه لا يمكن أن تكـــــــون نسـبة الأقبـاط في التمثيل النيـابي ضـئيلة بهـذا المقــدار في عهد ما بعد ثــورة يوليو وبلغت حد العـدم في انتخابـات أكتـوبر 1976 بينما كـانت مشاركة الأقباط قبلها منذ عهد ثـورة الاسـتقلال الخالدة سنة 1919 مشاركة كبيرة وناجحة نالت استحسـان إجمـاع الأمة المصـرية طـوال نصف قرن من الزمـان، وإعجـاب المحافل الدولية في العالم أجمع كواقع حقيقي لاتحاد عنصرى الأمة.

الكلمة الثانية: أنه لا يمكن أن يكـون هـذا الوضع طبيعيا على الإطلاق، بملاحظة أن عـــدد الأقباط في مصر حاليًا يزيد على سبعة ملايين.

(7) الاتجاهات الدينية المتطرفة

الـدين لله والـوطن للجميـع، وأن كل اتجـاه ينحرف عن هـذا الشـعار الـذهبي يكـون انحرافًا عن الديانة الحقة إلى التعصب الممقوت، وخيانة للوطنية الصـادقة ابتغـاء الاسـتعلاء على النـاس لتحقيق المآرب الشخصـية وإنشـاء مراكز قُـوَى مسـيطرة في داخل الدولـة. وأخطر ما في مثل هـــذه الاتجاهـــات أنها تعتمد على المظهريـــات الدينية الزائفة في خـداع عامة النـاس البسـطاء استغلالا للمشاعر الدينية. كما تسبب في النهاية الحرج الشديد للمسئولين القادرين.

(8) حريـة النشـر

في الــوقت الــذي اشــتدت فيه ضــراوة التعـريض بالعقيـدة المسـيحية بمختلف وسـائل النشر والإعلام يواجه النشر المســـيحي للكتب والـدوريات صـعوبات جمة متكـررة دون مـبرر: حظر الطبع ومصــادرة بعض الكتب والمؤلفــات المسيحية المحضة والمتعلقة بالتاريخ المسـيحي من جهة، ومن جهة أخــرى أســقطت تماما من كتب ومنــاهج تــدريس التــاريخ المصــري حقبة كاملة امتدت سـتمائة سـنة، وهي المرحلة الـتي كــانت فيها مصر مســيحية من منتصف القــرن

الميلادي الأولى إلى منتصف القرن السـابع حين حدث الفتح الإسلامي.

قرارات المؤتمر

أولا: حرية العقيدة..

نطـالب بتوفـير كافة ضـماناتها بالنسـبة للمسـيحيين، وإلغـاء جميع الأوضـاع والتوجيهـات والتعليمـات الحكومية والفتـاوى الـتي تقيد هـذه الحرية المقدسـة، خصوصًـا بالنسـبة لعـودة المسيحي إلى ديانته الأصلية، مما يوصف وصـفا خاطئًا من قبيل الردة عن الإسلام.

ثانيا: حرية العبادة..

نطالب بإلغاء القيود العتيقة والقـرار الإداري السـابق صـدوره من وكيل وزارة الداخلية في عهد الطغيـان بشـروطه العشـرة التعسـفية المقيدة لبناء الكنـائس، كما نناشد أجهـزة الأمن في الدولة أن تقـوم بـدورها الـواجب بصـورة رادعة حازمة حماية لممارسة الشـعائر الدينية في الكنـائس، وبخاصة في القـرى، سـواء في نطاق الأمن الوقـائي أو في نطـاق ضـبط وإدانة العدوان والإيذاء.

ثالثا: تطبيق الشرع الإسلامي

فيما ينـادي به غلاة الـدعوة الإسـلامية والتيـــارات المتطرفة الغريبة على المجتمع المصري الأصيل – نعلن عدم قبول تطبيقها على المسيحيين في مصر، كما ونعتـبر أن أي محاولة في هـذا الشـأن للإلـزام الجـبري تحت سـتار

التشـــريع أو القـــوانين الجزائية أنها تنطوي على إكراه المسيحيين على عقيدة أخرى مما يجـافي مجافاة صارخة أقدس حقوق الإنســان في حرية العقيدة.

رابعا: تشريعات الأحوال الشخصية.

نطـالب بسـرعة إصـدار التعـديل التشـريعي اللازم للقانون رقم 462 لسـنة 1955 بما يقـرر صراحة، وجوب تطبيق شريعة العقد الـذي انعقد بين زوجين مسـيحيين – على كافة آثـار الزوجية بما فيها حضانة الأولاد، دون اعتداد بتغيير الــدين أو الملة بعد العقد، وذلك حماية للأسـرة وقضـاء على التلاعب بالأديان.

خامساً: عدم تكافؤ الفرص..

نطـالب بتشـكيل لجنة رسـمية عليا للوحـدة الوطنية تتـــوفر لها مقومـــات الحيـــدة وأوسع سـلطات التحقيـق، وذلك لتقصـي الحقـائق في الشكاوى بخصوص عدم المساواة في التعيينـات والترقيـــات في الوظـــائف الحكومية والقطـــاع العام، توطئة لإصدار القرارات الإدارية لتصـويب الأوضاع وإعطاء كل ذي حق حقه، وكذلك لوضع قواعد واضحة وضوابط دقيقة تضمن عدم اتبــاع الهوى والمحابـاة وليكـون التعـيين والترقية على أســاس تقـــديرات النجـــاح وتقـــارير التفـــتيش الدوريـة، ومؤاخـذة الجهـات الوظيفية الرئاسـية التي تنحـرف عن القواعد والضـوابط بكل حـزم لضمان المساواة وحرصا على الصالح العام.

سادسا: تمثيل المسيحيين في الهيئات النيابية.

نطالب بمعالجة الأمر على النحو الذي يكفل تحقيق تمـثيلهم في مجلس الشـعب والمجـالس المحلية والشعبية تمثيلا حقيقيًا لا رمزيا، وليكون متفقا مع الإحصـاء الـواقعي للمواطـنين ومحققا للوحدة الوطنية بين عنصري الأمة.

سابعا: الاتجاهات الدينية المتطرفة..

نطـالب بتـدخل الجهـات الحكومية المختصة في الدولة للقضاء على تلك الاتجاهات بكل حزم حفاظا على الوحدة القوميـة. وأن تتخذ الإدارات الجامعية ما يلـزم من التـدابير لتنقية الأوسـاط الجامعية من الشـــوائب الدخيلة بحيث تخصص الجامعات لتلقي العلم خالصا كما هو الحـال في كافة جامعات دول العالم المتحضرة.

ثامنا: حرية النشر..

نطـــالب برفع الرقابة الرســمية أو المقنعة عن المؤلفـات والمنشـورات المسـيحية، ووضع حد للكتابـات الإلحادية والكتابـات الـتي تتضـمن التعـريض بالـدين المسـيحي وعقائـده وتضـمين منـاهج الدراسـات التاريخية والأدبية والحضـارية في مراحل التعليم المختلفة وفي الجامعـات، ما يتعلق بالمرحلة المســـيحية في تـــاريخ مصر الممتدة على مدى سـتة قـرون كاملة قبل الفتح الإسلامي.

التوصيات التنفيذية

وفى ضـــوء ما تقـــدم وتوصلا للاســـتجابة للمطـالب والقـرارات سـالفة الـذكر، ولتـدعيم المحبة والسلام والوحدة الوطنية، وتوطيد الألفة واتحـاد عنصري الأمـة، وابتغـاء صـالح مصر أولا وآخرا، صالح مصر دائمًا أبدا، صـالح مصر جهـادا ومجدا.

نوصـــي بنفس واحـــدة وفكر خـــال من شر الدافع، وبروح السـلام الكامل وبالأمانة الخالصة أمام الله والناس – بما يأتي:

1- المناداة بصوم انقطـاعي في الكنيسة لثلاثة أيام من 31 يناير إلى 2 فبراير 1977 لرفع التضـــرعات والقداســـات إلى الله صـــانع الخـــيرات لكي ينعم على شـــعبه بوحدانية القلب وعلى الـــوطن الســـلام والطمأنينة وعلى قـــــــــادة البلاد بالحكمة والتوفيق والرشـــاد لتحرير كل شـــبر من أرض مصر ولتـــدعيم عهد الحرية بإســـعاد كافة أبنـــاء الـوطن الواحد الخالـد، تتميما للوعد الإلهي الصادق "مبارك شعبي مصر"..

2- رفع هذه القـرارات والتوصـيات إلى قداسة البابا المعظم الأنبا شـــــنودة الثـــــالث بابا الإسـكندرية وبطريـرك الكـرازة المرقسـية والرئيس الأعلى للمجمع المقدس ولمجلس الكنائس المسيحية في مصر، لاتخاذ ما يراه مناسبا تحقيقا للمطالب القبطية.

3- تقديم نسخة من هذه القرارات والتوصـيات إلى رئيس الجمهورية والســــــــيد رئيس الحكومة والســــيد أمين عـــــام الاتحـــــاد الاشـتراكي والسـيد رئيس مجلس الشـعب للعمل على تحقيق رغبــات أبنــاء الشــعب القبطي بالوســـائل الدســـتورية والقانونية الواجبة سواء من جانب السلطة التشريعية أو السلطة التنفيذية في الدولة.

4- اعتبــار المــؤتمر في حالة انعقــاد مســتمر لمتابعة ما يتم في مجـــــــال تنفيذ فقراته وتوصياته بالنســبة لجميع المسـائل القبطية العامة..

ولربنا المجد دائما أبديا آمين...

إن مقارنة بيـان هـذا المـؤتمر ببيـان مـؤتمر سنة 1911 يوضح أن القضية قد قطعت شــوطًا طـويلا في التـأزم، وأن صـدر الأقبـاط قد ضـاق ووضـعوا الدولة أمـام مطـالب محـدده في أبـرز القضــايا، وأعلنــوا احتجاجًا واعتــبروا المــؤتمر منعقـــــدًا لمتابعة ما يتم، ونزعة التنديد اللاذعة وتصوير المطالب بالصورة التي صدرت بها، وأن البطريـــرك "المعظم" شـــنودة بـــارك اجتماعه التأســيس وإن لم يحضــره، والإشــادة بالكنيسة الخالـدة والبطريـرك باعتبـاره المرجع الأسـمى الذي ترفع إليه هذه الأمور. نقول إن هـذا كله ما كان ليتم إلا بمباركة، إن لم يكن بإيعـاز من البابا شنودة.

وكرد على هذا المؤتمر، عقد في شهر يوليو مؤتمر الهيئات والجماعات الإسلامية تحت رعاية الدكتور عبد الحليم محمـود شـيخ الجـامع الأزهر اشتركت فيه الهيئات الإسلامية وجـاء في البيـان الختامي له.

- كل تشـــريع أو حكم مخـــالف ما جـــاء به الإسلام باطـل، ويجب على المسـلمين رده والاحتكـام إلى شـريعة الله الـتي لا يتحقق إيمانهم إلا بالاحتكام إليها.
- الأمر بتطـبيق الشـريعة الإسـلامية، فليس لأحد أن يبدي فيها رأيا في وجوب ذلـك، ولا نقبل مشورة بالتمهل أو التدرج أو التأجيل.
- إن التسويف في إقرار القوانين الإسـلامية، معصـية لله ورسـوله، واتبـاع لغـير سـبيل المؤمنين. وعلى الهيئة التشـريعية أن تـبرئ ذمتها أمام الله والنـاس بـإقرار مشـروعات القوانين المقدمة إليها.
- ينظر المؤتمر بعين التقدير إلى ما صـرح به الســـــيد رئيس الجمهورية عن عزمه على تطهير أجهزة الدولة من الملحدين ويناشده

سـرعة التنفيـذ، حرصًـا على سـلامة الأمة وقوة بنيانها.

- يناشد المـــؤتمر رئيس الجمهورية إصــــدار أوامره بتطهير وسائل الأعلام.
- وجــــوب تربية النشــــء في جميع مراحل التعليم تربية دينية.
- تكـــون اللجنة التنفيذية للمـــؤتمر في حالة انعقاد مستمر لمتابعة الجهود التي تعبر عن إجماع الأمة على ضـرورة تطـبيق الشـريعة الإسلامية.

وكـــان البيـــان حريصًـــا على خاتمة تقـــول "اشــترك في المــؤتمر الأزهر وهيئاتــه". أي أنه كبيـان مـؤتمر الإسـكندرية المسـيحي يسـتظل بالشرعية.

ومن الواضح أن البيان الأزهري، هو كالبيــان القبطي له نظــرة أحادية لا تلحظ أي اعتبــارات أخرى..

ويجب – حتى لا نظلم الأقباط – أن نقول إن هـذه العاصـفة جـاءت في الـوقت الـذي تقـدم الأزهر لمجلس الشـــعب بقـــانون عن تطـــبيق الشـريعة ينقل نقلا حرفيًا كلام الأسـلاف، كما لو كـان هو حكم الإســلام. مع أن هـــذه الأحكــام

لا تمثل في الحقيقة إلا فكر عصر مغلق، مستبد فــرض نفسه على الفقهــاء فأصــدروا أحكامًا تجافي القرآن وما سلكه الرسول عمليا، وكان مشــروع القــانون من الفجاجة بحيث جعلني أصدر كتابًا عن حرية الاعتقاد رفض رفضًا باتا مثل هــذا القــانون، ورأى أنه نكسة وأنه يحيل الإســلام لمحكمة تفــتيش بابوية يضع قضــائها العمائم.

وللبابا شنودة رأي قديم في رفض الشــريعة عبر عنه عندما سألته الأستاذة سناء السعيد عن رأيه في تطبيق الشريعة فقال:

بــدوري أســأل ما هي الشــريعة الإســلامية بالتفصيل؟.

أي هل المطلوب منا أن نبدي رأيا في شيء لم يعلن بعد وأمامنا أمــور تحتــاج إلى إيضــاح، مثلا:

1- ما رأي الشريعة الإسلامية مثلا فيما يسمى "الأمــير" هل يكــون لكل مدينة أو لكل حي أو لكل جامعة أو لكل كلية أمــــير يبايعونه الآخرون بالطاعة المطلقة، كما حدث عندما أمّر "صفوت عبد الغني" بقتل "فرج فودة" فقتل؟!.

2- ما رأي الشريعة الإســلامية في الكفــر؟ هل الكـافر هو الشـخص الـذي لا يـؤمن بوجـود الله أو الــذي لا يــؤمن بــأمور أساســية في الـــدين، أم أن كلمة كـــافر تنســحب على

مسائل عديدة جدا، أو على كل من يخــالف الــرأي الآخــر، كما حــدث من أن أشخاصًــا كفّروا المجتمع كله في وقت من الأوقات؟.

3- هل كل من يقول رأيا يظن أنه ضد الشريعة يكــون كــافرا؟ وإذا حكم بــذلك يحل قتله فيحكم عليه بالإعدام؟.

4- ما رأي الشـــــريعة في المــــــرأة مثلا؟ هل المــرأة العاملة لــون من الكفــر، كما كتب البعض في إحدى المجلات؟ هل لابد للمرأة أن تكون حبيسة البيت تــرعى أولادها وكفى دون أن يكون لها مشاركة في العمل العـام أو في نهضة المجتمع كله؟!.

5- ما رأي الشــريعة في الأمــور المالية وفوائد البنوك؟!.

6- ما رأي الشــريعة في الخمــر؟ وما رأيها في الفن؟ وهل إذا تــابت الفنانــات يمتنعن عن الفن؟ هل الفن حرام؟

إنني أرى في الشريعة موضع تســاؤلات، بل إن المسلمين أنفسهم مختلفون فيما بينهم حول نقــاط أساســية في الشــريعة، ولهــذا قلت لمن حضر لجــان الاســتماع الخاصة بوضع الدســتور عــام 1971م عنــدما تتفقــون على رأي حــول الشريعة اعرضوه علينا، لكي نبدي رأينا فيه، لأن الإنسان لا يصم على مجهول[15].

---

[15] **(15) الأنبا شــنودة الثــالث: دنيا ودين. بقلم سناء السعيد "مكتبة الأسرة ص32-33".**

نقــول إن هــذا التســاؤل والتمحك ما كــان ينبغي أن يصــــدر عن رأس الكنيســـة، فهـــذه تســـاؤلات رجل قبطي عـــامي لا يعـــرف عن الإســــلام إلا ما تقدمه جماعـــــات التطـــــرف الإســلامي، وكــان له مندوحة حــتى وهو يحافظ على حقـــوق الأقبـــاط، أن يعـــرض ذلك بهـــذه الصـــــورة. كما كـــــان يجب عليه أن يعلم أنه لا يعيش في "رومــا" ولكن في مصر قلب العــالم الإسلامي.

ولكي نوضح الفــرق بين طريقة شــنودة في إثــارة التشــكيك، وإعلان التحفظـات نعـرض هنا آراء بعض رجــال الكنيسة الــتي ســألتهم مجلة الدعوة سؤالين:

1- إذا كــان الإســلام والمســيحية ملتقــيين في تحــريم الزنا – مثلا – ومحاربته فهل عنــدكم مـــانع في تطـــبيق حد الزنا وبقية الحـــدود الإسلامية الأخرى على من استوجب إقامتها عليه في المجتمع المصري. وهل تــرون في تطبيقها ما يمس حقـــــوق المســــيحيين أو يضايقهم؟؟.

2- من خلال دراستكم للتــاريخ مــاذا تــرون في حكم الإســلام بالنســبة للأقليــات من ناحية العبادة والأموال والأعراض؟[16].

وعن الســــؤال الأول يجيب الكاردينــــال اصطفانوس بطريرك الأقباط الكاثوليك:

---

16 **(16) مجلة الدعوة عدد فبراير سنة 1977م.**

"الأديان السماوية تشير إلى تحريم القتل أو الزنا وإلى المحبة، والمعــروف أن من يحب الله يجب أن يحب أخــاه، ومن يــدعي أنه يحب الله ولا يحب أخاه كاذب، فالقتل والزنا والسرقة إلى آخر المنكـــــرات ضد المحبـــــة، لأن الله خلق الإنسان ليكون مستقيما غـير منحـرف ويسـتفيد من التعاليم الإلهية، ولذلك فالذي يشذ عن نظام الله وتعاليمه بعد أن تكفل له أســـــباب العيش ومسـتلزماته يجب أن تطبق عليه حـدود شـريعة الله ليرتـدع ويكـون عـبرة لغـيره، وحـتى لا تعم الفوضى عنـــدما يقتل أحد أخـــاه ولا يقتـــل، أو يسرق ولا تقطع يده، أو يـزني ولا يقـام عليه حد الزنا وهذا ما وجدناه في القوانين الوضعية الـتي تجامل النـاس، وتلمس لهم مختلف الأعـذار مما جعل المجتمع غـــــير آمن على نفسه أو ماله أو عرضه، وأعود فأكرر أن تطـبيق حـدود الشـريعة الإسلامية ضروري على الشخص وعلى المجتمع حتى تستقيم الأمور وينصلح حـال النـاس، وليس في تطبيقها أبدا ما يمس حقـوق المسـيحيين أو يضايقهم".

كما يجيب غبطة الكاردينـــال عن الســـؤال الثاني فيقول:

"إن الذي يحترم الشـريعة الإسـلامية يحـترم جميع الأديان وكل دين يدعو إلى المحبة والإخاء، وأي إنسـان يسـير على تعـاليم دينه لا يمكن أن يبغض أحدًا أو يلقى بغضا من أحـد، ولقد وجـدت

الديانات الأخرى – والمسيحية بالـذات – في كل العصـور الـتي كـان الحكم الإسـلامي فيها قائمًا بصـورته الصـادقة ما لم تلقه في ظل أي نظـام آخر من حيث الأمان والاطمئنان في دينها ومالها وعرضها وحريتها".

أما الأنبا غريغوريوس أسـقف البحث العلمي والدراسـات العليا اللاهوتية بالكنيسة القبطية وممثل الأقباط الأرثـوذكس فيجيب عن السـؤال الأول السابق قائلا:

"إن تطـبيق أحكـام الشـريعة الإسـلامية في مصر أمر لاشك فيه ولا اعتراض عليه، فالشرائع السـماوية نـور وهداية للبشـر، ونحن نـؤمن بـأن الدين لم يعط للناس إلا ليكـون عونا لهم لتصـير حياتهم به أفضل مما تكون بغـيره، والهـدف من الـوحي الإلهي تحديد الطريق الـذي يسـاعد الإنسـان على أن يعيش بمبـادئ الـدين سـعيدًا كريما".

وأضـاف الأنبا غريغـوريس قـائلا: "رغم أن الديانة المسـيحية ليس في نصوصـها قطع يد السارق أو قتل القاتل الخ... فإننا كمسـيحيين لا نعارض في تطبيق حدود الشريعة الإسـلامية في مصر إذا كـانت هـذه رغبة إخواننا المسـلمين، وفي نظري أن هـذا لن يتحقق كما يجب إلا إذ ضـمنّا للقضـاء سـيادته الكاملة الـتي تعطي له حرية التحقيق الشـامل والتقصـي للجريمة وأسبابها".

أما السؤال الثاني فيجيب عنه أسقف البحث قائلا:

"لقد لقيت الأقليات غير المسلمة والمسيحيون بالذات في ظل الحكم الذي كانت تتجلى فيه روح الإسلام السمحة كل حرية وسلام وأمن في دينها ومالها وعرضها".

أما القس برسوم شحاتة – وكيل الطائفة الإنجيلية في مصر – فكان رده على السؤال الأول: "إن الأديان كافة تحرم الجريمة، والنفس الإنسانية يجب أن تعالج من الوقوع في الجريمة وقبل الوقوع بكل وسائل الإصلاح والتربية الجادة القائمة على إحياء القيم الروحية وسريانها في النفوس والارتباط بالشرائع السماوية في إرشادها وهديها، أما النفوس المتحجرة والقلوب القاسية التي لا يجدي معها النصح والإرشاد والتوجيه فهذه تعتبر شاذة وجرثومة في جسم المجتمع يجب إنقاذه منها، وهنا لابد من تطبيق حدود الشريعة الإسلامية لتحقيق العدالة والسلام والحب في المجتمع، ويطالب في نظري بدقة التنفيذ الجاد لهذه الحدود وزير الداخلية، الذي يمثل سلطة الأمن شخصيًا. مع ضرورة أن تعود للقضاء سيادته وحرمته التي تعطيه الحرية الكاملة في البحث والتقصي عن كل حادثة أو جريمة".

ويضيف وكيل الطائفة الإنجيلية مجيبا عن السؤال الثاني بقوله: "في كل عهد أو حكم

إسلامي التزم المسلمون فيه بمبادئ الدين الإسلامى كانوا يشملون رعاياهم من غير المسلمين – والمسيحيين على وجه الخصوص – بكل أسباب الحرية والأمن والسلام. وكلما قامت الشرائع الدينية في النفوس بصدق بعيدة عن شوائب التعصب الممقوت والرياء الدخيلين على الدين سطعت شمس الحريات الدينية، والتقى المسلم والمسيحي في العمل الإيجابي والوحدة والخلافة".

ومما يؤكد أن هذا الموقف موقف مبدئي وثابت أنه بعد مرور قرابة عشر سنوات ورغم ما أحاط بالفترة الأخيرة من حكم السادات من ظلمات وشبهات كان البطريرك شنودة قد صرح في خطبته في قصر عابدين أمام السادات أن الأقباط في ظل حكم الشريعة يكونون أسعد حالا وأكثر أمنا، ولقد كانوا كذلك في الماضي حينما كان حكم الشريعة هو السائد، ويعقب الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي الذي روى هذه الواقعة عن صديق صحفي جرى بينه وبين البابا حديث على انفراد يستبعد معه أي مجال للظن بالمزايدة، أن البابا قال له: "نحن نتوق إلى أن نعيش في ظل: لهم مالنا وعليهم ما علينا "، وقال له: "إن مصر تجلب القوانين من الخارج حتى الآن وتطبقها علينا، ونحن ليس عندنا ما في الإسلام من قوانين

مفصــــلة، فكيف نرضى بـــالقوانين المجلوبة ولا نرضى بحكم الإسلام".

وتابع الأستاذ عبد الرحمن الشرقاوي الكتابة في هــذا الموضــوع في مقاله بجريــدة الأهــرام فأشــــــار إلى تأييد أعضــــــاء مجلس الشــــعب المسيحيين لتعـديل النص الدسـتوري "الشـريعة الإسـلامية مصــدر رئيســي للتشــريع". لتكــون "الشــريعة الإســلامية هي المصــدر الرئيســي للتشـــــريع". وإلى ما قـــــرره العضو وليم نجيب ســيفين من أن هــذا التعــديل مفخــرة لمصــر، والتأييد الحماسـي له من العضو ألـبرت برسـوم سلامة، مما جعل هذا التعـديل يمر بالإجمـاع، بل وبحماسة كبرى من كل الأعضاء.

وأشار الأستاذ الشرقاوي إلى اسـتطلاع رأي قــــام به المركز القــــومي للعلــــوم الاجتماعية والجنائية عن تطـــــبيق الشـــــريعة، وأن هـــــذا الاستطلاع عن تطبيق الحدود، وهل يكــون فوريا أو تـدريجيا، وأن الإجابة بالنسـبة للفـوري كـانت 31% من المســلمين و32% من المســيحيين، أما بالنســـبة للتــدريجي فقد كـــانت 69% من المسلمين و68% من المسيحيين، وعن السؤال هل تطبق على كل الناس مسلمين ومسيحيين؟ وافق على ذلك 69% من المسلمين بينما زادت النسبة لدى المسيحيين فبلغت 71%[(17)].

---

[17] **(17) الأهـــــرام.. الأســــتاذ عبد الــــرحمن الشرقاوي 20/3/85.**

على إننا نجد أن أفضل من كتب عن قضــية تطبيق الشريعة وعالجها، بكل صـراحة وقـوة هو الكــاتب الوطــني والقبطي ســامي داود الــذي "عــارض بقــوة فكــرة قصر تطــبيق الحــدود الإسـلامية على المسـلمين دون الأقبـاط، وكـان سـامي داود يعلق على تصـريح نشـرته صـحيفة الأخبار في مايو 1976 لـوزير العـدل وقتئذ قـال فيه: "إن اللجنة المختصة بتطوير التشريعات بما يتفق مع الشــريعة الإســلامية تقــوم بتعــديل القــوانين الآن لتنتهي من هــذه المهمة قريبــا.. وأضــاف بــأن تحــريم شــرب الخمر وقطع يد الســارق مثلا ســيطبقان على المســلمين دون المســيحيين، لأن المســيحيين ســتطبق عليهم القوانين الوضعية"، وبعد أيام قلائل من نشر هذا التصريح كتب الأستاذ سامي داود مقـالا بجريـدة الجمهورية وشاء القدر أن يكون هذا المقــال هو كلمة الوداع الأخيرة لهذا الكاتب الوطني إذ قـال متســــائلا "أيصــــبح في البلد قانونــــان: واحد للمســلمين وواحد للمســيحيين؟! نحن شــعب واحد ويجب أن يطبق علينا قـانون واحـد، ما دام هــذا القــانون سيصــدر من مجلس الشــعب، (سلطتنا التشريعية المنتخبة..).

وقال سامي داود:

"بأي ضــمير قضــائي ســيحكم القاضــي "المســلم" على الســارق المســلم بإقامة الحد الإسلامي الذي يقضي بقطع يــده.. ثم يحكم في

اليوم التالى على سارق مسيحي بالسجن بضعة أشهر أو بضع سنوات! وكيف سيتقبل الناس هذا الوضع، وماذا يمكن أن يكون له من آثار!!.

واستطرد سامي داود قائلا:

"إن ما يتضـمنه القـانون المـدني والمصـري من مواد تستند إلى الشريعة الإسلامية – وأهمها وأخطرها على علاقـات الأسر والأفـراد – قـانون المـــواريث مثلا.. إنه يطبق على الجميـــع، فهل شكا أحد من ذلـك، فلمـاذا في النـواحي الجنائية يصبح لنا قانونان.. وكأننا شعبان؟!! هـذه أسـئلة أثيرها – وأنا طالب بوحدة التشريع أيا كــان.. مع اعـترافي بـأني لا أسـتطيع أن أجـزم بسـلامة ما أطالب به، وأكاد أطالب، بل أرجو أن يردنى من يسـتطيع أن يجــزم وأن يوجهني بــالرأي المقنع إلى الصواب.

وختم ســامي داود مقاله هــذا "فى ســبيل مصـر، ووحـدة شـعبها الوطنيـة، كتبت ما أكتب، وليغفر لي من يـــراني أخطـــأت.. وليجنبنا الله جميعًا مســـالك الخطأ وليرشـــدنا إلى طريق

وقد أحسن الأســتاذ جمــال بــدوي عنــدما اســـتطلع رأي كـــاتب صـــحفي متخصص في الشئون الكنسية أن يبدي وجهة نظره في قضية تطبيق الشريعة، هو الأسـتاذ صـادق عزيز – وهو صحفي قبطي متخصص في الشــئون الكنيسة – فكتب هذا المقال:

هل هو حق موقف أقباط مصر من المطالبة بــألا يتضــمن الدســتور نصا على أن "مصر دولة إســلامية؟". هل هو حق مــوقفهم من ألا تكــون الشريعة الإسلامية المصدر الرئيسي للتشريعات والقوانين في الدولـة؟ هل هو حق مــوقفهم من المطالبة بــألا تسري الأحكــام الإســلام إلا على المسلمين أما الأقباط فلا تسري عليهم؟.

أســــئلة لا محل لها من الإعــــراب. وأجوبة بالتالي لا محل لها من التفكير أو حتى مجـرد أن تخطر على البال.. أسئلة تنقصـها الحكمة وإجابة تفتقد إلى الصــــواب.. ولا أقــــول ذلك مناوئا للمسيحية، ولا منافقًا للإســلام.. وإنما أقــول من واقع المنطلقـات العقلانيـة.. والقانونيـة.. والأهم من ذلك المسيحية.

أولا: فالمطالبة بعــــدم النص في الدســـتور على أن مصر دولة إســلامية هي مغالطة للواقع والتاريخ، فلا أحد يســتطيع أن ينكر أن مصر فعلا مثلها مثل باقي الدول الإسلامية والـتي أصـبحت تمثل نحو ثلث العــالم، دولة إســلامية منذ دخلها الإسلام ولم ترتد عنه سلما أو حربا منذ أكثر من (1300) ســـنة، مصر إســـلامية منذ أن دخلها عمــرو بن العــاص. يومها كــان المســلمون هم الأقليــة، وكــان الأقبــاط هم الأغلبيــة، ومع ذلك كانت إسلامية، وكنا نعيش في ظل الإسلام وفي أمنه وإيمانـــه، ولعل البابا بنيـــامين لم يصــــدر صـرخته المشـهور "اسـتقبلوا عمـرو" إلا بعد أن "كفــر" بحكم الرومــان المســيحيين لمصــر، لما

لاقاه "الأقباط" على أيديهم من وسائل التعـذيب والقتل والتشريد.

ولعلي أسـتطيع أن أقولها صـريحة إن مصر في تاريخها لم تكن أبدًا "قبطيـة" حـتى من قبل الإسـلام.. فهي تقع دائما تحت الحكم الرومـانى أو البـيزنطي أو المقـدوني. أما الحكم القبطي فلم نسـمع عنه أبـدًا.. إذن لمـاذا نـأتي اليـوم ونـرفض أن يكـون هنـاك نص على أن الدولة "إسلامية" ثم ماذا يضيرنا في هـذا خاصة إذا كنا نعـرف أن المسـيحية عاشت في سـلام مع الإسلام وتعايشت معه أكثر من (1300 عام).

وقد يقـال إن معظم دول العـالم – خاصة المسيحية منها – لم تعد تمزج بين الدين ونظـام الحكم، أخذا بمبدأ الدين للديان والدولة للجميـع، والرد على ذلك واضح علميا وعمليا، فكل الدول التي ابتعـدت عن الـدين في دسـاتيرها وقوانينها فقـدت كل سـماتها وصـفاتها وأخلاقياتهـا.. وانتشـرت فيها الإباحية والإلحاديـة، وأصـبحت معظم هذه الدول نفسها تتوق إلى العودة للدين وتقاليده وترنو إلى تطبيق شرائعه وتعاليمه حتى تستعيد توازنها.

- هل نريد من أجل إرضاء الأقلية المسيحية، أن تنكر الأغلبية إسـلاميتها..؟ ولمـاذا؟ وإذا كـان المسيحي تحت ضغط أو حتى إرهـاب أو تخويف لا يمكن أن ينكر مسـيحيته عملا بقـول السـيد المسيح "ولكن من ينكر قـدام النـاس أنكـره أنا أيضًـا قـدام أبي الـذي في السـموات". (ت 10: 33).. فلمـاذا إذن نقبل لغيرنا ما لا نقبله لأنفسنا.؟ ولماذا لا نسـمع قوله له المجد "أقـول

لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغـارب ويتكئـــون مع إبـــراهيم وإســـحق ويعقـــوب في ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيطرحـون إلى الظلمة الخارجية هناك يكون البكـاء وصـرير الأسنان". (ت 8:11ـ 12) وقوله "من يقبل نبيا باسم نبي.. فأجر نبي يأخذ، ومن يقبل بارا فأجر بار يأخذ". (ت10 – 40).

وننتقل الآن – يقــــول عزيز صــــادق – إلى النقطة الثانية وهي الاعـــتراض على أن تكـــون الشـــريعة الإســـلامية هي مصـــدر التشـــريعات والقوانيـن في الدولة.

والســؤال الآن: مــاذا يخيفنا من ذلــك؟ في رأيي الشخصي أنه فيما عـدا ما يتعلق بـالأحوال الشخصـية، فـإن أحكـام الشـريعة الإسـلامية لا تتعارض إطلاقًا مع المسيحية، وذلك لعدة أسباب أهمها:

1- أنه إذا كـــانت الدولة إســـلامية فـــالقوانين الوضــعية يجب أن تكــون إســلامية، وعلينا قبـــول ذلك بل والـــترحيب به عملا بقـــول الســيد المســيح "أعطــوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله".

2- أن أحكـام الشــريعة الإســلامية تنطبق في كثير من الأحيـان مع شـريعة العهد القـديم، وهي ما جـــاء المســـيح لا لينقضـــها.. بل ليكملها..

3- أن المســيحية لم تــأت بأحكـــام وقـــوانين وضعية عملا بقوله "مملكتي ليست في هذا العالم" ومن ثم ترك للحكام أو لقيصر وضع

الأحكـــام الأرضـــية، وأمرنا بـــأن نعطي ما للحكام للحكام.

4- أنه فيما عدا الأحوال الشخصية، فإن أحكـام الشـــريعة المســـيحية لا تصـــلح إطلاقًا لأن تكـون أحكـام قـوانين وضـعية ولا حـتى في الفاتيكان نفسها، بل ولا في المقر البابـاوي لبابا الإسكندرية نفسه، ولا أيضًا في أعمـاق الأديـرة الضـاربة في أعمـاق الصـحراء، فلا يمكن أن نضع قانونا وضـــــعيا في أي دولة يسمح لمن ضرب بأن يحـول لضـاربه خـده الآخر ليضربه مرة أخرى! ولا يمكن أن نضع قانونا وضعيا يدعو الناس لأن لا يفكروا فيما يأكلون ولا ما يشربون ولا ما يلبسون.. وأن يطلبـوا ملكـوت الله وبـره فهنا كلها تـزداد لهم!، ولا يمكن أن نضع قانونا يســـــــمح بالمغفرة للقاتل والسارق والـزاني والزانية والمعتدي والنصـاب والمحتـال، عملا بقـول السيد المسيح "لا تـدينوا لكي لا تـدانوا". أو عملا بقوله للزانية "هل أدانك أحد ولا أنا أيضا أدينك".

إذن فـإذا سـلمنا بـأن المسـيحية لم تضع أي أحكـام وقـوانين وضـعية وأن أحكامها الروحية لا تصـلح لأن تكـون أحكاما تنظيمية على الأرض.. وإذا سلمنا بـأن المسـيح اعـترف بـذلك شخصـيا في قوله "مملكتى ليست في هذا العالم".. وأنه أحال هذا الأمر إلى الحكام في قوله "أعطـوا ما لقيصر لقيصـر". بل إنه قبل بـأن يحـاكم أمـام الحـــاكم "بيلاطس البنطي"، ويعلمنا الإنجيل أن

الحاكم كان عادلا حتى أنه قال "إني برئ من دم هذا الرجل". وغسل يديه.

نقول إننا إذا سلمنا بكل هذا.. فأية شريعة نطلب نحن أقباط مصر أن تسري في مصر، إذا كنا نرفض الشريعة الإسلامية كشريعة دين ودنيا؟ هل ننادي بنفس شريعة موسى التي قال عنها المسيح عشرات المرات إن "موسى ما قال هذا أو صنع إلا لقساوة قلوبكم"، فهل نريد أن نعود لعصر اليهود بقساوة قلوبهم وغلاظة رقابهم؟.

ثم فيم سنختلف حول أحكام الشريعة الإسلامية؟ يتساءل صادق عزيز ثم يجيب:

6- هل في قواعد الإرث والتوزيع، وللذكر مثل حظ الأنثيين؟.. إن المسيحية لم تأت بأي أحكام في هذا الموضوع. فإذا بحثنا عن أحكام تتناسب والدين المسيحي فلن نجد أفضل من الشريعة الإسلامية.. فالمسيح أيضا فضّل الذكر على الأنثى.. بدليل أنه أسلم أمه إلى "يوحنا" ليرعاها.. ولم يتركها حتى لأختها مريم.. وبدليل أن المسيح أقام كنيسة على صخرة "بطرس".. ونشر دعوته على معجزات (11 تلميذا ولسان 70 تلميذا آخرين).

وقد يقال إن الإسلام لا يحترم رغبة الموتى في الوصية.. وأن "الوصية" إذا تعارضت مع أحكام الشريعة الإسلامية لا يؤخذ بها. وهذا هو ما فعله السيد المسيح تماما.. فهو لم يحترم

أبــدا رغبة ميت.. بل إنه قــال "دعــوا المــوتى يدفنون موتاهم".. ورفض أن يتخلف عنه تلامذته ليشاركوا في دفن ميت!.. أكثر من ذلك نرى أن المسيح حين أحيا الموتى وأقامهم من القبور لم يقمهم حبا في المــوتى، ولكن من أجل إيمــان أقــــاربهم وأهلهم "الأحيـــاء".. والإنجيل يعطي عشرات الأمثلة عن ذلك.

وقد يقــال إن حد الســرقة في الإســلام هو قطع اليــد، وأتســاءل وهل هــذا يتعــارض مع المسيحية؟ انظروا إلى قول السيد المسـيح "إذا أعثرتك يــدك فأقطعهــا، فــإن تــدخل ملكــوت السموات بيد واحدة خير من يلقى بجســدك كله في النار".

الأمثلة كثــيرة.. ومن يقــرأ الإنجيل ويقــرأ القرآن والتوراة فسيجد فيها لنفسه حيــاة، وكلها تــــؤدى إلى طريق واحـــــد.. طريق الصـــــواب والثواب..

فليثب الأقباط إن كانوا لا يعلمون[18]..

وإلى هنا ينتهي مقال الأستاذ صادق عزيز...

وهـذه الكتابـات من أفضل الكتـاب الأقبـاط وأكــثرهم إنصــافًا واعتــدالا وحكمة في معالجة المواضـيع: القبطيـة/ الإسـلامية، توضح تمامًا أنه كـان هنـاك مندوحة للبابا شـنودة عن أن يسـلك مســـلكه، وأن يعـــرض تحفظاته وتمحكاته وأن

---

[18] **(18) كتاب الوحـدة الوطنية بـديلا عن الفتنة الطائفية للأستاذ جمال بــدوي – طبعة مكتبة الأسرة – من ص293 إلى ص298.**

يمــارس التحــدي بقــدر ما تســمح له ســلطاته الروحية.

نقول هذا، ونحن لسنا من المؤيـدين تطـبيق الشــريعة، ولا حــتى على النص "الإســلام دين ودولـــة" لأننا نـــؤمن أن أي تــدخل للدولة في الدين، وأي دخل للدين في السـلطة لن يتمخض إلا عن فســاد الاثــنين. وقد عالجنا هــذه النقطة بإســهاب في كتــاب من 400 صــفحة بعنــوان "الإسلام دين وأمة وليس دينا ودولة". إن مجـال الإســلام هو الفــرد، هو الأمة، وســبيله الحكمة والموعظة الحسنة، وحصـنه الحصـين هو القلب المــؤمن وهــذا وإن كــان يحــول بين أي خلط للإســلام بالســلطة فإنه لا ينفي أبــدًا اســتلهام القيم التي وضعها الإسلام للحكم الرشيد، والذي يتجلى في الأمر بالشــورى ومقاومته الاســتبداد واســتبعاد الظلم وكل صــور الطــاغوت، فهــذه المبادئ هي من المبـادئ الـتي أجمعت البشـرية على أنها هي التي تؤسس الحكم الرشــيد، وأنها هي الــتي تحــول دون ظهــور الديكتاتورية بكل صــــورها، كما أنها هي الـــــتي تكبح جمـــــاح الديمقراطية الرأســـمالية في الاســـتغلال وأنها باختصـــــــــــار تضم أفضل ما في الديمقراطية والاشـتراكية على سـواء.. ولكن بـدون أن تتقلد الحكم دعــوة إســلامية، وبــالطبع فليس هنــاك كنيسة إســلامية أو أكليروســية، وبهــذا تســتبعد الدولة "الثيولوجيــة" وتظهر الدولة الــتي عنــدما

تأخذ بما أوجبه الإسلام للحكم الرشيد، فإنها إنما تطبق قواعد أجمعت عليها البشـــرية، كما يجب أن تـأتي كل مطالبه بـذلك من الشـعب نفسـه، وليس من الحكومة أو الســـــلطة وأن تـــــأتي بالطريقة الشـــــرعية الإســـــلامية أي الحكمة والموعظة الحســـــنة، ولا حـــــرج علينا إذا قلنا "الديمقراطيـــــة" بحيث يطـــــالب بها الشـــعب حكومتــه، وأخــيرًا فيجب أن نســتلهم فكــرة ومضـمون "الشـريعة" من القـرآن نفسـه، ومما يتفق مع القـــرآن من أحـــاديث، ويمكن أيضًـــا الاستئناس في هـذا المجـال بسياسـات أبي بكر وعمر بن الخطـاب وعلي بن أبى طـالب الـذين تقلـــدوا الخلافـــة. أما ما جـــاء به الفقهـــاء من تعريفــات وتحديــدات واصــطلاحات الخ... فمن الخــير أن يســتبعد تمامًا لأنه إذا كــان متفقا مع القـرآن.. فاتبـاع القـرآن أولى وإن كـان مخالفًا، وهو بالفعل في كثــير من أحكامه – فــإن اتباعه يضر ولا ينفع.

* * *

كـــانت الفـــترة الـــتي عاصـــرت مـــؤتمر الإسكندرية سنة 77 حافلة بالأحـداث المأسـاوية فقد حدثت أحداث 18، 19 يناير سنة 77 عندما رفعت الحكومة أســعار ســلع تمثل الحاجـــات الأساسية للشعب. وحـدث هـذا في وقت كـانت تبشر بإقبـال الرخـاء وتثـبيت الأسـعار وتوفـير الغذاء والكساء والحرص على محدودي الــدخل،

وبينما كان الشعب غارقًا في بحـار الأمـل، إذا به على حين غره يفاجأ بقرار رفع الأسعار فخرجت الجماهير في غضبة شـعبية   ووجـدت الجمـوع نفســها منســاقة. ووصف حكم المحكمة هــذه الحركة فقالت وبينما أفراد الشعب غـارقون في بحار الأمل التي تبثها فيهم أجهـزة الإعلام صـباح مساء إذ بهم وعلى حين غرة يفاجـأون بقـرارات تصــــدرها الحكومة ترفع بها أســـــعار عديد من السـلع الأساسـية الـتي تمس حيـاتهم وأقـواتهم اليومية وكـــذا دون أي إعـــداد لها أو تمهيد، فأي انفعال زلزل قلوب هؤلاء النــاس، ومن أين بجل هذ الشـــعب ومعظمهم محـــدودي الـــدخل أن يوائمــوا بين دخــول ثابتة وبين أســعار أصــيبت بـالجنون، وإذا بالأعـداد الهائلة من هـذا الشـعب تخـرج مندفعة إلى الطرقـات والميـادين، وكـان هـذا الخــروج توافقيا وتلقائيا محضــا، وإذ بهــذه الجمــوع تتلاحم هـــادرة زاحفة معلنة ســخطها وغضـبها عن تلك القـرارات الـتي أودت بالرخـاء وحطمت الآمال، وحـاولت جهـات الأمن أن تكبح الجمـــاح وتســـيطر على النظـــام ولكن أنى لها والغضب متأجج والآلام مهتاجة.

ونــزل هــذا الحــدث على الســادات نــزول الصـاعقة وعجز عن أن يفهمـه، وكـان الانطبـاع عنده هو حب الشعب وتقدير له؛ لما أحــدث من تغيــيرات عميقة أخـــرج بها الشـــعب من الجُب الناصري فجاءت قومة 17، 18 قاضية على هذا

التصور الذي وقر في قلبه، وأحـدثت شـرخًا في أعمـاق نفسه وفي نظرته للشـعب، وعجز تمامًا عن أن يفهم السر فيه وســـماها "انتفاضـــة الحرامية"، ولم يعد السادات بعـدها إلى ما كـان عليه قبلها.

وفي شــهر أغســطس 1977 وفي أعقــاب نشر الصـــحف لما معنـــاه أن الحكومة برئاسة ممدوح سالم تنـوي تطـبيق الشـريعة الإسـلامية على المرتد، عقد المجمع المقـدس اجتماعا في 1/8/1977 برئاسة البابا شـنودة، وأصـدر قـرارا بتقديم مذكرة لـرئيس الجمهورية تتضـمن رفض الطوائف المسـيحية تطـبيق الشـريعة وقـانون الـردة وضـرورة حل مشـاكل الطائفة، واقـترح بعض الأعضاء قيـام المجمع بمسـيرة تضم أبنـاء الطائفة تتوجه إلى مقر رئيس الجمهورية والسفارات ووكالات الأنباء للتعبير عن اسـتيائهم من اضـــطهاد المســـئولين للمســـيحيين؛ وفقا لمـذكرة مسـاعد المـدعي الاشـتراكي لمحكمة القيم في 3 ينـاير 1977، إلا أنه أرجـأ البت في هــذا الاقــتراح لحين مقابلة الــرئيس لمنــدوبي المجمع المقــدس في ذلك الــوقت. وفي مطلع الشهر التالي التقى البابا شنودة بأعضاء مجالس كنـــائس القـــاهرة وعـــدد من المطارنة بمقر الكاتدرائية المرقســية بالعباســية واتخذ قــرارا بـــإعلان الصــوم الانقطــاعي ابتــداء من يـــوم

5/9/1977 تعبـــيرا عن رفض مشـــروع قـــانون الردة.

وحدثت في عام 80 أحداث الزاوية الحمراء التي سقط فيها 17 قتيلا و112 مصابا وأوجـدت توترًا بين بعض المسيحيين والإسلاميين، ودفعت هــذه الأحــداث بالســادات إلى اتخــاذ قــرارات سبتمبر التي شملت بالإضافة إلى اعتقال 1365 من مختلف القــوى الوطنية، وإلغــاء الــترخيص لصحف المعارضة وأهمها مجلة الدعوى وجريـدة الشــعب ومجلة الاعتصــام (قــرار 494 لســنة 1981)، ثم أصدر قرارا بحل الجمعيات الخيرية مثل: جمعية الهداية الإســـــلامية بالســـــويس، وجماعة أنصـــار السُـــنة المحمدية ببورســـعيد، وجمعية الخلفاء الراشدين بمصر الجديدة (قــرار 492، 495 لسنة 1981)، وقرارا بنقل عدد من أسـاتذة الجامعـات إلى وظـائف أخـرى، وقـرارا بنقل عــدد من الصــحفيين إلى وظــائف أخــرى. وعددا آخر من القرارات.

وفى ليلة عيد الميلاد أي مســـــاء 6 ينــــاير 1980 وقعت عدة أحـداث طائفيـة، تسـبب عنها بعض الحرائق في بعض الكنــــــائس وذلك قبل ســـاعات من إلقـــاء البابا شـــنودة لعظته في الاحتفـــال الـــذي ســيقام مســاء نفس اليـــوم بالكاتدرائية المرقســـية بالعباســـية. وكـــان من نتيجة هـــذا التصــعيد أن قــامت الكنيسة بــأكبر مواجهاتها ضد النظـــام والدولة، مســتخدمة في

ذلك كل عناصر القوة التي امتكلتهـا، وكـان ذلك في عيد القيامة عنــدما قــرر المجمع المقــدس إلغــاء الاحتفــالات بالعيــد، وإلقــاء البابا شــنودة لخطــاب غاضب عــارض فيه فكــرة أن تكــون الشريعة الإسـلامية أساسا لقـوانين تطبّـق على غــير المســلمين، وأبــدى مخاوفه من أن الــدين يوشك أن يحل محل الوطنية، وأعلن في خطابه الـذي ألقـاه يـوم 26 مـارس 1980 أن صـلوات عيد القيامة لهــذه الســنة لن تقــام كنــوع من الاحتجـاج على إهمـال ما تقـدم به الأقبـاط من طلبـــات، وعوضا عن حضـــور قـــداس الجمعة الحزينة، فقد قرر البابا أنهم سـوف يـذهبون إلى أحد الأديـــرة في الصـــحراء يصـــلون من أجل الخلاص مما يعانونه من ضغط، وأصدر أمره إلى رجـال الكنيسة بـألا يتقبلـوا التهـاني بعيد القيامة من أي مســـــئول رسمي تبعث به الدولة لتهنئة الأقباط بهذا العيد كما جرت العادة.

وغضب الســادات غضــبًا شــديدًا، ورأى فيه نوعًا من التحدي و"لي الـذراع" كما كـان متـأثرًا من استقبالات سيئة معارضة ومظاهرات غاضبة عندما ذهب إلى نيويورك وواشنجتن ومنشـورات معاديـــة، فــدعا إلى اجتمـــاع لمجلس الشــعب لمناسـبة احتفـالات 15 مـايو وسـرد فيه بإطالة وإسهاب تصرفات وسياسات البابا شنودة.

وذكر مظـــاهرات الاحتجـــاج والتنديد الـــتي قابلتـــه عنـــدما زار كـــارتر في إبريل، ووزعت

منشورات تندد باضطهاد الأقبـاط وقتلهم وحـرق كنائسهم وحدث هـذا أمـام الـبيت الأبيض وأمـام قصر ضيافته، ونداءات للعالم أجمع لكي يسـاعد في وقف المــذابح لثمانية مليــون مســيحي في مصر، واســـتعداء أمريكا والكـــونجرس ونص المادة الثانية من الدستور.

وأشار السادات إلى الدعوة التي ترددت في ذلك الـوقت لعقد مـؤتمر عـالمي لبحث أوضـاع الأقبــاط في مصر في ضــوء تعــديل الدســتور والنص على الشــريعة الإســلامية كمصــدر وحيد للقوانين.

ويـــرد الســـادات بشـــكل واضح على كل الهجـوم الـذي وجه للمـادة الثانية من الدسـتور بشكل حاد وواضح بقوله: "طب إذا كانت المادة الثانية هي ســبب كل هــذا فأنا أقــول لأبنــائي الأقباط يسمعوني الآن... **أقول لكم ولشعبنا إنـــني يـــوم أن تـــوليت الحكم في مصر أحكم كـــرئيس مســـلم. أنا قلت يجب أن نسمي الأشـــياء بمســـمياتها مصر دولة إسلامية. ومش دولة إسلامية عادية.. لا.. ده لها مركز قيـــــــــــادي في عالمها الإســـلامي، ومركز ريـــادة حيث حافظ الأزهر على الإســلام طــوال ألف ســنة بشـهادة مسـلمي العـالم وكـان يجب أن يعلم مثيرو الفتنة أن الضــمانة الحقيقية للمسيحية في مصر هي الإسلام.**

لما أقول رئيس مسـلم لدولة إسـلامية ليس معنى هـذا أبدًا أنني لا أؤدي حق المسـيحي قبل المســـلم، ولكن هـــذه دولة إســـلامية من عهد البطريـــــــرك بنيـــــــامين وقت أن أرسل جميع المسيحيين لكي يعاونوا الجيوش العربية جيـوش عمـــرو بن العـــاص.. أرسل أقبـــاط مصر الأب بنيـــامين لمعاونة عمـــرو بن العـــاص لكي ينهي الاضـطهاد الـديني البـيزنطي لأقبـاط مصـر، وأنا أقـول إنى رئيس مسـلم لدولة إسـلامية أعـرف مســـئوليتي.. الأقبـــاط واليهـــود المصـــريين مسئوليتي كالمسلمين تمامًا بنص القرآن".

وفي نهاية الخطـاب قـال السـادات إنه كـان قد اعتزم إجـراءً عنيفًا لـولا أن خطابا وصـله من فتـــاة قبطية صـــغيرة تلتمس عطفه وتناشـــده صبره، وأخرج الخطاب من أوراقه وقــرأ "يا أبي أشـــعر أنك غاضـــب، وأنا أقـــدم روحي فـــداءك وأتمنى لو اسـتطعت أن أضـيف كل ما تبقى من سنوات عمرى لتعيش دائمًا لنـا".. وقـال "حينما قــرأت هـذا الخطـاب من ابنتي القبطية غـيرت رأيي وقررت العدول عما كنت أنتويه".

وأعقب هذا الخطاب صدور قرارات سـبتمبر بإبعاد الكتـاب السياسـيين، كما تقـرر إبعـاد البابا عن كرســـي البابوية، وتحديد إقامته الجبرية في دير وادي النطـرون، وإلغـاء القـرار الجمهـوري بتعيينه بابا للإســــــكندرية وبطريكا للكـــــــرازة المرقسية، وتعـيين لجنة للقيـام بالمهـام البابوية

من الأســــاقفة: الأنبا وكســــيموس أســــقف القليوبية، والأنبا صــموئيل أســقف الخــدمات العامة وكنائس المهجر، والأنبا غريغورس أسقف البحث العلمي والدراسـات القبطية العليا، والأنبا أثناسيوس أسـقف بني سـويف والبهنسة، والأنبا يــــؤانس أســــقف الغربية وســــكرتير المجمع المقـدس. والتقت اللجنة بعد تشـكيلها بـالرئيس السادات وقال الأنبا أثناسـيوس بعد هـذا اللقـاء: "كلنا ملزمون بخط مصر القومي وأن هـدفنا هو تــدعيم وحــدة الشــعب المصــري كله ودعم الاستقرار الكامل.

* * *

بعد أن ألغى الــرئيس الســادات القــرار الجمهـوري بتعـيين الأنبا شـنودة بطريركـا، رفع البابا شـنودة بواسـطة وكيله الأسـتاذ: حنا نـاروز المحــامي تظلما أمــام محكمة القيم في قــرار رئيس الجمهورية بإبعــاد البابا وبشــكيل لجنة لإدارة شئون الكنيسة واعتباره كأن لم يكن بنــاء على حيثيــات وضــحها، وأن المتظلم لم يكن له شـــأن بأحــــداث الفتنة الطائفية، وفي جلسة المرافعة طلب مســاعد المــدعي الاشــتراكي الحكم بعـدم جـواز التظلم وقـدم مـذكرة مُرْفقاً بها مذكرتين صادرتين تضمنتا مسـوغات القـرار. يســـتفاد من هـــذه الأوراق أن المتظلم "البابا شــنودة" منذ أن تقلد الكرســي البــابوى عــام 1971 عمد إلى الآتي:

أولا: تعريض الوحدة الوطنية والسلام الاجتماعي للخطر.

فقد بــدرت منه وقــائع محــددة تهــدف إلى إحياء النعرة الطائفية التي تنادي بــأن مصر دولة قبطية اســتعمرها المســلمون، ففي خلال شــهر أغســطس ســنة 1973 ألتقى في دير الســريان بأسرة تحرير مجلة الكرازة التي يتـولى رئاسـتها وطالبهم بأن يكـون الهـدف من إصـدار الجريـدة هو إحياء الكيان الطائفي واللغة القبطية، وإثـارة مشاكل الأقباط على صفحاتها بصـراحة وجـرأة. وفي خلال شـهر ينـاير سـنة 1975 أنشأ فصـولا لتعليم اللغة القبطية بالأنبا رويس بالعباسية، كما أصـدر تعليمـات إلى الكنـائس بإنشـاء مثل هـذه الفصول؛ وذلك بهدف إحياء النعـرة القديمة بـأن مصر قبطية، وأن المسـلمين دخلاء عليهـا. وفي خلال شهر سبتمبر سـنة 1975 أصـدر تعليمـات للكنــائس بعــدم الاحتفــال بعيد النــيروز يــوم 12/9/1975 وألقى كلمة في عظلته الأسـبوعية تضـمنت أن الكنيسة حزينة جـدا ولم يفسر البابا ســـبب ذلـــك. وعلى أثر ذلك رددت قيـــادات مــدارس الأحد أن الســـبب في ذلك هو مــرور الأقباط بمحنة نتيجة اضطهادهم من المسـلمين، بالإضـــــــافة إلى رفض رئيس الجمهورية مقابلة الأنبا شنودة أكثر من مرة. وبتاريخ 11/1/1977 التقى بقساوسة محافظة المنوفية وناشــــــدهم توعية أبناء الطائفة بزيادة النسل، وحث الشباب

على الـــــزواج انطلاقًا من أن مصر أساسا دولة قبطية استعمرها المسلمون مما تــرتب عليه أن دين الدولة الرسمي أصــبح الإســلام، وأنه كــان يجب النص في الدستور على الـدينين الإسـلامي والمســيحي معــا، وناشـدهم الاهتمـام بالتبشـير بالـــدين المســـيحي والتحـــرك خـــارج الكنيسة بالاشــتراك في المــؤتمرات السياســية وزيــارة المواقع الحكومية والجماهيرية لإثبـــات الوجـــود المسيحي.

ثانيا: الحض على كراهية النظام القائم:

ذلك أنه بتـــــاريخ 31/8/1977 عقد المجمع المقدس اجتماعا برئاسته وأصـدر قـرارًا بتقـديم مـــــذكرة لـــــرئيس الجمهورية تتضـــــمن رفض الطوائف المسيحية تطـبيق الشـريعة الإسـلامية وقـانون الـردة وضـرورة حل مشـاكل الطائفـة، واقترح قيام أعضـاء المجمع بمسـيرة تضم أبنـاء الطائفة تتوجـــــــــه إلى مقر رئيس الجمهورية والسفارات ووكالات الأنباء للتعبير عن اسـتيائهم من اضطهاد المسلمين والمسئولين للمسيحيين، إلا أنه أرجـــأ البت فيه انتظـــارًا لنتـــائج مقابلة الـــرئيس لمنـــدوبي المجمع المقـــدس في ذلك الـــوقت. كما أنه اســـتثمر حـــادث مقتل القس غبريـــال عبد المتجلي كـــاهن الكنيسة التوفيقية بالمنيا بتـــاريخ 3/9/1978 وذلك بإيفـــاد القمص انطونيوس ثابت وكيل بطريركية الإسكندرية إلى المـــــؤتمرات والمطالبة بمطـــــالب الأقبـــــاط والتشـــكيك في حيـدة الشـرطة والنيابة؛ لإثــارة

وتعبئة مشـــاعر أبنـــاء الطائفة ومعاصـــرة ذلك لمباحثـــات كـــامب ديفيد بهـــدف الضـــغط على المســـئولين لتلبية مطـــالب الأقبـــاط: وقـــام في خلال شهر أكتوبر سنة 1979 بإيفاد الأنبا تادرس أســـقف بورســـعيد إلى قـــبرص مع عـــدد من المطارنة بهـــدف تعبئة الـــرأي العـــام المســـيحي الخـــارجي ضد الســـلطات والنظـــام في مصر، ومناشدة تجمعات الأقباط والهيئـات القبطية في الخـارج التـدخل للضـغط على المسـئولين لمنع تطـبيق الشـريعة الإسـلامية، كما قـام باسـتثمار حادث الاعتداء على ثلاثة من الطلبة المسـيحيين بالمدينة الجامعية بالإســـــــكندرية بتـــــــاريخ 18/3/1980 وأوعز للقمص أنطونيـــوس ثـــابت وكيل بطريركية الإسكندرية بعقد المـؤتمرات مع الطلبة المســـيحيين بهـــدف تعبئة مشـــاعرهم وإثارتهم ضد المسلمين والمسئولين، وكذا قيامه بدعوة المجمع المقدس للانعقاد وإصداره قـــرارًا بعدم الاحتفـال بعيد القيامة وعـدم تقبل التهـاني من المســـئولين ومعاصـــرة ذلك لزيـــارة رئيس الجمهورية الأخيرة للولايـات المتحـدة الأمريكية، وحث تجمعـــات الأقبـــاط في الخـــارج خاصة الهيئات القبطية باتخاذ مواقف معادية أثناء زيارة الرئيس؛ وذلك بهـدف الضـغط على المسـئولين لتلبية مطالب الأقباط.

ثالثا: إضفاء الصبغة السياسية على منصب البطريرك واستغلاله الدين لتحقيق أهداف سياسية.

ذلك أنه بتـاريخ 24/2/1975 رأس المجلس الملي العام للأقبـاط الأرثـوذكس وأصـدر قـرارًا بـــأن تجتمع اللجنة القانونية بـــالمجلس لدراسة قــانون الحكم المحلي للمطالبة بتمثيل الأقبــاط في المجـالس المحلية ودراسة قـانون الأحـوال الشخصـية للمطالبة بتنفيذ شـريعة العقد وعـدم تطــبيق الشــريعة الإســلامية في حالة اختلاف الملة، واتفق على إرسـال خطابـات للمسـئولين بالدولة للمطالبة بتمثيل الأقبــــاط بالاتحـــــاد الاشــتراكي تمــثيلا صــحيحا، وفي 19/7/1975 عقد اجتماعا مع كهنة كنــــائس الإســـــكندرية بالكنيسة المرقســية وطــالبهم بـــإجراء تعــداد للمسيحيين في الإسـكندرية لاسـتكمال السـجل الخـــاص بالتعداد بالبطريركية، كما قـــام بتكليف الأنبا بيمن – الأســقف العــام وقتئذ – بـــالمرور على أبرشيات الجمهورية للاجتماع بأبناء مدارس الأحد بها وتكليفهم بســرعة الانتهــاء من إجــراء إحصاء عـددي للمسـيحيين. وبتـاريخ 5/1/1977 عقد اجتماعا لكهنة القــاهرة ببطريركية الأقبــاط الأرثوذكس بالعباسـية وألقى كلمة ناشـدهم فيها سرعة الانتهاء من إعداد مشروع قانون الأحـوال الشخصية الموحد للطوائف المســيحية؛ لتقديمه للســــلطة التشـــريعية للمطالبة بتطبيقه قبل الانتهــاء من إعــداد قــانون الأحــوال الشخصــية للمســلمين، وانتقد رجــال القــانون المســيحيين لعدم استثمارهم للمناخ الديمقراطي السائد في

التقــدم بمقترحــاتهم بشــأن قــانون الأحــوال الشخصـــية للمســـيحيين. وفي خلال شـــهر أغسـطس سـنة 1977 وبمناسـبة ما نشـرته الصحف حـول تطـبيق قـانون الـردة عقد عـدة اجتماعــات لكهنة القــاهرة ورجــال القــانون المسيحيين والمجالس لدراسة آثار هذا القـانون على المســـيحيين، وضـــرورة التعبـــير إلى المسئولين بصـورة جماهيرية رسـمية بـأن هـذا القـــانون مرفـــوض. وبتـــاريخ 1/9/1977 عقد اجتماعا بأعضاء مجالس كنـائس القـاهرة وعـدد من المطارنة بمقر الكاتدرائية المرقســـــية بالعباسية واتخذ قرارًا بإعلان الصوم الانقطـاعي ابتداء من يوم 5/9/1977 تعبيرًا عن رفض أبنـاء الطائفة لمشـــروع قـــانون الـــردة. وبتـــاريخ 20/2/1979 رأس اجتمـــاع المجمع المقـــدس لمناقشة قـــانون الأحـــوال الشخصـــية الموجه للطوائف المسـيحية، وأشـار إلى أنه حصل على موافقة الأقبـــاط الكاثوليك والإنجيلـــيين على القانون، وأن ذلك حقق نصـرًا له وللطائفة حيث أكد للمسئولين عدم وجود خلافات بين الطوائف المسيحية المختلفة، وطالب بتشـكيل لجنة للـرد على نشاط لجنة المطبوعات الإسـلامية ونقـدها لبعض المعتقدات المسيحية. وبتاريخ 28/10/79 أوعز إلى القمص أنطونيـــوس ثـــابت وكيل بطريركية الإسكندرية بالدعوة لعقد مـؤتمر عـام بالكنيسة المرقســـية بالإســـكندرية يـــوم

1/11/1979 لمناقشة موضــوع تعــديل المــادة الثانية من الدســــــتور، وذلك للضــــــغط على المسئولين وإشعارهم برفض الشعب المسـيحي لذلك، وبتاريخ 4/11/79 عقد اجتماعًا بـدير الأنبا بيشوي بـوادى النطـرون مع عـدد من المطارنة ورجال الدين المسـيحي لإعـداد مـذكرة تتضـمن اعتراضــهم على تطــبيق الشــريعة الإســلامية، وتوجيه اللــوم إلى وكيل بطريركية الإســكندرية لتأجيله عقد المـؤتمر الـذي كـان مقـررًا عقـده بتــاريخ 1/11/1979 مع القيــادات المســيحية لموعد لاحق لمناقشــــات مجلس الشــــعب للموضــــــوع وتكليفه وكيل البطريركية بتوجيه الدعوة لإعلان رأي الأقباط قبل طرح الموضــوع للمناقشة على مجلس الشعب.

وفى 7/11/1979 عقد اجتماعا بالكاتدرائية المرقســية بالعباســية حضــره بعض المطارنة وعــدد من أعضــاء المجلس الملي العــام ومائة عضو من أعضــــاء المجــــالس الملية الفرعية لتقـديم المقترحـات المزمع إدخالها على المـادة الثانية من الدســتور لحماية الأقبــاط حيث وقع الحاضــرون في نهاية الاجتمــاع على مــذكرة بمـوافقتهم على الإضـافة المقترحة على المـادة الثانية من الدستور، وهي عبارة "بما لا يتعــارض مع شــرائع الأقبــاط"، وبتــاريخ 8/11/79 عقد اجتماعا بــالمقر البــابوي بالعباســية مع رؤســاء الطوائف المســيحية ومنــدوبين عن الكنــائس

الكاثوليكية الأجنبية لمناقشة تعديل المادة الثانية من الدســـتور، كما أصـــدر تعليماته لمطرانية ســـوهاج بتكليف المثقفين من أبنـــاء الطائفة - خاصة المحـــامين - بتحرير مـــذكرات تتضـــمن الاعـــتراض على تعـــديل المـــادة الثانية من الدستور. وفي نهاية شـهر ديسـمبر سـنة 1979 التقى ببعض المطارنة بـدير الأنبا بيشوي بـوادى النطرون، ودار بينهم حديث حول تعـديل المـادة الثانية من الدســـــتور، وعلق بأنه ينتظر نتيجة لقاءاته مع المسـئولين بشـأن الضـمانات الـتي طلب إدخالها على تعـــديل المـــادة الثانية من الدســتور لحماية الأقبــاط، وأنه في حالة عـــدم تلبيتها ردد عبـــــارة "حخليها دم للـــــركب من الإسكندرية إلى أسوان".

رابعاً: الإثارة.

وفضلا عما تقدم فإنه في 10/7/1972 عقد اجتماعًا بكهنة الإســكندرية وطــالبهم بــالتحرك وإشــــــــعار الحكومة بهم؛ للعمل على تحقيق مطـالبهم، وبمداومـة الاتصـال بممثلي الطوائف المسيحية الأخـرى بالإسـكندرية وإحـاطتهم علما بمظـــاهر الاضـــطهاد لضـــمان تعـــاطفهم معهم وتأييـــدهم، وبتــاريخ 17/7/1972 عقد مـــؤتمرًا عاما لكهنة كنائس الإسـكندرية لدراسة مشـاكل الطائفة وذلك بدعوة منه، حيث قام بعض الكهنة للإعلان عن هـــذا المـــؤتمر ورفضه الاســـتجابة لطلب وزارة الداخلية بتأجيل الاجتمــاع لــدواعي

الأمن بـــدعوى أن أئمة المســـاجد بالإســـكندرية يهـــــــاجمون القس أبشـــــــواي - راعي كنيسة مـارجرجس بالإسـكندرية ويهـددون بقتلـه، وفي 11/11/72 عقد اجتماعا لكهنة القاهرة على إثر وقوع حريق بجمعية "أصدقاء الكتاب المقــدس" بالخانكة، وأصـدر تعليمـات لهم بالتوجه إلى مقر الجمعية وتأدية الصــــلاة فيها وافــــتراش الأرض بأجسـادهم حـتى الاستشـهاد في حالة التعـرض لهم ثم غـــادر القـــاهرة إلى الـــدير عقب ذلك للظهـــور بمظهر البعيد عن الأحـــداث، ثم قـــام بدعوة المجمع المقدس للانعقـاد وإعلان الصـوم الانقطاعي والحداد بالكنيسة احتجاجا على ذلـك. وبتـــــاريخ 13/11/1972 ألقى كلمة بالكاتدرائية المرقسـية بالعباسـية بمناسـبة مـرور عـام على تقلــده الكرســي البــابوي، تنــاول خلالها التنديد بأحداث الخانكة، والادعاء باضـطهاد الأقبـاط في خلال شهر مارس سنة 1973، وبمناسبة اهتمام الــرأي العـام في مصر بقضـايا التهـريب المتهم فيها رفلة غربـاوي وصـادق غبـور وآخـرون عقد اجتماعا مع بعض المســئولين بمــدارس الأحــد، وحثهم على نشر شـــائعة في أوســـاط أبنـــاء الطائفة بالكنــائس بــأن هــذه القضــايا طائفية والقصد منها الإضـرار بسـمعة المسـيحيين. كما قام بالاعتكاف بدير الأنبا بيشوي بوادي النطرون وعدم الاحتفال بـذكرى تقلـده الكرسـي البـابوي

الـــذي كـــان مقـــررًا الاحتفـــال به بتـــاريخ 14/11/1979.

* * *

وفنـدت المحكمة الـدفوع الـتي تقـدم بها محـــامي البابا شـــنودة ثم قـــالت "وحيث إن المحكمة بتشكيلها الشـعبي وطابعها السياسـي، إذ تعبر عن ضمير الأمة جمعـاء قد بـان لها بما لا يدع مجالا للشك أن ما سـلف بسـطه من وقـائع محـددة قاطعة الدلالة على أن المتظلم قد فاته أن أرض مصر ضــمت بين جنباتها وعلى مختلف العصـور أخـوة اتفقت كلمتهم على صـيانة مصر والحفـــــاظ على القيم الأساســـــية للمجتمع المصـري، ومن بينها الوحـدة الوطنية والسـلام الاجتماعي، هذا ولو اختلفت ديـانتهم، ولم يخـرج من بينهم على خط الوطنية أحـد، فكـانوا مثـار إعجاب كل الشعوب المعاصرة يشيدون بالسلام الذي ظلل أرض الكنانة، وتحطمت على صـخرته كل محـاولات الأعـداء للفرقة بين أبنـاء الـوطن الواحد، وهكـذا كـانت مسـيرة الوحـدة والسـلام والأمن والأمـان بين أفـراد الأمة بأسـرها مهما تبـاينت عقيـدتهم، زكاها كل سـلفه بغـير تميـيز، ومجدها كل أبناء ملته في غابر الزمـان ومختلف العصـور. وظل الحـال كـذلك إلى أن جـاءت به طائفة أقبـاط آملة فيه مواكبة المسـيرة ودفعها إلى الإمام، وإذا به يخيب الآمال ويتنكب الطريق المستقيم الـذي تمليه عليه قـوانين البلاد، فيتخذ من الـدين سـتارًا يخفي أطماعا سياسـية، كل

أقبـــاط مصر بـــراء منهـــا، وإذا به يجـــاهر بتلك الأطماع واضعا بديلا لها – على حد تعبيره – بحرًا من الـــدماء تغـــرق فيه البلاد من أقصـــاها إلى أقصاها، باذلا قصارى جهده في دفع عجلة الفتنة بأقصى سرعة، وعلى غـير هـدى إلى كل أرجـاء البلاد، غير عـابئ بـوطن يأويه ودولة تحميه وأمه كانت في يوم من الأيام تزكيه، وبـذلك يكـون قد خرج عن ردائه الذي خلعته عليه أقباط مصر من محبة ووئـام، لما كـان ما تقـدم، فـإن القـرار المتظلم منه يكون صـحيحًا فيما جـاء بـه، مـبررًا بما قام عليه من إنسانية، مما يتعين معه القضاء في موضوع التظلم برفضه.

(القضية رقم 23 السنة 11 ق قيم)

كـان البابا شـنودة في غـنى عن هـذا الحكم الذي أدانه، وكان سـببا في إعلان كل ما قـام به على رؤوس الأشـــــهاد. لو أنه تقبل القـــــرار الجمهـــوري بلا معارضة، وتعطينا مقارنة موقف البابا كـــيرلس الخـــامس بموقف البابا شـــنودة الفرق الكبير الذي ما بين الموقفين، فقد ضـغط المجلس الملي برئاسة بطرس باشا غـالي على الخديوي عباس لإصـدار قـرار بإبعـاد البطريـرك كـيرلس الخـامس إلى دير الـبراموس؛ فوافقه وأبعد البطريرك ولكن المجلس عـاد فنـدم ورجا الخـــديوى إعادتـــه، فوافـــق. يقـــول مؤلـــف: **"الإيضـاحات الجلية في تـاريخ حـوادث المســألة القبطيـــة": "ولما ذهب الوفد**

إلى البطريــرك في دير الــبرموس قــال لهم البطريـــرك: إنني قد اســـتبعدت من مركزي بأمر من جناب خـديوينا الســامي العظيم، وأمـــــرت من لدنه ألا أتكلم ولا كلمة واحدة، ولا أبدي أي عمل، فلا يليق بي مخالفة مولانــــا.. فقـــالوا لــــه: إننا مبعوثون من قبل الجناب العالي.. فقال لهم أين المكاتبة التي بأيديكم بالتصــريح لكم بذلك؟ فـإذا كـان في أيـديكم مكاتبة من الحكومة فلا أتـــــــــأخر عن الإجابة وإطاعة لأمر أفندينا المعظم..."

إن موقف البطريــرك كــيرلس الخــامس لم يكن عن ضعف ولكن عن تقدير ســليم للأوضــاع كاملة، وكذلك عن تطـبيق لمبـدأ المسـيحية في الاعـــتراف بحق الســـلطة الزمنية لأن في هـــذا وذاك الخير كل الخير للكنيسة.

ومن أســـوأ صـــور التحـــدي "التحـــدي الإيمـــاني" أي ذلك الـــذي يضع المســـيحية في مواجهة الإسلام، ويرى أن المسـيحية هي الديانة الصـادقة، وأن الإسـلام ديانة كاذبة، ويقـارن بين إله الإسلام وإله المسيحية.

ويقـــوم هـــذا التحـــدي على أســـاس دعـــوة الإنجيل للرسل لكي يتلمـــــذوا كل الشـــــعوب ويعمــدوهم باسم الآب والابن والــروح القــدس، وهـؤلاء فهمـوا فهما خاطئا للإنجيل فعنـدما قـال

ذلك لم يكن الإسلام قد ظهر وكـانت ديانة الأمم الــتي عناها هي الوثنيــة. ومن حق المســيحية وقتئذ أن تبشر بالمســيحية بين الوثنــيين – وإن كـان بعض هـؤلاء الوثنـيين من المنغمسـين في الفلسـفة الأثينيـة. ومن أفضل تلامـذة أفلاطـون وأرســطو. ولو أكمل الرســول بــولس كلمته بالكلمة الـــتي جـــاء بها القـــرآن "بالحكمة والموعظة الحسـنة". لما وقع بعض المهوسـين بالمسيحية في قتل الوثنيين والتمثيل بهم، حـتى لو كان بعضهم مثل هباثيا التي استحقت المـديح من كل تحدثوا عنها، وكان من تلامذتها من أصبح من أساقفة الكنيسة، وحـتى لو جـاء الأمر بقتلها والتمثيل بها من بطريــرك من أشـــهر بطاركة الكنيسة، ووصــلت فظاعة التمثيل بها جرها من عربتها وتمزيق كل ثيابها ثم قطعها بالســكاكين حتى نـال جسـدها من التمزيق ما نـال ثيابها من قبل، حدث هذا سنة 415م.

وعنـدما ظهر الإسـلام قابلته المسـيحية شر استقبال وادعى كثير من أساقفتهم ورهبانهم أن محمدًا راعي الجمال ما هو إلا أفاك وأنه مــدمن خمــر، يعبد المـال والنسـاء أو أنه راهب منشق حاز شـيئًا من سـقط المتـاع وجعل منه الإسـلام وانتشر حتى نجد آثاره في مسرحية: جـان دارك لبرنــارد شو (وكــانت تــدرس في قسم اللغة الإنجليزية بكلية آداب جامعة القاهرة) إذ تضمنت إشارة الأسقف إلى الأساقفة الذين حاكموا جان دارك إلى الرسول باعتباره "راعي جمــال". كما

جاء في كتاب آخر كان يـدرس في القسم نفسه بعنـوان: محـاورات من الخيـال لكـاتب إنجلـيزي يدعى ساقيح لاندور، وجاء في فصل منه بعنـوان "الكونت جلايشيم والكونتيسة وولداهما"، وحوار ولهلم بن الكونت جلايشيم مع أخته أنابيلا.. قـال ولهلم: "لست طفلا حـتى أتـوهم أن يفر فـارس مسيحي من وجه متمرد تـركي (أي مسـلم) في المعركة، ولكن النصــــارى قد يؤخــــذون أحيانًا بحيلهم وبكلبه محمد"... فتقول أخته أنابيلا: "وأنا وإن لم يكن بيني وبينك سوى سنة واحدة فليس يبلغ بي الحمق أن أصـدق بوجـود كلب يقـال له محمد، وإذا صح أنه موجود فعندنا كلاب خير منه وأكثر أمانة وأشد قـوة"... فيقـول أخوها مخاطبًا إياهـا: "لا أكـاد أملك نفسي من الضـحك إذا ما ذكرت ما يطوف في رءوس الفتيات من خيالات محمد... فنحن نعلم أن محمدا ما هو إلا كلب له ثلاثة ذيول كذيول الخيل..."!!

ولما انتصر الإسلام أخيرًا وأثمر في الأندلس حضــارة رائعة حــدث أن بعض المهوســيين من المبشـرين بالمسـيحية كـان يـذهب إلى عواصم الأندلس ويسب علنا في الرسـول وفي الإسـلام وفي القرآن.. ويصر على ذلك عندما يقبض عليه لكي يقتل؛ فينـــال الشـــهادة، وكما نعلم فـــإن قديسًـــا من أنبل القديســـين - فرانســـيس الأزسيســـي جـــاء إلى مصر وقابل الســـلطان الكامل وحاول أن يقنعه باعتناق المسـيحية، ولم يمسه السلطان بسوء، بل أكرمه حـتى عـاد إلى بلاده.

ولا أريد أن يأخـــــــــذني الســـــــــياق إلى اســـــتطرادات، وحسبي أن أقـــــول إن الكنيسة الأرثوذكسـية المصـرية لم يكن لها أي مسـاهمة في هـذه الإسـاءات؛ لأنها كـانت الوحيـدة الـتي تعــرفت على الإسـلام حقا، وكـان الإسـلام لها إنقاذًا وتحريرًا من الاضطهاد البيزنطي الذي أراد بكل طريقـــة تحويلها إلى مذهبـــه، فضلا عن أن الكنيسة الأرثوذكسية عاشت في رحاب الإسـلام من الأيام الأولى لظهور الإسـلام حـتى الآن. فلم يكن طبيعيًا أن تشـــترك في هـــذه المســـاخر. واقتصـــرت جهـــود التبشـــير على إرســـاليات بروتســـــتنتية وكاثوليكية أرادت بالإضـــــافة إلى تحويل المســـلمين إلى نصـــارى تحويل الكنيسة الأرثوذكسية إلى بروتستنتية أو كاثوليكية[19] وقد

---

19 **(19) وإن لم يحل ذلك دون وقــوع اســتثناء، وبين يدي كـتيب بعنـوان "هيا للعمـل"، وهو خلاصة مبـــاحث ومحاضــــرات في نصــــيب الكنائس الوطنية من التبشـير (مطبعة النيل المسـيحية سـنة 1930). وجـاء في مقدمته "منذ الجيل الماضي كانت القبعة في طليعة جيش الخلاص والآن دقت الســــــاعة ليأخذ الطربـــــــوش والعمامة مكانيهما في مقدمة الصـفوف ليكـون التبشـير من المصـريين، وبالمصـريين وللمصـريين، فـالوقت إذًا هو وقت الكنـــائس الوطنية لتجد قواتها المكانة وتـــبرز مالها من أســـلحة مختزنة الخ... كما جاء في كيفية تحويل المسلمين إلى نصارى "اعتقاد المسلمين في الله ينحصر في كونه إلها يطلب إلى الإنسان أن يحب أحبـاءه وأن يبغض أعـداءه، ولكن المسـيح أراده الله كما هو – إلها واسـعا القلب غفـورًا رحيما يطلب من الإنسان أن يحب أعـداءه وأن يضع نفسه**

وصلت هذه المحـاولات درجة من الإثـارة دفعت بأحد كبـــار قـــادة حركة التنـــوير في مصر وهو الدكتور: محمد حسـين هيكل للالتحـاق بالشـبان المســـلمين للمشــــاركة في جهودها لمناهضة التبشير.

ولكن هــذه السياسة تعرضت لتغيــير سيء عندما ظهرت مجموعة من أقباط المهجر جعلت رسالتها تسـفيه الإسـلام والتشـكيك في القـرآن والأخذ ببعض ما جاء في كتب التراث من سـقط القــــــول. وقد رأيت بنفســــــي على شاشة التليفزيـــون كاهنا قبطيا مصـــريا يرتدي ملابسه الكهنونية وهو يحــاول إثبــات وجــود تلاعب في القرآن.

وأشارت صحيفة الدستور إلى برنـامج "بـاك تــوك" باعتبــاره أفضل بــرامج بث الكراهية في العـالم. والتنديد بكل الأديـان وأن خُص الإسـلام بـالجزء الأكـبر. ويقـول "لو كنت مسـلمًا فاتكل على اللـــه.. فلـــدينا هنا باقة من أقـــوى غـــرف المسـيحيين اتبعني إلي غرفة "إذا كـان الله معنا فمن علينــا". ســتجد أنها غــير معنية بأي شـــيء ســـوى سب الإســـلام والمســـلمين، وتســـفيه عقائـــدهم، والتطـــاول على مقدســـاتهم ونسف محاسن دينهم، عنـدما دخلنا كـان مـدير النقـاش

لأجل الأخـوة (ص10) أفلم يعـرف الأخ آيـات القرآن التي تحض على العفو والصـفح؟ ألم يقل الرســول "صل من قطعك وأحسن إلى من أســاء إليــك". إن الله واحد أيها الســادة وليس خاصًـا بالمسـيحيين والمسـلمين. إنه إله الجميع.

(غير مصري) يتباحث في أوضاع المسيحيين في مصر وكيفية "الفلفصـــة" من قبضة المســلمين والقضاء والشـرطة والنظـام. يقـول سـيادته إن على المســيحي أن يتكلم ويــذهب إلى القضـــاء ويشكو؛ لأن يسوع سينصره، ولير كيف اسـتطاع "سي دي" مسرحية كنيسة مــارجرجس أن يولع النار في قلوب المسلمين، وعليك يا مسيحي أن تكـــون قويا عنيفا كالمســـيح (نص كلامـــه) حين قلب موائد الصــيارفة. أما إذا كنت خـــارج مصر فهو يتـــبرع لك بشـــرح أنجح الطـــرق لضــــرب الإســــــلام!! لو كنت في دولة أوروبية فلتجلب لافتة وتكتب عليها المســــلمون يضـــــربوننا في مصر ويحرقـــون كنائســـنا ويســـتبيحون نكـــاح الأطفال. ولتقف بها أمام السفارة.

وعرض موقع "إيلاف" في 5 نوفمــبر 2005 ثلاثة أو أربعة صفحات للأستاذ مجدي خليل الذي أطلق عليه البعض "أمير الجماعة" تحت عنــوان لمــــاذا بكي البابا شـــنودة. حشد فيه ركامًا من الأكـاذيب والادعـاءات الـتي لا يصـدقها أي واحد لديه أقل معرفة بوضع الأقبـــــاط، ولكنه يتوجه للأمريكيين أو الغرب الذين لا يعلمـون شـيئًا عن مصر.. ومما جاء في كلامه:

والسؤال لماذا بكى البابا شنودة؟

بكي البابا شـــــنودة على العنف الموجه ضد الأقبـاط والـذي كـان هو شـاهد عيـان عليه منذ حادثة السويس في 4 يناير 1952، والذي قامت به جماعة الأخـــوان المســلمين، حيث تم حـــرق عـدد من الأقبـاط بشـكل بربـري والطـواف بهم

في الشـــوارع وإلقـــائهم في إحـــدى كنـــائس السـويس وإشـعال النـار فيها[20]، إلى حـوادث التخريب والنهب التي حدثت في الإسكندرية في الحـادي والعشـرين من أكتـوبر الماضـي. **وقد قام مركز ابن خلـدون برصد الاعتـداءات على الأقبـاط من حـادث الخانكة 8/9/72 إلى أحـــداث الإســكندرية 21/10/2005 في أكــثر من 120 اعتــداء، منها مــذابح مروعة مثل الزاوية الحمـــــــــراء "قتل حوالي مـائتي قبطي "، ديـروط " قتل 20 قبطيـــا"، " 40 قبطيـــا رفضـــوا دفع الجزية في المنيا فقتلـوا"، الكشح "قتل 21 قبطيا"، كنيسة أبو قرقاص "قتل 13 قبطيا" ... الخ من الاعتداءات الآثمة.**

لقد دفع الأقباط المسـالمون حـوالى 4000 قتيل وجريح خلال العقود الثلاثة الماضـية بـدون سبب سوى لكونهم مسيحيين، هذا بالإضافة إلى تخـــريب ونهب ممتلكـــات بعشـــرات الملايين وممارسة التهجـير القسري لخلخلة الصـعيد من الكثافة القبطيـة، بالإضـافة إلى تطفيش مئـات الألوف للهجرة للغـرب حيث الحريـات والفـرص المتكافئة.

وطوال هذه العقود كان التضـليل والتـدليس هو سيد الموقف فيما يتعلق بوصف الأحداث في

---

20 **(20) لو كـان هـذا المخلـوق يعـرف التـاريخ لعلم أن هـــذا هو ما فعله الرهبـــان – بـــأمر البطريـرك – في الفيلسـوفة اليونانية هيباتا سنة 415م.**

الإعلام المصـري، مثـل: فتنة طائفيـة، احتقـان طائفي، أحداث مؤسفة، اشتباكات متبادلة، نزاع وشـجار، صـدامات بين المسـلمين والأقبـاط، أحـــداث عنـــف، التحـــريض من الطـــرفين، المتطـرفين من الجـانبين، وذلك رغم الوضـوح الكامل أن هـذه الاعتـداءات من طـرف واحـد، وأنها تمثل جـــرائم ضد القـــانون تصل إلى حد الفعل الإرهابي الجماعي".

ويمضـــي الكـــاتب في أكاذيبه طـــوال ثلاثة صفحات، ليس فيها كلمة واحدة صحيحة بما في ذلك الإحصـاء الـذي قـام به مركز ابن خلـدون، ولم يرد به هذه الأرقام المفزعة، بل إن الإحصاء الـــذي أورده هو نفسه لا يجـــاوز ثلثمائة من أين جاء بـ "4000؟!" ولا يمكن لأي مصري، مسـلمًا كـــان أو يهوديـا، أن يفعل ما ادعـاه من حـرق أقبـاط والطواف بهم في الشوارع في السويس.

إن جريـــدة الدســتور (16/10/2005 ص7) في صدد تنديدها بالفتنة الطائفية قـالت: "الـدنيا مولعة بين المســـيحيين والمســـلمين بســـبب مسرحية، وقبلها ولعت في المـرج بسـبب سـور (تقصد الخانكـة)، في خمس سـنوات سـقط 97 قـــتيلا في معـــارك بين مســـيحيين ومســـلمين وبيقولوا الوحـدة الوطنية لسـه بخـير، فالجريـدة استعظمت أن يسـقط من المسـلمين والأقبـاط 97 في خمس ســـــــنوات.. وهو رقم بعيد عن

المئات الـتي رصـها الكـاتب رصا ثم جعلها أربعة آلاف.

ولا يمكن تعليل إصدار مثل هـذه الافـتراءات إلا بالرغبة في تعميق الخلاف واسـتعداء القــوى الأجنبية الــتي يعيش هو وبضـــعة من أمثاله في ظلهـا، ويجعلهم في منزلة العملاء الجهلة الـذين يتصورون الدفاع عن الأقباط وهم يسيئون إليهم وإلى بلدهم، وإلى أنفسهم لو كانوا يعقلون.

* * *

ونشرت مجلة ليمـان laymam مقـالا بقلم باركر. ت. وليمسون في العددين 23 و24 يوليو لسنة 2002 استفتى معلوماته من أحد مهاويس الأقباط يدعى وحيد مرقس كما لو كـان مصـدرًا لا يـــرمى له الشـــك. فنقل ما قاله "إن العـــرب اكتسحوا شعبنا كسحابة من الجراد وأن ما حدث للأقباط عند الفتح الإسلامي يشبه ما تعرضت له الإمبراطورية الرومانية على يد البرابرة.

وظل هـذا الوحيد مــرقص يكــرر أن أســرته تعود إلى الفراعنة ولا تقولوا إنى أتكلم العربيــة. إنى أتكلم المصرية!.

وقـــال بعض النـــاس يظنـــون الإســـلام دين ســـلام، فلا تصـــدقوهم وانظـــروا إلى ما فعل الإســـلام في إندونيسيا وباكســـتان والســـودان والفليبين. إنهم يقتلـون المسـيحيين حيثما كـانوا وسـيقتلوننا في مصر لو تـوفرت لهم القـوة لأن القرآن يقول "اقتلوا الكفار".

وفي قرية الكشح في ينــاير 2000 قتل 21 قبطيا لأنهم قرعوا أجـراس الكنيسة يـوم الأحـد، وفي طرقات الصـعيد لا يـأمن أي قبطي يـركب سيارة من أن ينتزع من سيارته ويضرب ويسلب أو يقتل الخ...

ومن حسن الحظ أن رد على هـــــــــذه المؤتفكات عدد من أكبر رجال الدين المسـيحي في مصر، وقـــالوا لو أن المســلمين يقتلـــون المسيحيين فكيف تبرر وجـود الجاليـات الكبـيرة في كل الدول الإسلامية.

وآخر ما وافتنا به الأنبـــاء من هجـــوم على الإسلام هو ما قـامت به صـحيفة دنمركية يمينية من إجراءات مسابقة لرسم "محمـد"، وأشـارت جريـدة الأهـرام يـوم 13/12/2005 ص24 إلى "حملة مسمومة للنيل من الإسلام بدأتها صحيفة دنمركية حكومية برســوم عابثة جســدت خيــالا مريضــا لعقــول خاوية من معــنى العقيـدة، وقد وصل بها الأمر لدرجة تخيل شـكل خـاتم الأنبيـاء وسيد المرسلين في صـورة غـير بشـرية، لأحط الحيوانـات وأقـذرها، وتقـول الأهـرام إن رئيس الــوزراء الــتركي رفض مقابلة 11 سـفيرًا عربيا وإسلاميا للتباحث معه في هذا الأمر.

* * *

فى المدة القصيرة ما بين خطاب الســادات المدوي، وإجراءات سـبتمبر كـان السـادات فيها

مشـــــــــغولا – مهموما – يضع خططه لما بعد سـبتمبر دون أن يعلم أن المــوت يترصد لــه.. ليخطف روحه وهو يضع ملابسه ونياشـــــــــينه ويجلس في صدارة المنصة ليشهد الاحتفال بعيد النصر يـوم 6 أكتـوبر سـنة 1981م، وليتم هـذا بصـــورة ما كـــان ليتصـــورها أكـــثر المخـــرجين السينمائيين "براعة".

ذهب السادات.. وجاء مبارك وتهيأ الجو لعهد جديـــد، وأصـــدر مبـــارك قراراته بـــالإفراج عن معتقلي سـبتمبر واسـتقبلهم في قصر الرئاسـة، ثم بعد فـترة أصـدر قـرارًا بإلغـاء اسـتبعاد البابا وإعادته.

ويبدو أن البابا في سـنوات خلوته في الـدير قد تـبين أن سياسة التحـدي ليست هي المثلى، أو أنه لن يسـتطيع أن يتحدى مبـارك كما تحدى السـادات فلجأ إلى نـوع من الاعتـدال، وتقـدير الأمور تقديرًا قوميا، موضوعيا..

ولكن من المؤسف أن الجماعات الإسـلامية نشطت في هـذه الفـترة وضـربت السـياحة في مقتل، وحـــاولت اغتيـــال وزير الداخلية بعد أن اغتالت رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب، ثم دارت على الأقباط...

وجـاء في تقرير أصـدرته المنظمة المصـرية لحقـوق الإنسـان في الفـترة من 91 حـتى 97 "وصل عدد ضـحايا الإرهـاب إلى 1175 شخصًـا كان الأبرياء منهم، ممن لا يمثلون طرفًا مباشـرًا

في الصــراع بين الإرهــاب والدولة، 336 مواطنا مصريا بنسبة 29% من جملة الضحايا..

وكان من بين الضحايا البـالغ عـددهم 1175 عدد 96 مواطنًا قبطيًا بنسبة 8.2% من إجمالي ضـــحايا العنف وبنســـبة 28.6% من إجمـــالى الضــحايا الأبريــاء. بما يعني أن نســبة الضــحايا الأبرياء من المسلمين كانت هي الأعلى في هذه الأرقام.

وفى أغســطس 1998 وصل بلاغ إلى مركز شــرطة "دار الســلام" في ســوهاج يقــول "تم العثــور على جثة كل من" ســمير عويضه حكيم وكرم تامر سليمان أرسل، مصـابة بـأعيرة نارية في قطعة أرض زراعية بقرية "الكشـــح" التابعة للمركز، وحولهما أعـــــــيرة نارية فارغة وأوراق كوتشـــينة، والقـــتيلان "مســـيحيان" اســـتدعت الشرطة عددًا كبيرًا من النـاس لتسـألهم "بلغـوا حسب إحصاء الشرطة 25 شخصًـا، بينهم ثمانية مسلمين، اعترف الشاهدان عبــده ميخائيل ملك وياسر شهيد بما وقع من أحداث، ورويا ما جـرى حيث كانا موجودين في موقع الحادث، فالقتيلان كان يلعبان القمار "كوتشينة" مع القاتل شـيبوب وليم ســليمان أرســل... وقد حــدث خلاف بين شـــيبوب والقتيل الأول "ســـمير عويضه حكيم" فـأخرج شـيبوب طبنجة كـان يحملها بين طيـات ملابسه وأطلق النـار تجـاه سـمير فأخطأ الطلق وأصـــاب ابن عمه، وواصل الضـــرب حـــتى قتل

سـميـر.... وشـيبوب له ملف مليء بـالجرائم... حتى الآن لا توجد قضية اضطهاد للأقباط أو فتنة طائفيـة.. لكن الأنبا ويصا أسـقف البلينا خـرج بالأحداث إلى خارج مصر، ثم أثار موريس صادق الأمر لـدى بعض السـفارات الأجنبية، وأعـدت المنظمة المصرية تقريرًا حول الحادث كان مثار جـدل واسع بعد ذلك، جـاء فيه بـالنص "قرية الكشح بل الإبراشية كلها لا توجد بها أي خلافات بين المسلمين والمسيحيين نهائيًـا، وهـذه القرية بالذات تعداد المسيحيين بها كبير جدًا، ويعيشون في سـلم كامل مع إخـوانهم المسـلمين، أي أن القتل جريمة عادية وليست سياسـية". وكـان تقرير المنظمة بنـاء على فـاكس وصل إليها من مـوريس صـادق - رئيس مركز الوحـدة الوطنية لحقـوق الإنسـان - والـذي نشر تقرير المنظمة بعد ذلك على شـبكة الانـترنت بـاللغتين العربية والإنجليزية يـوم 28/9/98 وتلقفت التقرير الصحف العالمية ونشرته في صورة مثـيرة رغم المعلومـات الـتي تخـالف الحقيقة في هـذا التقرير.

وأحـداث الكشح لا تختلف عن غيرها من الأحـداث الـتي تتلقفها الصـحافة الغربية لإثـارة الفتنة الطائفية في مصر، وكمثـال فقد تحـول هـذا الحـادث العـادي الـذي وقع في الكشح إلى موضـوع اضـطهاد للأقبـاط، وذلك بعد وقوعه بفترة – ليست قصـيرة – تجـاوزت الشـهر حيث وقع الحـادث في 14/8/1998 وتم الـترويج

للحادث أنه فتنة طائفية في أكتــوبر 1998م من خلال موضــوع كتبته كريســتين لامب، الصــحفية بالصنداي تلجراف البريطانية، وقد لعب موريس صادق المحامي دورًا في إثارة القضية بنــاء على شكوى للأنبا ويصا دون أن يتحرى الحقيقــة، وتم الاتصال بوســائل الأعلام الغربية الــتي اســتمدت معلوماتها من مــوريس صــادق وأمثالــه، دون أن يتحققــوا؛ لأن هــذه المعلومــات تضــمنت أســماء القتلى وما لجأ إليه البوليس من تعذيب الشهود، وفي هذه المعلومات شيء من الحقيقة، كما أن فيها أيضًا مبالغات عديدة.

ويبدو أن الشرطة خلال استجوابهم للشــهود والمتهمين لجــأوا إلى الأســاليب المعهــودة الــتي يمارســـــــونها مع من يلقي الحظ التعس به بين أيــديهم، وأن هــذا عــرف وأدى إلى إعطــاء هــذا الحادث أهمية خاصة، لأنه كان السبب في تدخل خـــارجي فريد ومبتكر، فهنـــاك تقرير من مكتب نتينياهو – الذي كــان وقتئذ رئيس حــزب الليكــود الحـــاكم، وهنـــاك مقاله في صـــحيفة الصـــنداي تلجراف المملوكة لليهــودي المعــروف "مــردخ"، وهناك تدخل صريح لم يسبق له مثيل أخذ شكل ثلاث رســائل من أحد أعضــاء مجلس اللــوردات إلى محافظ سوهاج مباشرة لا يقتصر على إبداء القلق أو الأسف المعهـــــــود في المراســـــــلات الدبلوماســـية، بل هو يتقـــدم بـــأوامر معينة من تحقيق أو إفـــراج أو معاقبة، ويهـــدد بشن حملة دولية ضد الســـياحة في مصـــر، وهو ما ينم عن صلته بالعناصر القبطية التي وجهته هذه الوجهة،

ويخـاطب محافظ سـوهاج مباشـرة ويصـدر إليه الأوامر كما لو كان رئيسه.

وفيما يلي نص الخطابات الثلاثة[21]:

(1)

من البروفسور لورد ألتون أف ليفربول

إلى السيد محافظ سوهاج

23 سبتمبر 1998م

اكتب إليك عن القبض والتحفظ على ألف قبطي بواسطة البـوليس في قرية الكشح – دار السلام وكان سبب ذلك مقتل اثنين من الشـبان المسيحيين سمير عويضه حكيم 25 سنة – كـرم تامر أرسل 27 سـنة – ولقد أخـبرت بـأن القتلة معروفين للشرطة... وهم مسـلمون وأسـماؤهم عبد الله دسـوقي حسن وحسن دسـوقي حسن وممدوح فـاروق إسـماعيل وعـادل عبد الظـاهر صديق وبهاء كحول سيد.

وقد عُذب كثـير من المسـيحيين في محاولة لإجبـــارهم على الاعـــتراف بالقتل الـــذي لم يرتكبوه... وأنا من جانبي مهتم جـدًا بـأن الجهـاز لــديك لم يأخذ خطــوات فعالة لمعاقبة ضــباط

---

21 **(21) نقلا عن كتـاب: أقبـاط مصر في ثلاثة عصور. تأليف: شعبان خليفـة. دار أخنـاتون. من ص62 إلى ص88. وقد اعتمـــــدنا عليه فيما يتعلق بحادثة الكشـح، وهنـاك روايـات أخرى لها.**

الشرطة المسئولين عن هذا الاضـطهاد الخطـير للمسيحيين.

وفى هــذه الأثنــاء، في محـــاولتهم لتغطية الخطأ الــذي ارتكبــوه – فلقد قـامت الشــرطة بإلقـــاء القبض على المســيحي شـــيبوب وليم واتهمته بقتل كرم تامر – ولقد أخبرت بأنه حـول إلى المحــامى العــام بعد تعذيبه بقســوة حــتى يعــــترف بجريمة قتل لم يرتكبها – وبـــــرفض شـيبوب الاعـتراف تم التحفظ عليه لأربعة أيـام لمزيد من الاسـتجواب، وعنـدما بـدأ الاسـتجواب مـرة ثانية – لم يسـمح له بوجـود محـامي أثنـاء الاســتجواب. ولقد ألقى البــوليس القبض على ثلاثة شـبان آخـرين ليـدلوا بشـهادة مـزورة ضد شيبوب... ولقد ربط السيد/ عبــده ميخائيل ملك بالنافــذة بثلاث سلاسل في الأقــدام وعرضــوه لعذاب شديد حتى يـدلي بشـهادته ضد شـيبوب، والشخص الثـالث السـيد/ أيـوب حنا، قبض عليه وتعــرض لنفس نــوع العــذاب ورفض أن يــدلي بشهادة مزورة ضد شيبوب.

وإني أطالبك أن تتــدخل ســريعًا في هـــذا الموقف الحــزبي قبل أن يضــار أنــاس أكــثر، ولتأكيد أن كل ضـباط الشـرطة الـذين اشـتركوا في التعذيب قد عوقبـوا – وأن القتلة الحقيقـيين للاثنين الأقباط قد تم القبض عليهم.

وأي محــاولات أخــرى من جــانب الشــرطة لتغطية أنفسهم سيؤدي إلى مزيد من السـلبيات

في المجتمع الــدولي تجــاه مصر – وتزايد كبــير في مقاطعة السياحة المصرية.

لورد التون أوف ليفربول

(2)

من البروفسور اللورد أوف ليفربول

إلى محافظ إقليم سوهاج

14/10/1998

سيادة المحافظ

أكتب لسيادتكم مرة ثانية بخصــوص احتجــاز وتعذيب حــوالي ألف مســيحي بقرية الكشح في إقليم سوهاج... وإنني أخص بهذا البوليس الــذي تقع عليه مسئولية إهدار حقوق الإنســان، وعــدم معاقبة المســئولين الحقيقــيين بل لقد تجــاوزوا واتهمـــــــوا... ويصا – مطـــــــران البلينا، والأب انطونيـــــــــوس، والأب شـــــــــنودة تحت بند 145،201،171،98،86 قـانون العقوبـات، ولقد كـــان هـــؤلاء القساوسة يحـــاولون أن يقولـــوا الحقيقة ويبحثـــــوا عن العدالة، فما كـــــان من السلطات المصرية إلا أن تتهم هؤلاء القساوسة بأعمـــال إجرامية وأنها لدلالة واضـــحة على أن الحكومة المصرية نفسها تتجه للتفرقة واضطهاد المســيحيين، ولم يكن اضـطهاد المســيحيين في قرية الكشح من قبل بعض رجال البوليس ولكن بمســاعدة الحكومة المصـرية – وبهـذا التصـرف

فإن الحكومة المصرية تحاول تهديد رجال الدين المســــــــيحي، وذلك باتهاماتها ضد القساوسة وتحـــاول أن تمنعهم من التعبـــير عن رأيهم ضد الاضطهاد الديني والتفرقة العنصرية.

ولو كـــــانت الحكومة المصـــــرية تهتم حقًا بالمســـاواة في المعاملة لكل المواطـــنين بغض النظر عن دياناتهم فيجب أن تؤكد أن الخطـوات التالية ســـتؤخذ بجدية وبصــــفة عاجلة، وهــــذه الخطوات هي:

1- إطلاق شــــيبوب وليم أرسل من الســـجن وإسقاط الاتهامات الباطلة ضده بالقتل.

2- القبض على قتلة سمير عويضه حكيم وكرم تامر أرسل الحقيقـيين وهـؤلاء القتلة يـزعم أن يكونوا مسلمين مصريين.

3- يعـاقب جميع ضـباط البـوليس المسـئولين عن احتجاز وتعذيب المسيحيين.

4- يعــــوض كل المســــيحيين الــــذين أسيء معاملتهم بواسطة البوليس.

أشكركم لاهتمامكم – وأتمنى أن تنتهي هـذه المظالم.

المخلص التون

(3)

سيادة المحافظ

لقد علمت بأنكم ضغطتم على الكاهن ويصا بسـبب رغبته للإفصـاح عن الظلم الـذي يواجهه شعبه – والأكـثر من ذلك أنه قد وقع عليه اللـوم لإشارتي أن السياحة في مصر قد تأثرت بسـبب حادثة الاضــــطهاد الــــديني – وأريد أن أؤكد أن المطران ويصا لم يـثر أبـدًا موضـوع السـياحة – وأؤكد بجدية أنني سـأقوم بمتابعة حملة ممتــدة ضد الســــــياحة في مصر إن لم تتحقق العدالة للمسـيحيين بسـوهاج سـريعا... وكـذلك فـإنني استشـير زملائي في الكـونجرس الأمـريكي عن إمكانية انضــمام الولايــات المتحــدة وبريطانيا لحملة ضد السياحة في مصر.

وعن فكـــرتي بالنســـبة للســـياحة لم تكن لتحـدث، ولكن خـاب أملي في تصـرف الحكومة في شـئون سـوهاج – فبـدلا من معاقبة رجــال الشــرطة الــذين كــانوا مســئولين عن تعــذيب المسيحيين في سوهاج فإن السلطات المصـرية قد ألقت التهم على ثلاثة من القساوسة بما فيهم المطـران ويصا، وحاليًا تحتجز ثلاثة أقبــاط في الحجز – والثلاثة أقبــــــاط المحتجزون هم: شيبوب وليم أرسـل، عبـده ميخائيل ملاك، ياسر شـهيد علام... ولقد عـذبوا عبـده ميخائيل ملاك، وياسر شـهيد علام؛ ليجبروهما على إقــرار بــأن شــــيبوب قد قتل اثــــنين من الأقبــــاط، وعند

محـــــاولتهم ســـــحب إقـــــرار التهم بعد إطلاق سراحهم تم احتجازهم ثانية.

وأؤكد لكم بــأنني أتــابع الموقف عن قــرب وتــبينت قليلا من الصــدق والإخلاص من جــانب السـلطات المصـرية في الحصـول على العدالة للمســـيحيين المضـــطهدين، بل لقد أســـاءت السلطات المصرية معاملة أقباط أكـثر وهـددت المطـران ويصا وقساوسـته في محاولة لإخفـاء أخطــائهم. وإنــنى لأحث الســلطات المصــرية بالآتي:

1- إطلاق سراح شايبوب وليم أرسل.
2- القبض على القتلة الحقيقـــيين للأقبـــاط الاثنين.
3- إطلاق سراح عبده ميخائيل ملاك – وياسر شهيد علام اللذين عذبا ليدلوا بــأقوال ضد شايبوب.
4- معاقبة كل ضــباط البــوليس المســئولين عن اضطهاد المسيحيين في سوهاج.
5- تعـويض كل المسـيحيين الـذين احتجـزوا وعـذبوا في هـذه الحادثة وإنـنى أعلم بأنه إذا كان لدى حكومتكم الرغبة السياسية... فسوف تؤكـدوا وبسـهولة على تنفيذ هـذه

المطـــــالب. وإنني أؤكد أنه كلما طــــال انتظــار العدالة للمســيحيين في ســوهاج كلما كـان الأكـثر احتمـالا أن يكـون هنـاك حملة دولية ضد السياحة في مصر.

الم

خلص

ديفيد التون (3/10/98)

Professor the Lord Alton of Liverpool

House of Lords
London SW1A 0PW

FROM PROFESSOR THE LORD ALTON OF LIVERPOOL
TO THE GOVERNOR OF SOHAG PROVINCE

OCTOBER 30TH 1998

Your Excellency,

I am extremely concerned to learn that you have been putting pressure on Bishop Wissa because of his willingness to speak out against the injustices which his people have been facing. Furthermore you have blamed him for my reference to Egyptian tourism being affected by this incident of religious persecution. I want to stress to you that Bishop Wissa never raised the issue of tourism. that was my idea **and I am seriously considering pursuing an extensive campaign against Egyptian tourism if justice is not done for the Christians of Sohag soon.** I am also consulting with my colleague in the United States Congress about the possibility of a joint U.S-British campaign against Egyptian tourism.

This idea of mine regarding tourism is not one I have come to lightly. But I am extremely disappointed with the Egyptian government's conduct in the Sohag affair so far. Instead of punishing the police officers responsible for the persecution of the Christians in Sohag the Egyptian authorities have charged 3 priests including Bishop Wissa and presently keep 3 Copts in detention. The 3 detained Copts are Shaiboob William Arsal, Abdu Mikhail Malak and Yasser Shahid Allam. Abdu Mikhail Malak and Yasser Shahid Allam were tortured to make them make statements accusing Shaiboob of the murder of the 2 Copts. When they tried to withdraw their statements after they were released they were simply detained again. I can assure you that I am monitoring the situation very closely and have so far seen little sincerity on the part of the Egyptian authorities in obtaining justice for the persecuted Christians. Instead the Egyptian authorities are mistreating more Copts and threatening Bishop Wissa and his priests in an attempt to cover up their mistakes.

I urge that the Egyptian authorities: 1) Release Shaiboob William Arsal. 2) Apprehend the real murderers of the 2 Copts. 3) Release Abdu Mikhail Malak and Yasser Shahid Allam, both of whom were tortured to make them give statements against Shaiboob. 4) Punish all the police officers responsible for the persecution of the Christians in Sohag. 5) Compensate all the Christians who were detained and tortured in this incident.

I know that if your government has the political will, they could easily ensure that the above measures are taken. Let me assure you that the longer that we have to wait for justice for the Christians of Sohag, the more likely that there will be a strong international campaign against Egyptian tourism.

Yours sincerely,

David

Professor The Lord Alton of Liverpool

النص الإنجليزى لرسالة اللورد الثانية لمحافظ سوهاج

out 1000
l that not
rights not
l Father
86, 98,

for their
is charge
it the
d
secution
of some
upport of
priests that
stop them

all its
ing action
detention
derers of
ged to be
e for the
who were

ave

فى هـذا الفصل الحـزين من فصـول "الفتنة الطائفيـــة" يحتمل أن تكـــون المبـــادأة فيه من بعض عامة المسـلمين، رغم أن الحـادث تم بين قبطـيين، أما المعاملة السـيئة من البـوليس فهو الأســــلوب العـــــادي بكل أسف وقد عـــــانى المسجونون من الإخوان المسلمين أضعافه.

إن هـــــذا الحـــــدث رغم أنه أدى إلى قتل مسيحيين، واضطهاد كاهن اتسم بدلالات إيجابية للغاية، فالبابا شنودة الـذي حـرك أقبـاط المهجر في عـــام 1977 ضد الســادات وحـــاول تحديه، نشر مقـــالا في الأهـــرام في 6/5/1998 تحت عنـــوان **"لا أحد يمنع إقامة الكنــائس في مصر، ونحن لا نقبل تـــــدخلا خارجيا في شئون بلادنا"** نفى فيه بشـدة وجـود اضـطهاد من الحكومـة، وأن عملية بنـاء الكنـائس قائمـة، وأن الــذين يقومــون بمهاجمة الأقبـاط هم أصلا متمـــردون خـــارجون على الدولة، وقد اغتـــالوا رفعت المحجوب رئيس مجلس الوزارة، وحاولوا اغتيال نجيب محفوظ، وكل هؤلاء مسلمون، كما اغتـالوا كاتبًا مسـلمًا هو د. فـرج فـوده. وقـال: "ونحن لا نعتـــبرهم جماعـــات دينية وإنما مجـــرد خونه وقتله يقـــدمون للمحاكمة على جـــرائمهم ويعـاقب بعضـهم بالإعـدام. وبهـذا أقـول: إنهم لا يمثلون المسلمين.

وكتب الأســـتاذ ســـعيد ســـنبل في الأخبـــار 4/5/1998 كلمة تحـــــدث فيها صـــــديق له من رجال الأعمال يدعى يونس بشارة وجده يحتفظ

بخطاب من القس كالفن باتس بتاريخ 31/3/98 يعـــبر فيها عن ســـروره بلقائه مع وفد ممثلي كنــائس نيويــورك الــذي زار القــاهرة لمعرفة حقيقة العلاقـات بين المسـلمين والمسـيحيين، وروى له أن هــذا القس كــان جــاره في حفل عشاء فسأله: هل صحيح أن هناك مصـنعا يملكه رجل أعمال مسـيحي اسـمه منـير غبـور احـترق منذ شهور؟ أجبت نعم.

وعــاد يســألني: وهل صــحيح أن شــركات التـأمين في مصر تـرفض التـأمين على مصـانع المسـيحيين! قلت له بدهشـة: من قـال لك هـذا الكلام السخيف؟ إن هذا الكلام غير صـحيح على الإطلاق، والـدليل أن منـير غبـور يـرأس شـركة تــأمين ويملك فيها نصــيبًا كبــيرًا، وهنا ظهــرت الدهشة على وجه جـاري وقـال هـذا ما قيل لنا في نيوريــــول قبل مجيئنا إلى القــــاهرة، إنني أشكرك لأنك صححت لي مفاهيم خاطئة!.

وأثنـاء العشـاء علم لـويس بشـارة أن الوفد عقد لقـاءات مختلفة مع بعض المسـئولين وغـير المســئولين، ولكنه لم يلتق بالنــاس العــاديين.. واقـترح عليهم زيـارة مصـانعه في 10 رمضـان حيث يعمل المئـــات من العمـــال والمـــوظفين المسلمين والمسـيحيين... ورحب وفد الكنـائس بالاقتراح.

وفي اليــوم التــالي توجه أعضــاء الوفد إلى مدينة العاشر من رمضـان وتجولـوا في المصـنع

وتحـــدثوا مع العـــاملين، ثم زاروا دار الحضـــانة المخصصة لأبنــاء وبنــات العــاملات، ثم تفقــدوا الوحــدة الصـحية، وفي كل موقع كـانوا يقفـون ويســألون، وفي نهاية الجولة أدركــوا أن الجميع مسلمين ومسيحيين لهم نفس الحقـوق، وعليهم نفس الواجبـــات بغض النظر عن انتمـــاءاتهم الدينية، والعقائدية وأن الادعاء باضطهاد الأقبـاط في مصر هو ادعاء كاذب!.

وأقـــول: من المؤكد أن مصر تتعـــرض في هـــذه الأيـــام لحملة مغرضة من الافـــتراءات والادعاءات الكاذبة التي تدعي اضطهاد الأقبـاط، وهي حملة تـــروج لها الـــدوائر الصـــهيونية في أمريكا بالاشـتراك مع بعض الجماعـات الضـالة، الــتي تطلق على نفســها وصف أقبــاط المهجر، وهي أبعد ما تكون عن تمثيل أقباط المهجر.

وكتب القبطي البارز: سعد فخري عبد النـور مقالا في جريدة الوفد في 20/4/1998 بعنــوان **"نرفض التدخل الأجنبي في شئوننا"** جاء فيه "إن أقبـاط المهجر الـذين غـادروا البلاد منذ أكـثر من 30 عامًا، وتجنســوا بجنســيات الــدول الــتي يعيشـون فيها لا يمثلـون أبنـاء الـوطن من الأقباط في مصر.

فضلا عن أن بعض الجمعيـات الـتي أنشـئت في الـــوطن الجديد ســـواء من قبيل الحـــنين أو التعاطف مع باقي أفراد أسرهم تستغل سياسيًا، ومعـــروف أن ولاءها فضلا عن انتمائها أضـــحى للوطن الذي يعيشون فيه، إضافة إلى أن أحداث

الإرهاب الـتي تقع في بعض بلاد الريف تقع على المسـلمين والأقبـاط سواسـية، والجميع ضـحايا على قـدم المسـاواة... وبالتـالي ليس لأحد أن يتـدخل في شـئون مصر الداخلية على الإطلاق، إذ أن مصر اسـتقلت بفضل كفـاح أبنائها وهي حريصة على هـذا الاسـتقلال وهي لن تخضع لأي مؤثر خارجي يحرك شئونها ويثير شجونها..

وكتب الأسـتاذ: سـمير حنا صـادق - الـرئيس الأسـبق لأقسـام التحاليل الطبية بكلية الطب جامعة عين شـمس - في إبريل سـنة 1998 مقالا جاء فيه "إذا كان ما يقـال في الكـونجرس الأمريكي صـفاقة ما بعـدها صـفاقة، فـإن الـدور الذي يلعبه عـدد ضـئيل من الأفـراد الأقبـاط في المهجر يتراوح بين البلاهة والخيانة.

ولقد ترددت كثيرًا قبل أن أدخل في معـترك الحـوار حـول "مشـاكل الأقليـات" أو اضـطهاد الأقبـاط "أو الفتنة الطائفيـة" وهي جميعًا أجـزاء من نسـيج واحد له درجـات مختلفة من الألـوان، والسـبب في تـرددي هو ثقتي بـأن مجمع هـذه المشاكل هو حالة ذهنية يفتعلها مسـتغِل (بكسر الغين) لتحويل صـراع المسـتغَلين (بفتح الغين) عنه إلى صـراعات داخلية بين بعضـهم البعض، وأن كـثرة الحـوارات حـول الموضـوع قد تـوفر أحيانا وقودًا يزيد من حدة اشتعال هذه المشكلة المفتعلة.

ولكن المشـكلة عنـدنا قد اشـتعلت فعلا، ووصـلت إلى درجة لجـوء بعض الأقبـاط في

الخارج إلى ما يقــرب من الخيانة الوطنية بطلب العــون من قــوى خارجيــة، هي في حقيقة الأمر المنتفع الرئيســي من الفتنة الطائفيــة، بل وهي المسئول على مدى التاريخ القديم، بل والحديث عن اشتعال هذه الفتنة.

ومن ناحية أخــرى فــإن الكــاتب الصــحفي الإسلامي المعروف، الأستاذ: فهمي هويدي نشر في الأهــرام كلمة بعنــوان **"اعتــذار إلى كل قبطي".**

* * *

كان من الممكن أن تكون تلك نهاية ســعيدة لفترة محزنة، لولا أن "الرواية لم تتم فصولا"..

فقد ثارت قضـية السـيدة وفـاء قسـطنطين الـــتي أوصـــلت التحـــدي إلى أقصى درجاته، ونجحت الكنيسة ليس فحسب في أن تلـــــوي ذراع الحكومة، بل أن تجبرها على تحطيم المشروعية المصرية والمشـروعية الدولية أيضًـا وتظفر بانتصار مشئوم.

لقد تحير المستشار طـارق البشـري في أي خانة يمكن أن يضع تصــرف الحكومــة. إنه وهو الفقيه القـانوني الضـليع لم يجد خانة مشـروعة يضع فيها هـــذا التصــرف وهو يقـــول: "فهـــذه السيدة أسلمت، والشـواهد تـوقن بأنها صـحيحة الإسلام، فبأي شريعة وبأي قانون وضعي تســلم

هـــذه الســـيدة الفاضـــلة الجليلة للمؤسسة الكنسية؟!!.

نحن فعلا نريد أن نعـرف بـأي قـانون جـرى هـذا الأمـر!.. إن القـانون الوضـعي الـذي نطبقه يعـرف الحبس. ويعـرف الحبس الاحتيـاطي بل والاعتقـال في ظـروف حالة الطـوارئ ولكنه لم يعرف أبدًا أن يمسك بإنسـان ويسـلم لآخر ليس وليا عليه ولا قيمًا!.. بهذا الوضع "صـيرت الإدارة الكنســـية نفســـها واســـطة بين الدولة وبين مواطنيها فلا تصل الدولة لبعض مواطنيها تعـاملا ومخاطبة إلا عن طريق الإدارة الكنســية الــتي تســتطيع أن تحجب رعاياها عن الدولــة.. وهــذا وضع لا أقول إنه غير قانوني فقط ولكـني أقـول إنه غــير دســتوري أيضًــا لما به من تميــيز بين المواطنين على أساس طائفي.. أي أن الدولة لا تملك أن تتنازل عن سيادتها وتقبله".

النقطة الأكـثر خطـورة أن الإدارة الكنسـية هي من طلب، أي هي من أصدر القرار الأصلي، وأن أجهزة الدولة قامت بالتنفيذ، وأن المؤسسة الكنسـية أعلنت أن هـذا الوضع سيسـتمر، فـأي قبطي يريد أن يغـير دينه يكـون على الدولة أن تقبض عليه وتسـلمه للكنيسة ثم لا نعلم من بعد عنه شـيئًا!.. من هنا نفهم سر الهجـوم الكـثيف الذي يشنه بعض رجال المؤسسة الكنسـية على أجهزة الأمن والإدارة المحلية وأجهزة أخرى في الدولة.. قد يكـون في ممارسـات هـذه الأجهـزة

سـلبيات نعلمها، ولكن سـياق الأحـداث يظهر أن هناك نوعا من صراع الإرادات وراء هـذا الهجـوم المتتابع المستمر لتلين أجهـزة الدولـة.. والحـال أن إرادة الدولة لم تلن لأحد في مصر حتى الآن إلا للمؤسسة الكنسـية!.. إن الشـائعات ذكـرت في البداية أن هـــذه الســـيدة الجليلة مخطوفة رغم أنها كـــانت قد ذهبت إلى صــــديقتها تقيم عنـدها بإرادتها الحـرة، ويقـال الآن إنها تحـررت، رغم إنها في الواقع خطفت يــــوم ســــلمت للمؤسسة الكنســـية رغما عنها، ولا تـــزال على وضعها هذا فهل مطلوب منا أن نقتنع إنها عندما كانت حرة كانت مخطوفة، وعنـدما خطفت فعلا ورسميًا وأمامنا جميعًا صارت حرة؟!!.".

إن أي سياسي انتهـــــازي لا يمكن أن يفخر بمثل هذا الانتصار وما يعنيه من نتـائج وما يجـره من عواقب. إن تدمير الشــرعية – ليس فحسب شــرعية الدولة - ولكن الشــرعية الدولية الــتي تقـرر حرية الاعتقـاد دون قيد أو شـرط هو ما لا يقبله أي واحد يعمل في المجــال العــام. ولــولا الارتبــاك الــذي تملك أجهـزة الحكومة لما كـان يجوز أبدًا أن يحصل ما حصل بالفعل.

في الأسـبوع الأخـير من شـهر أكتـوبر سـنة 2005 الذي كـان يصـادف الأسـبوع الأخـير أيضا من شهر رمضان – سرت بين أهالي حي محــرم بك في الإســكندرية شــائعة، هي أن مســرحية تمس الإســلام مثلت في كنيسة مــار جــرجس،

ومع أن المســـــرحية مثلت منذ عـــــامين وليلة واحــدة إلا أنها صـورت بالفيـديو ثم سـجلت بعد ذلك على اسـطوانات C.D، وظهـرت – بقـدرة قـادر – هـذه الاسـطوانات بين النـاس، ووزعت عليهم بحيث تأكد أن الموضــــــوع حقيقة وليس شائعة، فثار المســلمون وتجمع الآلاف منهم في أحد المســاجد القــريب من الكنيســة، وبــدءوا زحفهم طالبين الاعتذار عن هذا العمل القميء.. وأســـفر هــذا الصــدام عن قتل ثلاثة أشــخاص وإصــابة آخــرين، وحــدث هــذا بينما كــان البابا شــنودة يحضر إفطــارًا أقامه شــيخ الأزهر دعمًا للوحـدة القوميـة، ويبـدو أن البابا علم بما يـدور فلم يطـل البقـاء على غـير عادته في مثل هـذه المناسبات وخرج بسرعة.

واستأثر هـذا الحـدث بالصـفحات الأولى في أخبار كل الصحف ونشـرت صـحيفة العـربي في صــدر صــفحتها الأولى للعــدد 984 بتــاريخ 13 نوفمبر 2005م مانشت (الرعب الطائفي يجتاح الإسكندرية).

كما نشرت في العـدد نفسـه في الصـفحات الأخـــيرة تحت عنـــوان (عن مواجع وطن.. في المسألة القبطية). "تحدث الدكتور علاء الأسوان قــال: لقد قــرأت نص المســرحية الــتي أثــارت الضـجة مـؤخرًا في الإسـكندرية فوجـدتها تحمل فعلا إســاءة بالغة للعقيــدة الإســلامية، ولو أنها كتبت في دولة أوروبية لوقع صــــانعوها بلا شك

تحت طائلة القـانون.. والغـريب أن البابا أكـبر رمز في مصر للمسـيحية الـتي علمت العـالم أجمع قيمة التسامح.. قد رفض أن يعتذر أو حتى يوجه كلمة محبة لملايين المسلمين الذين أهينت عقيـدتهم ببشـاعة بواسـطة مسـرحية صـنعت وعرضت في الكنيسة التي يرأسـها، إن الكراهية تنتشر لتحـرق مصـر، ولن ينقـذنا منها إلا العـدل والحقيقة.

بقى أقباط المهجر، وهؤلاء هاجروا من مصر واجتهدوا ونجحوا في أعمالهم حتى صار صـوتهم مسـموعا في الغـرب فبـدأوا يطـالبون بحقـوق إخوانهم في مصر.. ولأن النظام في مصر، بقدر القمع الـذي يمارسه على مواطنيه حـريص على إرضـاء الولايـات المتحـدة بأي ثمن، فقد أصـابه فـــزع بـــالغ من أقبـــاط المهجر، مما أدى إلى ارتباكه وتخبطه في معالجة أحداث الفتنة. فمرة يمـارس النظـام عادته الأثـيرة في ظلم الأقبـاط ويقصر في حمـايتهم كمواطـنين كما حـدث في مذبحة الكشح البشـعة.. ومـرة أخـرى يجامل النظـام الأقبـاط كما حـدث مع المواطنة وفـاء قسـطنطين الـتي أعلنت إسـلامها ولجـأت إلى الدولة لتحميها فقـامت أجهـزة الأمن بتسـليمها إلى الكنيسة في خـــرق واضح لمبـــدأ حرية العقيـدة، وفي أحـداث الإسـكندرية الأخـيرة لم يمنع الأمن المظاهرات في بـدايتها بـرغم قدرته على ذلك، وقيل إنه حـــرض المتظـــاهرين، ثم

صدرت الأوامر فجأة باعتقـال مئـات المسـلمين الذين مازالوا محتجـزين حـتى الآن، ربما بغـرض إرضــاء الكنيسة أو خوفا من الإدارة الأمريكيــة.. ووصل التخبط إلى ذروته عنــــدما خــــرج كبــــار المسئولين ليؤكدوا أن المسرحية الـتي شـاهدها آلاف الناس وأقرت الكنيسة بعرضـها لم تحـدث أصلا، وأن الأمر كله لا يعـــدو مجـــرد تهيــؤات أصابت الصائمين في رمضان".

وجاء في موقع "المصـريون" على الإنـترنت بتـاريخ 22/10/2005 تصـدرت أحـداث العنف التي شـهدتها الإسـكندرية أمس الجمعة عنـاوين الصـحف المصـرية الصـادرة يـوم (السـبت).. وكـانت مظـاهرات عنيفة انـدلعت بسـبب رفض الكنيسة القبطية الاعتذار عن عـرض المسـرحية المسـيئة للإسـلام داخل إحـدى كنـائس منطقة غبريـال بالإسـكندرية.. ونجم عنها سـقوط قتلى وجـــرحى في اشـــتباكات مع الأمن في شـــوارع الإسكندرية.. الأزمة الطائفية المتصاعدة فرضت نفسها على الصحف التي أبـرزت أخبـار وتقـارير ومقالات تعلق على الحـدث السـاخن.. وأفـردت مجلة روز اليوسف ملفا كـــــاملا عن الأزمة في عددها الصادر اليوم... ، قدمت فيه رؤية متوازنة للقضـــية، حملت فيها جميع الأطـــراف (الحكومة والأمن والكنيسة والأزهر) المسئولية عن تفـاقم هـــذه الأزمة والأزمـــات المماثلة لها من قبـــل.. وفيما أقرت أصـوات قبطية بخطأ الكنيسة هـذه

المرة بسماحها بعرض المسـرحية داخل جـدران الكنيسـة، طـالب الـدكتور "جـرجس كامـل" في مقال بضرورة تجديد الخطاب الديني المسـيحي ومقاومة التطرف المسيحي.

فى جريدة المصـري اليـوم (نقلا عن "موقع المصـريون"ـ على الإنـترنت يـوم 22/10)ـ انتقد "حمـــدي رزق" الكنيسة القبطية في عمـــوده اليومي ـ فصل الخطاب ـ بقولـه: حادثة الكنيسة يجب ألا تمر هكـذا بسـهولة، فالمسـلمون هـذه المـرة هم الـذين يشـكون ويغضـبون ويطـالبون بالثــأر مع إحســاس مرير بتجــبر مزعــوم من الجـــانب القبطي، ورضـــوخ من جـــانب الدولة لمشـيئة البابا فخرجـوا للثـأر لرسـولهم بأيـديهم متجاوزين الدولة لأن في العقل الباطن والظاهر للمســـلم البســـيط الآن أن الحكومة لن تنصف مسـلما ولو كـان صـاحب حـق، وتعطي القبطي وإن لم يكن له أي حق، فقط لإرضاء الغــرب! لا يجب إهمال حادث تجييش ثلاثة آلاف مسلم من أمام مسجد واحد بصـيحة مسـلم متحمس للثـأر والتفكير في الهجـوم على دار عبـادة يـذكر فيها اسم الله، وهي حرام على المسلمين حرمة هذا الشهر الكريم، وهكذا أوصـانا النـبي الكـريم لا يجوز الاكتفاء ببيان المجلس الملي بالإسـكندرية الذي يتهم الصحف بالإثـارة فهـذا رمي بالباطـل، وغير كاف للدفاع عن كنيسة مارجرجس، وليس كافيا بــأي حــال لإطفــاء حرائق الفتنة الطائفية

التي تهدد عموم الإسكندرية، والمعلومات تشـير إلى إحبـاط مظـاهرة أخـرى أمنيا قبل الوصـول إلى الكنيسة المتهمة بعرض المسرحية.

في تصوري لا بد من بيـان بـابوي يزيل غصة المسلمين وليصحح بعضا من الـذهنيات المتعلقة بـــدور البابا نفسه في القضـــية. اعتقد أن هـــذه الطلة البابوية ستوفر أجواء مناسبة لاحتواء آثـار مظـــاهرة الكنيسة خاصة أن الـــ C.D الخـــاص بالمسرحية تتصدره صورة البابا رغم عـدم علمه بما تحويه الاسـطوانة، وطلبه التحقيق مع الكهنة المتـــــورطين في صـــــناعة الأزمة مع الأخذ في الاعتبـار بـأن المسـرحية وإن كـانت قديمة فالـــ C.D صدر حديثا وكذب البعض على البابا بشـأن محتواه.

وفي روز اليوسف كتب "أســـامة ســـلامة" مقـالا عن هـذا الموضـوع بعنـوان: (الفتنة قائمة لعن الله من يتجاهلهـا) قـال فيـه: "الجميع في مصر متهم ومدان بنسيان أو تناسي الفتنة الـتي أصـبحت تطل علينا كل عـدة شـهور.. وفي كل مـــرة ينتفض المجتمع ويطـــالب بإطفـــاء النـــار والبحث عن أسـباب اشـتعالها، وبعد أيـام تهـدأ الفتنة وينسى الجميع القضية دون أن ينتبهـوا أن النار مازالت مشتعلة تحت الرمـاد وتنـذر بحريق قادم ربما يكون أقـوى من سـابقه. والخـوف أن يـــأتي وقت لا يســـتطيع أحد الســـيطرة على الأحداث، وأن تمتد من مكان إلى آخر ووقتها لن

ينفع الندم. أحداث الإسكندرية الأخيرة أكبر دليل على تجاهل ونســــيان قضــــية الفتنة الطائفية وتعاملنا معها بطريقة عشــوائية. فــالجميع متهم ومــــدان.. الحكومة المعارضة والكنيسة والأزهر ومنظمـــات المجتمع المــــدني والمثقفــــون.. فالحكومة تعاملت مع الأمر وكأنه قضـية جنائيـة، واكتفت بأن الشرطة استطاعت السـيطرة على الموقف، ولم تكلف نفسها بإصـدار بيـان تشـرح حقيقة ما حـدث أمـام الكنيسة، وبعض الأقبـاط حاولوا إلقاء اللوم على إمام مسجد واتهامه بأنه وراء إثارة المصلين، رغم أن أقباطا آخرين قالوا إن الشـــيخ لعب دورا في تهدئة المتظـــاهرين، وبعضــــهم أشـــار بأصــــابع الاتهـــام إلى وزارة الداخلية، وأنها المحرك للأحـداث للحصـول على مكاسب سياســـية للنظـــام، وقـــالت الكنيسة والمجلس الملي في بيـــان أن المســــرحية تم تمثيلها منذ عامين، وتتساءل: ما الذي ذكرهم بها الآن؟ في محاولة لإلقـــاء اللــوم على الآخــرين وتتناسى وتتجاهل وجود "ســي. دي" يتم توزيعها وإذاعتها.. وحتى إذا اعـترف بعض المقـربين من الكنيسة بوجود الـ "سي. دي" فإنهم يقولون: إن المسرحية تتعرض للتطرف الإسلامي، ولا تمس العقيدة الإسـلامية في شـيء، وينسى هـؤلاء أن الكنيسة وبعض المســيحيين يرفضــون أي عمل فــني يمس المسـيحية أو التطـرف المسـيحي . ومنذ وقت قريب قـام 12 قسيسا بـإبلاغ النـائب

العـام ضد فيلم "بحب السـينما" لأنه - من وجهة نظـــرهم - يمس العقيـــدة المســـيحية، رغم أن الفيلم يتطـــرق لعائلة متطرفـــة، كما أن مؤلف الفيلم مسـيحي ولا أدري مـاذا سـيكون موقف الكنيسة أو هـؤلاء القساوسة إذا قـام مسـجد أو هيئة إســـلامية بإعـــداد فيلم عن التطـــرف المسـيحي أو أزمة الطلاق بين الأقبـاط، وكـان يجب على الكنيسة الاعـــــــتراف بخطأ الكهنة المشـرفين على المسـرحية، ومعـاقبتهم وإعلان ذلك وعدم الاكتفـاء ببيـان المجلس الملي الـذي لم يتعـرض من بعيد أو قـريب لخطأ كهنة كنيسة الإسكندرية.

وحصصت الأهرام على مدار أســبوعين 22-29/10 صـفحتين كـاملتين عـرض فيها الأسـتاذ: عـــزت الســـعدني كلام منـــدوبي البابا، وفي التحقيق الأول سأل الأستاذ: عزت منـدوبي البابا لماذا لا يعتذر البابا؟ فقال هؤلاء كيف يعتـذر وهو رمز!! وقـالوا في الثانية نحب أن نطمئن إخواننا المسلمين بالآتي:

1- البابا لم يعلم بالمسرحية إلا من الصحف.
2- الكنيسة المرقسـية لم تـأمر بتصـويرها ولم تباركها.
3- عبـــارة "بمباركة البطريـــرك" في أول الشـــريط من صـــنع المؤلف والمخـــرج

والكـــاهن.. وهم هـــاربون ومختفـــون عن الأنظار ولم يـأمر سـيدنا بإرسـالهم إلى دير السوريان كما نشرت صحف مغرضة!.

4- هنـــاك أيد خفية تلعب في الظلام وســـوف تكشف عنها التحقيقات.

5- لا يمكن أن يعبث أحد في العلاقة الأبدية بين الهلال والصليب.

وفى النهاية نسأل سؤالا واحـدًا ومحـددا: إذا كـانت كنيسة واحــدة قد أخطـأت من بين ثلاث آلاف كنيسة.. فلماذا نعـاقب كل الكنـائس ونضع الوزر كله حول رقبة أقباط مصر.

وذهبت (أي الأســتاذ عــزت الســعدني) إلى الــدكتور على جمعة - مفتي الــديار المصــرية.. أسأله لعلي أجد عنده ملاذا..

قلت لـــه: هل رأيت مســـرحية "كنت أعمى وأصـــبحت مبصـــرا" الـــتي عرضت في كنيسة محرم بك وتتداول الآن على شرائط C.D ؟

يقول فضيلة المفتي: نعم شاهدتها..

أسأله: وما رأيكم دام فضلكم؟.

يقـــول فضـــيلة المفتي: عمل سيء يسيء للإسلام والمسلمين، ويجب محاكمة كل من قام به وشـجعه وصـوره ووزعه على النـاس" انتهى تحقيق الأستاذ عزت السعدني..

ونشـــرت جريــدة الغد في عـــددها يــوم 26 أكتوبر سنة 2005 تحت عنـوان "لمـاذا لا يعتـذر البابـــا" أكد المستشـــار دكتـــور: نجيب جبرائيل - رئيس منظمة الاتحاد المصري لحقـوق الإنســان ونـــائب رئيس حـــزب الغد ومحـــامي الكنيسة - صـعوبة تنفيذ مطـالب الإسـلاميين المتشـددين باعتــــذار قداسة البابا شـــــنودة الثـــــالث بابا الإسـكندرية وبطريـرك الكـرازة المرقسـية عن عـــرض مســـرحية "كنت أعمى والآن أصـــبحت بصـيرا" داخل كنيسة مــار جــرجس بمحــرم بك بالإسكندرية قبل أكثر من عامين. وأشار الدكتور جبرائيل إلى أن اعتـذار البابا سـيفتح الباب أمـام المتطرفين من المسلمين والأقباط لاستغلال أي واقعة أو موقف غـــــير مقصــــود لمطالبة البابا شــــنودة أو فضـــيلة شـــيخ الأزهر محمد ســـيد طنطاوي بالاعتذار.

وأوضح أن الخطأ غير شخصي للبابا وقام به مجموعة من المسـيحيين دون الرجـوع للكنيسة الأرثوذكسية.

واتهم جبرائيل المتطـرفين بنسخ الـ "C.D" الأزمة وتوزيعها على المسلمين لإشعال الموقف واستغلال الأحـداث لصـالح التيـار الإسـلامى في الانتخابات البرلمانية.

ولا يحتاج القارئ إلى ذكاء خارق، فإذا كـانت كنيسة واحـــدة قد أخطـــأت فلمـــاذا لا تعـــاقب، ولماذا لا تصـدر البابوية المسـئولة عن الكنـائس

بيانا بذلك حتى ينال المسيء عقابه وتهدأ نــيزان الفتنة، والمفــروض أن الاعتــذار المطلــوب إنما ينصب على خطأ الذين قاموا بهذا العمل والوعد بالتحقيق ومجازاة المسئولين، وواضح بالطبع أن الخطأ غير شخصي للبابا، ولا أحد يطالبه باعتذار شخصـــي، ولكن البابا هو المســئول عن كل ما يحــــدث في الكنــــائس، وإلا فإنه لا يقــــوم بمسئوليته. وبدلا من ذلك يصدر البابا بيانا نشـره الأهرام يوم 23/10 يقول "كشف بيان المجلس الــذي يرأسه البابا شــنودة الثــالث ويضم ثمانية من رجـال الـدين المسـيحي وكبـار الشخصـيات القبطية العامة، أن المسـرحية المشـار إليها في الصحف المذكورة عرضت منذ عامين لمدة يـوم واحد داخل أســـوار الكنيسة ولم يرها مســـلم واحد، وكانت تتحـدث عن التطـرف ولم تتحـدث عن المقدسات الدينيـة، مشـيرا إلى أنها لم تـثر شــيئًا حين عرضت، ومحاولة إثارتها الآن يهــدف إلى تفتيت الوحدة الوطنيـة. ويسـأل البيـان، هل تـــترك الصـــحف الـــتي تثـــير الفتنة ويؤاخذ المسيحيون على مجـرد الشـائعات الـتي تروجها تلك الصحف بأن هناك إسـاءة للإسـلام، بينما لم ير أحد شـيئا؟ وعـاتب البيـان على المتجمهـرين إحـاطتهم الكنيسة والطـرق على الأبـواب بعنف وترديد شـعارات معاديـة، مما ألقى الـرعب في قلــوب المصــلين متمنيا ألا يكــون للانتخابــات القادمة دور في إثارة واستغلال تلك الأحداث.

وهــذا المعــنى هو الــذي أصــدره المجلس الملي للأقباط الأرثـوذكس بالإسـكندرية ونشـرة الأهــرام يــوم 21/10 وهو يقــول بــأن الكنيسة تحققت من أن المسرحية المشــار إليها عرضت داخل أسوار الكنيسة فقط في مكـان مغلق منذ عامين ولمـدة يـوم واحد فقط في إطـار محاربة الإرهــــاب في ذلك الــــوقت، وأن أثارتها حاليا محاولة لتفتيت الوحدة الوطنية، وأن ادعاء بعض الصحف بأنها تسيء للإسـلام ليس صـحيحا وإنما هو إثـارة للفتنة، فالكنيسة حريصة على احـترام جميع الأديان ومحبة الجميع.

الغـريب أن تقـول الكنيسة إن المسـرحية لا تسيء إلى الإسلام فهل هي أعرف بالإسلام من المفتي الــذي قــال عنها "عمل ســيء يســيء للإسـلام والمسـلمين، تسـتحق محاكمة كل من قام به ومن شجعه". وإصــرار الكنيسة يعني أنها لا ترى فيما جاء في المسـرحية إسـاءة للإسـلام في حين أن اســـمها وحــــده يكفي "كنت أعمى وأصــبحت مبصــرا"ـ أي أنه كــان أعمى عنـــدما اعتنق الإسـلام وأصـبح مبصـرًا عنـدما عـاد إلى المسيحية.

وإذا كان لنا أن نلوم الـذين تجمهـروا وثـاروا فعلينا أن نلوم الذين كانوا هم السبب.

لقد أشــار الأســتاذ فهمي هويدي في مقاله في 8/11/2005 بــالأهرام إلى أن الاعتــذار إلى الآخر من القيم النبيلة الــــتي اســــتقرت في

المجتمعـات المتحضـرة، وضـرب أمثـالا عديـدة لاعتـذارات تقـدمت بهـا الكنيسة الإنجيلية منـه، وقـال إنه عنـدما وقعت أحـداث الكشح وبدا لي أن خطأ المسـلمين أكـبر، كتب مقـالا في 11/1/2000 تحت عنـوان "اعتـذار إلى كل قبطي" وعـبر عن إعجابه بما كتبه الأسـتاذ: يوسف سـيدهم - رئيس تحرير جريـدة وطـني - في 31/10 تحت عنـوان (اعتـذار لكل مسـلم) وقال ما خلاصته إنه أيا كـانت الملاحظـات "على مسرحية الفتنة بالإسكندرية" فإنه يعتـذر بصـفته الشخصـية لكل مسـلم ومسـلمة عن أي جـراح تكون قد لحقت بمشاعرهم من جـراء ما حـدث. &&& **

وحلل المستشار طـارق البشـري في مقالة بمجلة الأسـبوع (21/11/2005) مضـمون ودلالات المسـرحية وسـكوت البابا، فقـال: "والمسرحية تتصدرها عبارة أن "نال هـذا العمل بركة صوت البابا الأنبا شنودة الثالث.." ثم عبارة "تم هـذا العمل تحت رعاية كل من أبونا أوغسطينوس فؤاد وأبونا أنطونيوس فهمي". ثم أسـماء كل من شـارك فيه وهم يعـدون بالعشـرات، فنحن هنا أمـام عمل صـادر عن الإدارة الكنسـية أو وافقت عليـه.. ولا نقـول إنها كـانت ذات موقف سـلبي منه؛ لأن الموقف السلبي لا يتيح بذاته فرصة إعداد عمل مسرحي تأليفًا وإخراجًا وإتاحة لمكـان تـدريب على

التمثيل، ثم التمثيل وحشد لعشـــرات الأفـــراد، وإدارة لهذا الأمر ثم تصويره وتسـجيله وإذاعتـه، نحن أمــام عمل جمــاعي، ويســتحيل أن تنتهك عقـول النـاس بـزعم أنه مجـرد خطأ فـردي من شخص لا نعرفه.

ثم يـــــرد بعد ذلك زعم مســـــجلي العمل ومذيعيه بأنه نــال "بركة صــوت" الأنبا شــنودة، وغبطة الأنبا شـنودة سـكت وامتنع عن التعقيب وعن التعليـــق، وأوكل إلى من دونه أن يثـــيروا الشـكوك في الأمر كلـه، حـول علمه بالعمل أو علم غيره من رجال الكنيسة، وحـول نص العمل ذاته وحول تأويل معانيه وحول حسن القصد من إثارته بـزعم أنه عمل ضد الإرهـاب فقـط، وقيل في تــبرير ســكوته إنه لم يعــرف بهــذا العمل ولا شـــاهده، وهـــذا إنكـــار ليس في إمكاننا أن نعـرف الصـواب بشـأنه، إنما أهم ما يهم هو أن هـذا العمل الـذي ينسب إلى غبطة الأنبا شـنودة أنه "نـال بركة صـوت" كما أنه مــورس وصــور بالكنيسة التابع لـه، وبحكم كونه مطـران كنيسة الإسكندرية، هذا العمل هل نال "بركة صوته" أم لا؟ ولا يملك نفي ذلك إلا هــــو، ولا يجــــوز أن يتشامخ ويتعالى على سؤال مواطنيه.

ولكن غبطته سكت ورفض مقابلة من طلب ذلك وأوكل الأمر إلى غـيره ونحن إذا كنا نعـرف أنه لا ينسب لســاكت قــول، فإننا نعــرف أيضًــا بذات الدرجة من الإدراك المطمئن أن السكوت بأوضــاع وملابســات كــان لابد معها من الكلام

وعمل المطلوب منه وأصر على السـكوت، رغم قدرته على البيـان، لكـان ذلك منه إفصـاحًا عن موقفه وعن إرادة معينــــة، فــــإذا كـــان العمل منســـوبًا لأحد أنه نـــال رضـــاه ثم ووجه بـــذلك وطلب إليه الإفصاح عن رفضه فلم يفعـل، فمن السـائغ للسـائل هنا أن يفهم من هـذا السـكوت أنه على الأقل سـكوت مقصـود به الامتنـاع عن التبرؤ عن هذا الموقف أو هذا العمل الذي صـدر من كنيسته، وتقول كنيسته أنه نال بركته.

في ظــني أن المســرحية عنــدما يقــال إنها نــالت بركته فقد صــارت عملا مباركًا بــدليل أن العمل مكتـــوب في مقدمته أنه نـــال بركة الأنبا شنودة، ثم يرد بعد ذلك "نال بركة هـذا العمـل.. كل من.." ثم تـــرد أســـماء العشـــرات الـــذين ســـاهموا فيـــه، ولعل غبطة الأنبا شـــنودة آثر الخــروج بالصــمت عن لا ونعم بالنســبة لهــذه المســرحية، حــتى لا يكــون إنكــاره لها بعد أن نسب إليه تبريكها هو مما تنجرح به قداسـته بين أتباعه، وهـذا التفسـير هو ما به يمكن اسـتبقاء حسن الظن في تأويل موقف غبطته، ولكنه حــتى مع هــذا التفسـير يكــون غبطته قد رجح كبريـــــاءه الشخصي عما ينفع الجماعة الوطنية عامة". انتهى..

***

وحاول البابا شنودة أن يدافع عن موقفه في أزمة الخانكة بــأن بيتنا للعبــادة انتهك، وأقباطًا اضطهدوا فهل المطلوب من الأقبـاط أن يكونـوا ميتين، ومرة أخرى هل من المطلـوب أن يكـون

الأقبــاط من النــوع الــذي لا يتــأثر ولا تتحــرك مشاعرهم إذا حرقت كنيسة أو قتل كاهن.

كلا يا ســـيدي، رغم المبالغة في التصـــوير. يمكن العمل للإصلاح ولكن ليس بطريق التحدي والمواجهة، خاصة وأن الــرئيس الســادات كــان رجلا منفتحًا، وكان يمكن للبابا شنودة أن يكسبه لو ســلك الطــرق الديبلوماســية ولكنه أراد أن يلعب دورًا بطوليًا وأن يحول الأزمة إلى معركة.

كــان يجب على البابا أن يلحظ أن القضــية الرئيسية ليست قضية حـوادث عـابرة، ولا حـتى مطـــــــــالب، ولكنها العلاقة الأبدية بين الأقلية القبطية والأغلبية المســلمة، وأن تكـــون علاقة مودة ومحبة واتفاق وتفاهم، وليست علاقة تـوتر وعداوة لأن هذا هو ما سيبقى دائمًا وما يؤثر في المســـتقبل، وقد حافظ أبـــاء الكنيسة القبطية السابقين على ذلك وحالوا دون حـدوث أي تـوتر وكفلـــوا اعترافًا ووجـــودًا للأقبــاط في المجتمع المصـــري ومع الرئاسة السياســية حـــتى جـــاء شنودة فقضى على كل هذا.

والبابا شـــنودة يكـــرر دائمًا أنه راعي، ومن شأن الراعي أن يتقدم الرعية التي تسير وراءه، الــراعي عمليا يســير خلف أغنامــه، ويلم شـعتها ولهــذا يمسك بعصا، أما أنه يســير أمامها فليس هو الراعي ولا فائدة للعصا، ولكنه القائد.. وعصا الـــراعي رفيعـــة، مرنـــة، "يهش" بها على غنمه، ولكن العصا الـــــتي يتمسك بها البابا شـــــنودة غليظـــة، قوية طويلـــة، كأنما هي صــولجان يرمز إلى القوة..

يماثل هـــــذا البعد عن القصد والاعتـــــدال والاحتفــال بالأضــواء وارتــداء الأثــواب الملونة واللامعة ووضع التاج الكبير.

ولمــاذا لا يــأتَمّ البابا بالســيد المســيح في سياساته وتصـرفاته ولبسه ومسـلكه وتعامله مع العدو والصديق.

إن خطورة هذا الحدث هو أنه كشف عن أن مشـــــاعر المســــئولين عن الكنيسة – وليس البطريــرك وحــده – تجــاه إخــوانهم المســلمين وتجاه الإسلام – بــاردة إن لم تكن مجافية، وأنها لم تســـتوعب حقيقة وضـــعها ولا دورها كأقلية وسط أغلبية كاسـحة من المسـلمين. وتُـرى هل اسـترد البابا شـنودة عافيته الأولى أيـام التحـدي ليقف موقفًا غثًا باردًا جافًا بعيــدًا - ليس فحسب عن المسئولية - بل أيضًـا عن العاطفــة.. هل لم يتعلم بعد الدرس.. سـواء من روح المسـيحية أو من ســلامة القيــام بــدوره. إن سياسة التحــدي بمختلف صورها ودرجاتها، سواء أكانت ضغطًا أو ســلبية لا تفيــد، بل تضر بمن يمارســها، لأنها لا تصــدر عمن يملك قــوة الحقيقة وقــوة الــدافع، والحقيقة والواقع أن الأقبــاط أقلية وسط أكثرية كاسحة مسـلمة، فلا يمكن لها أن تتحـداها، ومن الخير لها أن تقلع عن موقف التحدي..

الفصل السابع
خيار هدم المعبد

إذا كـان خيـار التعـايش الإيمـاني هو أفضل الخيـارات لكي تحقق المواطنة فـإن خيـار هـدم المعابد هو أسـوأها جميعًا، وهو يعـني إطـراح القيم الدينية كلها – مسـيحية أو إسـلامية وإقامة المجتمع على أساس "علماني" مدني يدور حول المصلحة كالمجتمع الأوروبي وبهذا يخلصون من الإسلام والمسيحية أيضًا أخذًا بمبدأ..

اقتـلاني ومالكا واقتلا مالكا معي[22].

وقد يكون عدد من يراودهم هذا الخيار أكـثر مما يبـدو؛ لأنهم قد لا يصـارحون بـذلك ولكنهم يتمنونه.

وقد لا يقتصر على أنه خيار "بعض" الأقبـاط ولكنه أيضًـا يمكن أن يضم "بعض المسـلمين" والقاسم المشـترك بينهما هو ضـعف أو انعـدام الإيمـان الـديني، ويغلب أن يكـون ذلك بتـأثير الماركسية، أو الانغماس في الحضارة الأوروبية، أو سـوء تكـييفهم للموقف ورغبتهم في الخلاص بأي ثمن.

---

22 **(22) قيل إن قائل هـــذا هو عبد الله بن الزبــير عنــدما دخل في مبــارزة مع مالك الأشتر، وكل منهما فارس مغوار.**

ولكن هـذا الخيـار – بالإضـافة إلى أنه سـيء فهو أيضًـا غـير ممكن – ولو في سـبيل التخلص من الإسلام – لأن الإسلام أعمق لدى المسلمين من "الوحـــدة القوميـــة" المزعومـــة، كما أن المجتمع المـــــدني قد يخسر الأقبـــــاط حقوقًا يتمتعون بها في المجتمع الإسلامي بحكم القرآن والسُنة ويضعهم تحت رحمة الأغلبية.

فهي صـــفقة خاســـرة في كل الأحـــوال، وكصـورة من المعالجة الخاطئة الـتي تمثل هـذا الاتجـاه، وتنتهي إلى النتيجة نفســها ما نشــرته مجلة الأهـــالي يـــوم 29/12/93 ص12 بقلم الـدكتور: عبد القـادر خليفـه "أمين لجنة الوحـدة الوطنية بأســيوط" تحت عنــوان **"في جــذور الإرهاب والتطرف والتعصب"** والكاتب يبدأ من مقولة هي وجــود صــور شــائنة لما ســماه التطـرف الإسـلامي والتعصب القبطي. وقد دلل على وجودهما بوقــائع لمســها هو نفسه وحققها خلال حياته الوظيفية الطويلة كمــــــــــــــدير لمستشفيات جامعة أسـيوط، وكأسـتاذ جـامعي، منها ما قاله له صـــــديق قبطي من أنه لا يوجد قبطي واحد يرحب بجلاء الإنجلـيز "لأننا لا ننسى عدوان الإخوان المسلمين على كنائســنا"، ومنها إنكار طبيب قبطي مسئول عن وحدة نقل الــدم بالمستشفى وجود دم لمريض مســلم، كما قــام طبيب مسـلم بنفس التصـرف حين كـانت حاجة الـــدم لمـــريض قبطي. كما أنه أوضح لطلبته

أسـباب التميـيز في كليـات الطب بـأن الأطبـاء الإنجليز – في فـترة الاسـتعمار – قربـوا الأطبـاء الأقباط ومنحوهم الأستاذية، ليكيـدوا المسـلمين وليفرقـوا وحـدة الأمـة. "وأذاق هـؤلاء الأسـاتذة الأقبـاط زملاءهم المسـلمين العـذاب والمهانة؛ مما دعا في مســتقبل لاحق إلى الــرد بتعصب الأغلبيــة، وتفـاقم التعصب بين الجـانبين يصـبح إحدى السمات الكئيبة لكليات الطب في مصر".

وليست هذه هي كل الحالات، ولكنها أهمهـا، ومنها انتهى الكـــاتب إلى **وجـــود تطـــرف إسلامي.. وتعصب قبطي..**

ومن هـــذه "الأرضـــية" انتقل لمحاولة العلاج، ولما كـانت تجـارب الحيـاة قد علمته أن اتخاذ القرار السليم في المشاكل الصعبة يحتـاج لأن يضع نفسه موضع الغـير صـاحب المشـكلة "أرى بعينــه، وأفكر بعقلــه، وأحس بقلبــه" فقد وضع نفسه مـرة موضع المتطـرفين الإسـلاميين والمنطق الـــذي يحكمهم، ووضع نفسه مــــرة أخـرى موضع المتعصـبين الأقبـاط وما يحسـونه ويستشـعرونه.. ووجد نفسه في الحـالين أمـام باب مسدود لا انفتاح له..

ولما كـان يخـاف أن ينتهي هـذا إلى صـدام، تصـبح مأسـاة لبنـان بجانبه كلعبة أطفـال، فإنه انتهى إلى هذه النتيجة:

"اقتلاع المشـكلة من جـذورها في حسم لا سبيل فيه إلى أي تـردد، وذلك بتنحية الـدين عن حركة المجتمع ليصبح الدين لله والـوطن للجميع قولا وفعلا، وليكن ذلك هو شعار الدولة وأسـاس دسـتورها – دولة تـؤمن بالله وتـرعى العقائد الدينية(!) وحرية ممارستها للجميع. والتخلي عن الموقف الغـامض بـأن تعلن رسـميًا بـأن تطـبيق الشـريعة الإسـلامية السـلفية غـير ممكن لعـدم ملاءمته لظروف المجتمع والناس، كما تعلن عن فصل الـدين عن الدولة كما فعلت أمم الغـرب في القـرن السـادس عشر؛ لتتخذ من ذلك الموقف طريقها نحو التقدم والتحضر.

ويبقى للـدين طريقـان: الإيمـان والفطـرة، وللدولة طريقهـا: العلم والعقل والسـعي بلا هـوادة لإصـلاح وتعـديل المسـارات الـتي اختلت بالتعصب في جميع المجـالات في إدراك عميق ومسئول بأننا نواجه مسئولية مصـير، أن تكـون أو لا تكون، انتهى.

ونحن نشـكر للكـاتب صـراحته وواقعيته وإيراده لوقائع بشـعة يتجاهلها أو ينكرها البعض، ولكننا نقـول إن النتيجة الـتي انتهى إليها نتيجة خاطئة تمامًا لأنها بـنيت على وقـائع، وإن كـانت موجودة، إلا أنها تمثل انحرافًا ولا يمكن أن نبـني

أوضـــــاعنا على التســـــليم للانحـــــراف، وإنما المفـروض أن نبحث عن سـبب هـذا الانحـراف ونعالجه، وليس أن نتجاهله أو أن نبـني أوضـاعنا على وجوده؛ فنضع أنفسـنا آونة لوضع التطـرف الإسـلامى وآونة لوضع التعصب الإسـلامى فهـذا خطأ، وما يبنى عليه سيكون خطأ..

إن وجـــــود التعصب القبطي والتطـــــرف الإسلامي إنما يعود إلى أسـباب من سـوء الفهم أو غلبة المصالح أو استغلال الفسـاد المستشري إلخ.. وهـذه الأسـباب هي الـتي يجب أن تعـالج ومعالجتها هي التي ستقتلع جذور المشكلة.

إن فكــــرة أن يضع الإنســـان نفسه موضع الطرف الآخر، إنما يراد بها التعرف على نفسيته والعوامل الـتي دفعته لما انسـاق فيـه، بهـدف معالجتـه، أما أن نقف أنفسـنا موقفه لنسـلم له فهـــذا يكـــون كمن أراد معالجة ظـــاهرة تفشي السـرقة، فيضع نفسه موضع السـارق ليعـرف الأسباب التي دفعته للسرقة، وهل هي الحاجـة، أو البطالة، أو الاحتجـاج على الفـارق الطبقي ما بين أغلبية جائعة وأقلية متخمة. ويكـون الإجـراء التـالي هو معالجة الأسـباب. أما الموقف الـذي اتخـــذه الكـــاتب فهو كمن يقـــول إن الســـارق معـذور، وكـان لابد أن يسـرق وعلينا أن نسـلم بذلك ونتقبله.

وافتراض أن تكون مصر كلبنان قياس ركيك وســـخيف ومن الخطأ البـــالغ التلـــويح به؛ لأن

المـارونيين في لبنـان يقـاربون عـددًا الطوائف الإسـلامية، ويتخـذون اللغة الفرنسـية وثقافتها ويلـوذون بحماية فرنسا إلخ.. وهـذه فـروق لا توجد لـدى الأقلية القبطية الـتي لم تنكر انتماءها المصري، ولا تسـمح لها نسـبتها العددية بـأن تكـون عنصـرًا مرجحًـا، أو حـتى مـؤثرًا، فلا داعي للتخويف والـتزييف، ومن الخطأ أيضًـا قيـاس ما فعلته أوروبا من الفصل ما بين الـدين والدولة على مصر، لأن الهدف الأول لـذلك كـان درء تدخل الكنيسة، والإسلام لا يعرف الكنيسة..

والمقال في جملته يصور المـأزق الـذي يقع فيه الكاتب عندما يعـالج مشـكلة عميقة معالجة ظاهرية وسطحية؛ لعدم توفر المعرفة بالأسباب العميقة، وبطرق علاجها، ويبرز خطورة أن تعالج هـذا الموضـوع الحيـوي صـحف لها اتجـاه معين كالأهـالي، أو كتـاب أو صـحفيون لا يلمـون بكل أبعاد الموضوع، ولا أعماقه ولا يتـوفر لهم النضج الضروري عند معالجة هذه القضية.

وقد تـدفع العاطفة بهـذه القضـية والحـيرة أمامها كاتبًا نابها مثل الـدكتور: ميلاد حنا لأن يقف الموقف نفسه فـيرى أن "وقف تـدريس حصص الدين في المدارس واجب وطني، ويـرى أنه بداية الانصهار الوطني الحقيقى، مشـيرًا إلى أن القضـاء على قضـايا مثل قضـايا الفتن الطائفية قد يبـدأ من هنا، وقـال فيما هو نصه لرؤية له أخـيرة نشـرت قبل أيـام على هـامش

مظـاهرات الإسـكندرية الـتي خـرجت تحتج ضد مسرحية مسيحية تسب الإسلام والمسلمين: إن المقــررات الدراســية مــازالت في المــدارس الحكومية وغـــير الحكومية تـــدرس الديانة، كما يعقد لها امتحانـــــات ولا تضـــــاف درجاتها إلى المجمـــوع الكلي. (مســـتطردًا) أود أن أكـــون صريحًا مع نفسي ومع الجميع: إن تدريس الدين بالمدارس هو أول شـرخ ثقـافي ووجـداني يحفر في ذاكــرة كل طفــل.. فــالأولاد والبنــات مثلا يلعبون سويا ويتسـامرون ولا يتم التقـارب بينهم أو التباعد إلا على أســــــاس شخصي، أو ثمة استلطافات عامة أو ربما خلافـات طفوليـة، وإذا بهم يفاجـأون بحصة الـدين حيث يخـرج الأقبـاط من الفصل كأقلية حسب تنبيه المشرف.

ومن هنا يـأتي أول درس عملي للطفل غـير مبرر في انـتزاع زميله وصـديقه من جـواره إلى فصل آخر بسـبب العقيـدة الدينية، ومن هنا أيضا والكلام لميلاد حنا.. سـبق وأن طـالبت بضـرورة أن يوقف تعليم الدين في المـدارس، وأن يـترك تعليم الدين حرية لمن يرغب من خلال الأســرة أو المؤسســات الدينية الــتي تنتمي إليها العائلة على حسب دينه أو درجة تدينه أو توجهاته في تنشئة أولاده، مؤكدا أن قرار إيقاف تعليم الـدين في المدارس قرار جـوهري وأساسي، وإن كـان هنــاك صــعوبة في تحقيقه لكنه قطعا أمر وارد وقادم قائلا: إذا حدث هـذا وتم تنفيذ القـرار فقد

يكون اللبنة الأولى في الاتجاه الصحيح للانصـهار الوطـني.. انتهى كلام الـدكتور: ميلاد حنـا.. لكن الذي لم ينته هو المعنى الباطن في مطلبه الذي يـرمي إلى ضـرورة إلغـاء حصص الـدين من المناهج الدراسية نهائيا، ولا مانع أيضًا من إيقاف تـدريس اللغة العربية ليصل الأمر إلى تخـريج طـالب فاقد الهوية الدينية الإسـلامية والعربية، وفاقد أيضا انتماءه لبلد من المفـترض أنه يطبق الشـريعة الإسـلامية وديانته الأولى الديانة الإسلامية.

والدكتور ميلاد يبني النتيجة الـتي انتهى إليها على مقدمة خاطئة تلك هي: في الأديـان ما يفرق وما يثير التعصب، وهذا غير صحيح بالنسبة للمسـيحية وللإسـلام فهما معًا يـدعوان إلى قيم الخـير، والمسـاواة والمعرفة والعـدل والحرية وتكـريم الإنسـان. وكـان حريا به أن يـدعو إلى تنقية المناهج من ضلالتها وغشاواتها، وما وضـعه القسيسـون والأحبـار والفقهـاء والمفسـرون والعـودة إلى روح الأديـان. وعندئذ كـان يجد في الـدين دعمًا للوحـدة الوطنية على أسـاس له قداسته. وهذا الإصلاح الديني وإن كان صـعبا، إلا أنه أهون من اجتثاث الدين..

والذي يعدل بهؤلاء الكتـاب عن سـلوك هـذا السبيل الصائب للإصلاح أن لـدى هـؤلاء الكتـاب عـزوف عن الـدين أصلا يعـود إلى عوامل عـده لعل بعضها التأثر بـالفكر الماركسي أو الناصـري أو غيرهما أو مقتضـيات نظـام الحكم الخ... أو

عـدم الالـتزام بـالآداب والضـوابط الـتي تضـعها الأديــان بضــبط المجتمع، والحيلولة دون شــيوع الفوضى وتصادم الآراء الفردية.

ويجب على هـؤلاء السـادة أن يفهمـوا تمامًا أن قيـاس مصر على الـدول الأوروبية والأفريقية قياس خاطئ؛ فلكل دولة قدرها، وقـدر المنطقة كلها هو الـــــــــدين، ولا يمكن التخلص منه لأن التخلص يعــني فقد أبــرز مقــوم من مقومــات المصري، فالقبطي المصري لابد أن يعـترف كما اعترف سـلامة موسى وفيليب جلاب وعـدد آخر من مثقفي الأقباط أن الحضارة الإسـلامية جـزء من مكونـات تاريخـه، وهويته المتمـيزة عن بقية الجنســيات. وأنه لا يمكن اســتبعاد المســيحية والإسلام لادعاءات لا محل لصحتها ويمكن دفعها وامتلاكها إذا كانت موجـودة بـأهون سـبب، فضلا عن أن ما اقترحه الـــدكتور ميلاد حنا لا يـــؤدي للنتيجة الــتي تصــورها، لأن ما دام تعليم الــدين سيقع على عاتق الأسرة، فإن هـذا يعـني وجـود الـــــــــدين، والخلاف هو هل تقدمه المدرسة أو الأســرة، ويمكن في بعض الحــالات أن تكــون الأسرة أكثر تشددًا وضيقًا وتحيزًا من المدرســة. فيأتي ذلك بنتيجة عكسية.

الفصل الثامن
التعايش الإيماني

هـــذا هو - فيما نـــري - أفضل الخيـــارات وأقربها إلي المسيحية والإسلام وما يتسم بطابع حضـاري رفيـع، وهو يقـوم علي حقيقة رئيسـية بالنسـبة للإسـلام والمسـيحية، وعلي حقيقة أعم وهي رابطة الإيمـــان الـــتي تضم كل المؤمـــنين بالـــديانات في مواجهة الموجة الكاسـحة الــتي تريد أن تمحو خصـــائص الـــدول وتـــوهن دور الحكومة، وتجعل العامل المادي - الفردي الــذي يستهدف الاستمتاع هو الهدف الأسمى.

إن الحقيقة الأولي وهي العلاقة الخاصة ما بين المســيحية والإســلام، وبوجه أخص أقبــاط مصر، هي ما تؤكـده النصـوص الـتي جـاءت في القــرآن الكــريم وقــررت **وَلَتَجِـدَنَّ أَقْـرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَـارَى ذَلِكَ بِـأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِـينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لاَ يَسْتَكْبِرُونَ** [المائدة 82].. وقد قـامت في الأيـــام الأولي لـــدعوة الإســـلام علاقة ما بين المسـلمين الـذين تعرضـوا لاضـطهاد مشـركي مكة، فهاجروا إلي الحبشة لأن بها - علي ما قال النـــبي - ملك لا يظلم عنـــده أحـــد، وقد تقبل

"النجاشـــي" المســـلمين اللاجـــئين ورفض أن يعيـــدهم إلي مكة كما طلب ذلك وفد مشـــركي مكة، وكان علي رأسهم عمرو ابن العــاص.. كما نشــــأت علاقة خاصة ما بين الرســـــول وبين "المقـوقس" حـاكم مصـر، وأهدى إلي الرسـول جاريتين إحداهما مريم التي أنجبت للرسول ابنه "إبراهيم"، ولو عـاش إبـراهيم لأعـاد قصة جـده الأكبر إبراهيم الذي تزوج هاجر المصرية وأنجبت له إسماعيل - أبو العرب.

وأعم وأهم من هذا أن كل النصوص القرآنية أعلت من شأن المسيح وتحـدثت عنه بتعبـيرات تكــاد تكــون مســيحية فهو "روح اللــه" وكلمته **﴿إِنَّمَا الْمَسِـيحُ عِيسَـى ابْنُ مَـرْيَمَ رَسُـولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَـرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْـهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ﴾**. {النســاء 171}.. وهو الذي ولد عندما نفخ جبريل في جيب مـريم، كما تحدث القرآن عن مـريم حـديثًا عـاطرًا وتضـمن القــرآن ســورة من الســور الكبــار عن مــريم وأخرى عن "المائدة"..

إن هــذه الصــلة الوثيقة لم تفت المنصــفين من الأقبــاط وبين يــدي كتــاب صــدر ســنة 38 تأليف: الايغومانس إبراهيم لوقا - راعي الكنيسة القبطية الأرثوذكسية بمصر الجديدة - وقد قدمه الأسـقف عرفـورش ونشـرته مجلة الهلال سـنة 81، وبحث آخر قدمه غريغوريوس- أسقف عام الدراســـات اللاهوتية العليا - وما بين الكتـــاب

الأول والبحث أكثر من خمسين سنة، وهما يتحدثان عن العلاقة الحميمة بين القرآن والمسيحية..

جاء في كتاب الأب إبراهيم لوقا..

يظن الكثيرون أن الإسلام يطعن في المسيحية ويحارب عقائدها، وهذا الظن منشئوه - في الحقيقة - عدم الإلمام بما يذكره الإسلام عن المسيحية.

وإن الباحث المدقق في جميع الأقوال التي أوردها القرآن عن النصرانية والنصارى ليتضح أمران:

وإن الباحث المدقق في جميع الأقوال التي أوردها القرآن عن النصرانية والنصاري ليتضح له أمران:

أولهما: أن نبي الإسلام قد حفظ للديانة المسيحية مركزها، وأيد جلالها، وأثبت صحة الكثير من تعاليمها، ونادى بوجوب تقديس أوامرها والعمل بها، واحترام كتبها المنزلة، فكان بذلك شاهدًا لها، ومؤيدًا لصدقها، وسيأتي بيان ذلك تفصيلا، وحسبنا هنا أن نورد بعض آيات تصرح بذلك:

جاء في سورة يونس: ﴿**وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. ويقول

البيضاوي في تفسير هذه الآيـة: إن القـرآن جـاء (مطابقًا لما تقدمه من الكتب الإلهيـة.. وتفصـيل ما حقق وأثبت من العقائد والشرائع).

وجــاء في ســورة فــاطر: ﴿**وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنْ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْــهِ**﴾. ويقــول البيضــاوي في تفســيره: (حقه مصدقًا لما تقدمه من الكتب السماوية).

وجــاء في ســورة المائــدة: ﴿**وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْــهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَــاهُ الإِنجِيــلَ فِيــهِ هُــدًى وَنُــورٌ وَمُصَــدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْــهِ مِنْ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ**﴾. ويقــول البيضاوي أيضًا في تفسيره: والآية تــدل علي أن الإنجيل يشـتمل علي الأحكـام..، ﴿**وأنزلنا إليك الكتـاب بـالحق**﴾ أي: القـرآن، ﴿**ومصـدقا لما بين يديه من الكتــــــاب ومهيمنًا عليه**﴾. ورقيبًا علي ســـائر الكتب يحفظها عن التغيـــير ويشهد لها بالصحة.

ثانيهما: أن القــرآن لم يهــاجم المســيحية التي أسسها المسيح ونشرها رسله القديســون، ولكنه هاجم بدعًا خاصــة، كـانت قد ظهـرت عند ظهــوره، ونــادت بتعــاليم لا تقرها المســيحية، فحاربها كما حاربتها المســـــيحية من قبل ومن بعد.

وكلنا يعلم أن الشرق - وقت ظهور الإســلام - كـــان مرتعًا خصـــيبًا للاضـــطرابات الدينية

والخلافات المذهبية، فقد كـانت الحـرب لا تـزال مستعرة نارها بين اليهودية والمسيحية من جهة، وكـانت الفـرق المبتدعة الخارجة عن النصـرانية تتناوأ مع بعضها من جهة ثانية، كما كـانت الوثنية تنازع هاتين الديانتين - اليهودية والمسيحية - من جهة ثالثة، وكل من يطل علي تـاريخ الهرطقـات يقف متحـيرًا إزاء ما كـان بين هـذه الـديانات والمـذاهب من تطـاحن وعـداوة وبغضـاء، أشـار إليها القـرآن بقوله من سـورة المائـدة: **فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَـدَاوَةَ وَالْبَغْضَـاءَ إِلَى يَـوْمِ الْقِيَامَةِ** فقد كـانت كل فرقة تُكَذِّب الأخرى وتُكَفِّرها.

ومن ثم نشأ الإسلام: يحارب الوثنية، ويجاهد اليهوديـة، ويؤاخذ المسـيحية في مـذاهبها المبتدعة التي كانت تتنـافي تعاليمها مع العقيـدة الصـحيحة في الله تعـالي، منكـرًا عليها ما كـان يثير الجدل والنقاش حولها.

هاتـان هما الحقيقتـان اللتـان جعلنا هـذا الكتاب موضوعًا لبحثهما والكشف عنهما، وغايتنا الـتي نتوخاها من هـذا البحث هي التوفيق لا الجـدال والتفريـق، وإنا لـنرجو أن يتقبل أخوتنا المسلمون رسالتنا هذه كرسـالة محبة وإخلاص، وفقنا الله جميعًا إلي سـواء السـبيل.. وحسـبنا الله ونعم الوكيل.

يقول القس إبراهيم لوقا:

جاء في سورة النساء ﴿ **يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلا**﴾ . {النساء 171}..

وفي هذه الآية ست نقاط نحب أن نلم بها إلمامه وجيزة.

الأولي: النهي عن الغلو في الدين.

الثانية: إن المسيح رسول الله.

الثالثة: إن المسيح كلمة الله وروح منه - وقد سبق لنا القول في هذه النقطة.

الرابعة: النهي عن القول بثلاثة آلهة.

الخامسة: التعليم بوحدانية الله تعالى.

السادسة: التعليم بأن الله ليس له ولد.

ونحن نعلن هنا إننا نوافق القرآن في كل ما ذكره في هذه الآية نقطة نقطة.

والكتاب كله وهو في 224 يفصل ما أوجزه في تمهيده، وهو في الوقت نفسه خبر دعاية للمسيحية وقد ضمته مقارنة بين ما جاء في الأناجيل وما جاء في القرآن عن العقيدة وتشابههما، وختم المقارنة "أليست هذه

المقارنة تنطق بصـورة واضـحة بالتشـابه الكلي بين ما صـرحت به المسـيحية عن مجد المسـيح ككــــــل، كلمة الله الأزلي، وبين ما صــــــرح به الإسـلام عن شخصه المبـارك، وهل تثبت هـذه المقارنة دعوانا بأن الإسلام ما حارب المسـيحية قط بل علي العكس كان مؤيدًا لتعاليمها مصدقًا علي عقائدها في المسـيح مؤسسـها، ذاك الـذي له المجد إلى الأبد آمين.

وجاء في مقال الأنبا غريغوريـوس - أسـقف عـام الدراسـات اللاهوتية العليا والثقـاة القبطية والبحث العلمي - لعله مما يخدم قضـية الوحـدة الوطنية بين المسلمين والمسـيحيين، وهم أبنـاء بلد واحد، مصر الحبيبة ذات الحضارة التليدة، بل منبع الحضارات وملتقى الديانات، أن يتبين أبنـاء هذا البلد الأمور التي تجمع بينهم روحيا وعقائـديا مما يـدعم المحبة بينهم ويوطد وشـائج المـودة، ويقوي أواصر الوحدة فيجعل منهم أمة لا تـدحر، صلبة لا تقهر.

ليست هذه دعوة إلي نبذ الخصائص المميزة للإسـلام أو للمسـيحية، ولا هي منـاداة بنـوع من الميوعة الدينية العقائدية معــاذ الله فما قصــدنا إلي شيء من هذا!

إنما جل قصـدنا أن نهـدئ من حـرارة حمى الخلافات العقائدية بين الإسلام والمسيحية حتى لا يتصاعد منها بخـار خـانق لمحبتنـا، ونحن أبنـاء عائلة واحــدة، ويتحــول إلي غمــام قــاتم يحجب

رؤيتنا لما يجمع بيننا في الواقع من أصول واحدة مشتركة عزيزة على جميعنا.

فهل هنـــــاك من شك في أن المســـــيحية والإســلام يــدعوان إلي عبــادة الله الواحد الأحد الصمد، الذي لم يكن له كفوا أحــد، والــذي ليس كمثله شــيء، الســميع البصــير الغفــور الــرحمن الرحيم، القوي العزيز رب العــرش الكــريم، وهو الأول والآخر والظــاهر والبــاطن وهو بكل شــيء عليم، وأنهما يــأمران بــالخير والمعــروف وإقــام الصــلاة، وينهيــان عن الفحشــاء والمنكر والبغي والأثم والعدوان؟

أليس الإســلام والمســيحية يــأمران بــإكرام الوالدين وينأديان أن اعبــدوا الله ولا تشــركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانا؟

في كل أولئك يلتقي المســــــــــــلمون والمسيحيون، يؤمنون بالله واليوم الآخر، يدعون إلي الخـــير ويـــأمرون بـــالمعروف وينهـــون عن المنكر ويقيمــون الصــلاة، ويرجــون الله واليــوم الآخر.

والمعروف أن الإسلام دين توحيــد، والــدعوة الإســلامية دعــوة للإيمــان بالله الواحــد، وعبادته وعدم الإشــراك بــه، وما أكــثر النصــوص القرآنية التي تدعو إلي التوحيد صراحة، كذلك المســيحية دين توحيد.

فقـــــانون الإيمـــــان الـــــذي يـــــردده جميع المسيحيين في صلواتهم الخاصة والعامة ويتلونه في كل خدمة دينية وفي كل قـــــداس، وفي كل

صلاة من الصلوات اليومية، باكرًا ونهارًا وعشية، ويرنمونه ترنيمــا، ومنذ القــديم، واليــوم، وإلي الأبد، فيقولون في مطلعـه "بالحقيقة نـؤمن بإله واحد".

والمسيحيون يؤمنون وينادون بأن الله واحد، ولا يمكن إلا أن يكون واحدا، ويقولـون: إذا كـان هناك إله آخر غير الله، فما عمل هذا الآخـر، وما هو اختصاصه؟ لأنه ما دام الله غير محدود وغــير متناه فلا مجال لإله آخـر، لأن وجـود هـذا الآخر يتعـــارض مع صـــفة اللانهائية واللامحدوديـــة، فوجوده إذن يملأ كل مكان، ولا يخلو منه مكان.. فكيف، ولماذا، وأين يوجد الإله الآخر؟ وهل هــذا الآخر هو في الكون أم خارج الكـون؟ فـإذا كـان في الكــون، فهل هو في مكــان في الكــون، أم في مكان دون مكـان؟ فـإذا كـان في كل مكـان فهو شـريك مع الله في وجـوده.. وبـذلك يصـبح وجود الواحد منهما فضلة زائدة مع الآخــر.. فـإذا كـان الآخر كائنا في مكـان دون مكـان، فيـترتب عليه أن يكــون كل منهما محــدودا في المكــان، وهذا يتعارض مع كونه الإله الحقيقي الكـائن في كل مكان ولا يخلو منه مكان.

ثم لما كان الله قادرًا علي كل شيء فلمــاذا يكـــون ثمة إله آخـــر، وما هو إذن عمل هـــذا الآخر؟.. هل يأخذ هذا شيئًا من اختصاص الله؟..

لو كـان الأمر كـذلك لـترتب عليه أن يكـون الله غـير قـادر على كل شـيء، أو يكـون قـادرًا على أشياء دون أشياء؛ لأن هـذه الأشـياء تـدخل في اختصاص الإله الآخر المزعوم..

وهكــــذا يمكن منطقيا وعقليا رفض القــــول بأكثر من إله واحد.. واعتبـاره محـالا، لا يقبله ولا يسيغه..

ولقد كتب آبـــــاء الكنيسة المســــيحية إلى الوثنـيين قـديما، يثبتـون لهم بالـدليل العقلي أن الله واحـــد، ولا يمكن إلا أن يكـــون واحـــدا، وأن القـول بـأكثر من إله أمر لا يقبله العقـل.. وكـان لابد لآبـاء الكنيسة أن يكتبـوا للوثنـيين مـدافعين عن عقيـدة التوحيـد، بالـدليل العقلي والمنطقي ولا يكتفون بالأدلة النقلية المقتبسة من نصــوص الكتب المقدسة، لأن الوثنيين لا يؤمنون بــالكتب المقدسة.

وقـــال المســيحيون إن "الواحـــد" هو أصل الوجــود، عليه يقــوم كل شــيء، وإليه يرتد كل شــيء، ومنه يــتركب ويتكــون كل الوجــود.. ولا يوجد قبل "الواحــد" شــيء، فهو الأصــل، أو هو أصل الوجود.. وإذن فالواحد هو الله والله واحد، ولا يمكن إلا أن يكــون واحــدا، ولا يوجد غــير إله واحد.

وأضـــــاف المســــيحيون إلى الأدلة العقلية والمنطقية التي واجهـوا بها الوثنـيين أدلة أخـرى اقتبسوها من أسفارهم المقدســة، وكـانوا – وما زالوا – يبرزونها للمؤمنين من المسيحيين، ولغير المسـيحيين ممن يسـألونهم عن أسـانيدهم في اعتقادهم بوحدانية الله.

فقد قال الإنجيل المقدس:

(**للرب إلهك تسجد وإياه وحــده تعبد**). "مـتى 4:ـ 10"، "لوقا 4:8"ـ (**فمن يقدر أن يغفر الخطايا إلا الله الواحد وحـــــــده؟**). "مرقس 2:7"، "لوقا 5:21".

(ليس صـــــالحا إلا واحد هو اللــــه) "مرقس 12:29"، "مـتى 22:37، 38"، "لوقا 10:27".

(**أن الله واحـــــد، ليس آخر ســــواه**) "مرقس 12:32".

(**كيف يمكنكم أن تؤمنــــــــــوا وأنتم تقبلـــون المجد بعضـــكم من بعض وأما المجد الـــذي من الله الواحد وحـــده، فلا تبتغونه**) "يوحنا 5:44".

(**وهذه هي الحياة الأبدية أن يعرفـوك أنت الإله الحقيقي وحـــــــــدك) "يوحنا 17:3".**

(**لأن الله واحد**) "رومية 3:30".

(للجميع رب واحد) "رومية 10:12".

(لا إله إلا واحد) "1. كونثوس 8:4".

(لنا إله واحد) "1. كورنثوس 8:6".

(الله واحد الــــــذي يعمل الكل في الكل) "1. كورنثوس 12:6".

(اهتديتم إلى اللـه، وتـركتم الأوثـان، لتعبــــــــــدوا الله الحي الحقيقي) "1. تسالونيكي 1:9".

أما التثليث المسيحي فلا يتعارض مع الإيمان والتوحيد.

فالمسـيحيون يؤمنـون بإله واحـد، إحـادي الذات، مثلت الأقانيم والخاصيات.

فالتوحيد للـذات الإلهيـة، وأما التثليث فللأقـانيم. والأقـانيم خاصـيات وصـفات ذاتية بها تقوم الذات الإلهية.

فالله الواحد هو "أصل" الوجود، ولـذلك فهو "الأب" والأب لفظة سامية بمعنى "الأصل".

والله الواحد هو "العقل" الأعظم، ولما كانت المسـيحية تنـادي بـأن الله قد ظهر وتجلى في المسـيح، على نظـير ما ظهر للنـبي موسى في العليقة وتجلى في المكـان دون أن يحـدده المكان، لذلك كـان المسـيح هو "الكلمـة"، قـال الإنجيل: "في البـدء كـان الكلمـة"، والكلمة تجسـيد "للعقـل"، فـإن "العقـل" غـير منظـور، ولكنه يظهر في "الكلمـة"، وهو أيضًـا "الابن" لا بمعنى الولادة في عالم الإنسـان بل إنه "صـورة الله غير المنظور" "كولوسي 1:15".

والله الواحد هو "الـروح" الأعظم، وهو "أبو جميع الأرواح" ولهـذا فهو "الـروح القـدس"، لأن الله قدوس.

وعلى ذلك فإيمـان المسـيحيين بـالتثليث لا يتعـارض مع إيمـانهم بالتوحيـد، لأن التثليث ليس تثليث ذوات ولكنه تثليث أقانيم، والأقانيم صفات

نسبية، والصفات والخاصيات الذاتية ما تقــوم به الذات.

وعنــدهم أن الله الواحد كــائن بذاته نــاطق بكلمته، حي بروحه.

ولــذلك يقولــون في البســملة "باسم الأب والابن والروح القدس، الإله الواحد".

انتهى بحث الأسقف غريغوريوس.

* * *

نعتقد بعد هــــذا الكلام أنه لا يمكن الشك في العلاقة الوثيقة والخاصة بين الإسلام والمسيحية.

وجاء التاريخ ليؤكد ذلك ويصــدقه، فمعــروف بالطبع أن البيزنطيين الذين كانوا يحكمــون مصر قد اضطهدوا الأقبــاط اضــطهادًا مســتمرًا ودائمًا وعنـــدما دخل عمـــرو بن العـــاص فـــإن دخوله بالنسبة للأقباط كان دخــول محــرر لا فــاتح، وقد أعانه الأقبــاط من جــانبهم، واســتدعى هو البابا بنيـــامين الـــذي كـــان هاربا في الصـــحراء من اضــطهاد البيزنطــيين وســلمه شــئون الكنيسة كاملة. ومن النادر أن نجد مثــالا لهــذا. إن دخــول الإســـلام كـــان ميلادًا جديـــدًا للكنيسة القبطية وتحريرها.

وخلال الحكم الإسلامى الطويل بالأقبــاط ما مر بالمســـلمين من رخـــاء أو شـــدة، عـــدل أو عســـف، ووصــلوا في عهد الفــاطميين إلى أعلا

المناصب حتى اشتكى المسلمون. ولم يتعرضوا لاضـطهاد خـاص إلا على أيـدي قلة من الحكـام الذين عرفوا بالشذوذ.

إن كل شيء مما قدمناه يدعو إلى "الجمـع" لا إلى "الفــرق"، الاتحــاد والتعــاون لا الانفــراد والتخاصــم. وهــذا هو فعلا ما كــان في ســحابة التــاريخ وحــرص أبــاء الكنيسة على أن يكــون علاقتهم بحكـام مصر علاقة ممتـازة، تقـوم على التقــدير، وبــادلهم حكــام مصر هــذه العاطفة وتبرعوا لبناء المدارس والكنائس.

أليس من البطش والحماقة تعـــريض هـــذا التراث الجميل لانحراف آحـاد من المسـلمين أو آحاد من الأقباط؟.

لقد كــان يمكن أن تتم مثل هــذه العلاقة ما بين المسلمين واليهود الذين رفعهم القـرآن إلى أعلا المنازل، ولكنهم في علاقتهم بالـدين الجديد وبرســـوله كـــانوا كعلاقـــاتهم القديمة مع بقية الرسل والعقائد. استعلاء وأثـره وفكـرة مؤصـلة أن الجنس اليهــودي هو وحــده أصل الرســالات والأديــان جميعًــا. ومع أن الإســلام يشــترك مع اليهودية في الأب الأعلى – إبـــــــــراهيم، وأن الرســـول هو من نسل ابن إبــــراهيم وبكــــره إسماعيل، فإن هذا لم يشفع لهم أو يكفكف عن غلـــوائهم، فســـاءت العلاقة ما بين الإســـلام واليهودية لهــذا الســبب، وهى إســاءة لا تلحق

الــدين، ولكن تلحق الــذين تــدينوا بهــذا الــدين وأرادوا احتكار الرسالات السماوية..

قلنا في مسـتهل الفصل إن هنـاك حقيقـتين تعملان على دعم خيـار التعـايش الإيمـاني، وقد عرضـنا للأولى، أما الثانية فهي أن العـالم يعيش في الفــترة الماثلة في أحد منعطفــات التــاريخ عندما بلغت الرأسمالية الأوج وورثت بقية النظم الاقتصـــــادية، وظن أنها هي "نهاية التـــــاريخ"، وأرادت أن تبسط فكرتها وفلسفتها على العــالم أجمع فيما ســمى بالعولمة الــتي تســتهدف أن تجعل العــالم "ســوقا" تنتقي منــه، أو تنطمس المقومـات التاريخية والدينية لكل دولة وتسـتبعد كل الفلســفات والمــذاهب الــتي تعلي من قيم الخــير، والحب، والإيثــار الــتي تتمثل أقــوى ما تتمثل في الأديان؛ لتسود شرعة الأنانية، والقــوة الأثرة وأن يـزداد الأغنيـاء غـنى، ويـزداد الفقـراء فقرًا.. وأن تكون الثروة والسبق الاقتصـادى هي رموز التقدم وهي روح العصر، وأن يكون الهدف هو الاستمتاع والاستمتاع والمزيد من الاستمتاع.

إن هــذه الحقيقة الــتي تزحف فيما يشــبه الطوفــان تهــدد كل المؤمــنين بالــدين، ليس فحسب بالأديان السماوية، ولكن بالأديـان قاطبة من زرادشتية أو كونفوشية أو بوذية، وهي تعمل جاهـدة لطمس هـذه الأديـان، أو حـتى القضـاء عليها.

أفلا يدعو هذا المصير كل المؤمنين للاجتماع معا والتعـــــاون معا على صد هــــــذه الجائحة المدمرة التي تجعلهم – رغم الاختلافات البعيـدة – ضحية لمصير واحد.

إننى أتصور أن تنشأ في المستقبل "أمميـة" إيمانية تقف في وجه الأممية الرأسمالية وتحول دون أن تـــذوب، وتحد من طغيانها بحيث تحتفظ لشــعوبها بـــآرائهم وخصوصـــياتهم، وحقـــوقهم، وأديانهم، وموروثاتهم، وعناصر الخصوصية فيهم.

وحــــتى يتم هـــذا فلا أقل من أن يتعـــايش المسلمون والمسـيحيون تعايشًـا إيمانيًا يجمعهم ويسـتبعد الفـروق؛ لأن الأمر أهم وأخطـر.. وما المـــانع أن يحس القبطي نحو المســـلم بعاطفة أخوه، وهما معا يؤمنان بأنه واحد ودينين يتفقـان في الأهداف وإن اختلفا في اللاهوت..

أعرف أقباطا عديـدين يؤمنـون بالماركسـية ويرفضــون الإســلام، وأعجب كيف وهم أقبــاط يؤمنون بمذهب يرى أن الأديان أفيون للشــعوب ويرفضون دينا يعترف بالمسـيح ومـريم، ويجعلها ســـيدة نســـاء العـــالمين؟ أفلا يعد هـــذا من المفارقات القادحة، الفادحة.

إن خيــار التعــايش الإيمــاني هو أنبل صــور للتعايش، وفي الـوقت نفسه هو أمسـها وأكثرها أهمية لمواجهة العولمة.

الباب الثالث
مؤثرات ترتفق على الاختيارات

الفصل الأول
اللبس التاريخي

يوجد عـــدد من العوامل الـــتي تـــؤثر على الأقلية في تحديد اختباراتها وفي طريقة التعامل نفســها وهى تختلف قــوة وضــعفا، ولكن يمكن القـــول إن كل واحد منهم أســـهم في طريقة تعامل الأقلية للخيـار الـذي انتهت إليـه، أو حـتى فهمها العام للقضية القبطية.

من هذه المؤثرات اللبس التاريخي..

من الأفكـار الشـائعة لـدى الأقبـاط أنهم هم الســلالة العريقة للجنس المصــري وبقايا وورثه الشـــعب الفرعـــوني الـــذي أسس الحضـــارة المصرية العريقة، وتجد هذه الإشارات في كثــير من الكتابـــات، وأن مصر كـــانت قبطية حكومة وشعبا ولغة حتى جاء الحكم الإســلامي فأفقـدها هذا وألحقها بالإسلام.

"وهذا الظن يخالف الوقـائع التاريخيـة، فـإن جيش عمـرو بن العـاص والهجـرات الوافـدة ما كـان يمكن أن تكّـون أغلبية الشـعب المصـري.. والـذي حـدث هو أن أعـدادا غفـيرة من الأقبـاط

على امتـداد ألف عـام اعتنقت الإسـلام لأسـباب معروفة نشأت عن السياق التـاريخي خلال هـذه الحقبة الطويلة،
ما بين رغبة في الوصـول إلى المناصب الكـبرى والبـــارزة في المجتمـــع، أو الخلاص من صـــور المظالم التي كـان بعض الـولاة الجهلة يوقعونها على الأقبــاط، مما لا يخلو منه أي تــاريخ، ومنها بســـاطة العقيـــدة الإســـلامية، والمثل الجذابة للشخصــيات الإســلامية الكــبرى من الرســول والخلفـاء وما عـرف عنهم من عـدل، ومنها روح المساواة الإسـلامية الـتي كـانت تسـوي بين كل من يــدخل الإســلام مهما كـان جنسه أو لونه أو وضــعه الطبقي، أو حــتى ماضــيه، وما بين بقية المسـلمين دون حساسـية، وأن فكـرة الإسـلام عن المســـيح، وأنه رســـول وليس إلهًا كـــانت موجودة في مصر قبل الإسلام، وأن الأريوســية، التي ظللت الأفق المسـيحي قرونًا عـدة نشـأت في الإســكندرية، كما أن فكــرة عـــدم صـــلب المسيح ورفعه إلى السـماء وجـدت في مصـر.. ونقــرأ في كتــاب: **"المنــارة التاريخيــة"** في الحـــــديث عن عهد الإمـــــبراطور الرومــــاني كومــودوس سـنة 181 – 194 **"ومن هــذا الحين بـــــدأ الانقســــــام والخلاف بين المسيحيين، وذلك لأن أمزجة القبط أهل الصـعيد نسل عبـاد ثيبة الـورعين، كـانت غير أمزجة الأغريق المـرحين نسل عبـاد**

قيريس وبروزربين أو برسوفين، فأولئك تعبـدوا وتقشـفوا ونسـكوا وقـالوا حاشا للمسيح أن يصلب بل شبه ذلك للناظرين وإن الله رفعه ســالمًا حيًــا، وأولاء رأوا بالـدين الجديد ما يشـحذ قـريحتهم على الفلسفة فقالوا بخلاف ما قاله القبـط.. وقد عد الاختلاف بينهم كفــــــــرًا من الطرفين (ص 103)[23] **.**

كما نقـرأ في الحـديث عن عهد الإمـبراطور يوستن الأول (518 – 527) أن أسـقف كنيسة سوريا سويروس هرب إلى الإسكندرية؛ لأنه أخذ بمذهب مصر اليعقـوبي، "وإنما بوصـوله لها وجد أنه لا يمكنه أن يصـادق على مـذهب المصـريين برمته أيضًـا، وأن مـذهبهم كـان بـأن يسـوع لم يصــلب بل شــبه للنــاظرين كما جــاء فيما بعد بــالقرآن، ومذهبه لم يكن كــذلك" (ص 189)، وأخيرًا فنحن نقـرأ عند الحـديث عن هرقل (ص 610) من أن "أســقف الإســكندرية يوحنا ابن حاكم قـبرص ظفر برضا المصـريين حين أبـدى من الإحسـان والرأفة بـالفقراء ما أكسـبه لقب المحسن، وخلال الخمس ســــنين الأولى من أسقفيته بنى عـدة مستشـفيات للمرضى وتوليد النساء ونزلا للبائسين، وكان مذهبه بالمسيح أنه لم يصلب بل شبه لهم".

---

23 (?) **المنـــــــارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية، تأليف: إسكندر صيفي، المطبعة العصرية، ص 103.**

فهــذه النصــوص كلها توضح أن ما جــاء به الإســـلام لم يكن غريبًا عن الفكر القبطي؛ إلى درجة دفعت بمؤلف "المنـــارة التاريخيـــة" لأن يقــول "الإســلام دينًا هو دين التــوراة والإنجيــل، ومــذهبًا وشــريعة هو أحد المــذاهب المســيحية الجدليــة" (ص213).. مما ســهل على الأقبــاط اعتنـاق الإسـلام، بالإضـافة إلى العوامل الأخـرى التي أشرنا إليها..

وكما هو معــروف، فــإن الفــاتح الإســلامي لمصر كــان عمــرو بن العــاص، وهو رجل دولة وسياسة قــدر ما هو رجل دين وشــريعة، ولهــذا قــرب إليه البابا بنيــامين، ووضع مبــدأ تقــريب الأقبــاط، وهو المبــدأ الــذي أدى بعد ذلك إلى الاستعانة بهم في أجهزة الدولة، خاصة ما يتعلق بالمال وتحصـيل الضـرائب، مما كـان لهم خـبرة خاصة فيه ليست للعــرب، واســتمر هــذا التقليد من عمرو بن العاص حـتى الخـديوي إسـماعيل، والسادات، ومبارك..

وقد كــانت سياسة الحكــام المســلمين هي دعم الأقبــاط والاســتعانة بهم ما أمكن ذلــك... وقد كــان المهنــدس الــذي أقــام مســجد ابن طولـــون الشـــهير هو: ابن كـــاتب الفرغـــاني، المهنــدس القبطي الــذي كافــأه ابن طولـــون بعشــرة آلاف دينــار، وأجــرى عليه الــرزق طيلة حياته.

وكـان للأقبـاط خلال عهد الفـاطميين صـلة وثيقة بالحكــــام، وولى العزيز بالله (ابن المعز لــدين اللــه) ابن مينا الملقب بــأبي اليمن حكم فلسـطين، وكـان هـذا القبطي أمينًا على أمـوال الدولة الــتي تعرضت للضــياع وكافــأه بــأموال كثـيرة أعطاها للبابا إبـرام بن زرعة لينفقها على الكنــائس والأديــرة.. وكــان الشــيخ المكين أبو البركـات - الكـاتب المعـروف بـابن كتامة - هو كـــاتب الدولة في عهد خلافة الفـــائز بنصر الله الفاطمي، وجدد وأقام عددًا كبيرًا من الكنائس.. وكان أبو القديس برسوم العريـان كاتبًا لشـجرة الدر، وترك له أموالا طائلة فزهد فيها وانصــرف إلى العبـادة.. وظهر أبنـاء العسـال الثلاثة الـذين ســجلوا بالعربية القــوانين والعقائد القبطيـــة، وكانت معرفتهم بالشريعة الإســلامية لا تقل عن معرفتهم بالشريعة القبطية.

وتعــرض عامة الأقبـاط لما تعــرض له عامة الشعب لعسف المماليك..، ولكن كبراء الأقبــاط تعــــــاونوا مع المماليك في عمليــــــات جباية الضرائب؛ وظفروا منهم برعاية كبيرة خاصة في الأيـــام الأخـــيرة لهم الـــتي عاصـــرت الحملة الفرنســية، وظهر المعلم إبــراهيم الجــوهري، والمعلم جـــــرجس الجــــوهري، والمعلم رزق، والمعلم غالي وهو أول من منح رتبة البكوية من الأقبـاط.. ونقـرأ في الجـبرتي عن ثـراء ومنزلة هــؤلاء وأنهم كــانوا من الشخصــيات الكــبرى

البارزة في الدولة حتى نصل إلى إسماعيل باشا الذي وهب الأقبـاط 1500 فـدان لتخصص ريعها على المـــــــــــدارس القبطية (ص 216 عصر إسماعيل، جزء1)، وحـتى نصل إلى عبد الناصر والســـادات ومشـــاركتهما في بنـــاء الكاتدرائية الكبرى في العباسية.

بل إننا نجد أن أحد الأقبـاط الـذين أسـلموا وصل إلى درجة المشـــيخة للأزهر، وأنه كـــان واحــدًا من خمسة أو سـتة من الشـيوخ الكبـار الذين تصـدروا مسـرح الأحـداث، وتولـوا إصـدار القرار في تلك السنوات الحاسمة ما بين خـروج الفرنسـيين وتولية محمد علي، وأن أحد القــراء السبعة وهو "ورش" من أصل قبطي.

وهذا السجل الطويل من التسـامح بقـدر ما شجع أعـدادًا كبـيرة منهم للتحـول إلى الإسـلام، بقدر ما حفظ للأقباط كيانهم..

وهكـــذا يتضح من هـــذا العـــرض أن أغلبية المسـلمين المصـريين تعـود إلى الأقبـاط، فهم أبنـاء الأقبـاط الـذين أسـلموا على امتـداد ألف عام، وأن ما جاءت به الهجـرات العربية تعد قلة بالنســـبة لهم، وليس أدل على أن المســـلمين والأقبـــــاط جنس واحـــــد، هو أنك لا تجد فرقًا بيولوجيا أو أثتينيا بين مسلم وقبطي، فهم جميعًا لهم ملامح واحـــــدة، وقد أدرك هــــذه الحقيقة ببداهة الفنان الشاعر شوقي، ووضـعها موضـعها السليم:

ألستم بني القوم الذين تجبروا
على الضـــربات السـبع في الأبد الخالي
رددتم إلى فرعون جدًا وربما
رجعتم لعم في القبائل أو خـال

وهـــذه الحقيقة هي ما تتفق مع دعـــوى الأقبـاط أنفسـهم عن الشـعب المصـري الواحد الذي لا يختلف فيه المسـلم عن القبطي، ويتفق مع الظـاهرة الجغرافيـة/ التاريخية المعروفة عن مصر جيـــدًا، ألا وهي أن مصر بوتقة تصــهر الأجنـاس، وأن الأجنـاس السـودانية والحبشـية والشركسية والأرمينيـة... إلخ كلها انصـهرت في بوتقة مصر، ولم يعد هناك فرق بعد عـدة أجيـال بين أبنائهم والمصريين الأصل.

ويعــرض بعض الأقبــاط تــاريخ مصر كما لو كـانت قبل الفتح الإسـلامي قبطية لغة وحكمًـا، حتى جاء الفتح فأفقدها هـذا كله وغـير مسـارها وأنزلها منزلة التبعية للإسلام.

ويتطلب تمحيص هذه الدعوى المترسبة في أذهان كثير من الأقباط، أو التي نجدها في بعض كتابات الأوروبيين، الرجـوع إلى التـاريخ وحقائقه الصلبة.

فعنـدما ظهـرت المسـيحية كـان الشـعب المصري يعتنق الديانة المصـرية القديمة بعد أن

تـــأثرت ببعض المـــؤثرات اليونانية خلال حكم البطالمة، حتى وقعت في يد الرومان إثر هزيمة أكـتيوم سـنة 31 قبل الميلاد، وكـان الرومـان وثنيين، وكانوا يتقبلون الديانات الوثنية.

ودخلت المسيحية مصر عـام 51 بعد الميلاد على يـــدي القـــديس مـــرقص الإنجيلي تلميذ بطرس الرسول.

وتعرضت المسـيحية الوافـدة لثلاثة عوامل عوقت مسيرتها ولبدت سماءها:

الأول – مقاومة اليهـــــــــود والإغريق والمصريين القدماء.

الثاني – الإرهاب الروماني.

الثالث – الصراعات المذهبية.

وفيما يلي فقـرة مـوجزة عن كل عامل من هذه العوامل:

العامل الأول:

عنـــدما دخلت المســـيحية كـــانت الغلبة والسـيطرة الفكرية لليهـود والإغريق بينما كـان الشـعب متمسـكًا بديانة آبائه وأجـداده، وقـاوم الجميع الديانة الجديـدة وظلت لهم الغلبة حـتى أصـدر الإمـبراطور تيودوسـيس أوامـره بتـدمير الهياكل والمعابد المصـرية سـنة 379، وعندئذ هرب كهنة هذه المعابد إلى الصعيد وأقـاموا بـه، وفي عهد الإمبراطور ترقيان سنة 450، نسـمع أن المسيحية تلاشت من الصعيد، وعادت الوثنية

إلى ما كـانت عليـه، وأن بعض الـذين تنصـروا رجعوا يصلون لإيزيس وسيرابيس [24].

ولم تكن مقاومة الإغريق بأقل من مقاومة كهنة المصـريين القـدماء، ونحن نعلم أن ثقافة اليونـان انتقلت إلى الإسـكندرية وإلى أثينـا، وبعثت في الإسكندرية بعد أن ماتت في اليونان، وأن أعـاظم العلمـاء والفلاسـفة عاشـوا في الإسكندرية منذ أن أحياها البطالمة (الذين كـانوا يونانيين) وأسسوا فيها مكتبتها الكبـيرة العظيمة (سـبعمائة ألف كتـاب)... ولهـذا لم يكن من السـهل أن تستسـلم الفلسـفة اليونانية العريقة والمؤهلة للثقافة المسـيحية الجديـدة الوافـدة، وظلت الثقافة اليونانية هي سـيدة الموقف ردحًا طـويلا... ونقـرأ في المنـارة التاريخية أنه خلال حكم الإمـبراطور ثيودوسـيوس الثـاني (408 – 450) زار الإسكندرية بعض شبان الأرمن لدرس اللغة اليونانية وتصحيح ترجمة الكتاب المقـدس، فلم يجـدوا أسـتاذًا مسـيحيًا، واضـطروا لـدخول المدرسة الأفلاطونية الـتي كـان رئيسـها سيراقوس (ص 173). بل نقرأ أن معبد إيـزيس في جزيرة فيلة ظل حـتى عهد مرقيـان 450 – 457 ملجأ للوثنيين وأن المسيحية لم تـدخلها إلا في عهد الإمـبراطور ريوسـتن الثـاني 566 – 578. كما نعلم في مرحلة لاحقة تلك الحادثة المشـهورة عن "هيباثيـا" ابنة ثيـون الـتي كـانت تدرس العلوم والفلسفة اليونانية، وهاجمها أتبـاع البطريرك كيريل واستلوها من عجلتهـا، وجروها وراءهم، ثم جردوها من ثيابها ورجموها ومزقوها

---

24 **(?) المنـــــارة التاريخية في مصر الوثنية والمسيحية ص 181.**

إربا إربا، وكان ذلك في الصوم الكبير سـنة 415 مما يوضح أن نفـوذ الإغريق الوثنـيين كـان قائمًا ومــؤثرًا حــتى أوائل القــرن الســادس أي قبل دخول العرب بقرن واحد...

والعامل الثاني:

الــذي أثر على تــاريخ الأقبــاط منذ ظهــور المســيحية حــتى دخــول العــرب هو الإرهــاب الرومـــــاني، فمصر كــــانت قد وقعت فريسة للاحتلال الروماني عقب هزيمة أكـتيوم سـنة 31 قبل الميلاد، وعندما ظهـرت المسـيحية تعرضت لنوبات من الاضطهاد من أباطرة الرومان الـذين كانوا وثنيين، وكان أبرز نوبات هذه الاضـطهادات اضطهاد نيرون سنة 64 واضطهاد تراجـان سـنة 105، ولم يصب قبط مصر من هـــــذه الاضـطهادات إلا نـذر يسـير لجـدة المسـيحية، ولكن اضـطهاد ديقيـوس (وقد يكتب ديسـيوس) من سـنة 249 – 251 نـال الأقبـاط وأدى إلى نفي أسقفها ديونسيوس وأريجانوس وهرب عدد كبـير من المسـيحيين إلى الصـحراء وكـان منهم شاب اسـمه بـولا وهو الـذي صـار الناسك الأول في الصحراء.

ووصـــــــلت نوبة الاضـــــــطهاد خلال عهد دقلــديانوس ســنة 303 ذروة الاضــطهاد، وأمر بهدم الكنائس وإحـراق الكتب وقتل المسـيحيين إذا لم يرجعـوا عن دينهم، وتبـالغ بعض المصـادر القبطية فتصل بعدد شهداء الأقباط إلى ثمانمائة ألف أو مائة وأربعين ألفًــا، منهم معظم الـــذين تحتفل بهم الكنيسة القبطية مثل القـديس يوحنا الشهير بالعجـائبي والقـديس تـادرس والقـديس يوليوس والقديسة دميانة.

وقد جعل الأقباط تقـويمهم يبـدأ بسـنة 284 الــتي ارتقى فيها دقلــديانوس عــرش الملك واعتبروها السنة الأولى للشهداء.

وفي سنة 323 اعتنق الإمبراطور الروماني قســطنطين المســيحية وانتهى اضــطهاد المســيحيين من قبل الوثنــيين، ولكنه بــدأ في صورة جديدة، ذلك أن مذهب قسـطنطينية كـان يختلف عن مذهب الإسكندرية، وكان هـذا يـؤدي إلى صور عديدة من الاضطهاد.

وهذه الصور من الاضـطهاد أدخلت في بـاب **العامل الثـالث** أي الصــراع المــذهبي الــذي شـغل سـحابة العهد القبطي للبلاد والـذي ظهر بشكل حاد ما بين أريـوس وأثناسـيوس. وكلاهما من الإسـكندرية.. ووصـلت حـدة الـنزاع أن آثر أتباع أثناسيوس في إحدى جولات الصراع حــرق كنيسة الإســـكندرية على أن تقع في يد الآريوسيين.

والحقيقة أنه ما أن اعتنق قســطنطين المسيحية وأصبحت ديانة المملكـة، حـتى انتهت الوحـدة الـتي كـان الاضـطهاد يعمقهـا، وبـدأت الأهواء والمطامع الـتي تصـطحب بالسـلطة من عهد قسـطنطين حـتى الفتح الإسـلامي، فكـان الفتح الإســلامي وحــده هو الــذي أراح الكنيسة القبطيـــة، ومكنها من أن تعمل دون مقاومة أو اضــطهاد المــذاهب الأخــرى، ولما تكــرر – في الفترة المعاصرة – وصول بعثات بروتستنتية من أمريكا استنجدت الكنيسة بالحكومة التي نصرتها على هذه الطوائف.

ولا يتسع المجـــال للحـــديث عن هــــذه الصـراعات ولا عن السـبب اللاهـوتي فيها الـذي

أدى إلى عقد المجمعات المسكونية الأربعة التي صال وجال فيها أساقفة الإسكندرية وكانوا هم أبطالها، وهي مجمع نيقية سنة 325، ومجمع القسطنطينية سنة 381، ومجمع أفسس الأول سنة 431 ومجمع أفسس الثاني 449، ومجمع خلقيدونية سنة 451.. وكانت هذه المجامع تقر مبدأ ثم تعود فتنفيه وتنقضه في مجمع آخر، أو تضع تقليدًا يكمله مجمع آخر وكانت كلها تدور حول نقط لاهوتية تتعلق بالثالوث والأقانيم وطبيعة المسيح... إلخ.

على أن هذه الخلافات النظرية كانت تنتهي بمذابح ما بين الفرق المختلفة والمتناحرة، وفتن لا يصرفها إلا تدخل السلطة!

ويكفي فحسب أن نأخذ إحدى صور الاضطهاد التي حدثت خلال حكم الإمبراطور يوستنيان (527 – 566) أي قبل الفتح الإسلامي ببضعة عقود من السنين، نقلا عن "المنارة التاريخية":

"لما آل الحكم إلى يوستنيان دعا الأسقفين من الإسكندرية للعاصمة، ثم أبعدهما وأقام بولس أسقفًا واحدًا عوضهما؛ ليعمل بقانون مجمع خلقيدونيا، وبعد سنتين أبدله بالأسقف زويلوس بالرغم عن إرادة المصريين، فاحتملوه ست سنوات ثم طردوه وطردوا كافة أساقفة المذهب الإغريقي...

وإذ بلغ الإمبراطور ما أجراه اليعقوبيون، بعث أبوليناريوس أسقفًا وحاكمًا على الإسكندرية فدخلها على رأس الجنود بزيه العسكري، ولما وصل للكنيسة خلع ثوبه العسكري ولبس بدلته الأسقفية، وباشر تلاوة

الصلاة ولكنه لم يفتح فاه حتى أتاه الرجم من كل مكان واضطر إلى الفرار من الكنيسة، فمكث ثلاثة أيام، ثم أرسل مناديًا بالأسواق يدعو الناس إلى الكنيسة لاستماع قراءة كتاب الإمبراطور الأحد المقبل.. فاجتمعوا، وإذ افتتح خطابه يتهددهم بالقتل، والنساء بالسبي، رجموه كالأول، لكن بإشارة منه دخلت الجنود الكنيسة شارعة سيوفها فوقعت على القوم تضربهم حتى جرى الدم للركب، وانصرف منهم من سلم.. وبعد ذلك لم يجترئ أحد على مقاومة الأسقف الإغريقي الملكي.. وهذا كان أصل الروم الملكيين، (ص 190 – 191).

وكان المشهد الأخير هو تولية الأسقف تيروس الماروني الذي كان على مذهبه بالقول بالطبيعتين والمشيئة الواحدة، خلافًا لمذهب الملكيين القائلين بالطبيعتين والمشيئتين، والمذهب اليعقوبي القائل بالطبيعة والمشيئة الواحدة.. فازداد هؤلاء نفورًا من الإغريقي وكرهًا له. وهكذا لما دخل عمرو ابن العاص مصر وجدهم من أنصاره ضد الروم ..." (ص 205) المنارة التاريخية.

* * *

من هذا العرض يتضح أن:

1- الأغلبية الإسلامية في مصر تعود، أصلا، إلى إعتناق معظم الأقباط للإسلام على امتداد ألف عام، وأنه ليس هناك تفرقة عرقية بين المسلمين والأقباط، فهم جميعًا يعودون إلى أصل واحد، فضلا عن أن الفئة التي جاءت بها الهجرات تكفلت بها البوتقة المصرية فصهرتها تمامًا.

2- الفـــترة القبطية في تـــاريخ مصر تعرضت لمقاومة شـــديدة من المصـــريين الـــذين احتفظـوا بـدياناتهم القديمـة، ومن الوثنـيين الإغريق ومن إليهود الـذين كـانوا سـادة في الإسكندرية، وأن هـذا الوجـود الوثـني زاحم المسـيحيين واسـتمر حـتى العقد الأول من القـرن الخـامس الـذي حـدث فيه حـادث هيباثيا ذو الدلالة (415) بحيث أن المسـيحية لم تكن دين مصر الوحيد إلا أقل من مائتي عام.

3- الديانة القبطية تعرضت لاضــطهاد منذ أن آمن القبط بهـا. ففي القـرون الثلاثة الأولى كان الاضطهاد الروماني الوثني من أبـاطرة روما، وفي القـــرون الثلاثة التالية كـــان الاضـــطهاد من أبـــاطرة القســـطنطينية (بيزنطة) لاختلاف المذاهب.

4- خلال هـذه الفـترة كلها لم يل الأقبـاط الحكم الذي كـان في يد الرومـان، ولم يكن لهم جيش، ولم تكن لهم ســـــيادة، ولم تكن لهم لغة[25]، وكــانت قــوتهم في الحقيقة تعــود إلى

---

25 (?) **كـانت اللغة اليونانية هي اللغة الرســمية خلال عصر البطالسة والعهد البــيزنطي وقد كتب بها جميع آبـــاء وعلمـــاء الكنيسة في الإسكندرية، وكـانت اللغة القبطية مقصـورة على حاجة الكنيسة لتعليم الشـــعب أصـــول الدين خاصة في الأريـاف.. وقد قـامت اللغة القبطية على حروف يونانية عدتها 25 حرفًا أضـيفت إليها سـبعة حـروف من المصـرية القديمة في آخر مراحلها وهو الخط الـديموتيكي، وأضـيفت إليها ألفـاظ يونانية وعبرية ولاتينيــة، وكــان لها عــدة لهجــات،**

إيمــانهم، هــذا الإيمــان الــذي نجد مفاتيحه في الشخصــية المصــرية، وما أشــرنا إليه من أنها شخصية "إيمانية" يمثل الـدين جـزء عضـويًا في تركيبها.

5- أن الكنيسة المصـــــرية تـــــدين بحريتها واستقلاليتها ووجودها، إلى الحكم الإسلامي الـذي كف عنها عـدوان المـذاهب الأخـرى، ومكّنها من أن تنمو في جو من الســـماحة والسلام.

منها: اللهجة المنفية نســبة إلى منف وهي لهجة القـــاهرة وغـــرب الـــدلتا، واللهجة الصـــعيدية، واللهجة الفيوميـــة، واللهجة الأخميميـة، واللهجة اليشـمورية نسـبة إلى يشـمور الـتي كـانت جهـات عـامرة في الدقهليـة.. وبعد الفتح الإسـلامي علا شـأن اللغة القبطية حينًـا، ولكنها تـدهورت وحلت محلها العربية واعتمــدها لغة رســمية في الطقوس البطريرك غبريال باتريك (1131 – 1145).

الفصل الثاني
ظهور جماعات العنف الشاردة الإسلامية

لم تعـــرف مصر خلال مرحلتها الليبرالية أي من ســنة 23 إلى ســنة 52 ظهــور جماعــات إسلامية شاردة، متطرفة تلجأ إلى العنف. كـانت الهيئة الإسلامية الكبرى التي ظهـرت خلال هـذه الحقبة وازدهــرت في الأربعينــات هي الإخــوان المســلمون الــتي قــامت على أسس تربوية واســتهدفت تقــديم الإســلام كمنهج حيــاة، ولم تصل طموحاتها السياســية لأكــثر من ترشــيح مرشــدها مــرتين للبرلمــان. في المــرة الأولى ســقط بــالتزوير، وفي المــرة الثانية اقنع رئيس الوزراء النحاس باشا الأستاذ حسن البنا بالتنازل نفيا للحــرج، وتقبل الأســتاذ البنا لقــاء وعد من النحـاس باشا بعـدم مضـايقته في نشر دعوتـه. واستغل الرجل هذا الوعد أحسن استغلال فنشر دعوته من أقصى الشمال حـتى أقصى الجنـوب. ولم يعرف عنها أي شـذوذ عن سـياق المجتمـع، وعندما كتب الأسـتاذ البنا رسـالته عن مشـكلاتنا السياســية في ضــوء النظــام الإســلامى تقبل

دسـتور 23 الليـبرالي، واستشـهد بكلام مـريت غالي واستند على آراء الفقيه الدستوري الدكتور سيد صبري واقترح أن تكون الانتخابات بالقائمة. وانتقد نظـام للأحـزاب لا يقـوم على المبـادئ ولكن لمجرد تولي الحكم.

لم تظهر طـوال هـذه الفـترة هيئـات تنـادي بمصادرة كتب خارجية،أو تحاكم مؤلفا ملحـدًا أو ترفع دعـوى للتفريق بينه وبين زوجتـه، وعنـدما أصـدر الكـاتب إسـماعيل أدهم كتابه: "لمـاذا أنا ملحد". لم يتعرض له القضـاء أو السـلطة. وإنما أصدر أحد الكتاب كتابا "لماذا هو ملحد" وأصـدر آخر "لماذا أنا ملحد".

في السـنوات الأخـيرة من الأربعينـات ترهل النظام الحزبي الذي انتقده الأستاذ البنا، وتـولى الحكم أحزاب الأقلية وعلى رأسـها رجل اشـتهر بعناده وضيق أفقه قدر ما اشتهر بنزاهته المالية وهو: محمود فهمي النقراشي الذي كـان عضـوا في الوفد، فكان صداعًا دائمًا حـتى اسـتراح منه عندما استقال وكـون مع أحمد مـاهر حزبًا باسم الحزب السعدي، وجاءت الساعة الفاصلة عندما تـورطت مصر في الحـرب ضد إسـرائيل الـتي كانت قد قـامت رسـميا في 15 مـايو سـنة 48، وكان إعلان الحرب يعني إعلان الأحكام العرفية، وكـان إعلان الأحكـام العرفية يعد نهاية الحقبة الليبرالية بحرياتها وضـماناتها، وبـدء عهد القيـود والسـدود، واسـتغل النقراشي الفرصة فأصـدر

أمرًا عسكريا في 8 ديسـمبر بحل هيئة الإخـوان المسلمين ومصـادرة دورها وصـحفها وشـركاتها الخ... وكـــان هـــذا قـــرارًا في منتهى الحماقة والتعسف؛ لأن حل الهيئـات هو كإعـدام الأفـراد، وأشد القضـاة قسـوة يـتردد طـويلا قبل النطق بحكم الإعـــدام، فضلا عن أن القـــانون يـــوجب اسـتئناف الحكم حـتى أعلا المراحـل. فإصـدار النقراشي قـــرارا بحل الإخـــوان كـــان حكما بالإعـدام على هيئة تضم خمسـمائة ألف عضـو، ولها شعبة في كل قرية وحارة، وحـدث هـذا كله بقــرار عسـكري، أي لم يعــرض على برلمــان. وأصر النقراشي على قـــــراره رغم الجهـــــود المســـتميتة الـــتي بـــذلها المرشد حسن البنا للتوصل إلى تســوية، فــأدى هــذا إلى اغتيــال النقراشي، وأدى اغتيــال النقراشي إلى اغتيــال حسن البنا، وكـــان اغتيـــال حسن البنا هو العد التنازلي لنهاية العهد ولقيـام الانقلاب العسـكري الــذي قـام بمباركة الإخـوان والـذي قبض على قتلة الإمـــــام البنا وحــــــاكمهم، ولكن العهد العسكري هو العهد العسـكري لهـذا قـام صـراع عـــنيف بين حلفـــاء الأمس وصل إلى ذروته في محاولة اغتيال عبد الناصر في مـؤامرة المنشـية الـــتي لم تكشف كل حقائقهـــا، وإن ألصـــقت بالإخوان، وأدى هذا إلى بداية الإرهاب الحكـومي والاعتقــالات الوبائية وتكــرر ســنة 65 عنـــدما مورست أخطر وأدنا أسـاليب التعـذيب فعـرفت

أسماء حمزة البسيوني، وصـلاح نصـر، وصـفوت الروبي أمراء تعذيب السجن الحربي.

وكـــان من المعتقلين شـــباب أبريـــاء كل جـريمتهم أن دفعـوا تبرعا، أو وجـدت أسـماؤهم في أوراق بعض الإخــــوان، أو كـــــانوا جيرانا لمعتقل، ومورس عليهم التعذيب الوحشي.

وكانت النتيجة أن هؤلاء الشـباب آمنـوا أن حكومة تمارس هذه الصـور من التعـذيب ليست من الإسلام في شيء. إنها كافرة. فبـدأت بـذرة التكفير تظهر في سجون عبد الناصر وكـرد فعل للتعـــذيب، ورزقت هـــذه الفكـــرة دعما نظريا ومظلة عقيديه في آراء ســـيد قطب، الـــذي لم يكن إخوانيا في الأصل ولكنه انضم إلى الإخـوان سـنة 51، ثم دخل السـجن وتعـرض للتعـذيب فوضع طابعا عنيفا وحـــادا.. و تنظـــيرًا إســـلاميا ثوريا لقلب نظـــــام الحكم عن طريق الجهـــــاد لإقامة "الحاكمية الإلهيـة"، وكـان قد سـبقه إلى مثل هذا التفكير أبو الأعلى المـودودي عند قيـام دولة باكسـتان، على أسـاس إسـلامي، وحـتى لا تسـتبد بها الأغلبية الهندوكية الـتي كـانت تمقت الإســـلام والمســـلمين، وتـــرجم بعض شـــباب الإخوان كتيبات للمودودي في أواخر الأربعينـات. ولكنها لم تجد رواجًا لمناخ الليبرالية. فلما طوي المناخ الليبرالي وقام العهد العسكري، ومـورس التعذيب تهيأ المناخ لقبول فكر سـيد قطب وأبي الأعلا المــودودي عن أن كل نظم الحكم القائمة

في الــدول الإســلامية ليست إســلامية؛ لأنها لا تحكم بما أنــزل اللــه، ولا تطبق الشــريعة، فهي في حقيقة الحـــال جاهلية جديـــدة. أما الحكم الإسلامي حقا فهو "الحاكمية الإلهية" الـتي يجب إقامتها بالقوة والجهاد.

انتشر هـــذا الفكر عن العنف بين شـــباب المعتقلين في ســـجون عبد الناصر وحـــاول الإخــوان أن يوضــحوا لهــذه المجموعــات من الشباب خطأ هذه الفكرة، وكـان الإخـوان أعمق إيمانًا وأكثر تحملا ومصابرة من هـؤلاء الشـباب. وكـان لـديهم فكر مسـتقر يـرفض أفكـار قطب والمودودي. وفي محاولة لهداية هؤلاء وتعريفهم على خطأهم كتب الأستاذ: حسن الهضيبى كتابة "دعاة لا قضاة". بمعـنى أن الإخـوان المسـلمين ليسوا قضاة على الناس يحكمـون على بعضـهم بالإيمـان وعلى بعضـهم بـالكفر، وإنما هم دعـاة يعتمدون على الحكمة والموعظة الحسنة.

لم يتقبل هـؤلاء الشـباب هـذا المنطـق، لأن المناخ كـان منـاخ عنف وقسـوة ومجابهـة، كـان تصــرفهم في الحقيقة رد فعل لحكم عبد الناصر وتعذيبـه، ولما كـان الفعل الـذي صـدر عنه هـذا الرد سيئًا، فـإن الــرد اكتسب نفس الصـفة؛ لأن هناك رابطة وثيقة بين الفعل ورد الفعل.

ولما أفــرج عن أول هــؤلاء الشــباب – وهو شكري مصطفى أسس أول جمعية من جماعات العنف، والرفض وهى الجماعة التي أطلق عليها

"المسلمون" وأطلقت عليهما الصحافة "جمعية التكفير والهجرة".

ومن أبرز ما اتسمت به "جماعة المسلمين" كما أطلق عليها شكري مصطفى من واقع أقواله أمام هيئة محكمة أمن الدولة العسكرية العليا (القضية رقم 6 لسنة 1977) والتي نشرت في الصحف يوم 21/10/1979.

- إن كل المجتمعات القائمة مجتمعات جاهلية وكافرة قطعا.
- إننا نرفض ما يأخذون من أقوال الأئمة والإجماع وسائر ما تسميه الأصنام الأخرى كالقياس.
- إن الالتزام بجماعة المسلمين ركن أساسي كي يكون المسلم مسلما، ونرفض ما ابتدعوه من تقاليد، وما رخصوا لأنفسهم فيه، وقد اسلموا أمرهم إلى الطاغوت وهو: الحكم بغير ما أنزل الله، واعتبروا كل من ينطق بالشهادتين مسلما.
- إن الإسلام ليس بالتلفظ بالشهادتين، ولكنه إقرار وعمل، ومن هنا كان المسلم الذي يفارق جماعة المسلمين كافرا.

- الإســلام الحق وهو الــذي تتبنــاه "جماعة المســلمين"، وهو ما كــان عليه الرســول وصـــحابته وعهد الخلافة الراشـــدة فقط – وبعد هــذا لم يكن ثمة إســلام صــحيح على وجه الأرض حتى الآن.

وهــذه الســطور تكفي لإيضــاح مــدى غــرور وتحكم هــذه الجماعــة، وليس من الغــريب أن يكـــون أول أعمالها اختطـــاف شـــيخ جليل من شيوخ الأزهر هو: الشيخ محمد حسين الــذهبي - وزير الأوقاف الأسـبق - ومطالبة الحكومة بـدفع مبلغ مـــائتي ألف جنية للإفـــراج عنـــه، وعنـــدما رفضت الدولة أن تخضع لهـذا الابـتزاز لم تـتردد في قتله.

وقبضت الســلطات على شــكري مصــطفى وحكم عليه القضــــاء بالإعــــدام، ونفذ في 28 مارس 1978م.

وطويت صفحة جماعة المسلمين الـتي رأت أنها دون بقية الهيئـات، هي الـتي تمثل الإسـلام، والحقيقة أن كل هــذه الهيئــات أقــرب منها إلى الإسلام.

وظهـــرت مجموعة حملت اسم "الجهـــاد" وكــانت مجموعة صــغيرة مغمــورة، ولكن الحظ قــدم لها أعظم هدية عنــدما نجحت في اغتيــال

الرئيس السادات بصورة دراماتيكية لا يتـأتى لأي مخرج سينمائي أن يتصورها.

وجعلت هــذه الجماعة مبـــدأها الرئيسى هو الجهــاد، وأنه "الفريضة الغائبـــة"، وهو العنـــوان الذي أعطته لكتاب بلور فكرها الذي يـدور حـول فكرة أساسية هي أن الجهاد هو الســبيل الوحيد لبنـاء صــرح الإسـلام من جديـد، وأن طـواغيت الأرض لن تزول إلا بقـوة السـيف، وأن الإسـلام مقبل وأنه سـيفتح روما كما فتح القسـطنطينية، وهو يقطع بـــأن الأحكـــام المطبقة في العـــالم الإسلامي أحكام كفر، وأن حكام المسـلمين في ردة عن الإسـلام ويـرى الكتـاب أن أمة الإسـلام تختلف عن الأمم الأخرى في أمر القتال، ومفتاح الفصل أن "هذه الأمة تختلف عن الأمم الأخــرى في أمر القتــال. ففي الأمم الســابقة كــان الله سبحانه وتعالى ينزل عذابه على الكفار. وأعــداء دينه بالسنن الكونية، كالخسف والغرق والصيحة والريح. وهذا الوضع يختلف مع أمه محمد صــلى الله عليه وسلم، فالله سبحانه وتعالى يخـاطبهم قـائلا لهم ﴿**قَـاتِلُوهُمْ يُعَـذِّبْهُمْ اللَّهُ بِأَيْـدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْـفِ صُـدُورَ قَـوْمٍ مُـؤْمِنِينَ**﴾. أي إنه على المسـلم أولا أن ينفذ الأمر بالقتال بيـده، ثم بعد ذلك يتـدخل الله سبحانه وتعالى بالسـنن الكونيـة، وبـذلك يتحقق النصر على أيدي المؤمنين من عند الله ســبحانه وتعالى.

وبصــدد تفصــيل ذلــك. يشــير الكتــاب إلى "الخـروج على الحـاكم" وهو يستشـهد بما ذهب إليه ابن تيمية "كل طائفة خـــرجت عن شـــريعة

من شرائع الإسلام الظاهرة المتواترة فإنه يجب قتالها باتفـــاق أئمة المســـلمين، وإن تكلمت بالشهادتين.

هـذا العـرض لأفكـار هـذه الجماعـات يوضح مدى ضيق أفقها، وشـدة تعصـبها وأنها تكفر كل المسـلمين وتـرى أن كل الحكومـات حكومـات كـافرة يجب الثـورة عليها بكل الطـرق. فلجـأت إلى الاغتيـــال واغتـــالت بالفعل عـــددًا من المسئولين مثل: رفعت المحجوب رئيس مجلس الشعب، وفشلت محاولاتها في اغتيـال عـدد من وزراء الداخلية، واغتـالت الكـاتب: فـرج فـودة، وحـاولت اغتيـال نجيب محفـوظ، ولما لمست حاجتها إلى المال وجدت في الفقه الساقط رأيا يـبرر سـرقة محـال غـير المسـلمين؛ فبـدأت سرقات محال الصاغة الأقباط، للاسـتيلاء عليهـا، ثم عمـدت إلى السـياحة فقـامت بمجـزرة في الأقصـر. لكي تلحق بالحكومة أعظم الخســائر ولكي تؤلب عليها الدول الأوروبية.

وهذا الطابع الدموي التدميري ينم تمامًا عن أنها رد فعل وحشي لفعل وحشي، وأنها لا تقـوم على منطق أو عقل أو فكر إسلامي.

وكان يفـترض أن تطـوى صـفحتها عند نهاية آثـار الفعل الـذي أوجـدها، ولكن الملابسـات التاريخية قضت بـأن يتـولى السـادات رئاسة الجمهورية في وقت كـانت كل السـلطات في أيدي الحرس الناصري القديم الذي كان يريد أن يسـتأثر بالسـلطة وراء ظهـره، ولكي يتخلص منهم لجأ إلى مهادنة الجماعـات الإسـلامية في

جامعـــات الصـــعيد، وســـمح لهم بحرية العمل فانقضت على الناصـريين وحلفـائهم الشـيوعيين وكـــادت أن تـــريح الســـادات منهم، ولكنها وقد ذاقت طعم السلطة استمرأت الأسلوب وأخذت تعربد في الجامعـات وتبسط نفوذها حــتى على الأساتذة، ثم مدت عملها إلى "النصـارى" وكـان ظهورها وممارســـاتها من أهم الأســـباب الـــتي ضـــاعفت وعقّـــدت الفتنة الطائفيـــة، وأوجـــدت تصورًا سيئًا عن الإسلام لـدى الأقبـاط، تصـور لا يحتمل الآخـــر، ولا يقبل الحـــوار، وبالتـــالي فإنه فاقم في المشـكلة، ومن سـوء الحظ أن حـدث هذا في الوقت الذي رأس الكنيسة القبطيـــة بابا طموح وجد من حقه أن يلوذ بكل صور الاحتجاج التي يستطيعها، وإن كان من المعروف أن هــذه الجماعات لا تستهدف الأقباط بوجه خـاص؛ لأنها ضد الحكومات والمجتمع الذي لا يشاركها إيمانها البغيض.

وتتمثل مسـئولية الجماعـات الإسـلامية في توتـير العلاقـات بين المسـلمين والقبط وإثـارة الفتنة بينهما فى:

أولا: إعطاء مفهوم سيء ومغلوط عن الإسـلام يثـير مخـاوف الأقلية القبطية؛ لأنه يقـوم على فكر لبعض الفقهـــاء يتنـــاقض مع القرآن والممارسة النبوية، وما تقوم عليه من حرية الفكر والاعتقـــاد، وإعطـــاء

ضـمانات تامة للأقليـات فضلا عن تطـبيق مبدأ "لهم ما لنا وعليهم ما علينا".

ثانيا: ممارسة بعض الأساليب المشتقة من هذا المفهـوم السـقيم للإسـلام مثل: إجـازة سرقة محال مسـيحية، واستقضـاء الجزية من بعضـهم، واغتيـال الخصـوم وإثـارة الاضطراب في جهاز الدولة..

الفصل الثالث
سلطان الهوى و"الحساسية"

علينا أن نعــترف أننا – ككائنــات بشــرية – يحــدث كثــيرًا، أن يغلبنا الضــعف والهــوى على أمرنــا.. ونحن بعد أبنــاء آدم الــذي ﴿**نَسِـيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا**﴾ و ﴿**عَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى* ثُمَّ اجْتَبَـاهُ رَبُّهُ فَتَـابَ عَلَيْـهِ وَهَـدَى**﴾ ..﴿**خلق الإنسان ضعيفاً**﴾. وقد أشار القـرآن في آيـات أخــرى عديــدة إلى أثر الهــوى على النفــوس.. وحذر الرسول من أن يتبع "أهواءهم" ونص على أن اتبــاع الهــوى من أكــبر أســباب الانحــراف والضـلال.. وصـور القـرآن الكـريم في آية بلغت الغاية من الإعجــاز قــوة الهــوى الطاغية الــتي تستبد بالإنسان فتجعله عبدًا لهـا، وتعميه عن أي شــيء آخــــر، فلا يفيـد معه علم، أو بصـــــر، أو أذن.. ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَـلَّهُ اللـهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَـمْعِهِ وَقَلْبِـهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللهِ أَفَلاَ تَذَكَّرُونَ**﴾.

وحقيقة الحـــــــــال أنه إذا لم تكبح النفس الإنسـانية قيم ومبـادئ أكـبر وأعظم من هواهـا،

فلا شيء يمكن أن يقف أمام الهـوى إلا الحـدود المادية، ولا يمكن أن نجد المبادئ التي هي أكبر من الهـــــوى إلا في الأديـــــان، لأن كل القيم والمبادئ الأخرى التي يصـنعها الإنسـان لابد وأن تكون مشوبة بالهوى نفسه.

ولا يمكن أن نبرر التصرف الذي سلكه بعض بابوات الكنيسة القبطية، وأدى إلى عــزلهم، كما لا يمكن أن نفهم السياسة الـــتي اتخـــذها البابا كيرلس نحو المجلس الملي الــتي أدت إلى شل عمل المجلس، إلا بغلبة الهـوى: هـوى السـلطة، وهـوى القنـاطير المقنطـرة من الـذهب والفضة من الحاشية التي أحاطت بالبابا.

ويحــدث أن يفـرض الهـوى نفسه على فهم الـــدين بحيث يحوله إلى تعصـــب.. وقد بلغ من الحساسية مداها بحيث تصبح مرهفة، وفي بعض الحالات مَرَضِيَّة..

والحساسية في الموضوعات العامة كالغيرة في العلاقـات الزوجيـة.. تخـرب الـبيوت وتصـبح وحشا يتغــذى على لحــوم البشر على ما يقــول شيكسبير.

والحساسية تصور الأوهام حقائق، والظنــون وقائع وتجعل صاحبها يقع في صورة الشاعر:

إذا ساء ظن المرء ساءت ظنونه

وصـدق ما يعتـاده من توهم

وعـادى محـبيه بقول عـداته

وأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد لمست لجنة التحقيق البرلمانية الـــــتي ألفت في أعقاب حادث الخانكة ورأسها الأســتاذ جمــال يحــيى العطيفي هــذه الحساســية لــدى الطرفين، وجاء فيها:

"وقد اســـــــتطاعت اللجنة أن تلمس خلال لقاءاتها بالبابا شنودة من ناحية، وبالإمــام الأكــبر شـيخ الجـامع الأزهر وفضـيلة وزير الأوقـاف من ناحية أخـــرى، الحساســية المفرطة من كل ما ينشر متعلقًا بالموضوعات الدينية، حـتى وصـلت هذه الحساسـية إلى حد الاسـتياء من أي عبـارة قد ترد عرضًا في سياق مقال لكاتب أو صـحفي مما يمكن أن يســـــاء تأويله أو فهمـــــه، وهى حساســية يجب على المســئولين الــدينيين أن يرتفعـوا فوقها وإلا أصـبح إبـداء الـرأي والتعليق والاستدلال محفوف بالمخاطر".

وهناك شواهد عديدة تثبت أن الحساسية قد وصــلت لــدى بعض الأقبــاط إلى درجة مرضــية بحيث أصبح كل مدح في الإسلام يعني غضًــا من المسـيحية، وأن كل كسب للإســلام يكـون على حســاب المسـيحية، وقد لا يخلص من هــذا الأثر كثير من المسيحيين النابهين الـذين يعملـون في التقريب بين المسلمين والأقباط، ووصـلت هـذه الحساســية درجة أصــبح إبــراز اسم محمد قبل اسم أنــــور الســـــادات محل ملاحظة وتعليق ودلالة..

وجاء فى كلمة للأب أنسـطانس غبريـال في جريــدة الشــعب (17 ســبتمبر 93): "بل ما هو أكـــثر من ذلـــك، فمحاضر اجتماعـــات مجلس الشــعب منذ عهد ليس ببعيد انتهت إلى زيـــادة الجرعة الدينية الإسلامية في التليفزيون واقـترح إنشاء جامعة للقرآن، حتى كاد القبطي يستشعر بأن الوطن لم يعد له، بل للمسلمين..."![26] .

وجــاء في جريــدة الأهــالي ص9، يــوم: 12/4/89

أرجو أن تتصـفح جريـدة الأهـرام صـفحة الوفيـات، ألم تلاحظ أن نعي المتـوفى إذا كـان مسـلمًا ينشر في أعلى الصـفحة. أما الأقبـاط فينشر في أسفل الصفحة مهما كـانت شخصـية المتوفى أليس هذا تطرفًا حتى مع الموتى.

القبطي المتألم د. م.م.ع

ونشرت الأهالى هـذه الرسـالة تحت عنـوان "متعصب بالســليقة" وردت "من ذا يخطر بباله البحث في ســجلات المــوتى لــيرى نصــيب المسلمين والمسـيحيين في صـفحة الوفيـات إلا متعصب بالســليقة، لقد أجبرتنا رســالتك على النظر إلى صــفحة الوفيــات يــومين متتــالين والحمد الله أن نصـــــيب الأقبـــــاط في أعلى الصفحة وأسفلها هو نصيب الأسد فهل يمكن أن

---

26 (?) **جريـدة الشـعب 17 سـبتمبر 93 ص. وقد عقب الأستاذ مجـدي أحمد حسـين في نفس العدد ورد ردًا قويًـا. ورد الأب أنسـطاس في عدد تال على الرد.**

تتفضل بالتـــدقيق أو الكف عن هـــذه العـــادة السيئة".

وجاء في مقال للـدكتور ميلاد حنا: "وعنـدما أعلن الـرئيس السـادات في خطابه الشـهير في 14 مـايو سـنة 1980 أنه "رئيس مسـلم لدولة مســلمة أدركت أنه قد آثر تـــوازن المصـــالح. (مجلة الأهالي 5 إبريل 1989).

ومما يصـــور هـــذه الحساســية ما دار على صفحات الأهرام (بريد القراء) لعـدة أيـام بـدأت برســالة نشــرتها الأهــرام تحت عنــوان "هــذا الحرج" 9/5/89 جاء فيها:

إنـــنى اســتفتي علمـــاء الإســلام من خلال نافـذتكم في مـدى تمسك واضـعي المنـاهج في رغبتهم المسـتمرة لأن تحفظ إبنـتي المسـيحية آيات قرآنية وأحاديث في كتاب القراءة.

إنـــنى متأكد أن الإســلاميين لا يحبــذون ذلك ويعترضـــون عليه مثلى لأنـــنى أعــرف أنهم ذوو طبيعة نقية متحمسون لدينهم وتعليمه لأبنائهم لا لأبنـــاء الملل الأخــرى ومتأكد أن الإســلاميين لو وضـــعوا منـــاهج التعليم لنقلـــوا تلك الآيـــات والأحاديث من كتـاب القـراءة إلى كتـاب التربية الإسلامية، وهو المكـان الشـرعي لتعليم القـرآن الكريم والأحاديث الشريفة، ولن يفرضــوها على الأطفـــال المســـيحيين ويمتحنـــوهم فيها، وقد تعجبت من تبرير السيد الوزير حين منع تدريسها مــؤخرًا بحجة أنها فــوق مســتوى الأطفــال في الابتدائي من حيث اللغة – رغم احترامنا لسيادته وحماسه لتقــدم العملية التعليمية – فــالأولى أن يــأمر بنقلها لكتب التربية الدينية لا إلغائها تماما،

فأنا لا أنتقــدها أو أعــترض إلا على إلــزام غــير المســـــلمين بحفظها، أما بالنســـــبة للتلاميذ المســـلمين فحفظها ودراســـتها واجب عليهم. أريحونا من هــذا الحــرج الــذي تــدفعوننا إليه وجازاكم الله خيرا..

سمير بنايوتى – المحلة الكبرى..

وفى 13/5/89 نشــرت الأهــرام تعقيبًا تحت عنوان "بلا حرج"..

ردًا على ما نشــره الأخ ســمير بنــايوتي في بريدكم تحت عنـوان "هـذا الحـرج"ـ أحب أن أبلغ سيادته وأبلغ كل الآبـاء الـذين يجـدون حرجا من تــدريس بعض النصــوص القرآنية أو الأحــاديث النبوية لأبنــائهم في كتــاب القــراءة ويطــالبون بنقلها إلى كتاب التربية الدينية:

أولا: أن القــرآن هو الكتــاب الســماوي الوحيد الذي برأ السـيدة مـريم العـذراء مما نسـبه إليها اليهود، خاصة مع يوسف النجار، فشهد لها القــرآن بقوله ﴿ **إِنَّ اللــهَ اصْــطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْــــطَفَاكِ عَلَى نِسَــــاءِ الْعَــالَمِينَ** ﴾. صـــدق الله العظيم كما أنه أفــرد لها ســورة باســمها (ســورة مــريم) وبذلك تفرد في رد اعتبارها.

ثانيــاً: أن القرآن ينقسم إلى أربعة أجــزاء: (أ) إلاهيــات. (ب) قصص أنبيــاء. (ج) تشــريع. (ميراث شخصية). (د) سلوكيات.

فــالجزء الأول من الإلهيــات خــاص بإثبــات وحدانية الله وقدرته وأنه خـــالق.. وهو خـــاص بالمســلمين ومقــرر في كتب الــدين الإســلامى فقط.

والثاني: من قصص الأنبيــاء وقد ورد في كل الكتب السماوية وقد درسته أنا من خلال مقارنة الأديــــــان واطلعت على كل الأناجيل بما فيها إنجيل (برنابــا) الــذي يتحــرج منه الشــرقيون، وأتممت دراســـتي على أيـــدي أســـاتذة من القساوسة الأفاضل ولم نتحــــــــرج من ذلك كمسلمين.

جزء التشريع وقد أخذ وعمل به كل الخلق من مسلمين ومسيحيين ويهـود دونما فـرض من أحد في الميراث والأحوال الشخصية التي عادت إليها الــــــدول المتقدمة كأمريكا وأوروبا، فقد أبـــاحوا الطلاق بعد تفشي الزنا والأبنـــاء غـــير الشرعيين الخ...

ثالثـــا: أن النصـــوص المدرســـية ما هي إلا سلوكيات ولكنها بلغة القــرآن أي بلغة راقية من بلاغة وأدب وغيرهما.. وهذا النـوع هو ما تسـميه أوروبا إتيكيت، من مثال ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ يَسْـخَرْ قَـوْمٌ مِّن قَـوْمٍ** ﴾ .﴿ **وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا بِأَحْسَــنَ مِنْهَا أَوْ رُدُّوهَا** ﴾ **"لا يــؤمن أحــدكم حــتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه"**.. إلى آخره من الآيات والأحاديث الـتي تعلم السلوك الراقي والخلق المهذب، فمن أين

إذن يتعلمها الطلاب إذا لم تفـــــرض عليهم في نص يمتحنون فيه؟؟؟.

رابعـا: إذا كـان مسـتوى هـذه الآيـات فـوق مستوى الأطفال في الابتدائي فإن العيب يكــون في بعض الأطفال سواء بالتعلثم أو (التهتهــة) أو غــيره، لأننا من جهة نسـعى للمــدارس الأجنبية فكيف إذن يتعلمونهـــا؟ ومن جهة أخـــرى فقد شاهدنا جميعا أطفـال الأزهر وهم دون العاشـرة من حـافظي القـرآن وكلهم ثقة بأنفسـهم أمـام الـوزراء ورئيس الجمهورية نفسه يتلـون القـرآن ويناقشــون في ثبـات ومقـدرة (حمـاهم اللـه) وعقبال أولادنا، فهل اللغات الأجنبية أسـهل على أطفالنا من لغتهم العربية؟؟.

وفى ختام الرد أعرف سيادته أن القــراءة لا تحفظ، وإنما الحفظ يكـون في مـادة النصـوص وهي فرع واحد من فروع اللغة العربيــة. وأما ما أبلغته ابنته بذلك ربما لأن مستواها ضـعيف جـدا فتتعلل بأعـــــذار واهية صـــــــدقها ولي الأمر المســكين، فــإذا أراد أن يقطع الشك بــاليقين فليتصــفح منهج اللغة العربية ليتأكد مما أقــول، علما بأن الكليـات الإسـلامية المتخصصة تـدرس المسـيحية واليهودية وتلك مـواد مسـتقلة بـذاتها وليست فرعا من مادة.

ولم نتحـــرج أثنـــاء دراســتنا لليهودية ولا للمســـيحية بل نطـــالب بالمزيد من آيـــات

السـلوكيات؛ لأن الأجيـال لا تجد من يعلمها أولويات الأدمية. وشكرا...

نظلة إبراهيم حسن بالتربية والتعليم.

محـرر بريد الأهـرام: كـانت الرسـالة الأولى تعبـيرًا عن وجهة نظر من حقها أن تعـبر عن نفسها.. وهذه الرسالة تمثل وجهة النظر الأخرى في نفس الموضوع، وبـذلك اسـتوفى الموضـوع التعبـير عن وجهـتي النظر، وقد نشـرناهما بلا حرج إيمانا بأن كل شـيء قابل للمناقشة الهادئة الموضـوعية، لهـذا فـإني أرجو اعتبـار الموضـوع مغلقا.. وأعتذر عن عدم نشر أية رسـائل أخـرى حول نفس الموضوع.. وشكرًا..

ولكن في 17/5/89 نشر الأهـرام تعليقين جاء أولهما تحت عنوان "قد تبين الرشد". بتوقيع الـدكتور: عبد الـرحمن العـدوي، كلية الـدعوة الإسلامية جامعة الأزهر، جاء فيه:

"اطلعت على الكلمة المنشـورة في بريد الأهرام تحت عنوان "هذا الحرج" والتي يستفتي كاتبها علماء الإسلام في مـدى جـواز إلـزام غـير المسلمين بحفظ آيات القرآن الكريم والأحاديث الشـريفة وامتحـانهم فيها في دروس القـراءة بالمـدارس الابتدائيـة.. وإجابة على هـذا أقـول لسيادته ما يلي:

1- ليس في تعاليم الإسلام ما يدعو إلى إكـراه غير المسلمين على الدخول في الإسـلام أو حفظ آيـات القـرآن الكـريم والأحـاديث الشـريفة وهم لا يؤمنـون بهـا. وقد صـرح القرآن الكريم بذلك في قـول الله تعـالى **لاَ إِكْـرَاهَ فِي الـدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْـدُ مِنَ الْغَيِّ ..**

2- يدعو القرآن الكريم أتباعه إلى البر والعـدل مع غـير المسـلمين الـذي لم يعتـدوا ولم يحـالفوا المعتـدين، وقد جـاء ذلك في قوله تعـالى: **لاَ يَنْهَاكُمُ اللـهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَـاتِلُوكُمْ فِي الـدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُـوكُم مِّن دِيَـارِكُمْ أَن تَبَـرُّوهُمْ وَتُقْسِـطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ** .

3- من الـبر والعـدل مع غـير المسـلمين ألا نوقعهم في حرج تضيق به صدورهم، وعلى هـذا فليس من تعـاليم الإسـلام إلـزام غـير المسـلمين بدراسة وحفظ آيـات القـرآن وأحاديث رسول الله وامتحانهم فيها.

4- واقترح لدفع هذا الحرج أن يسـمح للطـالب المسيحي بألا يقرأ ما في كتب القـراءة من الآيات والأحاديث. وأن تشـتمل هـذه الكتب على الآيات التي أنزلها الله في اصطفاء آل عمران وتكريمه لامرأة عمران ومريم ابنتها الطـاهرة البتـول وولـدها عيسى بن مـريم عليه الصلاة والسلام، والآيـات الـتي تتنـاول

دعوته، والمعجزات التي أيده الله بها، وهى آيـات كثـيرة يـؤمن بها المسـلم ويتعمق بها إيمان المسيحي بدينه وكتابه.

5- وعند الامتحـــان في موضـــوعات القـــراءة يوضع سؤال اختيـاري يعطي فرصة متكافئة في الإجابة للجميع.

6- وأخـيرًا فـإن المسـيحي المتـدين الملـتزم بأخلاقيات دينه كالمسـلم المتـدين الملـتزم بأخلاقيـــــات دينه كلاهما نمـــــوذج طيب للمـــواطن الصـــالح الـــذي يقيم علاقاته مع الآخـــرين على المحبة والـــود والتعـــاون ومكارم الأخلاق التي تأمر بها جميع الأديـــان السماوية والتي تسعد الأمة وتنهض وترتقي بتحقيقها في نفوس المؤمنين".

وكذلك نشر كلمة أخرى تحت عنـوان "حمانا الله وإياكم"..

تحية طيبة من قـــارئ دائم لبـــابكم المحبب إلى نفسي من سنوات، وللأسف لم اشترك في كتابة أو تعليق طيلة هـــذه الســـنوات ســـوى بالإعجاب أو الضيق في صمت. وأنا أتابع أحـــوال مجتمعنا من خلال ما أقرؤه فيه.

ولم يخرجني من صمتي سوى رسـالة (هـذا الحرج) لكاتبها القارئ سمير بنـايوتي من المحلة الكبرى شاكيا فيها من إلـــزام ابنته بدراسة بعض آيـات القـرآن الكـريم والأحـاديث الشـريفة في كتاب القـراءة بالمدرسة الابتدائية، وقد ضـايقني

حين قرأتها سطحية رأيه، ولست ألومه في ذلك لكـني أخـذت على سـيادته أنه اختـار وقتا سـيئًا للغاية في الخـــوض بلا حـــرص في قضـــية هي أساسا تربوية مطلقة لا دخل فيها للملل (على حد تعبـيره) والخـوض في الإسـلام والمسـيحية، وأقول لسـيادته: "إذا كـانت ثقافته أجنبيـة". فـإن لغة القرآن الكريم والأحاديث الشـريفة هي قمة البلاغة لدارس اللغة العربية، وهي لغتنا الأصيلة، وإننا ونحن نـــدين بالمســـيحية كـــان أســـاس موضـــوعات الإنشـــاء وقمة البلاغة في كتاباتنا، وسر تميزنا في لغتنا العربية الرفيعة هو الاستشـهاد بـبيت شـعر أو حـديث شـريف أو آية قرآنية كريمة ولم يكن على أيامنا – وليست بعيدة كثيرا عما نراه اليوم من تزمت وفرقة، بل كـان هنـاك الحب والإخـاء والتعـاون والمشـاركة والترابط والمحبة، لم يكن هنـــــــــاك التعصب والتخلف كما نـرى هـذه الأيـام من بعض إثـارة النزعات والمتطرفين من الطـرفين، والحمد لله أنهم قلة جاهلة أصـــــفها بالســــطحية تتمسك بالقشـــور بعيـــدًا عن المعرفة الحقيقية لمعـــاني الحيـاة، وأعـوذ بالله إذا وصـفتها بأنها بعيـدة كل البعد عن معرفة الله ســـبحانه وتعـــالى، والله محبة، والأديـــان الســـماوية تـــدعو للســـماح والمجادلة بالحســـــنى ولكل حرية الاختيـــــار والعبـــادة، واقسم إنـــنى كنت أحضر اجتماعـــات الإخـوان المسـلمين بـدارهم بالزقـازيق بعلمهم

وبـترحيب الأخـوة الـزملاء، وكـانت الاجتماعـات كلها ســماحة وحضا على التمسك بالــدين دون المساس بشعور أحد، وكان الحب رائـدًا للجميع، وحـــــدث ذلك عــــام 1950 فلنعد إلى أخلاقنا وترابطنا ليعـود الحب والوئـام والخـير يـوم كـان راعي الكنيسة حين ينصح يستشــهد بآيـــات من القرآن الكريم والأحاديث النبوية الشريفة بجانب ضـربه للأمثـال والحكم من الكتـاب المقـدس – كلها كتب مقدسة ومنزلة من عند الله ســبحانه وتعـالى وهـدفها الأكـبر ترسـيخ الحب والـتراحم والتقدم والاستقرار.

حمانا الله وإياكم وبلادنا العزيــزة شر الجهل وضـــعف العقـــول – وتحيا مصر، ويحيا راعي الوحدة الوطنية رئيسنا الإنسان المتزن الإنســان الفاضل وعاش الهلال مع الصليب.

إميل بشاي مجلي، موجه بالتعليم الثانوى بالزقازيق

من شــواهد الحساســية ما ذكــره الــدكتور طارق البشري في جريدة الأسبوع العدد الصادر في 21 نوفمـــبر ســـنة 2005م (ص 5) "أن الــدكتور محمد عمــارة استشــهد في أحد كتبه بفقرة من كتاب مـونتجمري، وأنه الـذي ترجمه، ونشــــرته مكتبة الأســـرة، عما تقوله اليهودية والمسـيحية عن أن القـرآن مسـبوق بأفكارهما، ومايشير إليه القرآن من تغيــير وقع في اليهودية والمســيحية". فلما نشر المقــال كتب عــدد من

الكتــاب المســلمين والمســيحيين بيانا تضــمن الاعــتراض على إثــارة الخلافــات العقائدية، ولما عرف الدكتور محمد عمارة ذلك قال: في مقـال ثــانٍ له إنه يوقّع مع المــوقعين؛ لأن حديثه كـان موجهًا للسياسات الغربية قديمها وحـديثها وليس للمسيحيين الشرقيين.

ومع هذا تقدم البعض بشكوى للنـائب العـام ضد الدكتور محمد عمارة طــالبين التحقيق معه؛ بـــزعم أن حديثه يمثل اعتـــداءً على عقائـــدهم، واســـتدعت النيابة الـــدكتور عمـــارة ثم حفظت الشكوى في أدراجها في 2 سبتمبر 2004".

ويماثل هـذا أن اثـني عشر قسيسًـا احتجـوا على فيلم "باحب السـينما"؛ لانه يمس الأقبـاط، رغم أن مؤلفه قبطي، وطالبوا بإيقاف عرضه.

لكن هذه "الحساسيات" تهون أمام ماحــدث للأنبا يوحنا قلته نـــائب البطريـــرك الكـــاثوليكي عندما كتب مقالاً عن الرسول بمناسبة رمضـــان بعنوان "**رمضان كريم.. تأمل مسيحي**".. وجاء في هذا المقال..

أحـاول أن أخـترق الحـاجز التـاريخي. حـاجز الصمت والخوف، حـاجز الجهل وثمـاره التعصب والخصام. أغـامر لكي أعـبر فـوق أوهـام لا تمت للحقيقة بصــلة ســكنت في وعى أو في لا وعي الشــرق وفي الغــرب، واســتوطنت أعماقــه، ولا يزال وجـدان البشــر، شــرقا وغربـا، مزدحما بما يشبه صراع العواطــف. وممزقا بأصــوات تناقلها

التاريخ عبر القرون الطـوال، وياللأحمـال الثقـال من المغالطـات، والتهم الباطلـة، والتفسـيرات الغبية القاصرة وزيف الشروحات والتحامل على الإنســان الآخــر، أحمــال نــاءت بها عقــول المفكـــرين، وأجهـــدت ضـــمائر ذوي الإرادة الصالحة.

وما زال القلـــق، والخـــوف، والحساســية والتحفز الســلبي أمــورًا تحكم رؤية المســلم للمســيحي، ورؤية المســيحي للمســلم، وبنــوع خاص ما زالت شخصية "الإنسان العظيم" محمد بن عبد الله نــبي الإســلام ورســول الحضــارة العربية ما زالت أكــبر من اكتشــاف جــوانب عظمتها.

أتجاسر وأنا المسيحي العربي أن اقترب في تهيب وفي خشــوع من شخصــية "الرســول العـــربي" لا أتمـــنى أن يظن بي أحد إنى أتنكر لإيمـانى وعقيـدتي، أو رد يلصق بي تهمة النفـاق والعياذ باللـه. والله – سـبحانه وتعـالى – فـاحص القلــوب والضــمائر والــذي لا تأخــذه ســنة من النـــوم. فكلمـــاتي ليست إلا دعـــوة إلى الحب والمودة والتفاهم وإقامة حوار إنسـاني رفيع بين الإنسان والإنسان المختلف عنه.

من أعمــاق الصــحراء العربية الصــامتة منذ مئات القرون، فوق الرمـال الحارقـة، والجفـاف القاتل والظمأ الحاد. والجوع الذي يدفع بالقبائل إلى التنقل والتقاتــل. من قلب قرية كبــيرة، أو

مدينة صغيرة أقيمت في قلب الصحراء، أحاطت بها الأساطير واختلطت بالتاريخ والسير.

من أعماق الصمت خرج صوت يـؤذن: لا إله إلا الله محمد رسـول اللـه، حـدث ذلك في بداية القــرن الســابع الميلادي، ولد الميلاد الهجــري، كـانت الصــرخة قويــة، زلـزلت عــرش كســرى وعرش قيصر، والتفت العالم الفارسي، والعـالم البيزنطي، الشرق والغرب، في غير اكـتراث، لم تنصت فـــارس إلى صـــوت قـــادم من القبائل العربية المتشــــرذمة، لم تهتم بيزنطة فقد أتاها قبل ذلك أصـــوات كثـــيرة من عمق الصـــحراء العربية. وعرفت كيف تكبتها وتمحو أصداءها.

لم يســمع الشــرق أو الغــرب، الشــمال أو الجنـوب عن محمد إلا حين دقت وفـوده أبـواب الشــعوب والملــوك لتعلن لهم: جــاء دين جديد يقول إنه امتـداد وتكمله لمن سـبقه، عقيدته أن محمـدًا بن عبد الله بعث للنـاس نبيـا، يحمل دينا جديدا، ويحمل وحيا منزلا، لم يكن الأمر مفاجأة، فقد تعودت المنطقة العربية على ظهور مـدعين وأنبيــاء كذبــه، لم يكن الأمر يثــير هما للغــرب المطحون تحت حكم أباطرة بيزنطة، أو للشرق المطحون تحت صدمات التمـزق الـديني واعتقد أن هذه الشخصية النبوية لم تزل مجهولة شــرقا وغربا، بل لعلها لم تزل مجهولة لدى المســلمين أنفسهم. فكم بالأحرى عند غير المسلمين.

محمد بن عبد الله () من أنت يـــاذا المهابة والجلال بالنســبة لي أنا المســيحي؟ من أنت يا صانع حضارة نقلت البشرية من عالم إلى عــالم وأرست قواعد للدول والشعوب؟.

من أنت أيها الآتي من الصـــــحراء من قلب الأمية والجهل؟ من القـاع. من سـخط الشـعوب القديمــة، من أســرة فقــدت الوالــد، من قبيلة عبدت المال والتجارة.

من أنت يا إنسان؟؟

يا رجل؟؟

يا رسول؟؟

أنا مسـيحي أومن بـأن المسـيح كلمة الله – الذاتية الناطقة – هو الــوحي الكامــل، وكمــال الــوحي، تعلمت هــذا وملأ وجــداني، لكن أمــام "إنسانيتك" أمام رسالتك، أمام كتاب ربك الــذي حملته، أمام تاريخك، أمام ذلك كله لا أجد حرجا، أو قلقـا، أن أحــني الــرأس إجلالا واحترامــا، حبا وانبهارًا، لا يا سيدي، لا ينكر من فضلك وسموك إلا جاحد أو جاهــل، دعــني يا ســيدي في شــهر رمضان، أرفع إلى مقامك السامي، حبا وإكراما، لأنك إنسان، حملت كل سـمو إنسـانية الإنسـان، لأنك رســول بعثت لتنقل المجتمع من حــال إلى حـال، لأنك صـاحب حضـارة، لأنك قـدوة للحكم، للمنتصر وللمنهزم، للقوي والضعيف، لأنك إمــام المؤمنين بالله الواحد وباليوم الآخر.

سيدي نبي الإسـلام، رسـول الحضـارة تقبل حبا وإجلالا من مسيحي في الشهر المبارك.

وعلقت روز اليوسف على هذا الخبر بعنـوان "أقباط يكفرون أقباط". قـالت الجريـدة (العـدد الصادر في 9/2/1998 ص70).

بدأ الهجوم على المقال وعلى الـدكتور الأنبا يوحنا قلته في قـــبرص، حيث كـــان يعقد في مجلس كنـــائس الشـــرق الوسط الـــذي كـــان يحضــره هو أيضًــا.. وهنــاك قــام أحد أســاقفة الكنيسة القبطية الأرثوذكســية وقيــادة كبــيرة تتـولى منصـبًا هامًـا.. بتصـوير المقـال عشـرات المرات وتوزيعه على الحاضرين.. ثم قام بإعداد بيـــان يطلب فيه بعـــزل الأنبا يوحنا في صـــيغة تصفه بـ "الخـارج على المسـيحية"، إلا أنه فشل في إقنـــاع أي من الأســـاقفة الحاضـــرين في التوقيع على مثل هـذا البيـان.. الـذي أعـاد إلى أذهانهم عصـور الانشـقاق الأول في المسـيحية، والتي لا تزال تعاني منها المسيحية حتى الآن.

على الرغم من كل ذلك لم يمنع هذا الرفض من قبل الأساقفة أن يثـور هـذا الأسـقف ويتهم الأنبا يوحنا قلته بالكفر والخروج عن المسيحية.

وبـالطبع لم يكن هو الوحيد الـذي صـدر منه هذا. ففي نفس الوقت كانت هناك معركة أخرى مشـــتعلة داخل مصر ما بين التيـــار المســـيحي السلفي المتعصب الـرافض للمقـال من جـانب، والتيـــار المســـتنير الـــذي لا يجد أي مســـاس

بالعقيدة أو الإيمان المسيحي في نفس المقال من جانب آخر.

ومن ثم أصبح المقال موضوع عظات يوم الأحد التالي لنشره في معظم كنائس مصر، حيث استغل بعض رموز التيار المتعصب هذا المقال لإشعال الحرب ضد الأنبا يوحنا قلته.. بينما قام التيار المستنير بشرح ما جاء به لعامة الشعب الذي اختلط عليه الأمر بسبب بعض التفسيرات سيئة النية من قبل المتشنجين.

بذلك انتقلت المعركة إلى الرجل القبطي البسيط في الشارع.. فازدادت الخلافات ما بين مؤيد ومعارض داخل قاعات الكنائس وخارجها..

وكعادتهم لم يشأ أقباط المهجر أن يكونوا بعيدين عن الساحة خاصة بعد انحسارهم الأخير بسبب طلبهم التدخل الأمريكي في الشئون الداخلية لمصر بحجة الدفاع عن الأقباط!!.. فجاءتهم الفرصة للعودة مرة أخرى لفرض وصايتهم على الأقباط في مصر.. وانهالت الفاكسات التي تكفر الأنبا يوحنا قلته إلى كل الهيئات والمؤسسات القبطية في مصر، وكذلك إلى الأنبا يوحنا قلته نفسه.. وقادت هذا الهجوم إحدى هيئات أقباط المهجر في إنجلترا من ناحية، والدكتور سليم نجيب أحد قيادات أقباط المهجر في كندا من ناحية أخرى.. في اتهام علنى له بالخروج على العقيدة المسيحية.. بل

وصل الأمر إلى اتهامه بأنه ارتد عن المســـيحية إلى الإسلام!!.

أدى ذلك بـــالطبع إلى تـــوتر داخل الكنيسة الكاثوليكية نفسها، خاصة أن بعض رجـال الـدين الكاثوليكي أبدوا تحفظهم تجاه المقال بأنه على الرغم من عدم وجـود أي مسـاس فيه بالعقيـدة المسيحية إلا أن نشره في جريـدة يومية تقرؤها فئات مختلفة من الشـعب، جعل البسـطاء منهم يفاجأون بعبارات التبجيل للرسول () فظنـوا أن الأنبا يوحنا يخون عقيدته.

نعـــود إلى المقـــال نفســـه. حيث لا نجد ما يفسر كل هذه الضجة.

لقد بدا واضحًا منذ بداية المقـال تحفظ الأنبا يوحنا قلته الشـــديد، فهو يعلن إيمانه المســـيحي ويؤكـده أكـثر من مـرة بعبـارات لا تقبل الشك، والتي كانت أقواها قولـه: "إنـني مسـيحي أومن أن المسيح كلمة الله – الذاتية الناطقة – الوحي الكامل وكمال الوحي".

ويعلن أيضًــا بأنه لا يتمـنى أن تفسر كلمـات بـــأمور مســـتهلكة في مجتمعنا الشـــرقي الـــذي يصف من يختلفون معه بالخيانة والنفــاق وأحيانا بالكفر أو شابه ذلك.

ويؤكد في معرض حديثه أنه يتناول شخصــية سيدنا محمد () من الناحية الإنســانية والتاريخية التي حــاول خلالها إتبــاع منهج جديد للكشف عن الجوانب الشخصية التي لم تــزل مجهولة شــرقًا

وغربًا، بل ولدى المسلمين أنفسهم – على حد قوله.

ويطرح بعد ذلك عدة تساؤلات فيقول: من أنت (يقصد الرسول ﷺ) يا ذا المهابة والجلال بالنسبة لي أنا المسيحي! من أنت يا صانع حضارة نقلت البشرية من عالم إلى عالم وأرست قواعد للدول وللشعوب؟ ويستطرد متسائلا: من أنت أيها الآتي من قلب الصحراء.. من قلب الأمية والجهل.. من القاع، من سقط الشعوب القديمة.. من أسرة فقدت الوالد.. من قبيلة عبدت المال والتجارة.. من أنت يا إنسان.. يا رجل.. يا رسول؟!.

كل ما سبق لم يكن سببًا في هذه الضجة لكنها حدثت بسبب الفقرة الأخيرة من المقال.. والتي بدأها بقوله: "أنا مسيحي أومن بأن المسيح كلمة الله – الذاتية الناطقة – هو الوحي الكامل وكمال الوحي.. تعلمت هذا وملأ وجداني، لكن أمام إنسانيتك (يقصد سيدنا محمد ﷺ) أمام رسالتك، وأمام تاريخك.. أمام كل ذلك لا أجد حرجًا أو قلقًا أن أحني رأسي إجلالا واحترامًا حبًا وانبهارًا.. لا يا سيدي، لا ينكر فضلك وسموك إلا جاحد أو جاهل، دعني يا سيدي في شهر رمضان أرفع إلى مقامك السامي حبًا وإكرامًا؛ لأنك إنسان حملت كل سمو إنسانية الإنسان؛ لأنك رسول بعثت لتنقل المجتمع من حال إلى حال. لأنك صاحب

حضارة.. لأنك قدوة للحكم المنتصر وللمنهــزم.. للقــوي وللضــعيف.. لأنك أمــام المؤمــنين بالله الواحد وباليوم الآخر..".

ويختتم قـائلا: "سـيدي نـبي الإسـلام رسـول الحضــــارة تقبل حبًا وإجلالا من مســـيحي في الشهر المبارك".

كان هذا الجزء هو موضوع الأزمة..

ولكن هل كـان ما جـاء بالمقـال هو السـبب الوحيد لكل هذه الضجة؟!.

بالتأكيد لم يكن كذلك.. فـالنص يحتـوي على عبارات إجلال وانحنـاء.. إعجـاب وانبهـار.. وتحية في عيد رمضان قام الكاتب بتوجيهها إلى سـيدنا محمد (ﷺ) بصفته شخصية إنسانية غيرت مجــرى تــاريخ المنطقة العربية، بل الكثــير من منــاطق العالم.. إلا أن هذه الكلمات رغم كل ذلك كـانت الفرصة المناســـبة في إرســـال ســـيل من الخطابـات والفاكسـات وتليفونـات التكفـير كأنه خان عقيدته.

فــأين هنا خيانة العقيــدة أو مخالفة الإيمــان المسيحي؟!.. فهو يقول: "الرسول العـربي نـبي الإسـلام صـانع حضـارة".. ومن ينكر ذلك ولازال مليــار من البشر يصــلون عليه ويســلمون ليل نهار.

فهل يعتبر اختراق الكـاتب لحـاجز التـاريخ – كما يقــول هو في مقدمة المقــال – في محاولة

للعبور فوق أوهام لا تمت للحقيقة بصلة، سكنت في وعي أو لا وعي الشـــــــرق أو الغـــــــرب واســـتوطنت أعماقه وخاصة في وجـــدان البشر شـــرقًا وغربًا لا يــزال مزدحمًا بما يشــبه صــراع العواطـف.. ممزقًا بأصـوات تناقلها التـاريخ عـبر القرون الطويلة ومحملا بالإثقال من المغالطـات والتهم الباطلة والتفســــيرات الغيبية والتحامل على الإنسان الآخر.. فأصبح الخوف والحساسية والتحفز الســـلبي أمـــورًا تحكم رؤية المســـلم للمسيحي ورؤية المسيحي للمسلم".

وهنا نجد أن الأنبا يوحنا قلته حـــاول تغيـــير النظرة الإنسانية دون المساس بأي لغم عقائدي ودون تفجـير قنابل تعصب أو كراهية في محاولة لزرع الحب والمودة.. فهل هـذا كثـير ونحن الآن في بداية القرن الواحد والعشرين!!

لقد أراد الكاتب أن "يخـترق حـاجز التـاريخ" فكـــان جـــديرًا بالتشـــجيع لأنه أراد العـــودة إلى الحقيقة وإزالة الأكاذيب التي نالت من الرســـول وكانت سـببا في التـاريخ القـديم – في الحـروب الصليبية – كما كـانت في التـاريخ الحـديث سـببا في الجفاء ما بين المسلمين والمسيحيين.

والأغرب أن يتولى دعوى التكفير أحد رجـال الكنيسة الأرثوذكســـية المصـــرية الـــتي يعيش الأقباط فيها في ظل الإسلام الذي حرر الأقبـاط من الاضطهاد البيزنطي وأعاد الكنيسة استقلالها وكيانها.

فهل هناك فجاجة أو حماقة مثل هذه، وبماذا تفسرها إلا بحساسية قاتلة مدمرة تحيق الضــرر أول ما تحيق بالكنيسة والأقباط..

المشــكلة أن هــذه الحساســية المرهفــة، الحادة، قد طالت الحكام والمسئولين وكثير من الكتاب بحيث أصبحوا يتجنبون كلمة "الإسـلامي" ويلوذون بكلمة "الـديني"، وعنـدما يتحـدثون عن الحضــارة الإســلامية يتحــدثون عن الحضــارة العربية، علما بــأن إســهام غــير العــرب من فارســيين وإيرانــيين وغــيرهم يفــوق مســاهمة العــرب. وأصــبحت الحساســية الدينية إحــدى ورقـــات اللعب والضـــغط، وأصـــبحت تحجب المصارحة بالحقائق وتعترض اللواذ بالمندوحات، وتفتح بابا للتأويل المغـــــرض، فكل إشـــــادة بالإســلام، وأنه قــوام الحيــاة العربية المســلمة يؤخذ ويعالج باستحياء حتى لا يسيء إلى مشاعر الأقليات الدينية ويكون من الخير تجنبه.

والنتيجة أنه في العصر الـــــذي أصـــــبح "الجنس" يـدرس وينشر وتخـرج به على النـاس شاشات التليفزيون، أصبح الحـديث عن الإسـلام يثـــير الخجل والحيـــاء ويتـــوارى كأنه شـــيء "مكسف".

ودفع ذلك المسـئولون لأن يكـرروا الحـديث الممل عن الهلال مع الصـــليب – الشـــيخ مع القديس، المسـجد والكنيسة، ورجـال الـدين من الأقبـاط والمسـلمين. وزج بشـيخ الأزهر وبالبابا

شـــنودة ليظهــرا في كل المناســبات الرســمية متجاورين، وكثر الحديث عن "عنصري الأمة".

فهل فكر المسئولون في أن هـذه الظـاهرة تسيء إلى وحدة الأمة. وتكرس وجود عنصــرين وتوحي كما لو أن مصر مثل قبرص ولبنان، وكما لو أن الأقلية القبطية تعــدل الأغلبية المســلمة، وأنهم في حرصــهم على العدالة للأقلية أوقعــوا الظلم بالأكثرية؛ لأنهم يســـاوها بالأقليـــة.. هل فكـــروا في أنهم في حرصـــهم على الوحـــدة يعمقون مشاعر الطائفية.

إن تجـــارب التـــاريخ توضح أن الممـــالأة والمجاملة أو التنـــازل من جـــانب الأغلبية في حقوقها المشـــروعة يمكن أن يوجد مشـــكلة مستعصـية في المسـتقبل تبـوء بأوزارها الأقلية التي أريد مجاملتها..

الفصل الرابع
طموح القيادة

الطمـوح وإن كـان من المكونـات الرئيسـية لكل زعيم وقائد – فإنه ما لم يقــترن بالحكمــة، والحـــــذر، والشـــــورى، وملاحظة العديد من الاعتبارات، والأبعاد، ومقاومة الإغراء بحيث يقف القائد عند نقطة معينة لا يتعداها.. فإن الطمــوح يمكن أن يــؤدي إلى عكس ما اســتهدفه.. ففي الطموح طبيعة المقامرة، والمغـامرة، والمقـامر الحكيم وحــده – إذا وُجد – هو الــذي يســتطيع مقاومة الإغــراء الــذي يمكن أن يــودي بكل ما ربحه!

ويتعــرض القائد الطمــوح لعملية نفســية/ اجتماعية دقيقة يتــداخل فيها الطمــوح الــذاتي بالهـدف العـام ويتمازجـان حـتى يصـبحا شـيئًا واحــدًا، وقد يمثل ذلك قولة لــويس الرابع عشر (أنا الدولــة)، أو كلمة ســعد زغلــول "لا تحــرج سعدا، فتحـرج الأمـة!" كما قد يصـوره انحـراف ليــنين عن الخط الموضــوعي والأصــيل لكل أدبيات الاشتراكية وتداعياتها من حرية، ومساواة جماهيريـــة، وعدالـــة.. إلى سياسة المركزية الديمقراطية في السياسة والأخذ بالتيلورية في

سياسة العمــل، وقمع المعارضة العماليــة.. إلخ. وإذا كانت هذه الاتجاهات التي نبعت من الإيمان الشخصي لليــنين قد قهــرت روح الاشـــتراكية وطبيعتهــا، فهــذا ما يعطينا مثــالا حيًا عن قــوة الطمــوح، وكيف يجعل القائد يــرى نفسه ممثل الــدعوة، وكيف يدفعه للسـير قـدمًا حـتى يوقفه على حافة الهاويــة، وفي معظم الحــالات يوقعه فيها...

وقد لا نجد كتابًا عـــني بمثل هــــذه النقطة وفصل فيها ونـــوه بها ونبه عليها مثل القـــرآن الكريم... فـالقرآن يسـلم بضـرورة وجـود القائد والإمام، ولكنه يجعله "رسولا".. ومعـنى هـذا أن يســتبعد كل المعــاني الذاتية ﴿**لَيْسَ لَــكَ مِنَ الأمْـرِ شَـيْءٌ أَوْ يَتُـوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَـذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ**﴾ (آل عمران 128)، وهو يؤكد أن دور الرســول هو البلاغ، ويســوقه في صـيغة الحصر ﴿**إِنْ أَنتَ إِلاَّ نَــذِيرٌ**﴾، ﴿**وَمَا أَرْسَــلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّـــرًا وَنَـــذِيرًا**﴾ وأنه ليس جبـــارًا، ولا حفيظًــا، ولا حــتى وكيلا عن النــاس، وهو يوجهه لكي لا تســتبد به الرغبة في الهداية إلى الدرجة التي قد يغلب فيها المعنى الخاص المعنى العام، رغم أن دور الرسول هو بالطبع أن يهدي الناس، وبقدر ما ينجح في هداية أكبر عــدد بقــدر ما يعد مؤديًا لرسالته، ولكن الأمر ليس بهـذه البسـاطة لاحتمال تداخل المعـنى الخـاص بـالمعنى العـام، ولأن هنــاك أناسًــا لا يمكن هــدايتهم لأســباب

عديـــدة، وليس من دور الرســـول أن يهـــديهم قســرًا، ﴿**وَمَا عَلَيْــكَ أَلاَّ يَــزَّكَّى**﴾ ..﴿**فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَـكَ عَلَى آثَـارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُـوا بِهَذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ ..﴿**إِنَّكَ لاَ تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾ ..﴿**وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُـهُمْ فَـإِن اسْـتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِيَ نَفَقًا فِي الأَرْضِ أَوْ سُــلَّمًا فِي السَّــمَاءِ فَتَــأْتِيَهُمْ بِآيَــةٍ وَلَــوْ شَــاءَ اللــهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى الْهُـــدَى فَلاَ تَكُـــونَنَّ مِنَ الْجَاهِلِينَ**﴾ ..﴿**وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لَجَعَـلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُــونَ مُخْتَلِفِينَ* إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ.**﴾ ﴿ **إِن تَحْـرِصْ عَلَى هُـدَاهُمْ فَـإِنَّ اللـهَ لاَ يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ**﴾ .

وهو يـوجب طاعته على المؤمـنين، بل يصل إلى آخر مدى فيقـرن طاعته بطاعة اللـه.. ﴿**مَنْ يُطِـعِ الرَّسُـولَ فَقَـدْ أَطَـاعَ اللـهَ**﴾ .. وهـذا طبيعي ما دام الرسول يبلغ رسالات الله.. ولكن أي انحراف عن ذلك يعرض الدعوة لخطر كبـير، ولـذلك يخـاطب القـرآن – بلهجة حازمة لا تـدع أثـــارة من شك – الرســـول: ﴿**وَإِن كَـــادُوا لَيَفْتِنُونَـكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْـكَ لِتفْتَـرِيَ عَلَيْنَا غَيْـرَهُ وَإِذًا لاتَّخَـذُوكَ خَلِيلا * وَلَـوْلاَ أَن ثَبَّتْنَـاكَ لَقَـدْ كِـدتَّ تَـرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَـيْئًا**

قَلِيلا* إِذًا لأذَقْنَاكَ ضِـعْفَ الْحَيَـاةِ وَضِـعْفَ الْمَمَاتِ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا.

وإلحـاح القـرآن الكـريم على هـذه النقطة ومعالجته لها من كافة نواحيها وما يتسم حديثه عنها من حسم وقـــوة، يوضح خطورتهـــا.. وإذا كـانت بمثل هـذه الخطـورة، حـتى على الأنبيـاء والمرسلين، الذين تحوطهم هداية الله ورحمتــه، ويتــنزل عليهم الــوحي من الســماء، فما بالك بخطورتها على القـادة العـاديين؟.. إن سـجلات التاريخ حافلة بمصارع الطامحين والـويلات الـتي ألحقوها بشعوبهم.

* * *

ومن الـدلالات الـتي تنم عن أن الطمـوح قد جاوز منطقة السـلامة وشـارف منطقة الخطـر، أن يحــاول القــادة التوسع ومد ســلطانهم إلى منــاطق جديـدة، وأن يعنــوا بالسياسة الخارجية مثل أو أكـــثر مما يعنـــوا بالسياسة الداخلية، إذ مجال العمل الحقيقي هو "الداخل" وأي "خارج" يمثل طموحًـــــــا، وقد يمكن المقارنة ما بين بسـمارك وكـافور اللـذين حققا الوحـدة الألمانية والإيطالية بوســائل وسياســات حكيمة ومتأنية ووقفا عند ذلـــك، وما بين هتلر وموســـوليني اللــذين اسـتهدفا التوسع فبــاءا بالفشل وجــرا الهزيمة على بلديهما.

وقد بلغ البطريرك شنودة هذه الدرجة عندما استدرج لأن يكون رئيسًا لمجلس الكنائس العالمية ذي العلاقات المشبوهة بالمخابرات المركزية الأمريكية (س. آي. إيه) وأخذ يرسي ركائز له في أستراليا والولايات المتحدة، وهذا كله – فيما نرى – طموح دنيوي وسياسي، ليس فحسب بعيدًا عن روح الأب المسيحي، بل يمكن أن يسيء إلى صفته كمرشد روحي للأقباط المصريين، ويربط ما بين مواقفهم ومواقف الجاليات التي تتعرض لمؤثرات أخرى غير مصرية!

* * *

لم يقتصر نقد سياسة الأنبا شنودة على الدوائر الوطنية التي رأت أن سياسته تضرم نار التعصب الفئوي وتناقض وحدة الأمة، والتي أشرنا إليها في خيار التحدي، فهناك معارضة قوية لهذه السياسة نشأت بين عدد من الأقباط النابهين الذين أدركوا المغبة السيئة لسياسة الأنبا شنودة، وما تتمخض عنه من هدم الألفة والثقة التي أقامها البطاركة السابقون بحكمتهم والخطوط التي سارت عليها الكنيسة القبطية ومثلت تقاليدها وخلاصة تجربتها في معايشة المجتمع المصري، وظهر عدد كبير من الكتاب الأقباط مثل الأستاذ: جمال سعد عبد الملاك، مؤلف كتاب: "من يمثل الأقباط" وهي نقطة من أهم النقاط وفي صميم الموضوع، والفكرة

الرئيســـية للمؤلف أنه إذا كـــان البابا هو الـــذي يمثل الأقباط – كما هو الظن السائد – فـإن هـذا تركــيز للمعــنى الفئــوي وفصم لوحــدة الأمــة؛ فالأقباط كمواطنين مصـريين تمثلهم انتمـاءاتهم المختلفة داخل الأحزاب أو النقابات، شـأنهم في هـذا شـأن إخـوانهم المسـلمين، أما البابا فـإن سـلطته يجب أن تكـون مقصـورة على النـواحي الروحية الخالصة دون أي ناحية دنيويـــــة، ومن الواضح أن هذا يناقض سياسة الأنبا شنودة.

كما ظهر تيـار قـوي يعـارض الطريقة الـتي يـدير بها الأنبا شـنودة شـئون الطائفـة، وطريقة تعامله مع الكهنة، أو تصـرفه في الأمـوال، وهي نـــواح كنا نـــود لو نُعفى من الإشـــارة إليها لـــولا دلالتها فيما نحن بصدده.

ونشـرت مجلة روزا اليوسف [العـدد 3413 في 8/11/1993] ص8 تحت عنوان "منشورات المعارضة في الكنيسة المصرية" تقريرًا صـحفيًا أشـــار إلى صـــدور 136 منشـــورًا تنتقد أوضـــاع الكنيسة، و67 كاهنًا تمت معـــاقبتهم منذ تـــولي البابا، وأشـــــــــــار إلى أن "المعارضة لا تمثل الجماهير، ولكنها تحظى برضا المثقفين"، وأبــرز التقرير أن بعض أشد المعارضـين كـان في يـوم ما من أشد أنصـــار البابا مثل الأســـتاذ: جمـــال أســـــعد عبد الملاك، ومثل بعض ممن وقف مع البابا أيـام أزمته مع السـادات عـام 1981. وأن حجم المعارضة وإن لم يكن كبـيرًا فإنه يتصـاعد

بشـــدة. ومعظم المعارضة تـــأتي من كنـــدا وأستراليا وأمريكا.

ويستطرد التقرير.

كما شكل بعض رجـال القـانون من الأقبـاط لجنة تحت اسم "جبهة الإصـــــــلاح الكنسي القبطي" مهمتها الدفاع عما ما أسـموه المبـادئ الكنسية.

ونـــددوا ما أســـموه بدكتاتورية البابا حيث يرون أنه انفـرد بحكم الكنيسة واسـتطاع فـرض آرائه على الجميع، وحسب ما قاله جمال أسـعد: إن البابا تخلى عن مبادئ الديمقراطية التي كان ينـادي بها قبل توليه المنصب البـابوي، وذلك بعد أن أحكم ســيطرته على المجلســين اللـــذين يقودان الكنيسة، **وأولهما** المجلس الملي الذي يقــود الكنيسة إداريًا وماليًا، ويضم في عضــويته 24 شخصًــا من المــدنيين ورجــال الــدين، ويتم اختيـــــارهم بالانتخـــــاب الحر المباشر من قبل الأقباط المقيدين في جداول الانتخابـات العامـة. أما **الثــاني** فهو المجمع المقــدس الــذي يضم جميع المطارنة والأســـــاقفة على مســـــتوى الجمهورية وهو يختص بمحاكمة البابا ومحاكمة من يهرطق في الدين.

ويوضح جمــال أســعد كيفية ســيطرة البابا على المجلسين بقوله: "إن البابا أصر على عمل قائمة بأســماء المرشــحين الــذين يــرغب في نجــاحهم في انتخابــات المجلس الملي، والــتي

تجــرى كل خمس ســنوات. ومن الطــبيعي أن يختار الأقباط قائمة البابا في ظل تقديســهم له، وبالتـــالي أصـــبح أعضـــاء المجلس الأربعة والعشـرون تـابعين له لا يسـتطيعون معارضـته، خاصة بعد أن جعلهم شمامسة، وهي: رتبة كهنوتية، وبذلك أصبحوا خاضعين له بحكم الوضع الكهنوتي الجديد.

أما بالنسـبة للمجمع المقـدس الـذي يعتـبر أعلى ســلطة روحية في الكنيسة فقد ســيطر عليه من خلال زيادة عـدد أعضـائه وتعـيين عـدد من الأســاقفة المــوالين له، وذلك من أجل القضــاء على ســلطة الحــرس القــديم من الأساقفة الذين عينوا ورسموا في عهـود سـابقة عليه.

وقد اسـتطاع البابا زيـادة عـدد الأعضـاء عن طريق إنشاء أبرشـيات جديـدة يرأسـها أسـاقفة جدد، حيث كانت كل محافظة بها أبرشية واحدة، فقام البابا بتقسـيمها إلى عـدة أبرشـيات؛ حـتى وصل عــددها في محافظــات أســيوط والمنيا وسوهاج إلى سبعة في كل محافظة على سـبيل المثال، ومن الطبيعي أن يخضع الأساقفة الجـدد لسـلطة البابا، خاصة أنه يختـارهم من المـوالين له.

وهو الأمر الذي يؤكد البعض أنه لهذا السبب فقد المجمع المقدس أية صـلاحية في مناقشـته في أي مشاكل روحية أو عقائدية تمس الكنيسة

والأقبــاط، فالــذي يعــارض البابا داخل المجمع يحاصر من الأغلبية ويتجنبــوه، مثلما حــدث مع الأنبا غريغوريــوس أسـقف البحث العلمي - كما يــروي جمـال أسـعد - الـذي كـانت له آراء في جـــوانب عقائدية تمس التطـــور مثل: قضــــايا الطلاق والـزواج، حيث ينـادي بإباحة الـزواج من أخت الزوجة المتوفــاة، وهو الأمر الــذي يرفضه البابا شـنودة، ولـذلك أصـبح الأنبا غرغوريــوس معزولا من الجميع، حتى أن أحـدًا من الأسـاقفة لا يجرؤ أن يدعوه للصـلاة في أبرشـيته، رغم أنه أســـقف البحث العلمي؛ حـــتى لا يغضب البابا شنودة.

وســـجل أحد كهنة الكنيســـة، وهو القمص أنــدراوس عزيز سـليمان المآخذ الـتي يأخــذها لفيف من الكهنة على سياسة الأنبا شـــــــنودة، وبعضها يتعلق بإضرام التعصب وتعميق المعـاني الفئوية وإيجــــاد حساســـية ما بين الأقبــــاط والمسـلمين، وانتقد بشـدة أن تكـون الوظـائف في يد البطريـــرك أو في يد الأســـقف دون أي ضمان للكهنة، فكل الـذين يعملـون في الكنيسة هم تحت رحمة إرادة البطريرك أو الأسقف دون أي حماية، كما أن الأمـوال الـتي تـرد للكنيسة لا رقابة عليها!

ونسب الكـــتيب إلى البابا ما لم ينسب إلى الملـــوك من بنـــاء القصـــور، واقتنـــاء الكلاب البوليسية التي تأكل قطعًا غالية من الشـيكولاته

المســتوردة، وكــذلك الســيارات المرســيدس الفخمة، هذه العدوى التي بليت بها الكنيسة هذا العصر.

ويغلب أن يكون لهذه الإشـارة أصـل، إن لم تكن هي الحقيقــة، وعلى كل حــال، فأســوأ ما يقــال فيهــا: "ومن دعا النــاس إلى ذمه ذمــوه بالحق وبالباطل"!

على أن التفاصــــيل الدقيقة الـــتي أوردها الكتيب عن معاملة البطريرك لأعـداد كبـيرة من رجالات الكنيسة بعضـهم في مثل مسـتوى الأنبا غريغـورس أسـقف الدراسـات والبحث العلمي، والأنبا مينا مطران جرجا ونجع حمـادي، والأرخن الشهير المرحوم يونان خلة المدور، والأب مــتى المسكين، إلى بقية القسس مثل القس بطرس شحاته كـاهن كنيسة مـارجرجس، والقس أيـوب فام، والقس يوسف مـرقص، وأربعة عشر قسًـا كــان المؤلف أحــدهم.. كل هــؤلاء أبعــدوا عن مناصبهم أو حرموا حقوقهم الوظيفية التي يتمتع بحمايتها أقل موظف في الدولة، وبعضـهم مـات من شدة الأسى والحسرة!

نقـول إن هـذه وقـائع حقيقيـة، وقد صـدرت عن كــاهن يلم بخفايا الأمــور، وليس أدل على صدقها مما نشره أقباط شبرا في مجلة الشعب سائلين إعـادة القس إبـراهيم عبـده في رسـالة تصــور المــأزق المــؤلم الــذي وضــعته سياسة الكنيسة وبطشـــها وما في يـــديها من ســـلطة

مطلقة، وكيف أنها أحوجت الأقباط إلى التمـاس العدالة فيما يشبه الشحاذة الوضيعة، وبعد إزجاء آيات الثناء على من أوقع بهم الجزاء الظالم.!

تقول رسالة أقباط شبرا:

حضـــرة صـــاحب القداسة والغبطة رئيس الأحبار الأعظم/ البابا شنودة الثالث.

بكل خضوع نرفع لسدتكم الرسـولية أسـمى آيـات الطاعة والـولاء سـائلين الله أن يـديم لنا رعـــايتكم حـــتى تنعم الكنيسة بما تحقق لها من امتـداد وازدهـار، إذ علا شـأنها وتجـدد شـبابها وأصـــبحت تعيش في صـــحوة روحية مباركة قل أن تكون لها سـابقة في التـاريخ المعاصر؛ وذلك بفضل يقظتكم وتعــــــاليمكم وما خص الله به قداستكم من ثقافة وعلم غزير، ونحن نؤمن بأن الله في ســابق تــدبيره قد وفــرك لهــذا العهد بالـــذات رُبَّانا حكيمًا جـــديرًا بالقيـــادة الروحية لشعب يضمر لكم حبًا يتسامى فوق كل تعبير.

مقدمو هذا التوسل لغبطتكم أبنـاؤكم "أبنـاء مصـر" وقد فـزعت قلوبنا وحل بها الأسى حينما علمنا بـالقرار التـأديبي الـذي صـدر بإدانة الأب الــورع القس إبــراهيم عبــده الــذي بموجبه تم اســــتبعاده وعزله في دير الأنبا بــــاخميوس بالصعيد. لو كانت عقولنا - بحكم معايشـتها لهـذا الأب زمنًا طـويلا يمكن أن يتطـرق إليها أي نــزر من الشك الـذي يـؤدي إلى تـبرير المؤاخـذة أو الملامة في شـــيء من تصـــرفاته – لاســـتقبل

الشـعب هـذا الإجـراء كـأمر عـادي لا يـوجب التعليق؛ لأن العـرف الجـاري يقضي أن يكـون "الجزاء من صنف العمـل"، ولكن بـاعث الحـزن الـذي ألم بنا لفراقه مخـذولا وحرماننا من أبوته الحانيـة، هو القناعة اليقينية بـأن أبانا يتمـيز بالوداعة والتواضع ورحابة الصـدر والقـدوة الحسنة في كل تصرفاته، وفي كل الأحوال نرى فيه رسـالة المسـيح الصـادقة الـتي نتمـنى أن يحتذي بها الكثيرون.

نحن إذ نـذكر ما يلاقيه هـذا الأب من المطاردة والتعقب بين الحين والآخر نعزوها إلى طبيعة العالم منذ البدء، وما يلاقيه الناجحون في حيـاتهم، ولعل التجربة الماثلة أمامنا تـذكرنا بـالكثير الـوارد في كتابنا المقـدس ومنها قصة يوسف الصـديق وما جـره عليه حسد إخوته من ضـيقات ومتـاعب (تك 37 :ـ 11). ولكن عناية الله كانت معه وسخرت كل التجارب للخير.

واعلم يا سـيدنا أن قلوبنا أمـام الله تعـترف لقداسـتكم أن أبانا القس/ إبـراهيم عبـده ليس محبوبًا من شعب كنيسته فحسب، بل هو موضع إعـزاز وتقـدير من كل الـذين سـعدوا بمعرفته على امتـداد الكـرازة، وإن كـانت ألسـنة النـاس هي أقلام الحق فـإن الجمـوع الموقعة على هـذا الرجاء، وهي جزء من كل، تناشدكم بدالة البنـوة لتحقق رجـاءهم، فلا يطـول حرمـانهم من أبيهم وتعيده إليهم، أدام الـرب حيـاتكم سـنين عديـدة وأزمنة سلامية مديدة.

ممدوح بشري ويصا

(وعدد من التوقيعات)[27]

ولا جدال في أن تصرف الكنيسة تجاه كاهن يتمتع بهـذه الثقة ينـافي ما سـطرته آيـات الثنـاء في القسم الأول من البيان، ويدل على أن هناك أحكامًا فردية تطبق بصـورة بعيـدة كل البعد عن الديمقراطية أو ما تتطلبه أوليـــــات العدالة من ضمانات.

وأثار هذا أزمة استمرت فترة طويلة..

وتقصى القس إبـــراهيم عبد الســـيد نقط القصور في المحاكمات والقرارات التي أصدرها البطريرك شنودة في:

1- عدم وجـود لائحة تتضـمن القواعد الإجرائية والموضوعية لهذه التحقيقـات والمحاكمـات الـــتي تمس في الصـــميم آدمية الإنســـان وكرامته وحقوقه المشـــروعة الـــتي كفلتها شرائع السماء ودساتير البشر، وكذا مواثيق حقـوق الإنسـان العالمية والموقع عليها بين الدول بمعاهدات دولية لها احترامها.

2- عـــدم تحديد نوعية ومـــدة العقوبـــات غـــير المنطقية الصـــــادرة عن أمزجة ســـــادية متقلبة، ومشورات شريرة من بطانات سوء خبيثة، وحاشية مغرضة، وقضاة ومحققين لا

[27] **(27) جريدة الشعب عدد 26/11/1993.**

تتـــــوافر فيهم أدنى المواصـــــفات اللازمة لممارسة مهامهم الخطيرة.

3- صدور الكثير من العقوبـات بمنع المغضـوب عليهم من الصلاة، أو الاقتراب من الأسـرار المقدسة، أو الامتنـــاع عن الصـــلاة على أجساد بعض المحكوم عليهم بعد وفاتهم.

4- اســـتكتاب بعض المحكـــوم عليهم تحت الضـغط والإكـراه على إقـرارات بإرتكـابهم لما هو منسوب إليهم من مخالفات صحيحة أو وهمية تحت زعم التثبت من تـــــوبتهم وضمانا لأبديتهم (!!) رغم عدم ابتكار جهــاز يمكن بواســـــطته القطع بتـــــوبتهم أو استمراريتهم في خطاياهم.

5- عدم إجراء المواجهة بين الشاكي والمشكو في حقه رغم مجافاة ذلك للنصوص الكتابية المقدسة وأحكام القوانين الكنسـية (البـاب 8 من كتـاب "الدسـقولية" قـوانين الرسل ص116) التي توجب ذلك، حـتى ولو كـانت الدعوى عن تجديف على الله تعالى، وطبقًا لأبسط القواعد القانونية المتعــــارف عليها في جميع التشريعات الوضعية.

6- إعـــداد قـــرارات الإدانة مســـبقا قبل بداية التحقيقات معهم ومحاكمتهم.

7- إطالة الإجراءات لساعات طويلة ومتأخرة من الليل وحتى طلوع ساعات الفجر – ولعدة جلسات في بعض الحالات، ولعدة شهور وسنوات قد تصل إلى نهاية حياة المحكوم عليهم فيموتون مغضوبًا عليهم.

8- ما يردده قضاة هذه المحاكم من أكاذيب عمن توقعهم أقدارهم تحت أيديهم للوقيعة بينهم وبين رعيتهم وعائلاتهم، وتلويث سمعتهم، أو تسريب ما تتضمنه ملفاتهم من أخطاء حقيقية أو وهمية منسوبة إليهم لجهات مختلفة، ونشر قرارات الوقف والتجريد والحرم بوسائل الإعلام الخاصة والعامة بطرق مباشرة وغير مباشرة، على نحو ما حدث في شأن القمص يعقوب سوريال، والقمص زكريا بطرس، والقمص دانيال وديع الرهبان، القمامصة شنودة أنبا بيشوي، ودانيال البراموسي، وأغاثون أنبا بيشوي، والأحاديث التي تم الإدلاء بها للصحفيين والكتاب بمناسبة وبغير مناسبة، لا سيما الكتب التي صدرت خلال السنوات السبع الأخيرة (1987 – 1994) للكاتب الصحفى: محمود فوزي والتي يعاد طبعها مرارًا بعد صدورها من القيادة الدينية، وما تضمنته من أسرار وفضائح ما كان أحد

يعلمها إلا عن طريق هـــذه المطبوعـــات، وغيرها من الأحـــاديث المســهبة الــتي تم الإدلاء بها للإذاعــــيين في مصر والخـــارج بصـــورة لم يســبق لها مثيل في التـــاريخ الكنسي كله [28].

وسجل كتيب "السـلطان الكنسي إبـوة لا إرهاب" الذي وضعه القس إبراهيم السيد حالات عديـدة جـدًا أصـدر فيها البابا شـنودة قـرارات تجريد وحرمان وتشريد كهنة، وأن جـبروت البابا دفعت بوقوع "حدث نادر في تاريخ الكنيسة" هو أن يمسك البابا بـإجراءات ارتـأى الأنبا مطـران جرجا أنها تخـالف الأعـراف الكنسـية، واحتـدم النقاش بينهما وارتفعت الأصـوات حـتى سـمعت خــارج المكتب، وعنــدما أصر البابا على موقفه، وقال للمطران "أنا كان لازم أحاكمـك". رد هـذا أمــام الأنبا صـموئيل أسـقف الخـدمات العامة وعلى مسمع الآخرين – أنت موقوف ومحروم – وغادر مكتب البابا وعاد إلى جرجا [29].

---

28 (?) **السلطان الكنسي إبوة لا إرهـاب، للقس: إبـــــــــراهيم عبد الســــــــيد، ص 39، 40.**

29 (29) **المرجع أعلاه ص 35.**

لقد تضـــمن كتـــاب "الحقـــائق الخفية في الكنيسة القبطيـة" قصة تعيد إلى الـذهن قصص إذلال السـجن الحـربي وصـلاح نصـر... إلخ، فقد أوقف مـرتب القس يوسف مـرقص، واسـتدرج لدير الأنبا بشوي فلما حضر مع زوجته تاركًا بناته الأربع الكبار في منزل متواضع جدًا جدًا ما يـزال يقطنه في دير الملاك، أعـــاد البطريـــرك زوجته للقـاهرة مع أحد الرهبـان لينفـرد بهـذا الكـاهن ويغـدر به نكاية في الأنبا غريغـورس، فطلب منه أن يحلق ذقنه ويخلع الزي الكهنوتي، فرفض في إباء مهما كـان الثمن، فصـدرت التعليمـات للأنبا أغــاثون "عشــماوي" بتنفيذ هــذا الحكم، الــذي أحضر له جلبابًا أبيض وطاقية بيضـــــــــاء ألبسه إياهما وأخذ ينصـحه بالوعيد تـارة وبالتهديد تـارة أخرى. فلما لم ينصع هجم عليه اثنان أشـداء من الرهبان وكتفوه كما للذبح وأخذوا يقصـون لحيته بـالإكراه وحبسـوه لمـدة 23 يومًا في قصر الأنبا بـولا بالعزباوية وقد عـرفت السـلطات بالجريمة وتدخلت وحرر محضر أمام النيابة بنـاء على بلاغ وصل إلى هـــذه الســـلطات في قسم شـــرطة الأزبكية!

ولكن هذا الكاهن المسكين المتواضع تنــازل عن المحضر إجلالا لرئاســـته الدينية وأبعد عنهم التهمـة، ولاء وحبًا وتسـامحًا بعد أن توسـلوا إليه أن ينقذهم من جريمة ثابتة، ووعـدوه بسـخاء ثم بعد تنازله كالوا له الاتهامات وتناسوا الوعود...

ويبدو أن أنصار الأنبا شنودة أحسوا بهذه المعارضة، فنشروا صفحة كاملة في جريدة الأهرام تحت عنوان "البابا شنودة: 22 عامًا بطريركا"[30] تحدثوا عن إنجازاته كرجل علم وفكر، وأنه (أول من أرسى مبدأ ديمقراطية العمل الكنسي، وامتدت رعايته إلى المهاجرين في أمريكا وأستراليا ودول أوروبا.. وأنه أصدر أول لائحة للمجمع المقدس، وأول من أسس أديرة المهجر... إلخ).[31]

ويظهر أن الذين وضعوا مادة هذه الصفحة اهتموا بإبراز ما يعد تفنيدًا للاتهامات التي تندد فيها المعارضة القبطية بطريقة مباشرة البابا لسلطاته، الأمر الذي دفع الأستاذ: جمال أسعد عبد الملاك لأن ينشر في جريدة الشعب تعليقًا لاذعًا وطويلا تحت عنوان: "مكانة قداسة البابا أعلى من الإعلانات مدفوعة الأجر!"[32**] قضى قضاء مبرمًا على كل ما جاء في الصفحة الكاملة وكشف عما كان البابا في غنى عنه – وجاء فيه:

خرجت علينا جريدة الأهرام يوم الثلاثاء 16/11/1993 بصفحة كاملة مدفوعة الأجر تتكلف عشرات الآلاف من الجنيهات بعنوان "البابا شنودة: 22 عامًا بطريركًا رجل علم

---

30 **(30) الأهرام 16/ 11/ 1993 ص 17.**
31 **(?) الأهرام 16/11/1993 ص 17.**
32 **(** الشعب 23/11/1993.**

وفكــر: شــاعر وعضو نقابة الصــحفيين وأســتاذ بالكلية اللاهوتية".

ورغم إدراكي أن هذا الإعلان المـدفوع الأجر الهدف منه هو الرد على مقالات المعارضة التي تعلن الرأي الآخر في الكنيسة، والتي تنتقد بعض تصـــرفات قداسة البابـــا، والـــتي من حقنا أن ننتقدها، أقول رغم إدراكي هذا، فقد هـالني هـذا الشـكل الإعلاني الـذي لا يليق ولا يجب ولا يصح أن يتبعه قداسـته وهو في موقعه الـروحي هـذا، حـــتى ظننت أن قداســته قد قـــرر أن يخـــوض معركة انتخابية من النـــوع الثقيل بتـــاع إخواننا الانفتــاحيين واللي "بيرشـــوا فيه تمـــام"، ولكن لعلمي أن زفة انتخابـــات رئاسة الجمهورية آخر الزفات ولا يوجد أية انتخابات الآن. قلت لا سمح الله هو فيه منـــافس لقداسة البابا على كرسي البابوية، حيث إن صـفحة الإعلان الأهرامية هـذه قد حـوت نشـاط وإنجـازات وأعمـال ومـواهب قداسـته موضـحة في بعض المواقع من الإعلان الفـرق بين عهد قداسـته والعهد السـابق عليـه، وكـــأن القصد هو المقارنة بينه وبين الآخـــرين (عمومًا هـــذه ســـمة لكل ملـــوك مصر منذ الفراعنــة) مع العلم بــأن ما جــاء بــالإعلان عن الإنجـازات فهو مكـرر للمـرة الألـف. فقد سـبق الإعلان عنه في مجلة الكـــرازة الـــتي يـــرأس تحريرها البابـا، والـتي لا عمل لها سـوى الإعلان عن مقابلاته وســفرياته وإنجازاتــه!. كما لا أعلم

هل قداسة البابا نشر هــذا الإعلان متصــورًا أن الأقبـاط سـيقولون إن الأهـرام هو الـذي نشـر. وبهـذا الـوهم يكـون البابا في نظر الأقبـاط مثل رئيس الدولة وأكثر، ناسـيًا أن أي قـارئ سـيعلم أن هــذا إعلان مــدفوع الأجر مثل أي إعلان عن أية سـلعة اسـتهلاكية، فهل يليق هـذا الوضع مع موقع البابا وهو الأب الــروحي لكل الأقبــاط في العالم؟! حيث إن هذا الموقع يجب أن يكون عند ثقة الجميع أقباطا وغـير أقبـاط لما للكنيسة من احترام على مـدى التـاريخ، فهل موقع البابا وهو بهـذا القـدر - وهو كـذلك - يحتـاج إلى نــوع من الدعاية؟! إنه رجل علم وفكر وشـاعر.. إلخ، وما قيمة هــذه المواقــع؟ وهل يمكن لهــذه المواقع المادية الدنيوية أن تعطي موقع البابا الـــــروحي الأبـــــوي أية ممـــــيزات؟ وهل هو صـــــراع بين المذاهب المادية الدنيوية وبين الموقع الـروحي؟ وهل يعلم قداسة البابا أن قديسي الكنيسة على مـدى التـاريخ كـانوا قديسـين نتيجة لمسـتواهم الـــروحي ولتقشـــفهم وزهـــدهم وليس بالأبهة والإعلانـــات والفخفخـــة، وكـــذلك لمـــاذا هـــذا الإسراف والإنفاق الذي لا يقبله اللـه، فـإذا كـان مبلغ الإعلان – وهو عشـــرات الآلاف من أمــوال الكنيسة – فكيف يســـمح قداسة البابا بإهـــدار أمـــوال الكنيسة وهي أمـــوال الشـــعب بهـــذا المسـتوى الـذي لا يليـق؟ وكيف يقبل أن يبعـثر أمـــوال الكنيسة في الدعاية لشخصه الـــتي لا

تبرير ولا مبرر لهـا، والـتي يجب أن ينـأى بنفسه عن مثل هـــذه التصـــرفات.. وإذا كـــان المبلغ مـدفوعًا من كبـار المسـتثمرين الأقبـاط الـذين سـيقولون إنهم يحبـون البابا ويقدسـونه. نقـول: هل قال لكم الله ذلك؟ وهل هذه الأمـوال تعتـبر مقدمة لله وللكنيسـة؟ وهل سـتنالون عن هـذا التبـذير أية بركـة؟ وهل لو كـان هـذا المبلغ من نصـيب الفقـراء ألا يكـون أنفع وأجـدى - مثل ما قـال الـرب - إن من أعطى فقـيرًا فقد أعطى اللـــــه، فهل المجاملة والنفــــاق وصلا إلى حد مجاملة البشر على حساب الله (سبحان اللـه)؟ وهل قبـول البابا لهـذا الإعلان الـذي لا يليق أو يتسق مع روحانية موقع البابا الـذي نتمنـاه، ألا يعتبر هذا تبذيرًا في غير موضعه وإنفاقًا لا مـبرر لـه، وهل فاقد الشـيء يعطيـه؟ فكيف نقـول ونعظ ونكتب عن الاهتمـام بالروحيـات وبالحيـاة الآخـرة، وألا نجـري وراء شـهوة الجسـد؟ كيف نقول ذلك وتصرفاتنا لا تـدل على ذلـك، بل تـدل على الاهتمام بالماديات على حساب الروحيات.. فهل سـكن القصـور وركـوب السـيارات الشـبح والفخفخة والمنظـرة.. هل هـذه هي روحيـات الكنيسة في مشارف القرن الحادي والعشرين؟ وهل الاهتمام بـالملابس المزركشة والمدندشـة، والتي لم يلبسها أي بابا في تـاريخ الكنيسـة، هل هذه هي الروحيات؟! وهل بنـاء قصر في منطقة أبو ثلاث في الاسـكندرية تكلف 2 مليـون جنيه

كاســتراحة، مع القصــور الأخــرى في الــداخل والخــارج هل هــذه هي الروحيــات؟ وهل هــذه المعيشة المترفة في الـــوقت الـــذي توجد فيه كنـــــــائس وكهنة لا يجـــــــدون إلا القليل لسد احتياجـاتهم؟ هل هـذه هي العدالة المسـيحية..؟ وكيف نقول مع هـذا إن المسـيحية عطـاء وبـذل وانصياع؟ وهل هذه هي حياة الرهبنة التي تركتم العـالم من أجلها وأقيمت عليكم صـلاة المـوتى، فأين انصياع المسيحي وأين تقشف الراهب؟؟

أما ما جـــاء في الإعلان مـــدفوع الأجر عن إنجـــــازات البابا من ناحية تأســــيس المعاهد اللاهوتية والأديـرة والكنـائس بـالمهجر، فنحن لا ننكر على قداسته هذا بل نؤيـده عليه ونشـكره. ويستطرد حـتى يصل إلى علاقة البابا بـالطوائف المســيحية، وهنا نقـــول للبابـــا: ما هي حقيقة العلاقة بينك وبين الطوائف المســـــيحية؟ وهل مهاجمتك للطوائف مثل ما حـــدث في اجتمـــاع كهنة القاهرة في 30/9/1993 دليل على حسن العلاقـــــة؟ وهل قطعك للحـــــوار بين الكنيسة القبطية والكنيسة الإنجيلية بســــب كتـــــاب للـــــدكتور: رفيق حـــــبيب، ابن رئيس الطائفة الإنجيلية فهل هـــذه هي العلاقة الحســـنة؟ وهل يتم تقـييم العلاقة بين الطوائف المسـيحية بنـاء على مواقف خاصة أو وجهة نظر خاصــــة؟ وهل رأي دكتور رفيق يجعلك تقطع الحوار؟ وهل هـذا

هو نــوع من التهديد لمن يريد أن يعــبر عن آرائه وأفكاره؟

أليس هـــذا هو نوعًا من محـــاكم التفـــتيش ونوعًا من التهديد الـــذي لا يليـــق؟ ولا أعلم بعد ذلك أية علاقة حسنة تلك التي تتحدث عنها؟

أما ما جــاء بــالإعلان بخصــوص ما يســمى بالديمقراطية في الممارسة الكنسية، والتشــدق بشعار "على الشعب أن يختار راعيه"، أقول هل يحدث يا قداسة البابا أنك تجتمع مع الشعب في الأيبراشية الخالية وتسمع آراءهم؛ حيث يقومون بتســمية اسم الشــخص الــذي يريــدون رســامته أســقفًا، هل يحــدث هــذا؟ على العمــوم أأذكــرك برسامة أســقف القوصــية، والــتي كنت مشــاركًا فيها منذ البداية، أأذكــرك وأقــول إن الشــعب قد جاء بنــاء على أوامــرك مــرتين: مــرة ســمع فيها منك النقد والتقريع بــأنهم شــعب لا يســتحق أن يرسم له أســـقف، حيث لم يقومـــوا ببنـــاء قصر فخيم للأسقف، لكي يســتقبل فيه بعد الرســامة، فهل الذي يشغل قداستكم هو المنظر والــترف، وأن يكون الأسقف زعيمًا بدلا من أن يكون أبًــا.. وكل ما يعنيك هو أن يكـــون الأســـقف ذا وضع رســـمي اجتمــاعي لا ديــني روحي. أما المــرة الثانية التي قــابلت فيها شــعب القوصــية فكــانت المقابلة التي ســبقت رســامة الأســقف بأســبوع وفيها تكـــرمت وأعلنت أنك ســـتقوم برســـامة الأسقف، ولكن لم يختر الشــعب اســمًا ولا أنت، لم تذكر أيضًــا اســمًا. ولكن لم نعــرف الشــخص المزمع أن يكون أسقفًا إلا يوم الرســامة. فكيف نقـــول إن الشـــعب يختـــار راعيه كيـــف؟ وكيف

تســـمح لنفسك أن تقـــول في التقليـــد، وهو المرسـوم الـذي يعلن رسـامة الأسـقف، والـذي يتصـدر صـالون قصر الأسـقف في الأيبارشـية، تقول في التقليد: إن الشعب بطوائفه جـاء إليك واختـار فلانًا لكي يكـون أسـقفًا. وهـذا لم ولن يحـدث، وبعد كل ذلك تقـول إن الشـعب يختـار راعيه! كيف هذا ولماذا يا أبي؟

أما فيما يخص المحاكمـات الكنسـية فأتركها للآباء الكهنة الذين يكتبون في هذا الموضوع. أما الموضوع الأخير الـذي جـاء في الإعلان وهو دور العلمـانيين وأنهم يريـدون أن يسـيطروا على الأكلـيروس، فنقـول إن الخدمة في الكنيسة بالمفهوم المسيحي هي بذل وعطـاء ونصـيحة لا كسب وتسلط وسيطرة. فالعلماني الـذي يخـدم يريد أن يكمل دور الأكليروس لا أن يسيطر عليه وهذا يقال للعلمانيين، كما يقال للأكليروس أيضًا لكي لا يكون هناك طرف مسيطر على الطـرف الآخر، أما غـير ذلك فسـيكون سـلوكًا بعيـدًا عن المسيحية، وهذه بعض الملاحظات والآراء نقولها لصالح الكنيسة التي نرجو لها التقـدم والازدهـار كمؤسسة دينية مصـرية وطنيـة، وهنا يحضـرني قول الكاتب المسرحي الفرنسي موليـير عنـدما يقـول في إحـدى مسـرحياته: "سأصـير قسيسًـا وأطلق لحيـتي وأتحـدث عن الفضـيلة. سـأمنح نفسي حرية واسعة وأهدد خصـومي بالحرمـان! وسأعلن أنني صوت السماء.. فمن أطاعني فقد أطـاع الـرب. ومن خـالفني فلا مكـان له على الأرض، إنها السـلطة المطلقة الـتي أحلم بها

وويل للمعارضين". انتهى مقـال الأسـتاذ: جمـال أسعد عبد الملاك.

إن هــذه الوقــائع تــدل دلالة قاطعة على أن البابا اســـــتطاع أن يُحْكِم هيمنته على الكنيسة وأجهزتها ويديرها بيد منٍ حديد، ويفرض جوًا من الإرهـاب على الجميـع، وهي يثـير التسـاؤل عن السـلطات الـتي تتمتع بها الرئاســات الكنســية ومــدى توافقها مع حقــوق الإنســان وضــمانات الديمقراطيـــة: لقد كـــان الـــذي نفَّر أوروبا من المســـيحية هو اســـتبداد ســـلطات الكنيسة واستئثارها بـالأمور واسـتهدافها الحكم والنفـوذ، وهــذا ما تمارسه الســلطات الكنســية هنــا. إن التستر وراء الدين لا يبرر أبدًا إلحاق ظلم بأحــد، فإنما جـــــاءت الأديــــان جميعًا لتحقيق العدالة وتوفير الكرامة.

وكل هذه الكتابات الموثقة من كُتَّاب أقبــاط تؤكد أن الكنيسة قد وقعت في خطأ جســــيم عرَّضــها لنقد لاذع لم يســبق أن وجه مثله لأحد من الذين حملـوا دعـوة واسم القـديس مـرقص الشـــهيد المتقشـــف، ولابد أن هنـــاك ســـببًا ســـيكولوجيًا عميقًا يحمل البطريـــرك على أن تظهر صـوره مثل "شـارلمان" تمامًا، مع فـارق واحد هو أن شـــارلمان يمسك بســيف عــريض، بينما البابا يمسك بعصا طويلة، باستثناء هذا فإن صـــورة شـــارلمان وصـــورة شـــنودة تنطقـــان بـــالجبروت والســـلطة والقـــوة، وهـــذا إذا صح

بالنسـبة لشـارلمان فإنه لا يجـوز لرمز المسـيح ومخلص النفوس.

وكل الكتابــات الــتي لــدينا ســواء بــأقلام مسـلمين أو أقبـاط تؤكد أن الكنيسة المصـرية بـدأت عهـدًا جديـدًا بتـولي الأنبا شـنودة كرسي الرســـول مـــرقص. وأن نظمها وسياســـاتها ومواقفها كلها تغـيرت تغيـيرًا جـذريًا، وأن هـذا التغيير إنما جاء بسـبب ما اتسم به الأنبا شـنودة من طمـوح، ومن مـواهب سـخرها كلها للنهضة بالكنيسة وربط هـذه النهضة بشخصـه، وأن هـذا التطور كان هو سـبب العـداوة الـتي قـامت بينه وبين السادات.

* * *

وقد يلقي الضـــــــــوء أن نستقصي بعض الكتابـات الـتي أشـارت إلى نشـأة وتطـور فكر البابا شنودة.

لنبدأ بما كتبه زميل الأنبا شنودة هو الدكتور: ميلاد حنا، ففي مجلة روزا اليوسف العدد الصادر في 30/10/1995 ص20 كتب د. ميلاد حنا تحت عنـــوان: **انتخابـــات المجلس الملي فضيحة بجلاجـل.** فبعد مقدمة عن رحلات بابا الكاثوليك قـارن بينها وبين رحلات الأنبا شـنودة، وأنها "كـــــانت مقرونة ببعض الصـــــراعات والاعتراضـــات هنا وهنـــاك، وكلها أمـــور داخلية

لدعم السلطة الكنيسية وقيادة رجال الأكليروس وزيادة حصيلة مواردها المالية.

"هنـاك إجمـاع على أن الحقبة الليبرالية من عام 1919 حتى عـام 1952 هي أزهى العصـور قاطبة بالنسـبة للأقبـاط. وفي عهد الـرئيس عبد الناصر كان البابا كيرلس السادس يمــارس ذات الفهم للـــتراث ولم يكن يشـــتغل بالسياسة بل لعله بالفعل لم يكن يشـغل نفسه بها، وكـان له مكانة خاصة عند عبد الناصر، وفي لقائه معه - ونــادرا ما كانا يلتقيــان - لم يكن الحـــديث عن الصــــراع العــــربى الإســـرائيلي، ولا عن تمثيل الأقبـــاط في البرلمـــان، وعـــرف أيضا عن عبد الناصر أنه كان يقول له. "صل لنا يا أبونـا" وهى عبــارة قبطية تماما، وكـان عبد الناصر في ذلك صادقا مع نفسه وحاملا لتراث بني مـر. واسـتمر البابا كـيرلس في ضـمير النـاس لروحانيته وتجد صـورة في كثـير من بيـوت مصـر، فالحكـام في مصر حـــتى وإن كـــانوا يطلبـــون من الرؤســـاء الدينين البركة والرضا، ومن هنا كان يشـار إليهم في المراسـيم بالرؤسـاء الروحـيين، لأن عملهم في الأســـــــــاس روحى لأنه يتعامل مع النفس الداخلية بتقديم مظلة ربانية فوقية تعطي البشر الراحة والإحســـاس بالأمـــان من الســـماء، ثم بالرضا والصفاء من الداخل فيتحركون في أمـور الـدنيا والحيـاة بما فيها السياسة وفق معطيـات العصـر، وكـان البابا كـيرلس رمـزا لهـذا التوجه المصـري الخـالص، فـرغم مضي نحو ربع قــرن على رحيله، ولكن وجـــوده يفـــرض نفسه على

الحيــاة الروحية كتجســيد للبــديل المناسب عن السياسة الحالية.

أخلص من كل هــذا إلى أن المــيزة الكــبرى التي حافظت على تواجد الأقباط بشـكل سـلس وطـبيعي كـانت في الانتشـار والمشـاركة وليس في وجود مؤسسة دينية مسيطرة على الشعب، تُصـدر له الأوامر والحرمانـات وتتحـدث باسـمه في كافة المجالات، وهو الأمر الذي يحـاول البابا شنودة أن يكونـه، بل لعله بالفعل كانه، وصـارت المؤسسة الدينية متماسـكة ومنظمة ومنضـبطة حتى صارت هي الممثل الرسـمي للأقبـاط. ولم يعد هناك قبطي له وجود على الساحة العامة إلا من خلال القيادة الدينيـة، وهـذا الأمر له جـوانب "موضوعية" ربما نعرض لها في موضـوع قـادم، كما أن له جـــوانب "ذاتيـــة" مرتبطة بشـــخص وشخصية البابا، فقد تصـادف أن كـانت تربطـني به علاقة فريدة من نوعها ربما ليس لها "نظـير" لأنني في كل مرة كنت أنسـاه أو أتناسـاه، كـان هو البادئ بطرح اسمى ضمن أحاديثه المتعاقبة، وكــان آخرها هو حديثه إلى المصــور في العــدد الماضي مما دفعني لكتابة هذه الرسـالة الأولى، فمنذ أن كتبت مقـالي الـذي أخذ شـهرة واسـعة في أبريل عــام 1995 اتشــفع في هــذا المقــال لدى قداسته (بما تبقى لي من عشم لديه) أن لا يصدر أوامره لمطران القدس بحرمـان الأقبـاط من التناول من الأسرار الإلهية عند زيارتهم لقبر

المســيح، وكــان الرجــاء إنســانيا عاطفيا نتيجة ضــغط بعض أقــاربي وبالــذات كبــار السن من الســيدات (إحــداهن كــانت مريضة بــالمرض الخــبيث وكــانت ســتجد راحة في التنــاول في كنيسة القيامة بالقدس، وعادت حزينة مكسـورة الخــاطر)، أقــول عقب هــذا المقــال كلف البابا رجاله بكتابة مقــالات وآخــرين تفضــلوا بكتابة تحليلات كلها علقم ومــرارة، ولكنــني آثــرت الصمت إلى أن أرسل إلي قداسة البابا أحد كبار رجالات الأقبـاط سـنا ومقاما وأهمية، وكـان إلى وقت قريب من مريديه ومؤيديـه، وطـالب مـني عدم الإدلاء بـأي تصـريحات أو كتابة أي مقـالات وبالــذات في الفــترة الــتي سيســافر فيها إلى رحلته "المسكونية" التي دار فيها حول الكــوكب بالفعــل، وقد آثــرت الســلامة واســتجبت لهــذا الرجــــاء، بل زدت عليه إنــــني لم أذهب لأقيد اســمي في قائمة النــاخبين بــالمجلس الملي إمعانا مــــني في أن أبلغه بالفعل أنه قد صــــار الــزعيم "الأوحــد" وأن لا شــريك له في هــذه الزعامة الـتي سـعى إليها وحققها بنجـاح منقطع النظــير، ولكن ما أن انتهت انتخابــات المجلس الملي على هذا النحو الذي يرقى إلى أن يسمى "فضــيحة بجلاجــل". فــإذا بالبابا المعظم بكل الوقــار، يفتح النــيران بسلســلة من الأحــاديث الصـحفية بكل ما اسـتطاع أن يصل إليه نفـوذه المادي والمعنـوي جرائد ومجلات، وكلها تتضـمن

– إما صراحة أو ضمنيا – إنني من "المعارضـين" وأنه لا ســبيل لي إلا التوبة، ولا توبة إلا بطــرق بابه من خلال إعلان الخطأ عن طريق جريــــدة "الأهـــرام" وها أنا أســتجيب لما وصـــلني من رجاءات.

ولقد حــاولت أن أفسر تلك الظــاهرة غــير العادية، فأخذت أتصل بأصدقائي القدامى الـذين يعرفونه أكثر مني، فجـاءتني الإجابة "المقنعـة": "أي الــتي تقنع أو تلك الــتي تلبس القنــاع، من الأخ والصــديق د. مــراد وهبة أســتاذ الفلســفة المعـروف وكـان قريبًا من "نظـير جيـد" الـذي أصبح اسمه الأنبا شنودة لنحو ربع قرن، بل لعله كان مستشاره الخاص في القضايا الكلية وأخيرا – على حد قوله – لقد جـرش (أى اعـتزل ودخل الجراج).

قال مراد وهبة: كنا في مدارس الأحد بشبرا نحو 20 شخصًـا نمثل قيـادات الحركة منذ أواخر الثلاثينــات، ولم يســتطع إيانا أن يكــون البابا إلا "نظير جيـد"، وقد اسـتطاع أن يـزيح عن طريقه أو يسـتوعب كل تلك القيـادات، ثم أسـماهم لي مــــراد وهبة ابتـــــداء من وهيب عطا لله (الأنبا أغريغوريـــــوس) إلى مــــتى المســــكين والأنبا صموئيل إلى د. جورج بباوي وغيرهم معروفـون، ثم أضاف: الوحيد الذي لازال لامعا وخارج إطــار أن يســتوعب هو: "ميلاد حنــا" فهــذا قــدرك ولا سبيل لك إلا أن تقدم للنــاس تفسـيرًا لما جــرى

ولما يجـــري، ولكنه تنبأ لي بـــأني لن أكـــون "اســتثناء" ومصــيري إلى الجــراج، اللهم إلا لو تكـوّن مع الـزمن تيـار تنـويري داخل الكنيسـة.. وهو أمر صعب.

وقد جـاءت هـذه الكلمـات لتسـتخرج من وجـداني شـريط الـذكريات والـذي يعـود لعـام 1939، وكـان واضـحا أن كلا منا (قداسة البابا وأنـا) منبهر بشخصـية الـزعيم الوفـدي القبطي مكرم عبيد، ولأن البابا أكـثر ذكـاء ويملك ناصـية الكلمة وأدوات البلاغة فقد حفظ عن ظهر قلب الكثير من خطب ومقولات مكرم عبيد.

وكلانا (البابا وأنا) قد انفعل بكل من مشاكل الـوطن ومشـاكل الأقبـاط، فـأحوال البلاد كـانت سيئة والصراعات بين الأحزاب لا تمزقها وحدها، ولكن تمزقنا معهـــا، والأثريـــاء والعائلة المالكة (والأمـــيرات) تنعم في الـــثراء والفجـــور، بينما نعيش نحن أهـالي حي شـبرا غـير بعيـدين عن واقع غالبية بسـطاء مصر المطحـونين في الفقر والجهل والمرض. وتوهمنا أنه لابد أن نعمل شيئًا من أجل الـوطن، حـتى ولو بـالحلم والأمل في المستقبل.

ولم تكن أحوال الكنيسة القبطية أسعد حـالا فهي – على أي حـال – جـزء من المجتمع يتـأثر بواقعه، كما أن المجتمع المصري يتـأثر بالأقبـاط لو كـانوا نشـطين.. ويـؤثر في مصر كلهـا، وكنا ممـزقين من خلال ما نسـمع من صـراعات بين

الأكليروس (أي رجال الـدين في مجمـوعهم من رتبة البابا علـوا إلى أصـغر الـرتب وهي القس والشـــماس)، وبين رجـــالات المجلس الملي "الباشـوات" من جـانب أخـر، وكل طـرف يـود السـيطرة على أمـوال الأوقـاف الخيرية ممثلة في شكل أراض زراعية أو عقارات.

لابد أن يكـون الشـاب "نظـير جيـد" قد تـأثر كثيرًا بهذا الصراع؛ ولذلك ضمر في قـاع وجدانه – إن هو وصل إلى قمة السـلطة – أن لا يتكـرر معه هـذا الأمر، (وهو يشـير إلى ذلـك) كثـيرًا، وربما كـان أحد أسـباب رغبته في كبح جمـاح المجلس الملي بتلجيمه أو تحجيمه من خلال السـيطرة على أعضـائه، وكم كنت أود أن البابا الأقوى يسمح بهـامش ديمقـراطي أكـبر، تطبيقًا لشعاره "كلهم أولادي".

وكنا – كشباب – نفكر في المستقبل وكيفية الخـروج من الأزمة لكل من الـوطن والكنيسة وكـانت رؤيـتي – من وقتها حـتى الآن – متطلعة إلى الخارج **Extrovert** وأن إصلاح حـال الأقبـاط يتم من خلال إصـلاح حـال المجتمع ككـل. وأن مسـتقبل الأقبـاط هو من خلال مزيد المشـاركة في كل ألـوان النشـاط الإنسـاني: في العلم والجامعـات والثقافة والأدب والفن والسياسة والاقتصـاد وغيرهـا، ويشـهد على ذلك بعض من هم على قيد الحيـاة، وبـدأت بنفسي فسـافرت إلى بعثة إلى انجلـترا – وكنت أول من سـافر

للخــارج من شــباب مــدارس الأحد – وتبــدلت مفاهيم كانت تتوهم أن التفـوق في العلم يكـون على حســـــاب الاهتمـــــام بـــــالجوانب الروحية و"بالأبديــة"، وكــان ذلك حــدثا سـجل في وقتها صورا ومقالات، وعدل بعض المفاهيم التقشفية، ثم انـــــدمجت في العلم والتعليم وممارسة مهنة الهندسة، وانتقلت إلى مجـــــــــــال السياسة ثم الثقافة كما هو معــــروف، في نهاية رحلة العمر زادت قنــاعتي بأهمية دور الأقبــاط في المكـون الثقــافي المصــري وأن في عــزلتهم ما يزيد من التطرف ويقلل من فاعلية الإسلام المصري.

أما رؤية (نظـــير جيـــد) فقد كـــانت داخلية باطنية Inbrovert، والإصلاح يبـدأ بالإنســان ومن داخله، وفي تقديري فإن تصـرفاته الحالية تـدور حول ذات الفلسفة، ولذا طرح فكرة دعانا إليها، نحن شــباب مــدارس الأحــد، فلنقتحم ظلمــات الأديــرة المغلقة ولنصــبح رهبانــا، ومع الــوقت سيصـير أحــدنا بطريركـا، وعنـدما ينصـلح حـال الأكلـــيروس ويصـــيرون أنقيـــاء من المتعلمين، سينصلح حال الأقباط فيكونـون مواطـنين أفضل لمصر.

وفى عــام 1947 ســافرت إلى انجلــترا في بعثة حكوميـــة، ولكن ظلت علاقــتي مع شــريان الحياة من الأصــدقاء في حركة مــدارس الأحد لا تنقطع، وكانت تصلني أخبــارهم تباعا بالخطابــات – والتي لازلت أحتفظ ببعضها، ولازالت خطاباتي عند كثير منهم: سليمان نسيم – وبالفعل عرفت

أخبار كثيرة، فقد أصبح أبونا متى المســكين أول من تــــرهبن، ثم أقنع كثــــيرين فســــلكوا ذات الطريق حتى صار صاحب مدرسة فكريــة، منهم أبونا مكـــــاري (وكـــــان زميلا لي في المدرسة التوفيقية، واســمه ســعد عزيــز، ثم صــار الأنبا صــــموئيل وكــــان خطه الفكـــري يميل أساسا لتحسـين أحـوال النـاس؛ بمحو أميتهم وتـدريبهم مهنيا، وصار بالفعل مؤسسا لأسقفية الخـدمات، وأول وزير خارجية للكنيسة القبطية). ثم عرفت أن (نظير جيـد) قد اقنعه مـتى المسـكين وصـار أيضًـا راهبا باسم أبونا أنطونيـوس، وعـرف عنه التقشف وأنه عـــاكف في قلايته على القـــراءة والإطلاع بشراهة في كل المجـالات: اللاهـوت – التاريخ – علم النفس – اللغات القديمة – الآثـار، والبعض الآخر أصبح كاهنا (أى أنه تـزوج وعـاش في الحيـــاة المدنية، ولم يـــذهب إلى الـــدير). ومنهم كثــــيرون قد صـــاروا قيـــادات لامعة في الكنيسة القبطية، وبدأ الحلم القـــــــديم يتحقق، وإقتنع البابا كـيرلس بهـؤلاء الشـبان وابتكر لقب "أسـقف عــام"، وصــار رجــال الأكلــيروس من خريجي الجامعة يتحدثون لغات أجنبية ويجهـزون عظـــاتهم بأنفســـهم، بعد أن كـــانت تكتب لهم، وســــــــرت في الكنيسة نهضة روحية ممزوجة بالثقافة الدينية غـــير مســـبوقة، ومهد كل ذلك لحقبة حكم البابا شـــنودة فاســـتثمرها إلى أبعد الحدود.

وليس هذا مجال ذكر تفاصيل ما جــرى، فهو أمر يهتم به المؤرخون ولكنني ابتعدت تماما عن متابعة أخبار "نظير جيد" ولم تكن تصلني عنه إلا

شكوى زملائه من قوة شخصـيته وعنـاده، وأذكر أن أحد الأصدقاء كتب إلي يبشـرني بـأن "نظـير جيد" قد صار رئيس تحرير مجلة مـدارس الأحد، ولكنه ذكر حــوارا وقصصا ســاخرة؛ إذ قــال له مازحــا: كلكم في هــذه الحقبة، مشــيرًا إلى أن جميع المقــالات في حوزتــه.. وهي قصة يرونها الآن لي ويـــــذكرونني بهــــا، وكيف أن تركيبته العقلية والشخصية لم تتغير..

سلك كل منا طريقه في الحياة وابتعـدنا عن بعض ربما لنحو ربع قـــرن، وشـــكرًا للـــرئيس السادات الذي جمعنا مرة أخـرى، ففي سـبتمبر 1981 وجد البابا شـنودة نفسه محجـوزا حجـزا قســريا "مهــذبا" في الــدير الــذي قضى فيه ســنوات الرهبنة فصــار بالفعل وكأنه في بيتــه، وفي وادي النطــرون، وكــانت تصــلني أخبــاره عنـدما كنت مع ثمانية أسـاقفة و24 قسا وكاهنا معتقلين في "ليمان" وادي النطرون.

كان من ترتيب السماء أن أكـون ضـمن أول فوج تم الإفراج عنه.

وخرجت من السـجن إلى القصر الجمهـوري في أواخر نوفمبر 1981 وتوطدت العلاقــات مع الرئيس مبارك، واختارني لأن أكون رئيسًـا للجنة الإسـكان بمجلس الشـعب، واسـترجعت صـلاتي التاريخية مع كل من د. رفعت المحجــــوب ود. صــــــبحي عبد الحكيم فقد كنا نحن الأربعة د. رفعت ود. صـبحي والبابا وأنا من سـكان أهـالي شــبرا، ولنا علاقــات قديمة ونعيش ونحيا منــاخ

الوحدة الوطنية. اقترحت على د. رفعت كرئيس لمجلس الشـــعب أن يلتقي مع كل الجهـــات البرلمانية فتكرم وفعل، وقد أثـار ذلك على حقد كل من أبادير وسـيدهم ونـاروز وتوهمـوا أن لي خطوة تسبقهم، فكان طبيعيا أن يتطرق الحديث عن البابا وضـــرورة عودته إلى كرســـيه، ومع متـــابعتي وإلحـــاحي، دعـــاني د. رفعت في أحد الأيام خلال شهر أكتوبر 1984 لينبئني بـأن البابا ســيعود إلى كرســـيه، وأننا (د. رفعت وأنـــا) ســـنذهب لزيارته في مقـــره ليلة عيد الميلاد القـادم، واسـتأذنت د. رفعت في أن أسـافر إلى وادي النطرون لإبلاغ البابا بهذا الخبر، وكان لقاء حــارا ممتعــا، فــرح هو به كما فــرحت، وخلال الحـوار المتـدفق الضـاحك، كـان الحـديث يـدور ويدور منطلقًا بغير قيود، ولكنه كان في كل مرة يعـود ليـذكر لي قصـته مع المجلس الملي، فقد كـان يتصـور أن وزارة الداخلية تخطط لإجــراء انتخابات للمجلس الملي – في موعدها القانوني – وكــــان ذلك قبل الموعد الـــــذي أعلمته به لخروجه، وكـان مصـدر تخوفه هو أنه إذا تم ذلك قبل عودتـــه، فإنه يخشى أن يتحـــالف المجلس الجديد مع اللجنة البابوية ويتخـــذا معا قـــرارا مشتركا يمس كرسـيه فقد كـان داخل كـواليس الأكليروس من يضمر له سواء.

ونقلت الرغبة البابوية والتخــــــوف إلى د. رفعت المحجـوب – والـذي كـان خـالي الـذهن بالنســبة لانتخابـــات المجلس الملي أول الأمر، ولكن ومن خلال سلطاته واتصالاته أعلمـني بأنه لا انتخابات إلا بعد العودة وقد كان.

أذكر أو أتذكر هذه التفاصيل الآن، ليس لكي أعطي البابا شنودة مزيدًا من المبررات التي جعلته يعمل "بكل" الطرق الممكنة وغير الممكنة، المعلنة وغير المعلنة، لكي يكون المجلس الملي "فى جيبه"، فهذا أمر كان لدي يقين به، وقد أقر هو نفسه في تصريحاته المتكررة – ولديه هذه الأيام فيض منها حتى يصعب ملاحقتها – وإنما ما يعنيني هو إلحاحه في تصريحاته ما يعني أنه بصدد تكوين دولة أو "كيان" ديني ثيوقراطي ففي حديثه إلى المصور جاء ما نصه: "أي أن الحكومة أخذت الكثير من اختصاصات المجلس الملي، فإذا سعى الآن إلى توسيع اختصاصاته لتعويض ما أخذ منه سينتقص من اختصاصات الكنيسة ولا تقبل به، بل ستوقف من يسعى إلى ذلك عند حده".

هذه عبارات ما كان ينبغي أن تصدر من الرئيس الروحي للكنيسة القبطية التي تكمن قوتها في أنها جزء من الشعب تمنح البركة والسلام وتنشر الحب والطمأنينة، وليس بكونها كيانا له اختصاصاته لا يسمح لأحد بأن ينتقص منها، وكل الممارسات تدل على أننا أمام حكم بابوات العصور الوسطى ومن خلال الحرمانات، ولا أود أن أتعرض للعبارات التي خرجت من فمه الطاهر وتخصني في حديثه "الشامل" مع الأستاذة: سناء السعيد في ذات العدد الماضي من المصور، لأنه يتوهم أن هناك معارضة وأن المعارضين "قلة ويعدون على الأصابع"، ولكن نصيحتي له – كصديق وزميل عمر – ولم يعد

في العمر بقية تـــــذكر – هي أن المعارضـــــين يكمنــون داخلك وفي وجــدانكم، ولو أنك عــدت إلى الممارسات القديمة مثلما كان الأنبا كيرلس السادس والأنبا إبرام مطران الفيوم في القــرن الماضـــي، فـــإن الســـلام ســـيعود إلى الكنيسة ويعوق فوق كل ذلك وقبله إلى وجدانكم فترتـاح وتريح.

إن مقال الدكتور ميلاد حنا يلقي ضــوءًا على التطور النفسي والفكري لشــنودة الشــاب، وقد يفيــدنا أيضًــا أن نعــرض للنشــأة الأولى، ولعمله الأكليركي الذي انتهى به ليكون البابا.

ولد (نظير جديــد) في 13 أغســطس 1923 في قرية ســـلامة بأســـيوط، ومـــاتت أمه بحمى النفـــاس، وتـــولت شـــقيقته الكـــبرى المتزوجة إرضاعه واشترك في هــذا مرضـعات مســيحيات ومسلمات، وكان والده غنيا يملك 135 فدانا..

وخلال دراسته الابتدائية أخذ يعنى بالمســائل الدينية بتأييد مطـــران أســـيوط الأنبا مكـــاريوس (الــــذى أصـــبح فيما بعد البطريـــرك والواعظ إسكندر يوحنــا). وكـان هــذا سـببًا في أن تحــول أخــــوه الأكـــبر روفائيل إلى الدراسة في الكلية اللاهوتية، أما نظير فبعد إتمام دراســته الابتدائية تعــــرض لمشـــكلة عـــوقت دخوله الثانوية، وهي عــدم حصــوله على شــهادة ميلاد. وأخــذه جــاره للعــرض على طـــبيب "ســـننه" السن الطـــبيعي مستضـيئًا بواقعة وفـاة والدته الميته بتاريخه بعد

ولادته، كــان من طفولته مولعا بــالقراءة خاصة في الفــترة ما بين الابتدائية والثانوية، ولما دخل الدراسة الثانوية كان مسـتواه الثـاني، يعلم نظم الشـــعر وأقبل على الـــدواوين يحفظها، وفي الســنة الرابعة كــان يحفظ عشــرة آلاف بيت، ووقف أمـام لجنة الامتحـان في امتحـان الثقافة العامة (الرابعة الثانويـة) بحيث عنـدما طلب إليه أن يتلو قصـيدة. فقـال: من أي عهد، ولما سـأله الممتحن أتحفظ من كل العهـــود، قـــال: أجل، قـال: من العصر الحـديث، وقـال: ولأي شـاعر. قال: أتحفظ لكل شـعراء العصر الحـديث، قـال: نعم وأنظم الشــعر أيضًــا، فقــال إذا أســمعنى قصيدة من شعرك، فأسـمعه قصـيدة، فـأعطوه 480 من 500، وذكــرني هــذا الموقف بموقف الإمـام حسن البنا عنـدما امتحن في دار العلـوم وسأله ممتحنة أن يتلو قصيدة، فقال من الشـعر الجـاهلى أو العباسى أو الحـديث، فناوله كـراس ضخمة بها محفوظاته من الشـعر، وكـانت قرابة ســبعة عشر ألف حـــديث.. كما فتن (نظـــير) الشـاب بخطب مكـرم عبيد الـذي كـان له ملكة خاصة في تقديم "سجع" محبوب ومحكم، وكـان مكرم يحفظ كثيرًا من القــرآن أما (نظـير) ففي بدايته قرأه كاملا..

دخل (نظـير) الجامعة بمجمـوع جعله يحصل على المجانية وانكب على دراســـــاته والتحق بشــعبة التـــاريخ حيث عـــنى بدراسة التـــاريخ

الفرعوني والإسلامي، ويصف هو الجو الجـامعي وقتئذ فيقول: "لم تكن هنـاك أبـدًا مشـكلة دينية كنا طلبه نعيش في محبة ومودة، وكـانت تربطنا علاقة اجتماعية قويـة". وكـان (نظـير) هو الـذي يتـولى إعـداد الإفطـار في رمضـان لزملائه وهو الذي يوقظهم للسحور.

وعـرف عنه الهمة والنشـاط والإقبـال على العمـل. فعند السـنة النهاية بكلية الآداب التحق بالكلية الأكليروكية (السـنة الأولى بالقسم الليلي) وعمل في التـوقيت نفسه معلما للغة العربية في مدرسة إنجليزية، وكذلك تولى تعليم اللغة الإنجليزية لتلاميذ مدرسة ابتدائية. كما كان محرر في مجلة مدارس الأحد. والتحق بـالقوات المسلحة في مدرسة ضباط الاحتياط..

هـذه الحيـاة الثريـة، الخصـبة، المتعـددة الاهتمامـات ما كـان يمكن أن يتحقق لـولا أن صـاحبها بقـدر غـير عـادي من الـذكاء والهمة والنشاط الدأب.

يقول الأسـتاذ المنـاوي في كتابه أن (نظـير) بدأ يهتم بالرهبنة خلال سنوات دراسته الجامعية، وأن هـذا اسـتغرق بضع سـنوات ورأس تحرير مجلة مـدارس الأحد وقربه ذلك من الكنيسـة، كما أنه بعد أن تخـرج من الكلية اللاهوتية أصـبح يـدرس فيهـا، وفي 18 يوليو 1954 ودع (نظـير جيد) اسمه وأصبح اسمه أنطونيـوس السـرياني وترهبن في دير السريان بوادي النطرون، وصور

(نظـــير) الحقبة الأولى عن رهبنته: إنـــني بقيت بعيــدًا أريد أن أحيا حيــاة الرهبنة الأولى، **غـــير معـروف من النـاس لأكـون معروفا من الله.** كل ما كنت أقوم به في الـــدير هو المكتبة والمطبعة، وكان يصدر باسم الـدير، سـواء كـان مترجمـات أو مؤلفـات أو مخطوطـات محققــة، وأول كتاب قمت بتأليفه في الـدير هو **"الزوجة الواحــدة".** بــدأت أدرب نفسي على الوحـــدة الجزئية، ثم سـكنت في مغـارة قريبة من الـدير على بعد 3ر5 كيلو مـــتر ثم انتقلت إلى مغـــارة أخــــرى أبعد تقع على مبعــــدة 10 إلى 12 كيلو مـــترا. وكنت أقضي أســـابيع طويلة لا أرى فيها وجه إنســـان. وكنت أشـــبه الفـــرق بين ســـكن المغارة وسكن الدير بأن المغارة بالنسـبة للـدير مثل الـــدير بالنســبة للعــالم. صــحيح أن الـــدير منقطع عن الحيـــــاة في العـــــالم ومشــــكلاته وضـجيجه، ولكن الـدير في النهاية مجتمع صـغير بما فيه من رهبان وكنيسة وعمل وزوار، أما في المغــارة فيمكن أن يكــون وحــدة مطلقـــة. فلا اتصال بإنسان حتى لو كان راهبـا. لم أكن أحضر إلى الدير إلا في الأعياد للصلاة.

فى ســــــنة 1995 طلبه البابا مـــــيركس السادس ليعمل سكرتيرًا في بعض أعماله لفترة قصيرة، ولكنه استدعاه مرة أخــرى 1962 وأخذ يجـــــــري معه أحــــــاديث طويلة عن المطارنة والقديســـين، وفي نهاية المجلس أمسك برأسه

بقوة وقال رسمتك يا شنودة أسـقفا على الكلية الأكليريكة والمعاهد الدينية، ووجه الحـــديث إلى رئيس الـــــدير "اذهب وجهز له الثيـــــاب. إن الرسامة هي بوضع اليـد". وقد تمت بقـول الأب لشنودة "أسـقفا على الكلية الأكليركية والمعاهد الدينيــة". ولم أسـتطع الإفلات فقد كــان يتمتع ببنية قوية ثم وجه إلي الحـــديث: لن تســـتطيع مغادرة هذا المكان. ثم وجه الحـديث إلى رئيس الدير: إذهب وجهز له ثياب الرسـامة، وقد تمت. ولا يبقى ســـــوى الإجــــــراءات الاحتفالية في الكنيســة. وظهر الخــبر في مانشــيت جريــدة "مصر".

ونصحه البعض أن لا يهدر هيبة الأسقفية في دروس ومحاضــرات، ولكن هــذا بالــذات هو ما فعلــه، لقد وقف أمــام السـبورة يكتب ويشــرح للطلاب.. فــازداد العــدد من عشــرين إلى 150 ولم يتسع المدرج؛ فـانتقلوا إلى القائمة الكبـيرة التي تسع ألف شخص، وازداد العدد حـتى انتقلنا إلى الكاتدرائية، حتى امتلأت على آخرها وأصـبح الاجتماع هو أكـبر اجتمـاع مسـيحي في الشـرق الأوسط يحضره أسبوعيا خمسة آلاف يزداد إلى ثمانية آلاف ثم يتجاوزه إلى العشرة آلاف[(33)].

33 **[(33)] عبد اللطيف المنــاوي. الأقبــاط الكنيسة أم الـوطن (قصة البابا شـنودة الثـالث). ص 108.**

نلحظ أن هـذا النشـاط الشـعبي المحمـوم يتنافى مع ما كان يـذكره عن كراهيته للعمل في المجتمع وحبه للعزلـة، فـالخطيب الـذي يحظى بالقبول من الجماهير يغلب أن تكـون له ملكـات تنـاقض ما يوجد في الـراهب المتمـرد المعـتزل السيد بوحدته كما يقول الأنبا شنودة عن نفسـه، وأن هـذا الاتجـاه الجديد يتفق مع ما أشـار إليه الدكتور ميلاد حنا وأوردناها من قبل، ولـذا طـرح فكـرة دعانا إليها نحن شـباب مـدارس الأحـد، فلنقتحم ظلمـات الأديـرة المغلقة ونصـبح رهبانا ومع الـوقت سيصـبح أحـدنا بطريركا، وعنـدما يصلح حال الأكليروس ويصيرون أنقياء أتقياء من المتعلمين سينصـلح حـال الأقبـاط ليكونـوا مواطـنين أفضل لمصر، لاشك في أن هـذه الفكـرة فكـرة جديـدة وتسـتهدف النهضة والإصلاح، وكانت في ذهن شنودة قبل أن يـدخل الدير، وقد طبقها على نفسه وليس من الغـريب أن يصبح هو البطريرك المنشود.

بل يمكن أن نضـيف أن مثل هـذه الفكـرة ليست سـيئة، وأن إرادة الإصـلاح كـانت في أصـلها، ولكنها تتنـافى مع النغمة السـائدة في أقـوال الأنبا شـنودة عن حبه للعزلة وسـعادته بالوحدة، وغرامة بحياة الرهبنة..

بل يمكن أن نضـيف أن مثل هـذه الفكـرة طـرأت للشـيخ محمد عبـده والسـيد رشـيد رضا عندما شاهدا طغيان التصـوف، وما يظفر به من

جماهيرية وشعبية، فأرادا إصلاحه بأن يزجـوا في صــفوفه بعــدد من أفضل تلاميــذهما، وعنــدما يشــغل هــؤلاء مراكز القيــادة فــإنهم ســوف يصــلحون التصــوف ويكســبون هــذه الجمــاهير التغيير للرشد والخـير. ولكن النتيجة لم تـأت بما تصــــور محمد عبــــده ورشــــيد رضــــا، فقد فُتن تلاميذهما المخلصون عنـدما وصـلوا إلى القيـادة بطاعة الجمــاهير، فاستســلموا للأوضــاع الــتي حققت لهما الســـــيادة... وتلك عاقبة اللعب مع "الســـــلطة" كــــاللعب بالنــــار، تحرقك قبل أن تطفئهــــا، أو كما تقــــول الأغنية "تيجي تصــــيده يصيدك".

ويبدو أن نشاط الأسقف الجديد الشاب أثـار ضــيق القيــادات الكنســية القديمــة، وربما نشأ صــراع بين القــديم والجديــد، ولكن أيضًــا ربما تنسم البطريرك المحنك كيرلس السادس رائحة دخيلة على العمل الكنسي وتلمس في تضاعيف أحــــاديث صــــفة دنيوية؛ فقــــرر نقله إلى وادي النطرون، ولكن هذا أثـار عاصـفة من الاحتجـاج؛ فأعاده مرة أخرى.

إن الأستاذ المنـاوي الـذي لمس ما لمسـناه وتساءل "هل كان الأنبا شنودة واعيا لما يفعــل؟ بمعنى أخر، هل كان يخطط لأن يصل إلى مكانة معينة في نفوس الأقباط؟ وهل كان يسـعى إلى أن يخلق من نفسه شخصية كارزمية (زعاميـة)؟ الأمر الأكيد أنه كــانت هنــاك رغبة حقيقية لــدى

الجيل الـــذي مثله البابا شـــنودة في أن يصل بفكــره وأهدافه إلى حد التنفيــذ، وقد بــدا هــذا واضحًا في تلك المرات الـتي حـدث صـدام فيها وقت أن كان البابا كيرلس السادس موجودا.

وعنـــدما أطـــرح على البابا شـــنودة هـــذه التسـاؤلات حـول وعيه بقضـية الزعامة يؤكد أنه لم يكن مقصودًا على الأطلاق، مثل هذه الأشياء لا تكون هدفا بل تكون نتيجة.

لم يقنع الأستاذ المنـاوي بهـذا الـرد وأن من المؤكد أنه كـــان يوجه جمهـــوره، وإن لم يكن لأغـــــراض السياســـــة، ولكن التوجيه الجديد موجود.. ولهذا عاد يسأل كيف تفسر هذا التجمع الـــذي أصـــبح حولك وقتها كأســـقف؟ ويجيب لا أفســره إلا بأنه نــوع من التعليم، حيث يجــذبهم إنســان عــاش في المغــارة ســنوات طويلة في مجال التأمل، ولـذا أصـبح ممكنا أن يعطي عمقا روحيا فيما يقول ربما لم يكن موجودا من قبــل، إنسان كانت عنده فترة طويلة للوحـدة، ومجـال كبير جدا للقراءة ولمعرفة أقوال الأباء القدامى، فأصـــــــبح التعليم له قيمته ليس فقط من جهة الفكر والتأمـــــل، وإنما من جهة الـــــتراث أيضا والتاريخ، إنسان كانت لديه فرصة قـراءة سـيرة القديســين وتــاريخ الأوائل يمكن أن يــزود كلامه بكثــير من القصص الــتي تجــذب النــاس. هــذا بالإضـافة إلى تلك النقطة الهامة الـتي سـبق أن

ذكرتها الخاصة بتخصــــيص جـــزء قبل كل عظه للإجابة عن استفسارات الناس ومشاكلهم..

مـرة أخـرى يقـدم إجابة مراوغـة، وفي مثل هذه الحـالات لنـدع العمل يلقي الضـوء الكاشف على حقيقة نوايا الأسقف وما كـان يقصـده: هل هو بنــاء شــعبية وقاعــدة له؟، هل هو الخــروج بالكنيسة من الإطار الروحي التقليدي إلى إطـار دنيوي فسيح يعالج كل مشاكل الأقباط؟..

وفي 9 مارس سنة 1971 مـات البطريـرك العتيد كـيرلس السـادس وانفسح الطريق أمـام الأسقف الصاعد ليحصد ثمار عملـه.. ولكن كـان عليه أن يمر بتجربة صـــعبة أخــــيرة هي عملية انتخاب البطريرك التي تمت. وكانت الانتخابـات في يوم الجمعة 29 أكتوبر 1971 فأسفرت عن اختيار ثلاثة من الخمسة، كـانوا حسب الأصـوات هم الأنبا صـموئيل (440 صـوتا)، الأنبا شـنودة (434 صوتا) والقمص تيموثاوس المقـاري (312 صوتا) ثم أجـريت القرعة الهيكلية (الطفل داخل الحجرة المظلمة) يوم الأحد التـالي ودخل طفل صغير عمرة ست سنوات اسـمه أيمن وعصـبت عينـــاه بمنـــديل أحمر وحمل الأنبا انطونيـــوس صـندوقا فضـيا به الورقـات الثلاث الـتي تحمل أســــماء الرهبـــــان الثلاثة المرشـــحين وفتح

الصـــندوق، ومد الطفل يـــده واختـــار إحـــدى الورقات الثلاث وكانت اسم الأنبا شنودة [34].

وعاد البابا شنودة إلى القـاهرة مسـاء نفس اليوم، عاد وهو على رأس كنيسة، كانت الكنيسة أشـــبه بمملكة تنتظر ملكتهـــا، وكـــانت مملكة واسـعة لها جمهـور عـريض ولها تـاريخ ولـديها مـوارد ضـخمة، ولها حصـانة تحميها من التـدخل والنقد، كـان ملكها هو في الـوقت نفسه ملكها ومرشـــــــدها، أي أنه جمع الســـــلطة الزمنية والروحية، ومثل هذه المملكة عندما يتولاها رجل مثل شـنودة لا ينقصه الـذكاء ولا الطمـوح.. لابد وأن يصل إلى النهاية الـتي ينتهي إليها الطمـوح والتي أشرنا إليها في مستهل هذه الفقرة..

عنـدما ولي محمد على شـئون مصر كـانت خرابا عاثت فيها فسادًا المماليك، ولكنه استطاع بمقـــدرة إدارية عبقرية وهمة لا تعـــرف الملل وذكـاء نـادر أن ينتهي بها لتصـبح دولة ناهضـة، ويـدفع بها مـرة واحـدة من ظلمـات القـرون الوسطى لأن تكـون الثانية في العـالم في الأخذ ببعض المخترعات الحديثة، وأن يكـون لها جيش

34 (?) **بفضل هـذه القرعة الهيكلية أصـبح الأنبا شنودة بابا رغم أنه لم يكن الذي نـال أغلبية الأصـــــــوات - انظر ملاحظة على القرعة الهيكلية ص 95 من هذه النسخة الإلكترونية، أو ص 86 من النسـخة الورقية الصـادرة عن دار الفكر الإسلامي.**

يهزم جيش السلطان، وكان لابد لهزيمته من أن تتعاون أساطيل أوروبا.

كــان يمكن للأب شــنودة أن يصل بالكنيسة إلى ما وصل إليه محمد علي بمصــر، ولكن كـان لابد في الحـــالين من دفع الثمن الـــذي يـــذهب بالكثير مما جاء به الطموح..

إن سياســات الأنبا شــنودة في حكم مملكته لا تقل صــرامة، ودهــاء عن حكم أي فعل قــوي، لقد قضى على خصــومه، وقــرّب اتباعــه، ولــوّح "بالحرمــان" بل ومارسه، وتــابع المعارضــين بلا رحمة وموقفه من القس: إبـــراهيم عبد الســـيد الذي عارض بقوة سياســات الكنيسة مثـال على ذلك. فعندما مات الرجل أصدر البابا قرارًا بعـدم الصــــــلاة عليه، ودار أهله على كل الكنـــــائس فرفضت الصلاة عليه. ولفتت تلك نظر الصحفيّة الذكية سناء السعيد وحاورت البابا[35]. أفلا يقول المسيح "بـاركوا لأعينكم"ـ "الله غفـور رحيم وإذا كان الله يغفر لعبده أفلا يمكن للكنيسة أن تغفر لأحد أبنائها ما أقدم عليه، " فقد رد البابا بصــلابة وقـــــوة أن من يخطئ في العقيـــــدة لا تجـــــوز المســامحة معــه، علما بــأن القس إبــراهيم لم يعـالج أبـدًا صـلب العقيـدة، وكل إنتقاداته كـانت على سياســــات البابا شـــــنودة، أو تأويله لبعض النصوص في قضايا حيوية. وهذه الواقعة تكشف عن صلابة لا تعرف الرحمة لكل من يخالفه[36].

---

35 **(35) انظر كتاب: البابا شنودة الثالث، ســناء السعيد، مكتبة الأسرة 2003، ص65 - 70.**

36 **(36) أنظر كتاب الباب شـنودة الثـالث سـناء السعيد مكتبة الأسرة 2003 ص 65- 70**

من الغــريب أن القس إبــراهيم عبد الســيد نشر في جريدة الميـدان بتـاريخ 6 فـبراير سـنة 1999 كلمة بعنـــوان "للتعزية لا للإذلال" ينـــدد فيها بتحريم البابا الصلاة على رجل دين مسيحي مغضــــوب عليه أوشك على المــــوت؛ فطلبت عائلته من القيـادة الدينية انتـداب من يصـلي له طلبا لشــفائه، وبعد انتظــار دام تسع ســاعات قوبل طلبها بالرفض بـزعم عـدم توبته؛ ومن ثم فلا يســتحق الصــلاة، وعند عـــودة أقربائه بعد منتصف الليل وجدوه قد انتقل إلى رحمه مولاه، وسـعوا لـدى الرئاسة الدينية للسـماح بالصـلاة على جثمانه بعد أن انتهت خصومته معها بوفاته، وانتظروا الموافقة لكنهم صـدموا بـالرفض مـرة أخرى واضطروا إلى نقله إلى منطقة رعوية في الوجه البحـــــري ووافق مطرانها على إتمـــــام مراسم صـلاة الجنـازة عليه، وقبل أن تبـدأ تلقى المطـران "فاكسـا" من رئاسـته بالقـاهرة بمنع الصــــلاة وتهديـــــده، وكل من يســـمح له من القساوسة بالصلاة بمحـاكمتهم ومعـاقبتهم! مما أضطر أسرته بدفنه بغير صلاة، مما أثار الشـعب لما آلت إليه أمور الهيئـات الدينية من تحكم في مصائر الناس أثناء حياتهم وبعد وفـاتهم، مما يعد اســترجاعا إليما لصــكوك الغفــران، ومحــاكم تفتيش العصور الوسطى.

بأية شــريعة تحكم الكنيسة بعــدم الصــلاة؟ وهل صـارت قلـوب رئاسـتها أقسى من قلـوب واضـــعي القـــوانين المدنية والجنائية الـــذين لا يمـانعون في الصـلاة على المحكـوم عليهم؟ إن

كانت الصلاة لا تفيد الموتى إلا قليلا فتبرئتهم، أو دينيوتهم هي لله وحده وحسب أعمالهم التي اقترفوها حال حياتهم، وقد رتبت الصلاة كطقس لتعزية أهل الراحل فما ذنب هؤلاء في حرمانهم من الصلاة؟ أليس من العار أن يكذب رجل الدين وينكر وقائع حدثت ثم يعود ليعترف بها أمام مواجهته بالحقائق؛ فكيف نثق بعد ذلك في كل ما يعظ به من مبادئ؟.

لقد أوصيت أسرتي بعد رحيلي حتى لا تستغل حاجتهم للتعزية لإذلالهم بعدم حاجتي للصلاة علي وقد أقرتني بأنهم ليسوا في حاجة إلى هذه الصلاة فأعمالي هي التي تبرزني أمام الله وكتاباتي تشهد لي أمام الناس.

وتوضح هذه الكلمة أن القس إبراهيم عبد السيد رحمه الله تنبأ بما سيفعله البابا شنودة، فأوصى بعدم حاجته للصلاة على جسده حتى لا يستغل ذلك لإذلالهم، وبرهن بهذا على أن أفقه فوق الطقوس والشكليات. ولكن أهله لم يكونوا بمثل هذه الدرجة من التحرر وتعرضوا لما أراد أن يوفره عليهم.

ولم يكن إبراهيم السيد هو الوحيد الذي كتب عن هذه المأساة، بل ولا الأول، لأن جريدة روزاليوسف نشرت هذا الخبر تحت عنوان "البابا يمنع كاهنًا من الأسرار المقدسة والصلاة على جثمانه في العدد الذي صدر في 23/3/98 في حين أن القس إبراهيم عبد السيد كتب

كلمته في مجلة الميـــدان في 16/2/1999 أي أن كلمة روزاليوسف سبقته بقرابة عام.

وجاءت في كلمة روزاليوسف..

"لأول مـــرة في تـــاريخ الكنيسة القبطية الحديثة.. قـام البابا شـنودة بحرمـان أحد الكهنة من تناول الأسرار المقدسة قبيل وفاته، وكـذلك منع إقامة شعائر الصلاة على جثمانه بعد وفاتـه، وتحـريم نشر أي نص في الصـحف عن الكـاهن المتوفى.

بـــدأت القصـــة، عنـــدما غضب البابا على الكاهن، لمعارضته للقيـادة الكنسـية، وكـان ذلك في عـام 1989 وكـان لهـذا الكـاهن صـلة قرابة بأسقف سابق لإحدى منـاطق القـاهرة. وبالفعل تم عزل الكـاهن. ونشر خـبر العـزل في جريـدة الأهرام في ذلك الوقت.

وفي الفترة الأخيرة تعرض الكـاهن للإصـابة بجلطة في المخ أدت إلى إصابته بشـلل نصـفي، نقل على أثرها إلى أحد المستشـفيات الكـبرى بالقاهرة يوم الإثنين قبل الماضي..

وعندما سـاءت حالته الصـحية، واقـترب من المـوت.. وذهب ابن الكـاهن مع أحد أقاربه إلى المقر البطريـركي بالعباسـية يـوم الأربعـاء قبل الماضي، يطلبان التصـريح من البابا لكي يتنـاول والده من الأسـرار المقدسة قبل وفاتـه.. وكـان هذا في الساعة الخامسة مساءً. وبعد انتظارهما حـــتى الســـاعة الواحـــدة والنصف بعد منتصف

الليـل.. قوبل طلبهم بـالرفض بحجة أن الكـاهن لم يتب عن شـــروره؟!!. على الـــرغم من أن قوانين الكنيسـة، تقضي بحتمية تنـاول الشـخص المقـترب من المـوت مهما كـانت خطايـاه، وأيا كانت العقوبة الموقعة عليه..

وعند عــودة الابن إلى المستشــفى صــباح اليوم التالي، فوجئ بوفاة والـده الكـاهن.. فعـاد مرة أخـرى إلى المقر البـابوي بالعباسـية، ولكن هـذه المـرة يطلب فيها التصـريح بالصـلاة على جثمان والـده واختيـار الكنيسة الـتي سـيتم فيها إجـراء مراسم الصـلاة.. وظل منتظـرًا الـرد من السـاعة الثامنة صـباحًا حـتى السـاعة الواحـدة ظهرًا.. ولكنه لم يستطع الحصول على الموافقة بالصلاة على جثمان والده..

بعد هـــذا التصـــرف من قبل البطريركيـــة، اضطر الابن للذهاب بجثمان أبيه إلى محافظـات الوجه البحري، وحصل على تصـريح بالصـلاة من أسـقف المحافظـة، وقـام الأسـقف بتكليف أحد الكهنة لأداء شعائر الصلاة على الكاهن المتوفى، ولكن بعد حضور جميع أفـراد الأسـرة والأقـارب دار الكنيسة ووضع جثمـــان الكـــاهن أمـــامهم.. وقبيل أداء مراسم الصلاة بدقائق.. جـاء فـاكس من البطريركية إلى الأسـقف يـأمره فيه بعــدم الصلاة على الجثمان..

أمام هذا الإصرار من قبل القيـادة الكنسـية، لم تجد أسرة هذا الكاهن شيئًا أمامها سوى دفن

الجثمان دون أداء مراسم الصلاة الأخيرة.. ولكن لم يكن هـــــذا كافيًا من وجهة نظر القيـــــادة الكنسية، فجـاء قـرار آخر بمنع الأسـرة من نشر أي نعي بالصحف!!..

المعروف أن هذا الكاهن كان يبلغ من العمر خمسة وســتين عامًا وعمل كاهنًا لمـــدة ســتة وثلاثين عامًا".

وهـــذه الكلمة تثبت أن القس إبـــراهيم عبد السيد لم يكن متحاملا على الكنيسة، أو أنه أورد خبرًا مكذوبًا، بل إن رواية روزاليوسف تزيد على رواية منع أسـرته من نشر أي نعي لفقيـــدها.. فـــإلى هــــذه الدرجة يصل التجـــبر والتكـــبر والاستعلاء.. ويكون هذا باسم المسيح! الذي درأ العقوبة عن الزانية..

في أي شـــرع تكـــون الصـــلاة على الميت بتصريح، وفي أي شرع يمنع من تنـاول الأسـرار المقدسة، وبـأي سـلطة تحـرم الأسـرة من نشر نعي في الصـــحف، ويـــأتي هـــذا كله ممن يمثل المسيح - رمز المحبة.

معضلة الشنودية:

إن معضـــلة السياسة الـــتي وضـــعها الأنبا شـنودة للكنيسة المصـرية، هي معضــلة الرجل الـــــــذي يريد أن يأكل الكعكة ويحتفظ بها في الوقت نفسه!.

فالشنودية من ناحية تضيق بإبراز المعنى الإسلامي في أي شيء.. حتى في الأسماء.. ولم يفتها – في حساسيتها المرهفة – أن السادات في مرحلة (العلم والإيمان!) أصبح يبرز اسمه "محمد أنور السادات" وليس "أنور السادات"، وهي تندد بأي دعوة "لأسلمه" ما، وتضيق بأي حديث عن الإسلام، وتناصر دعاة الدولة العلمانية، التي ينفصل فيها الدين عن الدولة، وتكون مصر لكل المصريين، بصرف النظر عن الدين.. وترى في إبراز المعنى الإسلامي "شقا" لوحدة الأمة.

وفي الوقت نفسه، فإنها تدعو لتعميق المعنى القبطي ولبعث آثار الحضارة القبطية، وتعليم اللغة القبطية، وتدعو للاحتفال في المناسبات القبطية وتطالب بمزيد من المناصب والوظائف الخ... للأقباط.

ومن الواضح أن هذين الجانبين للشنودية متناقضان..

فلذا كانت الشنودية تدعو للدولة العلمانية وتضيق بإبراز المعنى الإسلامي فلا يجوز لها أن تمارس "الشنشنة" القبطية بكل مكوناتها.

وإذا كانت ترفع راية "القبطية" وتطالب بحقوق للأقباط كأقباط، فلا يجوز لها أن تدعى الدولة العلمانية ولا الدعوة إلى "كل المصريين"، ولا يصح لها أن تضيق بالدعوة الإسلامية...

فهي تريد أن تبقى على الكعكـــة، وأن تأكلها في الوقت نفسه، وهذا بالطبع مستحيل..

الباب الرابع
هموم ومطالب الأقباط

في عام 1989 أصدر مركز ابن خلدون كتابًا بعنوان: "هموم الأقباط"، من تدبيج الأستاذ: سامح فوزي، وقدم له الأستاذ الدكتور: سعد الدين إبراهيم بمقدمة مسهبة وهامة، كما قدم له محرر الكتاب الأستاذ: سامح موسى بمقدمة استعرض فيها الاتجاهات العامة تجاه مطالب الأقباط التي لخصها في:

1. الخط الهمـــايوني وما يفرضه من عقبـــات على عملية بناء وإصلاح الكنائس.
2. استبعاد إسهام الأقباط تاريخيًا وحضاريًا من برامج الإعلام والتعليم.
3. استبعاد الأقباط من شغل عـدد من المواقع والوظائف في الدولة.
4. عــدم حضــور الأقبــاط بشــكل يتناسب مع تعدادهم في البرلمان.

واستعرض الكتـاب آراء ثلاثين مثقفًا مصـريًا عن المشكلات التي يعاني منها الأقبـاط وطـرق حلها.

ومع أن الكتـــاب يقـــدم صـــورة من الآراء المتفاوتة عن الموضوع، إلا أنني آثرت أن أعتمد في هـذا الفصل على تقرير لكـاتب قبطي عريق في قبطيتـــه، عريق في مصـــريته، شـــارك منذ الأربعينـــــات في دراسة المجتمع المصـــــري - اجتماعيًا واقتصـــاديًا - وأصـــدر عـــددًا من الكتب

القيمة. هو الأستاذ مريت غالي. ربما لا يعرف الكثيرون أن الأستاذ حسن البنا - رحمه الله - استشهد ببعض كتاباته في رسالته عن "مشكلاتنا السياسية" في ضوء النظام الإسلامي، وعندما يقدم هذا الكتاب رؤية في عام 1979 فإنها لابد أن تكون موضع الاحترام والتقدير، وقد كتب على غلافه "تقرير مرفوع للمسئولين في الدولة، وأحبائي من المسلمين لتعميق أواصر المحبة والتعاون والوحدة الوطنية على أساس من الواقع العملي". وهو ما ينم عن عاطفة خالصة قدر ما ينم عن كياسة وتهذيب في صياغة الخطاب، ويعزز هذا ما جاء في التمهيد "قد يسوءني أن أتكلم عن أكثرية وأقلية في بلدي، ثقيل على نفسي حقًا، ثقيل على نفسي حقا وقد دخلت في السبعينات من عمري أن اضطر للمطالبة بحقي وبحق الأقلية في العدالة والمساواة، موضوع طالما تحاشيت التعرض له، لأني كنت ولا أزال مشبعًا بنظرة وطنية مصرية خالصة، فعنيت بتطلعاتي نحو أمة راقية ووطن منيع ودولة قادرة على إسعاد الشعب، وكتبت في هذا ما كتبت بعيدًا عن أي اعتبار طائفي.

موضوع كان يجب أن يحل في مصر منذ أجيال، فينتهي إلى غير رجعة. وقد حل فعلا فترة من الزمن إبان الحركة الوطنية ثم انتكست الروح الخالصة، وعادت الطائفية لتبث

سمومها في المجتمع، بسبب قصر نظر الحكــام وإهمالهم مصالح الشعب، وأيضًا بسبب دسـائس وضـغوط وتحــريض من الخــارج، كل هــدفها أن تضعف المصريين وتنتقص من شـأن مصـر. وقد بلغت الطائفية في الســنوات الأخـيرة درجة من الخطورة لا يمكن السكوت عليها.

ثنائية محــــيرة تلك الـــتي تنــــادي من جهة بالشكوى والإفصـاح بقصد الإصـلاح، وتنـادي من جهة أخرى بالسكوت والكتمـان بقصد المحافظة على سمعة البلاد في الخارج أو عدم الإثـارة في الــــداخل. فكثــــيرًا ما ننتهي إلى كتم القضــــايا الدقيقة والسكوت على المسائل الحساسة، بدلا من أن نصارح بها الـرأي العـام لكي يتـبين الحق من الباطل والخير من الشر.

والميل إلى التكتم إنما يصــــدر عن نظــــرة متشـائمة في حسن إدراك النـاس، لكن مبـدئي أن كل حقيقة يمكن مصـــارحة النـــاس بهـــا، ما دامت الصراحة تقدم بروح من المحبة والاحترام المتبـادل. ولا تقــوم على غــير هــذه الصــراحة ديمقراطية صـحيحة واشـتراكية سـليمة ووطنية جديـة، وفي الحقيقة نــور خــالص يحمل النـاس على قبولها؛ لأن غالبية النـاس تميل إلى السـلم والتفاهم، وتسيرها روح المحبة لا نزعة الشر.

ولا يسعني إلا أن أصارح بأني طـوال حيـاتي – في الأشـــغال المختلفة الـــتي قمت بهـــا، والميادين المتعددة التي عملت فيها، والأوسـاط

المتنوعة الـــــــتي كنت ولا أزال متصلا بها – **لم أصادف شخصيًا سوى كل تكريم واحترام وحسن معاملة بل ومـــودة عن إخـــواني المسلمين قبل الأقباط، وروح من الإخاء والتفـاهم كـانت أكـبر عـون لي للمضي في حياتي محتفظًا بشيء غير قليل من التفـاؤل في النـاس، ومعتقـدًا أبـدًا أن قـــول الحق لابد أن ينفذ إلى العقـــول والقلوب إن آجلا أو عاجلاً.**

ففي هــذه الصــفحات أخــاطب أخًا في كل قـارئ. لا أخـاطب غريبًا أو منافسًـا أو عـدوًا، بل مواطنًا تربطني به قيم مشتركة وثقافة مشتركة ومصالح مشـتركة. ورجـائي أن يحس كل قـارئ كريم بهذا الإحساس ويبـادلني إيـاه، ويحـاول أن يفهمـني كما حـاولت أن أفهمـه، ويصـارحني في ضميره كما صارحته في ضميري وكتابتي فيبحث ما أعرضه ويتأمل فيه بـــــــــروح من العطف والمحبة" انتهى.

إن الكاتب قدم تقريره بتمهيد يفتح قلب كل باحث يريد الحقيقة، ويريد الإصلاح، ثم استطرد. "ربما كـانت مصر أكـثر احترامًا لتلك المبـادئ أو أقل مخالفة لها من بلاد أخـــرى، لكن العـــبرة بالمقياس الذي نرتضيه لبلادنـا، فـإذا رضـينا بـأن يكون مقياسنا بلادًا متـأخرة سياسـيًا واجتماعيًـا، كنا بلا شك في وضع أعلى وأحســـــن، لكن إذا فضـــلنا أن نقيس أوضـــاع بلـــدنا بأوضـــاع البلاد

المتحضـرة سياسـيًا واجتماعيًـا، كنا بلا شك في حالة أدنى وأسوأ..

ونحن نوافقه تمامًا أن ما وضعه الفقهاء منذ ألف عام وأدمج في الفقه الإسلامي بحيث أصبح هو المفهـوم المقـرر للشـريعة. نقـول إن هـذا المضـــــمون لا يتفق مع القـــــرآن ومع عمل الرسول، وإنما هو نتاج عصور مغلقـة، مسـتبدة، فرضت نفسها على الأحكـام. وإذا كـان الأقبـاط يضيقون بها، فنحن أيضًا – كمسـلمين نضـيق بها ونريد جـوهر الإسـلام والعـودة إلى القـرآن دون تقيد بتفسير المفسرين الـذين أصـدروا الأحكـام اجتهادًا في ضـوء فهمهم، مما لا يمكن أن يكـون جزمًا هو حكم القـــرآن، وهـــذا هو ما نعمل له جاهدين منذ وقت طويـل، والـذي من أجله أعلنا "دعوة الإحياء الإسلامي" الـتي تسـتبعد الالـتزام بكل ما وضعه الفقهاء من قواعد وأحكام مجافية للقرآن، بل إنها تعيد النظر في بعض ما جـاء في القـــرآن من أحكـــام دنيوية في ضـــوء تحقيقها للحكمة الـــتي من أجلها أنـــزلت وهي بالدرجة الأولى العدل.. وهل لا تزال قائمة أو أن التطـور حـال دون ذلك، أو أن ظـروف المجتمع وتطـور الأوضاع جعلتها مجافية لذلك، أو حـتى أسـقطت الأســباب الــتي من أجلها وضــعت مثل الــرق، والغنائم، والجزية الخ.. إن هذه النظـرة لم تفت فكر عمر بن الخطــــاب الــــذي لم يطبق بعض النصوص الثابتة في القرآن الخاصة ببعض أحكام

الشريعة عندما وجد أن السبب الذي من أجلها وضعت قد انتفى.

أو أن هناك ظروفًا ترجئ، وتوقف تطبيقها. ولو أن الفقه الإسلامي بدأ حيث انتهى عمر لوفر ألف سنة من المماحكات والافتراضات والأحكام المجافية لروح القرآن ولرسالة الإسلام والتعارض مع القيم العليا التي أنزل لها..

لقد استشهد الأستاذ مريت بعبارات جارحة مقيتة جاءت في أحكام بعض المحاكم الشرعية والاستئنافية. ونقلتها مما جاء في تعبيرات الفقهاء التي صدرت في عهود التخلف، وفي نظرنا أن الحكم في موضوع شئون الأسرة والأحوال الشخصية هو الحكم بشريعة المتقاضين وهذا حق يكفله الإسلام لغير المسلمين وكان ساريًا حتى ألغيت المحاكم الشرعية والملية بالقانون رقم 462 لسنة 955 وأحيلت القضايا إلى المحاكم الوطنية ونعتقد أن هذا التجديد خالفه الصواب؛ لأنه يخالف المبدأ المقرر أن لغير المسلمين الحرية الكاملة فيما يتعلق بالأحوال الشخصية، شأنها في ذلك شأن ما يتعلق بالعقيدة.

ولكن ثمة تحفظ في هذا المجال عندما يغير أحد الزوجين دينه، ويترتب على ذلك نسخ الزواج (وهو أمر يأخذ به الفكر المسيحي والإسلامي) في هذه الحالة يكون الأخذ بشريعة العقد قيدًا على حرية الاعتقاد، وأنا أسلم بأن

كثيرًا من الذين يغيرون الـدين يلجـأون إليه هربًا من قيود يفرضها دينهم الأصـلي، وأن هـذا يمكن أن يعد تلاعبًا بالأديان، ولكننا لا نملك الحكم على النـاس بما تكنه صـدورهم، كما لا يمكن أن تقبل وضعًا يحرم حقًا من الحقوق الأساسية للإنسان، وقد قـرأت حلا لهـذه المشـكلة في أحد أعـداد مجلة التوفيق القبطية[37] يقـول إننا لا نسـتطيع، ولا نهتم بأن يغـير رجل دينـه، وإنما نهتم بمصـير الزوجة المسـكينة الـتي تطلق "ويتخـرب بيتهـا" وقد يؤخذ منها أطفالها دون ذنب جنته، ونحن نسلم تمامًا بهذه النقطة ونرى أن من الضروري أن ينص القانون في مثل هـذه الحالة أن يعـوض الزوج زوجته عن الطلاق الذي فـرض عليها دون ذنب منها، بـالتعويض الـذي يحكم عليه بـالزوج الذي يطلق زوجته دون ذنب منهـا، ويفـترض أن يكـون هـذا التعـويض تعويضًـا سـخيًا يكفل لها الحيـاة حـتى يقيض الله لها سـبيلا. أما الأبنـاء فيظلون مع الأم وعند بلوغ سن معين يخـيرون.. وأرى أن هـــذا الحل هو ما يحكم به الإســـلام تطبيقًا لحـديث الرسـول الجـامع: "لا ضـرر ولا ضـــرار". فلا يضـــيق على الرجل في حريته في الاعتقاد ولا تظلم المرأة دون ذنب جنته.

---

37 **(?) مجلة التوفيق العـــدد التاسع – فـــبراير 1960 ص5، وقد نقلت الـــرأي عن كلمة للأسـتاذ أحمد لطفي حسـونة، نشـرها في جريدة: الأخبار بتاريخ 3 فبراير سنة 1960م.**

وينتقل التقرير إلى الكنـــــــــــائس والخط الهمايوني المعروف ورأينا يتفق مع رأي الكـاتب في "إلغـــاء تـــراخيص الكنـــائس" لأن هــــذه الــتراخيص قيد على حرية التعبــير المعــترف به كحق من حقوق الإنسان.. والمفروض أن يكــون للأقباط الحق في أن يقيموا كنائسـهم حـتى ولو أقـاموا في كل حـارة كنيسة لأن الـذي سـيحكم الأمر في النهاية هو السـلامة الموضـوعية. فـإذا أقيمت كنـــائس حيث لا يوجد مســـيحيون فإنها سـتكون عبئـا، وكـذلك إذا كـان العـدد محـدودًا بحيث لا يتطلب إقامة كنيسة فلندع الأقباط حتى يتعلموا من حكم الواقع.

وغـني عن الـذكر أن هـذا ينطبق أيضًـا على المســلمين الــذين يجب أن يكونــوا أحــرارًا في إقامة المساجد.

وعرض الكتاب للدعوة والتبشـير ولعل هـذه إحدى النقاط القليلة التي لم يلحظ فيها المؤلف بعض تــداعياتها، وأنه تصــور أن دور المســلمين في التبشــير قد يمس عقائد المســيحيين. ولكن الحقيقة الـــتي يعرفها كل دارس أن المســـيحية قامت على التبشـير، وأن هنـاك نص في الإنجيل يقضي بذلك ولكن هذا النص إنما أريد به تبشـــير الوثنــيين، لأنه لم يكن هنــاك ديانة ســماوية، أما بعد نزول الإسلام، فكـان يجب على المسـيحيين أن يوقفوا التبشـير في بلاده، ولكن الـذي حـدث أن جمعيـــات التبشـــير وجـــدت في مصر من

الثلاثينـات، وقد كـان من أسـباب قيـام الإخـوان المسـلمين ازديـاد نشـاط هيئـات التبشـير الـتي كــانت تعمل على أســاس دولي، واتخــذت في إحدى المناسبات من بيت عـرابي باشا مقـرًا لها وسـمح للقس زويمـر، وهو من أشد المبشـرين عـــداوة بـــدخول الأزهر؛ فـــانتهز الفرصة لتوزيع منشورات تبشـيرية حـتى هم به الطلبة من أجل هذا، فالرأي السـليم أن تكف الأديـان جميعًا عن التبشير فما من دين يشكو من قلـة. إن كل دين يضم المليـارات، والأديـان قيم، والقيم لا تزيد أو تنقص، ولأننا إذا سمحنا به فلن يمكن أبدًا ضبطه في حدود آمنة ومحايدة، وكيف يكون هذا وصلب كل تبشـــير أن دينا أفضل من دين. لقد قـــررت ســـورة "الكـــافرون" أن الكـــافرين لن يؤمنـــوا بالإسلام، وأن المسلمين لن يؤمنــوا بكفر، وبنت على هذا التأييد التعددية الدينية "لكم دينكم ولي دين".

ونهى الرسول أن يحول يهـودي أو مسـيحي عن دينه، ونهى القرآن عن التفاضل بين الأديـان **﴿وَقَـالَتِ الْيَهُـودُ لَيْسَـتِ النَّصَـارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَـيْءٍ وَهُمْ يَتْلُـونَ الْكِتَـابَ كَـذَلِكَ قَـالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ فَاللهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ فِيمَا كَـانُوا فِيـهِ يَخْتَلِفُـونَ﴾** [113 البقـرة].. ونهى المسـلمين أيضًا ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَـكُمْ**

لاَ يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ [105 المائدة]..

لهذا من الأفضل النص على عدم وجود هيئات تبشيرية، سواء أكانت مسيحية أو مسلمة لأن هذا لابد وأن يدعو إلى الفرقة ويثير حساسيات وخلافات.

أما نقطة تغيير المعتقد – كأن يسلم مسيحي أو ينتصر مسلم - فهذا ما يجب أن يترك لإرادة الفرد، ولا يجوز لأحد أن يتدخل فيه لا الدولة، ولا الكنيسة ولا المؤسسة الدينية الإسلامية. وكيف يجوز لأحد من هؤلاء التدخل وقد قال القرآن للرسول "أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مسلمين". إن أي تدخل يعد تطفلا على حق من أقدس الحقوق الإنسانية لأنه يتعلق بحرية الضمير. وكل ما جاء عن الردة في كلام الفقهاء لا يتفق مع القرآن الذي فتح باب حرية الاعتقاد على مصراعيه ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**﴾. بل وجعل الهدى والضلال. الإيمان والكفر قضية فردية شخصية ﴿**إِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾. ولهذا يجب استبعاد أي تدخل من النظام العام في هذا الأمر ويجب ألا يثير حساسية.

لقد عرضنا رأي الإسلام في هذا، واســتبعدنا تمامًا وبالكامل كل إشارة إلى أي إجراء بالنسبة للردة. وقد ذكر القرآن الردة أكثر من مــرة ولم يترتب عليها عقوبة دنيوية. كما أن كثيرين ارتدوا عن الإســـلام في عهد الرســـول، فما تعقبهم عقوبة..

هذا هو رأي الإسلام وهو يتفق مع المادة 16 من الإعلان العالمي لحقوق الإنسان. وقد جليناه في كثــير من الكتب. ويفــترض أن يكــون رأي المسيحيين كذلك.

أما كل هــذه الإثــارة والتجمهر والغضب لأن أحدًا غيَّر دينه فهي أثر من عدم الإيمــان بالحرية من ناحية، وعدم الإلمـام بـروح الـدين من ناحية أخرى، إذ لا يمكن أن يقـوم الاعتقـاد على إجبـار أو إكـــراه. ويجب بـــذل كل الجهـــود لتعريف المســلمين والأقبـاط بهـذه المبـادئ. وهـذا هو واجب أحـــــرار الفكر من الفـــــريقين لأن المؤسسـات الدينية – مسـيحية، ومسـلمة – لن ترحب بهذا بل وقد تقاومه..

هناك كلمة عن الأوقاف ورأينا الــذي يتفق – فيما نـرى مع مبـادئ الشـريعة والإسـلام: أن أي مســاس بـــإرادة الـــواقفين هو انتهـــاك لحرية التصـرف وقضـاء على الشـرعية فلتعد الأوقـاف إلى ما كـــانت عليه طبقًا لإرادة واقفيها، ولتقلع الدولة عن الاعتـداء على أمـوال الشـعب أحيـاءً وأمواتًـــا. وهـــذا الحكم يســـري بـــالطبع على

المسيحيين والمسلمين الذين تعرضـوا أكـثر من المسيحيين لمضار هذا الوضـع، وهم يقولـون إن الأزهر يعيش على مالية الدولـــــــة، والأزهر له أوقـاف تكفيه وتزيـد، ولكن الدولة وضـعت يـدها عليه وتولت الإنفاق عليه، ولو أعادت أوقافه لما كـان في حاجة للدولة ولسـار في حـدود هـذه الأوقاف.

وجـــاءت إشـــارة في التقرير عن التعليم – وبالـــذات تعليم الـــدين - ونحن نؤكد على أن القضـية لها جـوانب عديـدة فطـبيعي أن يكـون تعليم الـــدين الإسـلامي مسـلمًا به، أما تعليم الأقلية المسيحية لـدينها فقد تحكمه الضـرورات العملية، فـــإذا كـــانت الكنيسة على اســتعداد لتقـديم مدرسـين، فيمكن خلال حصة الـدين أن يكـون للطلبة الأقبـاط فصل خـاص يـدرس لهم فيه القسيس.

ويمكن اسـتثناء التلاميذ الأقبـاط من حضـور حصة الدين، ولا أعتقد أن وجـود نص قـرآني في كتـاب للمطالعة فيما يوضع من نصـوص للبلاغة يقرأها التلاميذ جميعًا يسئ إلى المســـيحية. أو يمس مشاعر المسيحيين.

ولم يكن عدم تعليم المسيحية في المدارس صـادرًا عن تعصب ديـني، فعنـدما كـان مسـتر دانلـوف (وهو أصلا قسـيس) أو يعقـوب آرتين يشـــــرفان على التعليم، وطلب القبط من كل منهما تعليم المسيحية لأبنائهم رفضا، فلما تـولى

سعد زغلول نظـارة المعـارف سـنة 1907 قـرر إدخـال هـذه المـادة بالمـدارس الابتدائية قـائلا: "نريد أن يكون الأقبـاط وهم شـركاؤنا في البلاد عـالمين بمبـادئ عقائـدهم، متمسـكين بقواعد دينهم؛ فـإن الـذي لا دين له لا أمـان له ولا وفـاء لـــه". وقد تـــدخلت في هـــذه العملية بعد ذلك تيارات حزبية تضحي بالمصلحة العامة في سبيل مصارعتها الحزبية كما تدخلت السراي بحيث لم تعـالج هـذه النقطة بالنسـبة للتعليم الإلـزامي أو الابتـدائي المعالجة الواجبـة. ووقعت الحكومـات موفقًا ســـــلبيًا يؤخذ عليها (وهو بصــــــفة عامة موقفها في القضـية القبطية وفي قضـايا أخـرى عديدة). وقد كـان من أثر ذلك أن عُـني الأقبـاط بتأســـيس مـــدارس خاصة بهم تركز على تعليم المسيحية، وتاريخ الكنيسة واللغة القبطية[38].

وفي ســـنة 37 أصـــدر المجمع المقـــدس للكنيسة القبطية في أواخر هـذا العـام بيانا عن مساهمته في التعليم الإلـزامي وإنشـاء مـدارس لأبنـاء الأقبـاط في جميع أنحـاء البلاد وظهـرت المطالبة بأن تسـتعين وزارة المعـارف بخـريجي المدرسة الأكليركية في تـــــــــــدريس الديانة المسـيحية في المـدارس، وأن تعـاون الحكومة

---

38 **(?) انظر المســلمون، والأقبــاط في إطـــار الجماعة الوطنية – د. طـــارق البشــري ص 267.**

الأقبـاط في شـعبهم لإنشـاء المـدارس الخاصة بهم[39].

وأعتقد في دراسة التـاريخ أن يـدرس الـدور الــذي قــامت به الكنيسة المصــرية في إبـــراز الشخصية المصـرية ومقاومة المحتل البـيزنطي رغم أنه كان مسـيحيًا. وأن يشـار إلى ما تعـرض له الأقبـــاط من اضـــطهاد أبـــاطرة الرومـــان والبيزنطـيين وكيف ثبتـوا في كفـاحهم وإن كـان في ســبيل العقيــدة، فإنه كــان أيضًــا مقاومة للمحتل، وهو ما يفخر به التـاريخ المصـري. وأن يلحظ في هـذا الدقة التاريخيــة. حـتى لا ينطلي اللبس التـاريخي والشـائعات الـتي تتـداول بين الأقبــــاط عن أنهم ورثة الفراعنـــــة، فلم يكن للفراعنة من عدو أعدى من الأقباط، وقد الجأوا كهنة الديانة المصـرية إلى أن يهربـوا إلى أقصى الصعيد، وتولوا هدم الآثار المصرية ولم يبقـوا إلا على ما استعصى عليهم هدمه، والمسـلمون بعد هم الأقبــاط الــذين أســلموا فالكل من ســلالة واحدة.

وقضية الوظائف العامة وإقصاء الأقبـاط عن بعضـها هي من أبـرز المطـالب، وقد أشـار إليها الأسـتاذ مـريت غـالي فقـال: "كـان المعتـاد أن يقصى المسـيحيون من الوظـائف العليا بــوزارة الداخلية في العاصمة والأقاليم، لكن هذه العادة الســـيئة قد امتـــدت إلى الوظـــائف العليا في

39 **(?) المرجع السابق ص 270.**

الـــــوزارات الأخـــــرى، وخاصة في التعليم وفي الخارجيـة. فلا يكـاد الأقبـاط يعـدون على أصـابع اليد الواحدة في مجمـوع عـداد عمـداء الكليـات الجامعية ورؤســـاء أقســـامها ومـــديري المعاهد العليا والسـفراء ورؤسـاء البعثـات الدبلوماسـية لـدى الـدول والمنظمـات الدوليـة، وجملة هـذه الوظـــــــــــائف تزيد عن ثلاثمائة وقد تصل إلى أربعمائة، وكم يوجد من الأقباط في نحو الألفين من وكلاء الـــوزارات والمـــديرين العمومـــيين بالجهاز الحكومي؟.

أما القطـاع العـام، الـذي يرجع إنشـاؤه إلى التأميمات الاشتراكية، فهو مجـال جديد للتوظف العـــــــــــام في مصر قد دأب منذ البداية على التضـييق على المسـيحيين. هنـاك مثلا نحو 360 من رؤساء الشـركات المؤممة ولا يزيد الأقبـاط منهم عن عشـــــرة، وتلاحظ نســـــبة مماثلة في الأعضاء الآخرين المعينين في مجالس إدارة تلك الشركات.

وغني عن البيان أني أستبعد كلية أي تشـريع أو إقرار يفـرض نسـبة معينة لتقسـيم الوظـائف العليا بين الأكثرية والأقليـــــة، فقد رفضت الأمة المصرية منذ ثورة 1919 (وفي مناقشة دسـتور 1923 والدســــاتير الســـــابقة واللاحقة لـــــه) الاعـــــتراف بأكثرية وأقلية في مصـــــر، ورفض الأقبـاط قبل إخـوانهم المسـلمين فكـرة التمثيل النسبي.

ومهما يكن السبب الذي أدى إلى التضييق على المسيحيين في الوظائف القيادية، سواء أكان نتيجة إهمال أو سياسة مرسومة، أم كان راجعًا إلى زيادة التنافس على الترقية واشتداد التزاحم على وسائل المعيشة، فالواقع أن الأقباط يعاملون الآن من حيث الوظائف العامة كمواطنين من الدرجة الثانية، كأنهم غير مؤتمنين على مصالح الدولة مثل مواطنيهم المسلمين، أو كأنهم غير قادرين مثلهم على تحمل الأعباء والمسئوليات المترتبة على الوظائف القيادية. وهذا وضع لا يليق بأمة متحضرة يشترك أبناؤها جميعًا في قدر متساو من الحقوق والواجبات، والمزايا والتضحيات"ـ انتهى.

ولكن هناك ملاحظة هي إننا نسمع حديثًا طويلًا ومكررًا في كل كتابات الأخوة الأقباط عن التمييز في الوظائف، ولكننا لا نرى أقل إشارة إلى النصيب الكبير الذي تتمتع به الأقلية القبطية في القطاعات الاقتصادية والتجارية، وطبقًا لآخر إحصاء موثق فإن الأقلية القبطية تملك من ثروة مصر ما بين 35% و 40% فهي تملك وتمثل:

- 22.5% من الشركات التي تأسست ما بين 1974 وسنة 1995م
- 20% من شركات المقاولات في مصر..
- 50% من المكاتب الاستشارية.
- 60% من الصيدليات..
- 45% من العيادات الطبية الخاصة..

- 35% من عضوية غرفة التجارة الأمريكية، وغرفة التجارة الألمانية..
- 60% من عضوية غرفة التجارية الفرنسية (منتدى رجال الأعمال المصريين والفرنسيين).
- 20% من رجال الأعمال المصريين.
- 20% من وظائف المديرين بقطاعات النشاط الاقتصادي بمصر.
- أكثر من 20% من المستثمرين بمدينتي السادات والعاشر من رمضان..
- 15.9% من وظائف إدارة المالية المصرية..
- 25% من المهن الممتازة والمتميزة – الصيادلة –الأطباء – المهندسين – البيطريين – المحامين([40]).

وفي الفصل الأخير من التقرير تحدث الأستاذ مريت عن **الإعلام والإرشاد فأشار إلى أن الإسلام** كان سباقًا في السماحة والرحمة وقت أن كان الغربيون لا يعترفون بالسماحة في الدين، ولا يمارسون الرحمة في معاملتهم لتابعي الأديان الأخرى، حتى الكتابية منها. وفي ذلك الوقت، كان هذا الموقف الإنساني من قبل الإسلام كسبًا كبيرًا للحضارة والرقي، وفضلاً عظيمًا يذكره التاريخ بالتشريف والتقدير للإسلام والمسلمين. على أن المسيحية قد تطورت على مر القرون، وخاصة في الحقبة الأخيرة، فتفهمت السماحة في الدين ومارست

40 **(?) عن الإسلام والأقليات للدكتور محمد عمارة – مكتبة الشروق ص 40.**

الرحمة في معاملتها مع الآخـرين، وتخلصت إلى حد كبــير من نزعة الاســتعلاء والاســتكبار إزاء تابعي الأديان الأخرى.

ولم يتطــور الإســلام هــذا التطــور، بل بقى فيما يبـــــــدو على تفهمه الأصـــــــلي للرحمة والســماحة، ولم يصل بعد إلى الاحــترام الكامل الواجب تبادله بين الأديـان الكتابية دون اسـتكبار أو اسـتعلاء، وبهـذا أصـبح الإسـلام في عصـرنا يواجه اختبـــارًا جديـــدًا، هو تحقيق التســـامح الصـحيح، أي المتبـادل في إخـاء ومسـاواة وهو التحـــدي المعنــوي الــذي لابد للإســلام من أن يتصـــدى له في جميع المجـــالات، وفي أنحـــاء ســـاحته الحيوية من الأطلسي إلى المحيطـــات الهندية.

أعتقد أن هـــذه الفقـــرة من كلام الـــدكتور مريت غالي ليست دقيقة في الجزء الأخير منها، أعــني إن الإســلام لم يتقــدم في تســامحه إلى المستوى الذي بلغته بعض الدول.

فالإسـلام هو الـدين الوحيد الـذي يفتح بـاب حرية الاعتقاد على مصراعيه، فمن شــاء فليكفر ومن شــاء فليــؤمن، بل وجعل الهداية والضــلال أمرًا شخصيًا لا دخل لأحد، ولا للنظام العام فيـه، فمن اهتـدى فإنما يهتـدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليهـا، وهو يعـترف بكل الـديانات ويـؤمن أتباعه بالأنبيــاء جميعًا – لا نفــرق بين أحد منهم. ويتقبل التعددية الدينية كمشيئة إلهية.. ولو شــاء ربك لجعل النــاس أمة واحــدة، فضــلاً عن أنه لا يعترف بكنيسة تحلل وتحـرم وتكـون لها وصـاية على إيمــان النــاس وإرادتهم. هــذا هو الإســلام،

ولكن المسلمين تخلفوا عن إسلامهم ولم يأخذوا بما جاء في قرآنهم، ولكن بما قال فقهاؤهم الذين أصدروا أحكامهم في عصر مغلق مستبد.

ومن ناحية أخرى، فإن الدول التي تصور الدكتور مريت أنها وصلت إلى درجة عالية من التسامح إنما يعود إلى قلة اكتراثهم بالأديان أصلا، فضلاً عن أنهم تراجعوا في الفترة المعاصرة عن هذه الحرية والسماحة، وهيمنت الأصولية الإسرائيلية المتعصبة على المسيحية في الولايات المتحدة، والنزعة العنصرية في دول أخرى. والقوانين الأوروبية لا تحمي إلا الديانة اليهودية والمسيحية أما الإسلام فمستباح، وقد أشرنا في فصل سابق إلى تصوير مجلة دينماركية للرسول في صور شائهة، ورفض رئيس الوزراء مقابلة 11 سفيرًا مسلمًا.

وكان الأستاذ مريت غالي كريما ومنصفًا عندما رأى أن النص: "دين الدولة الإسلام" نصًا مقبولا، بل وواجبًا لكي يؤكد أن المجتمع المصري يقتدي بالقيم الروحية والمبادئ الدينية، وأنه يصبو إلى السمو الأخلاقي الذي هو في آن واحد بذرة الرقي وثمرته، ولأن دين الدولة بطبيعة الحال دين الأكثرية في البلاد. لكن هذا النص لا يمكن أن يتخذ ذريعة للدس على حقوق الأقلية، ولا حجة لمخالفة حرية العقيدة وحرية العبادة، وللنيل من المساواة التامة في الحقوق والواجبات بين جميع المواطنين".

لست أرفض كلمة مكـــــــــــرم عبيد: "إني مسيحي دينًا ومسـلم وطنًـا"، كما لا أرفض كلمة سلامة موسى: "إن الإسـلام دين بلـدي وواجـبي الدفاع عنه". بل أجد في عقلي من السـعة وفي قلبي من السماحة ما يهيئني لقبول هذا المعـنى وأنا مطمئن الضـمير. فـأقول إنه علي أن أدافع عن الإسـلام لأن المسـلمين إخـوتي في الكتـاب وفي المثل العليا، وانتظر بدوري أن يــدافع أخي المسـلم عن المسـيحية؛ لأن المسـيحيين إخوته في الكتاب وفي المثل العليا.

***

إننا نتفق مع الأستاذ "مـريت غـالي" في كل ما ذهب إليه، ولكننا نرى أن هناك ما هو أهم من المطـــالب، وأحق بالأولوية وما يمثل ضــــمانًا لتحقيق المطـالب واسـتمرارية هـذا التحقيــق، وذلك هو توفــــير منـــــاخ من المحبة الحقيقية والخالصة ما بين الأقباط والمسلمين، لقد أشرنا في المقدمــة، وفي فصل "التعــايش الإيمــاني" إلى مبـدأ رئيسي هو أن الـدين يجمع ولا يفـرق، يشيع المحبة ولا يسيغ الخصام، أو حـتى الحيـاد، إن سياسة البابا شــــنودة ســـــممت الجو بين المسـلمين والأقبـاط بإشـاعة "روح المطلبيـة" واتخاذ صـورة التحـدي بحيث تعسر تحقيق هـذه المطــالب، وحـــتى لو حققت فـــإن مناخًا يفتقد العاطفة الخالصة يجعل من هـــــذه المطـــــالب "وجبة بــاردة" جافــة. لا تثــير شــهية ولا تغــري بقابلية، إن المطلــوب الآن أن نعيد مــرة أخــرى مناخ سنة 1919 عندما انصـهرت الفـروق تمامًا في بوتقة الاستقلال، فقد حولت حرارة العاطفة الشيخ عبد العزيز جـاويش - الـذي كـان أول من

هاجم الأقباط في الفترة 1908-1911 وصاحب المقـال المشـهور "الإسـلام غـريب في بلاده" - إلى نصـير الأقبـاط، يقـول وهو يقف على قـبر محمد فريد: "أنظر فريد كيف تعـــــانق الهلال والصليب والتقى القرآن والإنجيل وتعانق الشـيخ والقسـيس". كما حـولت جنـدي إبـراهيم رئيس تحرير مجلة مصر الذي كـان أول من حمل على الشيخ جاويش إلى نصير له يؤيـده في انتخابـات 23، وجعل الأهرام تكتب تحت إسـمها "جريـدة مصــرية للمصــريين". وجعلت الأب ســرجيوس يتخذ الأزهر مقــرًا مختــارًا يــوالي الخطب فيه ويقول: "إذا كان الإنجليز يتمسـكون ببقـائهم في مصر لحماية الأقبـاط، فأنا أقـول ليمت الأقبـاط وليحيا المســلمون أحـــرارًا". وفي رواية ولتحيا مصر حـرة، "وجعل جريـدة مصـر، لسـان حـال الأقبـاط تنشر بعـرض الصـفحة "ليس للأقبـاط مطــالب". وجعل الشــيخ أبو الفنــون والشــيخ القايـــاتي والشــيخ التفتــازاني يخطبــون في الكنــائس.. ووضع شــوقي بك دعــاء يتلى في المساجد والكنائس "اللهم قـاهر القياصر ومـذل الجبــابر، وناصر من لا له ناصــر، ركن الضـعيف ومادة قواه، وملهم القوي خشـيته وتقـواه، ومن لا يحكم بين عباده سواه، هذه كنانتك فــزع إليك بنوها، وهرع إليك سـاكنوها، هلالا وصـليبًا، بعيـدا وقريبـا، شـبانا وشـيبا، ونجيبة ونجيبـا، مسـتبقين كنائسك المكرمــة، الـتي رفعتها لقدسك أعتابًــا، ميممين مســاجدك المعظمة الـــتي شـــرعتها لكرمك أبوابـا، نسـألك فيها روح الحــق، ومحمد نبي الصدق، وموسى الهارب من الرق.

فآتنا اللهم حقوقنا وأجعل وفـــدنا في دراهم هو وفـدك وجنـدنا الأعـزل الأمين الحق جنـدك الخ[41]..

المطلوب الآن إعـادة روح 19 وبنـاء العلاقة بين المسلمين الأقبـاط على أسـاس من المحبة الصـادقة والتقـدير القلـبي والاعـتراف بحقـائق التـاريخ وفي أسـاس هـذا كله أن الـدين عامل وحـــدة، وهو ما عجــزت من اســتياعبه روح 19 لأنها تحته جانبا، باعتبـــار الــــدين لله والـــوطن للجميع. وإذا كـان الـدين لله لكـان عـاملا وحـده لأن الله رب الجميـــــع، وقد نجحت روح 19 إلى تحقيق الوحدة لأنها قامت على أسـاس واحد هو الاستقلال وكان المطلب من القوة والنبل بحيث صــهر كل الاختلاف، ولـدينا الآن ما يعـادل هـذا العامـل، بل ويفوقه هو بنـاء مصر الـذي لا يمكن أن يتم حقا إلا عنـدما تنتظم المصـريين جميعًا – مسلمين وأقباط - روحٌ واحـدة.. بعيـدة عن روح "المطلبية" الصغيرة.

قد يقولـــون أعطونا أولاً مطلبنا افعلـــوا كما فعل سعد زغلـول عنـدما كـان الأقبـاط يعـادلون المســلمين في هيئة الوفــد. وأنا أقــول إن هــذا مطلب عادل ويجب أن يتحقق، ولكنــني لا أعتقد أن سـعد زغلـول كـان يقـدم "رشـوة" للأقبـاط ليشــتركوا معـــه، فالحقيقة أنه أثــار فيهم، وفتح لهم باب المشـاركة فـدخلوه مؤمـنين بـه، ولكننا نتحدث الآن عن ما هو أسـمى من العـدل الـذي يوجب المطلب، أعـني التضـحية عند الضـرورة،

---

41 (?) بقية الدعاء في كتاب الوحدة الوطنية في ثورة 19 تـأليف: رمـزي ميخائيل جيد – مركز وثائق وتاريخ مصر المعاصـرة - ص 36، وقد اعتمدنا عليه في الفقرة.

ويمكن أن نقول باللغة المسيحية الفداء، والفداء أصل مسـيحي رائـع، ويمكن لو فهم كمنهج أن يغـير صـورة الأوضـاع، لأنه ينظر إليها من زاوية جديـدة بـالمرة. إن هـذه المعـاني كلهـا: الـدين كعامل وحدة. وجمـع، ومحبـة، وبنـاء مصر كأمل أسمى، واستلهام فكـرة الفـداء هـذه كلها يمكن أن تهيئ الجو.

دفعـني إلى هـذا أني لم أجد في كتابـات الأخوة الأقباط ما يؤدي إلى التقـريب، دع عنـك، تعزيز المحبة. وكان ما أثار عجـبي أن كثـيرًا من الكُتاب الأقباط عندما يتحدثون عن الآخر، فـإنهم يقصـدون به أنفسـهم، وهـذا أمر لا يسـتقيم والآخـر، ما دام يصـدر منهم هو بالضـرورة المسـلمون، لكن اسـتحواذهم لأنفسـهم جعلهم يـرون أن الآخر هو الأقبـاط، وما يجب على المسلمين تجاههم. فهل فكر هؤلاء الأقباط فيما يكون عليهم تجاه الآخر – أي المسـلمين - حـتى لا يقتصر حديثهم عن المطالب.

أشرت في فصل "الحساسـية" إلى أن كاهنا كبـيرًا في الكنيسة الأرثوذكسـية أقـام الـدنيا لأن كاهنا من الكنيسة الكاثوليكية قدم تحية للرسول العـربي في ذكـرى رمضـان. وهي وإن كـانت تسـيل رقة وعاطفية وإخلاصـا، فإنها لا تتعـارض في شـيء مع العقيـدة المسـيحية، ووصل شـأن الكـاهن الأرثوذكسي حد تكفـير الكاهن الكاثوليكي، إن معنى هذا أن أي مـدح أو تقـدير للرسـول يخـالف العقيـدة المسـيحية ويسـتحق قائله التكفـير، فهل يظن أحد أن هـذا الموقف يمكن أن يقـرب بين المسـلمين والأقبـاط. أبحث سـدى عن كتابـات من أقبـاط تعرب عن تقدير للإسـلام ولنـبي الإسـلام، إن ما

يكتبه الأخوة من الأقباط، وقد يصوره مقال الأنبا شنودة عن القرآن، يقتصر على ذكر الآيات التي تمتدح فيها القرآن السيدة مريم أو يـزجي الثنـاء على السيد المسيح، ولكننا لا نرى ذكرًا لرسـول الإسلام.

إننا نجد الألوف، أو حـتى مئـات الألـوف من المسـلمين يزجـون المـديح للسـيد المسـيح، ويتحـدثون عنه بإيمـان وإخلاص وتقـدير وحب، ويسمون أبناءهم باسمه، وبنـاتهم باسم "مـريم" ولا يخطر ببالهم أي حساسية نحو ذلك.

ولكن كم من الأقباط يتحدثون عن "محمـد" وعن الإسلام كما يتحدث المسـلمون عن السـيد المسيح والمسيحية؟

كـاتب واحـد، وقيل إنه تعـرض لمتـاعب من الكنيسة في حياتـه، وعند وفاته[42]. كما تعـرض حـديثا الأب يوحنا قلته عنـدما كتب مقالته الـتي أشرنا إليها.

---

42 [(?)] **هو الـدكتور نظمي لوقا رحمه اللـه. وقد ذكر لنا فيما ذكر كتابات ممتـازة بوجه خـاص للـدكتور وليم قلادة، والأسـتاذ إدوار غـالي الـذهبي، بالإضـافة إلى كُتَّاب ذكرنـاهم في هذا الكتاب، ويلحظ أن المسيحيين في لبنان كـانوا أكـثر تقـديرًا للإسـلام؛ فكتب قسـطنطين رزق، وكتب ميشـيل عفلق عن الرسـول، ووضع جـورجي جـردان سـتة مجلـدات عن عليّ بن أبي طـالب، وتحـدث الرياشي عن الرسول وعمر. وكتب الـدكتور فيتكـور سـحاب عن أثر القـرآن الكـريم في حفظ الموسيقى الشـرقية، وأن التجويد هو أصل التلحين، أما كتابـات جـورجي زيـدان الإسلامية، فأشهر من أن تذكر.**

كم من الأقبــاط يســمى ابنه محمــدًا وابنته فاطمة؟ لا أحد[43].

إن "محمـــدًا" ليس فحسب أنجح الأنبيـــاء وأعظمهم، ولكنه أيضًا سيد العـرب جمعيًـا، وكل من يتكلم بلفظة عربية مـدين لـه، وهو مؤسس الأمة العربية، وهو في أصل الحضارة الإسلامية، ولن يزيــده اعــتراف المعــترفين، ولن يخســره تجاهل المتجــاهلين، ولكن سيكسب المعــترفون به أنهم يكونــون في عـــداد المنصــفين الــذين يعترفون بالحقيقة.

إن كل المنصــفين من الكتــاب الأوروبــيين اعـــترفوا بعظمته وبما قدمه للبشـــرية.. ومن المفارقات أن يعـترف بـذلك أوربيـون، ويسـكت عنه مصريون!

إننا لا نعـدم من الأقبـاط من تحـدث، وكتب، وألف عن ماركس وهيجل ونابليون وفولتير الخ.. فهل محمد أقل من هــؤلاء، أو أبعد عن هــؤلاء الكتاب منهم؟.

هذا الموقف السلبي إزاء الإسـلام قد تحـول بتأثير سياسة الأنبا شنودة إلى موقف يكاد يكون عدائيًا، عبر عنه البطريرك شـنودة نفسه عنـدما رفض تطبيق الشـريعة، وأعلن عنه عنـدما رفض الاعتذار عن حادث المسـرحية المنكـودة، وعـبر عنه بتقبل ثقافة العزلة الســـلبية، وبالتـــالي المضـادة لأنها تـترك المهـاجمين والشـانئين كما

---

43 (?) **باستثناء ميشيل عفلق، الـذي سـمى ابنه باسم محمــد، ولكن ميشــيل عفلق ليس من الأقباط المصريين.**

يـوحي بـذلك موقفه من مسـرحية: "كنت أعمى والآن أبصـــــرت". وكتـــــاب: "وطنية الكنيسة القبطية وتاريخهـــــا". الـــــذي أعـــــده القمص انطونيـــوس الأنطـــوني، وكشف عنه النقـــاب المستشـــــار: طـــــارق البشـــــري في مقاله "التـاريخي" في مجلة الأسـبوع وأشـرنا إليه في أكـثر من موضع من هـذا الكتـاب وجـاء فيه أن الكتـــاب "عـــرض فيه لتـــاريخ القبط منذ الفتح الإسـلامي العـربي لمصـر، عرضه وتـابع وقائعه وأحداثه بما يقيم تعارضًـــا وتضـــاربًا بين أقبـــاط مصر ومسلميها من المواطـنين على طـول هـذا التـاريخ من القـرن السـابع الميلادي حـتى الآن. وهو يذكر في مقدمة الكتاب أنه "يوضح للأقباط سلالة المصريين القدماء كيف أصـبحوا أقلية في بلـــدهم. ولمـــاذا تـــدهورت قـــوميتهم وانقرضت لغتهم". وأن "الأهـــواء الدينية في الشـــرق لم تفقد من حـــدتها بين المســلمين والأقبــاط وإن كـانت فـاترة في الظـاهر فـإن القلق المكبـوت مازال جاثما".

وليس مهمًا أن كتابًا يصـــدر بـــأي رأي يزكيه صـــاحبه، ولكن وجه الدلالة أنه صـــادر من راهب قمص وأنه يهديه إلى غبطة الأنبا شـنودة الثـالث "قبسا من عمله الغزير ونبتًا من غرسه النـــامي العتيد، أي: أن هذا النوع من العلم يـذكر صـاحبه أنه يقتبسه من علم الأنبا شــــنودة وأنه نبت من غرسه، والمهم أنه بهذا العلم ومن هذا الغــرس، فإنه في الــوقت الــذي يــذكر فيه صــلاح الــدين

الأيــوبي المــدافع عن اســتقلال الشــرق ضد العــــدوان الأوروبي الفـــرنجي، بأنه اضـــطهد النصارى وشجعت أفعاله "رعاع المسلمين على اغتصاب عـدة كنـائس"، في الـوقت ذاته يقـول المؤلف عن نابليون بونــابرت وغزوته على مصر أنه "أول مرة منذ الفتح العربي تحكم مصر دولة مسيحية". والكتـاب كله من أوله إلى آخـره يعيد بنــاء التــاريخ عن مصر باعتبــار أن للقبط تاريخًا خاصًا منفصلاً عن تاريخ المسـلمين فيهـا، ويتخذ معايير للحكم على الأحداث يتنــاقض فيها صــالح القبط مع صالح "جـيرانهم المسـلمين" الـذين لا يتمتع القبط بالمســــاواة معهم، وأن تعبـــــير "جيرانهم المسلمين" مأخوذ من الكتاب.

فنحن هنا أمام عمل تــاريخي من الســائغ لنا أن نفـــترض أنه عمل إن لم تكن تتبنـــاه الإدارة الكنسية فهي بالقليل راضية عنه، وهي بالأقل لا تــراه متناقضًــا مع تصــوراتها ولا مع ما تــرى أن يتثقف به شبابها، رغم أن هذا النـوع من التثقيف ومن الكتابة التاريخية فضلا عن عـــدم صـــحته التاريخية – لأن الكتــــاب مليء بالأخطــــاء والمغالطات - فإنه عمل ضــار بالجماعة الوطنية المصرية حسبما ساهم في بناتها وصـقلها وجـوه من زعامات قبطية دخلت تاريخها وصارت معلمًا من معالم بناء هذه الجماعة".

وما يمت بهـــذه النزعة الانفصـــالية بصـــلة حـــديث الأقبــاط عن اللغة القبطية المنقرضـــة. التي تركها الأقباط أنفســهم منذ عشــرة قــرون،

وكتب ساويرس بن المقفع، وأبناء العسال كتبهم بالعربية من القـــــرن العاشر الميلادي، وتركتها الكنيسة نفسها وجعلت صلواتها بالعربية. ولاحظ الأستاذ طارق البشـري أن "مجلة وطـني" تفـرد لتعليم اللغة القبطية بابا فيها كل أســـــبوع من حيث الألفاظ والمعاني والاسـتعمال، وإنها تتوجه بهذه الدروس لا إلى المتخصصين الباحثين الذين يهمهم تعلمها لما ينفعهم في بحـــوثهم التاريخية أو اللغوية أو الدينية ولكنها تتوجه إلى القـــــارئ العادي، وتقدم العبـارات الـتي يمكن اسـتخدامها في لغة التخاطب اليومي".

وهـــذه قضـــية هامـــة، لأنها وإن كـــانت من الناحية العملية لا قيمة لها، فإنها تعـزل الأقبـاط، ولو حدث أن تكلم الأقباط لغة غير العربية، فـإن هذا سينهي تمامًا أي علاقة لهم مع شعب مصر، ويجعلهم كالأرمن أو اليونانيين.

وكان من الملاحظات الذكية النافذة للدكتور البشـــــري في كتابه "الجماعة الوطنية العزلة والانـدماج"، أن بعض رمـوز المؤسسة الكنسـية تتحـدث باسـتمرار عن الوحـدة الوطنية بصـورة تفيد مصـادرة مفهـوم الوحـدة الوطنية للصـالح الكنسي وحـده. وقد تكـون كـثرة الكتابـات عن الوحـــدة الوطنية وما يســـتدعيه المصـــري من تصور عن نجاحه في تحقيقها ورغبته النبيلة في حفظها، مما أوحى لهـــذه الرمـــوز بأنه ما دامت المؤسسة الكنســـية هي الطـــرف الثـــاني في

معادلة الوحـدة الوطنية فلا بـأس من أن يكونـوا هم الدليل على وجود الوحـدة أو عـدم وجودهـا. وباعتبارهم "الـدليل" فبمقـدورهم إسـباغ وصف الوحـــدة الوطنية على الجماعة أو ســحب هـــذا الوصــف.. ويمكنهم بــذلك الســيطرة على هــذا المفهوم واحتكاره ويصير صالحهم هو "المعيــار" لوجود الوحدة أو عدمها فيتحول هذا الطرف من كونه "دليلا" إلى كونه "معيــــــــارًا".. هل الأمر كــذلك؟!، والحقيقة أن هــذا الطــرف ليس دليلا وليس معيارًا وليس طرفًا ثانيًا في اتفاق ثنائي.. وإنما الجماعة السياسـية الوطنية العامة تفـرض نفســـها على كل محتوياتها من ذوي الأديــــان والطوائف والأقاليم والمهن والمذاهب، وتــراعي في كل ذلك الأحجام والمقادير التي تتكون منها الجماعة الوطنية وإلا اختلت المـــــــوازين وفقد المجتمع توازنه"..

كيف يمكن أن نكتسب هـــذه الثقافة الـــتي تعزل الأقبــاط عن إخــوانهم المسـلمين، وتخسر الأقباط مودتهم، نحن في حاجة إلى الألــوف من الكتابـات الـتي لم تصب بهـذا الوبـاء، واحتفظت بحرية الفعل وشجاعة الضمير ونيل المقصد.

قـــارن بين "كنت أعمى والآن أبصـــرت" وكتـــاب "الوطنيـــة" وبين كلمـــات "الأب يوحنا قلتــه". الدافئــة، الآســرة، المقنعة الـتي تكسب القلوب دون أن تمس العقيدة..

قارن هـذه الكتابـات بما كتبه سـامي داود، وما كتبه عزيز صادق عن تطـبيق الشـريعة، وما كتبه جمال أسعد والقس أندرواس عزيز والقس إبراهيم عبد السيد وغيرهم ممن أشرنا إليهم.

قارن هذه الكتابات وما كتبه أحرار الأقبـاط الـــــــــذين أردوا تخليص الكنيسة من القبضة الحديدية – للبابا شنودة ومن أحكامه التي تلاحق الموتى..

لقد قرأنا كثيرًا عن هموم الأقباط، فهل يقرأ الأقباط شيئًا عن "هموم المسلمين".

هل لم يسـأل الأخـوة الأقبـاط أنفسـهم عن مشاعر المسـلمين وهم يقـرأون هـذه الكتابـات الـــتي كتبت بمباركة البابـــا؟ ألا يتحـــدثون عن الوحـــــــدة وتعزيز الروابط بين المســــــلمين والأقبـاط؟ أليس حقا أن المسـيحية دين المحبة وأن الســـيد المســـيح أمر أتباعه أن يحبـــوا مبغضـيهم، لمـاذا لا نـرى كتابـات مثل مقـال الدكتور: حنا قلته وسامي داود أو عزيز صادق أو جمال أسعد عبد الملاك وأندرواس عزيز؟! لماذا لا نرى مؤلفين مثل نظمي لوقا..؟!

إني أدع الرد على هـذه التسـاؤلات للأقبـاط أنفسهم...

- أن يمثلوا في مجلس الشـعب بعـدد من النواب يتواءم مع نسبتهم العدديـة ويمكن أن يبدأ بثلاثين نائبًا.
- أن يكـون لهم حـق بنـاء الكنيسـة الـتي يرونها لازمة لأداء الشـعائر الدينيـة وأن لا يعوق ذلك نصوص أو بيروقراطيات.

- أن يكون الترشـيح للوظـائف كافـة على أساس الكفاءة دون أي عامـل آخـر، ومن حـــق كـــل من يضـــار أن يلتجئ للقضـــاء لإنصافه ومجازاة المسئول.
- أن تتضمن كتب تاريخ مصـر إشـارة إلى الفترة القبطية الـتي مثلت فيهـا الكنيسـة شخصـــية مصـــر وكـــانت رمـــز مقاومـــة المحتلين خلال القـرون السـتة الأولى من الميلاد، ويمكن أيضًا الإشـارة إلى تضـامن الأقبـاط للـدفاع عن الـوطن. أن تتضـمن إشارات إلى شخصيات قبطيـة بـارزة من الكنيســة كــالبطريرك كــيرلس الرابــع أو شخصيات سياسية (مكرم عبيد).
- يجب أن يلاحـظ في المنـاهج الدراسـية اختيار النصوص القرآنية ما يقرر التعدديــة الدينية، ويعمق الإيمـان بكـل الأنبيـاء، وأن تكون علاقة المسلمين بغيرهم علاقة الـبر والقسط.
- أن يـــذاع قـــداس الأحـــد على القنـــاة الرئيسية، كمـا يمكن الإشـارة في أجهـزة الإعلام إلى الأعياد المسيحية.
- إذا غـير الـزوج دينـه وتـرتب على ذلـك الانفصال عن زوجته يكون عليـه أن يـدفع لهـا تعويضًـا مجزيًـا يماثـل من طلـق دون ذنب زوجتـــه، ويبقى الأبنـــاء مـــع الأم أو يخيروا.

وبهـذا لا يكـون هنـاك قيد على حرية تغيـير المعتقـد، وهو حق من حقـوق الإنسـان، وأمر يعترف به القرآن (حتى وإن حاف عليه الفقهـاء) ولا يكون هناك ظلم دون سبب ويتحقق الحديث "لا ضرر ولا ضرار".

- أن يقصروا عمل الكنيسـة على المجـال الروحي وتعميق الإيمان بالقيم المسـيحية النبيلـة وعلى رأسـها المحبـة. وأن تنفض الكنيسـة يـدها تمامًـا من كـل الـدنيويات تحقيقًـا لكلام السـيد المسـيح "مملكـتي ليسـت في هـذا العـالم". "وأعطـوا مـا لقيصر لقيصـر ومـا للـه للـه". ومـا قـرره القديس بولس وبطـرس، وأن تـدار إدارة ديمقراطية.
- أن يتولى المجلس الملي إدارة الأوقـاف والشـئون الماليـة، ويكـون مسـتقلا عن الكنيسة وينتخبه الأقباط انتخابـا حـرًا. وأن تنـــدمج كـــل النشـــاطات الاجتماعيـــة، والثقافية مع مثيلاتها حتى تتحقـق الوحـدة في القاعدة.
- أن يؤمنــوا أن الخيــار الأمثــل لهم هــو "التعايش الإيمـاني"، فـإن لم يسـتطيعوه، فخيار المواطنة، حيث لا يكون هنـاك لعب بالورقة القبطية، وأن لا يتأثروا بالإغراءات التي تزيّف التاريخ أو تعطي الأقباط وضعًا لم يكن لهم، أو تجعلهم يتجاهلون الحقيقة

الواقعـــــة أن مصـــــر هي قلب العـــــالم الإســلامي، وأن هــذه الحقيقــة خــير لهم؛ لأنهــا تضــمن حقــوقهم ويمكن أن تكــون فخرًا لهم؛ لأن مصر هي بلدهم، وكل فخر لمصر فخر لكل سكانها. فـإذا كـان هنـاك طموح واستباق فلفعل الخيرات "استبقوا الخيرات".

- أن يحبـوا لغـيرهم مـا يحبـون لأنفسـهم، فكما لا يريدون مساسًا بالمسيحية فعليهم أن لا يمسـوا الإسـلام بأمثـال المسـرحية الشـــائهة أو دعـــاوي أقبـــاط المهجـــر أو كتابات مثل كتاب الأب انطونيوس.
- يجب الإقلاع عن التبشـير بالمسـيحية أو الإسـلام لأن التبشـير مبـنى على أفضـلية دين على دين. على أن لا يشل ذلك حرية الفكر التي يمكن أن تتطرق إلى دراسات الأديـان دراسـة جـادة على أسـس علميـة وبعيـــدًا عن الغمـــز واللمـــز، ولغـــرض الدراسات الأكاديمية.

خاتمـــة
دعوة للإصلاح الديني
وتحرير العقول والقلوب

في تعليل التـــوترات والصـــراعات ما بين مجموعـات من المسـيحيين والمسـلمين طـوال فترة حكم السـادات ومبـارك أعـاد هـذا الكتـاب سياقها المباشر إلى ظهـور قـوى ثلاث متضـاربة الاتجاهــات في وقت واحـــد، هـــذه القـــوى هي رئاسة السادات وبابوية شنودة وظهور جماعـات العنف الإسلامى. وانطلاق كل قـوة في توجهاتها مما أدى بالضرورة إلى الصدام.

وهو تعليل سـليم، ولكن كـان هنـاك عوامل هي الـتي أدت إلى ظهـور هـذه القـوى الثلاث.. فمن غير المعقول أنها نشـأت من فـراغ أو دون أسـباب موضـوعية وهـذه هي الأسـباب العميقة الحقيقية للمشـكلة. وما هـؤلاء أعـنى السـادات وشنودة وجماعـات العنف إلا الأدوات الـتي كـان عليها أن تقـوم بما قـامت بـه، وهـذه الأسـباب العميقة الحقيقية هي سوء نظـام الحكم. وسـوء فهم الإسلام وسوء فهم المسيحية بالإضـافة إلى عدد من العوامل الـتي تقـترن بـذلك وتعد نتيجة طبيعية له مثل التفـــــارق الطبقي وظهـــــور الرأسـمالية الطفيلية الـتي لا تقـوم على إنتـاج

حقيقي، ولكن على عمولات وسمسرة واستيراد واسـتحواز على الأرض، والاسـتهلاك المظهـري، وتدهور مستوى التعليم، والبطالة، وتعقد أزمـات العلاقـات كـالزواج وأزمـات الإسـكان والمرافق الخ... وما يولده هذا كله من اضطراب وقلق.

وتعد الأزمة الحضـــــارية من العوامل القوية الــتي أدت إلى الإحسـاس بالضـياع، والإحبـاط، والحـــيرة، وعـــدم تحديد الهوية أو التوصل إلى المشـروع الـذي يتجـاوب مع مشـاعر الشـعب ويتطـــابق مع تصـــوراته وانعـــدام الحرية نتيجة للحكم العسكري الذي جثم على صدر هذه البلاد من 52 وأشـــاع الخـــوف والإرهـــاب والحرية للمجتمع كـــــالهواء للإنســـــان.. وكما لا يمكن للإنسان أن يعيش دون هواء، فإن المجتمع أيضًـا يختنق إذا حرم الحرية، وأصـبح مألوفا اسـتخدام قوى البـوليس والأمن المركـزي واللـواذ مصـدر من العنف وانتهاك الكرامات.

هـــــذه العوامل كلها هي مما تعـــــرض له المجتمع المصري خلال الخمسين عامًا الأخـيرة، وليست التـــــــوترات الفئوية والطائفية إلا أحد أعراضها وبالتـالى فلن يكـون لها علاج حاسم إلا بمعالجة العوامل التي أدت إليها.

ولكن لما كان الكتاب يعالج العلاقـات ما بين المسـلمين والأقبـاط، وأن حجمه وموضـوعه لا يســـمحان بمناقشة كل هـــذه الأســـباب، فإننا سنقتصر هنا على قضـــية الإصـــلاح الـــديني

وضــرورته القصــوى لأنه الموضــوع المباشــر، وباعتباره أيضًا وسـيلة لتحرير العقـول والقلـوب وانطلاقها من أغلالها، فالفهم السليم للدين يقيم الضمير على القيم النبيلة من حريـة، ومسـاواة، ومعرفة، وعدالـة، كما يقـوم على إعمـال العقل والفكر حـتى يصل إلى الإيمـان، وإعمـال هـذا العقل يتطلب مناخًا من الحرية حتى يكـون هـذا الإيمـــان إيمانًا طوعيـــا، عقلانيـــا، متحـــررًا من الخرافة رافضًا لسيادة الطقوس والشكليات.

وأهمية الفهم الســـليم للـــدين تنطبق على الإسـلام والمسـيحية لأن الفهم السـائد لهما هو الفهم الســقيم الــذي تفرضه المؤسسة الدينية الــتي تمثل الحفــاظ، ويتمحــور حــول ما قدمه الأسلاف من مئات السنين، ولأن هذا الفهم يتأثر أيضًـــا بالعوامل الــتي تتحكم في كل وضع يأخذ شـــكل المؤسسة من احتكـــار. ومن خلط بين الــدين ورجاله ثم من اعتبــار رجــال الــدين هم الدين نفسه..

نجد هذا لدى المسلمين.. ولدى الأقباط فهم يعيشــون عالة على الأجــداد ويؤمنــون بما قدمه الأسلاف، ولا يقربون المنابع الأصـيلة للـدين، أي الكتب المقدسة قرآنا أو أناجيل إلا عـــــــــــبر المفسرين والشارحين الذين يفرضـون أنفسـهم وثقافاتهم.

والمســـلمون اليـــوم في حاجة إلى ثـــورة فكرية إسلامية تحرر العقول والقلوب من إســار

"السلفية" وحكم الفقهـاء، وهـذا هو ما تقـوم به دعوة الإحياء الإسلامى التي ترفع لواءها، والــتي أصــدرت قرابة ثلاثين كتابا لإرســاء فهم متحــرر للإسلام.

وحاجة الأقبــاط إلى مثل هــذه الثــورة أشد بكثير من حاجة المسلمين لأن الإسلام لا يعترف بكنيسة أو رجــــال دين، وإذا كــــانت "المؤسسة الدينية" قد ظهرت، وظهر معها رجال الدين فإن هــــذا الظهــــور هو من بــــاب تقســــيم العمل والتخصص وليس تطبيقًا لنص شــــرعي، بل هو ضد النص الشرعي، وكان من الأسس التي رأي الشيخ محمد عبده أن الإسلام يقوم عليها: "هدم السلطة الدينيـة"، وجعل العلاقة ما بين الإنسـان والله مباشرة ودون وسـطاء. أما في المسـيحية فهنـاك من النصـوص ما تعطي الكنيسة ورجالها الحق الوحيد في تقــديم الـــدين. وأن ما يربطه رجالها يكــون مربوطا عند الله، وما يحله يكــون محلــولا، وهو أمر لا يقتصر على الأقبــاط. فــإن أوروبا كلها طوال القرون الوسطى كـانت تقـول "أمنا" الكنيسة، وكـانوا مربـوطين بها من الميلاد حتى الوفاة. فما أن يولدوا حـتى تكتب شـهادات ميلادهم في "الأبرشـية"، وهي التقسـيم الإدارى الكنسي، وحــتى تعمــدهم الكنيسة في المــاء، وبــــــــــــــدون هــــــــــــــذا لا يظفرون بـالخلاص أو يعـدون مسـيحيين، فـإذا تزوجــوا تزوجــوا في الكنيسة وعن طريقها وإلا

عدَّ الزواج سفاحًا، وعندما يموتون فإنهم يدفنون في "ردهـــة" الكنيســـة. وكـــان البابا في روما يسيطر على الفلاسفة والحكام والملوك، ويمكن أن يحـرمهم فيضـطرون إلى الوقـوف ببابه أياما حـتى يرفع عنهم هـذا "الحرمـان" كما تـروى لنا "حادثة كانوسا".

وظهر في المســـيحية عــــدد كبــــير من المصــلحين كــان مصــيرهم إلى المحرقة لأنهم عُـدُّو هراطقة، كما كـان هـذا هو مصـير العلمـاء والمفكرين والأحرار. وكان الوحيد الــذي نجا من هــذا المصــير هو مــارتن لــوثر لمســاندة بعض الحكام له، واستطاع مارتن لوثر أن يقضي على الغشـــاوات الـــتي فرضـــها بـــابوات الكنيسة الكاثوليكية من عصـــمة للبابا وقداسة لرجـــال الدين، وشفاعة للأوليـاء، وقد كـان هـذا الإصـلاح الديني هو الذي حرر العقـول أيضًـا وهيأها لتقبل ثقافــات العصر، وكُللت حركة الإصــلاح الــديني بـــالثورة الفرنســـية الـــتي قضت على هيمنة الكنيسة، وعــزلت الــدين عن السياسة والحكم. وسمح هـذا كله بفتح أبـواب التقـدم حـتى وصل الغرب إلى ما وصل إليه من تقـدم، وإن لم يكن بـــالطبع صـــفوًا كله، وله بعض انعكاســات فكل شيء له ثمنه.

وجـــددت الكنيسة الكاثوليكية في وســـائلها وأساليبها، ولم تعد قوة البابا تعـود إلى سـيطرته

على الملـوك والمفكـرين، لكن إلى ما يمثله من قيم رفيعة للمسيحية.

ولكن الكنيسة القبطية لا تـــزال بعيـــدة كل البعد عن هــــذه الأحـــــداث، إنها متقوقعة داخل صـــدفتها القديمـــة، ولأنها تقـــوم في مصر فقد أصابها ما أصاب المجتمع المصري من سـوءات. وقد اســـتطاعت أن تـــؤدي دورها في العصـــور القديمة، لأن العصـور القديمة كـانت تتقبله ولأن آباء الكنيسة القبطية كانوا بصفة عامة على قدر كبـــــير من الكياسة والإخلاص، فضلا عن قيامها وسط مجتمع إسلامي كانت له انعكاسات حسنة (وقد كـــان أثر الإســـلام قويا في ظهـــور حركة مـــارتن لـــوثر)، كما لم يتورطـــوا في غمـــرات السياسة والحكم والـــدنيا، وعنـــدما دخلت مصر مشـــــارف العصر الحـــــديث وأصـــــبحت النخبة القبطية متأثرة بالثقافـات الحديثة فـإن نوعًا من الاحتكاك ظهر في الإطـــار القبطي نفسه ما بين الكنيسة المتـــأثرة بـــالروح القديمـــة.. والنخبة المتأثرة بالاتجاهـات الحديثة تجلى في التـوتر ما بين المجلس الملي الـــذي يفـــترض أنه التمثيل المـــدني للأقبـــاط، وما بين الكنيسة الـــتي هي الممثلة الدينية للأقباط وهـذه الاحتكاكـات تماثل – والقياس مع الفارق – الصـراع الـذي قـام في الغـــرب ما بين أحـــرار الفكر، وما بين الكنيسة الكاثوليكية، وأدى إلى ظهور مـارتن لـوثر، ولكن الـذي حـدث في مصر كـان عكس ذلك؛ فظهـور

البابا شـنودة بطموحاته وشخصـيته القوية وتهيؤ الظــروف اســتطاع أن يطــوي المجلس الملي تحت جناحـه، وأصـبح الإصـلاح الـديني بالنسـبة للكنيسة يتطلب أولا: إقامة العلاقة ما بين المجلس الملي والكنيسة على أسس موضــوعية. ثانيــا: "دمقرطـــة" الكنيسة بعد أن بسط البابا شنودة عليها شـبكة من النظم جعلته الحاكم بأمره فيهـا، وكـذلك تحـديث مناهجها بما يتفق مع العصر الحديث.

وللعلاقة ما بين المجلس الملي والبابا تـاريخ قديم وهو يصور حلقة من الكفــاح للحيلولة دون طغيـان الكنيسة على الجـوانب المادية والعملية للأقبـاط وقصـرها على المجـال الـروحي. وهـذا الكفـاح هو في حقيقته فصل من فصـول كتـاب الحريـات في المسـيحية، وكـان يجب أن يكـون معروفا للجميع بما في ذلك المســــــلمين، وقد أشرنا عنـدما كنا نسـتعرض تـاريخ الأمة القبطية إلى النشـأة الأولى وسنسـرد هنا بعض صـفحات هـــذا الكفـــاح نقلا عن مـــذكرة قـــدمها مكتب المحامي المشهور إبراهيم الهلباوي عندما ترافع ممثلا لمقــــار باشًــــا ومن معه وهم يمثلــــون المجلس الملي، ضد صــاحب جريـــدة الـــوطن والقمص جورجيوس وهما يمثلان البابا. وجاء في مقدمة المذكرة تحت عنوان تمهيد.

1- لما أنشئ المجلس الملي في ســـنة 1873 انتخب أعضاؤه البطريـرك الحـالي بطريركًا

على الأقبـــاط بعد أن أخـــذوا عليه تعهـــدًا "مكتوبـا" بـأن يسـير معهم بمقتضى قـانون المجلس الملي الذي كان معمـولا به وقتئذ، وصدر طبقًا لفرمان سنة 1856 الـذي يـبيح للطوائف المســيحية بـــأن تـــدير شـــئونها بواســـطة مجـــالس مكونة من الشـــعب والإكليروس. ولكن ما كاد البطريـرك يقبض على دفة الأمـــور حـــتى انفـــرد بها ونبذ المجلس كأنه لم يكن، فشـــــكي المجلس الأمر للحكومة فأرغمته على الانصـــــــياع، فتعهد مـرة ثانية باحترامه وأخذ عليه تعهـدا جديـدا سـجله في محافظة مصر، ومع ذلك لم يســتمر المجلس أيامًا حــتى حاربه ثانية فتعطل.

بقى المجلس معطلا إلى سـنة 1883 حـتى استغاث القوم من تعطيل دور العلم، ومن تبديد أموال الأوقاف، ومن عـدم نشر حسـاباتها، ومن انحطــاط الأكلــيروس، وطلبــوا من الحكومة أن تتدخل في إصلاح هذا الحال.

2- صار البطريرك هو ومن حوله من الأسـاقفة يتفننـون في إيجـاد الطـرق لتعطيل وظيفة المجلس، حتى بلغ بهم الأمر إلى أن يقولـوا إن الشورى تخـالف الـدين – رغمًا عن ذلك رأت الحكومة أنه من الضروري تشكيل هذا المجلس فـــاجتمع الأســـاقفة وبعد جـــدال وافقوا أخـيرًا على لائحة سـنة 1883 ولكن

المجلس لم يلبث إلا قليلا حتى رأى الأبواب مقفلة في وجهة.

3- انفرد البطريرك بالسلطة حتى سـنة 1892 حتى قامت قيامة الأقبـاط فشـكل المجلس ونفى البطريــرك، لكنه اســتعمل ســلاحه الديني فـاعتبر مارقًا من النصـرانية كل من لاذ بالمجلس من قسـوس وأفـراد، ثم أعيد بعد ذلك لمركـــزه وتشـــكلت مؤقتًا لجنة مركبة من أربعة أشـــخاص تشـــتغل تحت رئاسته حتى يعـاد انتخـاب أعضـاء المجلس الـــذي لم يعد إلا في ســـنة 1906 فبقى المجلس معطلا مدة 15 سنة.

4- للوصـــول إلى تعطيل المجلس اســـتعمل الأكلـيروس أسـلحة من كل نـوع فقـالوا إن تشـكيل المجلس مخـالف للـدين رغمًا عن تصـــديقهم على لائحة ســـنة 1883، وعن قبــول البطريــرك كتابة عليــه، وقــالوا إن أعضـــاء المجلس بـــددوا أمـــوال الوقف واستعملوا النشر في الجرائد ضدهم وسعوا في إحالة سعادة يوسف بك سليمان - الذي كـان رئيسًـا لنيابة مصر وقتئذ - إلى مجلس تأديب ثم قفلوا الباب في وجه الأعضاء.

بل قفلوه في وجه مندوب الحكومة الذي حضر للبطريكخانة لفتحه باسم ســمو الخــديوى فلم يفتح.

وأخـــيرًا اعتـــبر البطريـــرك جميع القـــائلين بالشـــورى مـــارقين من الـــدين وشـــكي الحكومة المصـــرية وســـمو الخـــديوي لجلالة الســـلطان وأدعى أن ليس للحكومة المصـرية من سـلطان عليه.

وفى كل هذه الفترات كـانت مصـالح العبـاد معطلة والأكلـيروس لا يهتم إلا بمحاربة الشـعب بكل هذه الوسـائل السـاقطة اسـتبقاء للأوقـاف وإيراداتها بين أيديه على غـــير حق وعلى غـــير هدى.

5- اجتمع أعيـــان الطائفة في ســـنة 1883 وطلبـوا رفع يد غبطة البطريـرك من جميع الأمـــور الإدارية واقتصـــاره على الأمـــور الدينية.

واجتمع المجلس في ســـنة 1892 وأصـــدر قـــرارًا في 22 يوليو من تلك الســـنة بإبعـــاد البطريرك ذكرت فيه كل النقائض التي بدت من الأكليروس ومما جاء فيه:

"وحيث إنه (أي البطريرك) لما شعر بصـدور الأمر العـالي باعتمـاد الانتخـاب بالكيفية الـتي جرت لم يزدجر ولم يرعـو وأصـدر إعلانـات في الجرائد بـالافتراء على أبنـاء الملة بـأمور لا أصل لهـــا، وأدعى أن المجلس من قصـــده التفريق والشقاق وسلب الأموال الخ...".

"وحيث إن البطريـــــرك المـــــذكور.... قد اســتعمل أمــوال الطائفة في الاســتعانة عليها

بالغرباء، وفي نشر إعلانات مهيجة بالجرائد وبث رسائل مقلقة بالجهات".

"وحيث إن مقاومة البطريرك لوجود مجلس أوجبه الـــــدين وقررته الكنيسة وطلبته الطائفة واعتمدته الحكومة يضاد الواجبات البطريركية".

ومما جاء فيه أيضًا:

"وحيث إن من جميع الأحـــــــوال المتقدمة يتضح أن البطريـرك المـذكور قد خـالف قـانون الكنيسة ونكث بالعهود والمواثيق وأضر بالطائفة الـتي من سـوء حظها انتدبه مجلسـها للـترؤس عليه.

"وخالف الدين المستتر بردائه".

"أما مخالفته لقـــــــانون الكنيسة فلأنه أراد الاسـتبداد والاسـتقلال برأيه خلافا لما هو مقـرر من وجوب مشاركة الأراخنة في الرأي".

"أما نكثه بــــــالعهود والمواثيق فلأنه بعد أن انتخبه المجلس واشـترك معه سـنوات عديـدة وعمل بمقتضى لائحته الأولى وتعهد في محافظة مصر بـأن لا ينفـرد بـأمر، واشـترك في عمل اللائحة وصـدق عليهـا، وقـدمها للحكومة ونفذ القـرارات الـتي صـدرت بمقتضـاها هو والأساقفة، قد سعى في نقض ذلك كله.

وأما ما جـره من الأضـرار بالطائفة فلأنه قد سعى في الوشـاية بها والقـذف في حقها بـأمور غـير صـحيحة، وبث الشـقاق بين أفرادهـا، وبـدد

أموالها وتصــرف في أوقافهــا، وقفل مدرســتها الاكليريكيــة، ولم يــرض بتجديــدها فيما بعد فضلا عن انحطاط حالة المدارس الأخرى وســوء حالة الفقراء وغير ذلك.

"أما عصــيانه على الحكومة فلأنه مع تكــرار صــدور الأوامر إليه بالامتثــال لم يمتثــل، وأصر على العنـــاد لا ســـيما أنه من كتابته الأخـــيرة لمجلس النظـــــــار قد انقطع الأمل من إذعانه لأوامرهــا، والتصــميم على عــدم القبــول لآخر حياته.

"وأما مخالفته للـــــــــــدين فلأنه ادعى أن المجلس مخــالف للــدين، مع أن عــدم وجــود المجلس هو عين المخالفة للـــــدين، وكفى دليلا على ما ذكر ســبق إقــراره بوجــود المجلس هو والأســاقفة، واشــتراكه معه في الأعمــال زمنًا الخ...".

ومما جاء فيه:

"وحيث إنه لا يتأتى صدور مثل هذه الأفعــال ممن يكون مالكًا لتمام قواه".

فلهـذه الأسـباب قـرر المجلس باتحـاد الآراء التمـاس رفع أنبا كـيرلس البطريـرك من رئاسة المجلس، ومن إدارة كل ما يتعلق بشـــــــئون الطائفة الخ...".

"وعلى هذا القرار وقع:

بطرس باشا غالي عبد المسيح
بك حبشي
حنا باشا نصر الله وهبة بك يوسف
عبده
بطرس باشا يوسف إبراهيم بك
منصور
مقار باشا عبد الشهيد رفله أفندي
جرجس
قليني باشا فهمي إبراهيم بك
روفائيل
خليل بك إبراهيم مرقس بك
سميكة
يوسف بك وهبة فرج بك إبراهيم
يوسف بك سليمان بطرس أفندي
أبادير
حنا بك باخوم باسيلي بك روفائيل
نخلة بك الباراتي يعقوب أفندي نخلة
يوسف
حبشي بك مفتاح عوض بك
سعد الله
يعقوب بك نخلة القمص بشاي (رئيس
كنيسة الفجالة)
باسيلي باشا تادرس

القمص فيلو ثـــــــــــأوس (رئيس الكنيسة المرقصية الكبرى). انتهى..

ويستغرب الإنسان موقف البابا كـيرلس ضد المجلس الملي مع ما عرف عنه من عزوف عن الـدنيويات، والمحقق أن هـذا الموقف يعـود إلى الهـوى والغـرض الـذي سـيطر على الحاشـية المنتفعة والتي وجدت أن المجلس يضيق عليها، وتأثر بكلامها البطريرك.

لم يكن هـــذا التــــاريخ غائبًا عن ذهن البابا شـــنودة، وما كــان يقبل أن يقـــوم مجلس ملي قـوي "فالملك عقيم" وقد ارتـاع عنـدما علم أن المجلس الملي قد ينعقد وهو في منفـــــــــاه، وتوسل إلى ميلاد حنا أن يؤجلـوا ذلك إلى ما بعد عودتــــه، واتصل ميلاد حنا بالـــــدكتور: رفعت المحجـوب وتوصل إلى تأجيل إجـراء الانتخابـات حــتى بعد عودتــه. وعنــدما عــاد قــام بما جعل انتخابــات المجلس الملي **"فضيحة بجلاجــل"** كما وصفها الـدكتور: ميلاد حنـا. فقد وضع قائمة بأربعة وعشــرين اســما (وهم مجمــوع أعضــاء المجلس) وكــــان طبيعيا أن يأخذ بها الشــــعب طاعة لأمر **"ســـــيدنا"** ثم لا يكتفي بــــذلك بل جعلهم شمامسة فـــــأخرج المجلس من طبيعته المدنية المسـتقلة إلى فـرع من فـروع الكنيسة يتبع أوامر رئيسها الأعلى.

والمفــــــروض أن ينتخب الأقبــــاط في كل الجمهورية اختيـــارًا حــــرًا من يمثلــــونهم في

المجلس، وأن يُحرَّم على البابا التدخل في هـذه العملية من ألفها إلى يائها بحيث يتقـــــــدم من يشاء، ويختـار الأقبـاط من يشـاءون وبهـذا يوجد مجلس قوي له قاعـدة شـعبية قوية ينتخب منها انتخابًا حرًا.

وإذا أخـــذنا بالتمثيل النســبي للأقبـــاط في مجلس الشــــــعب - وهو ما أميل إليه - لا لأنه الأفضـــل، ولكن لأنه يحسم شـــأفة الادعـــاءات والمشاكسات ويتناسب مع الردة التي أصيب بها المجتمع المصـــري عن أيـــام ثـــورة 19 والحقبة الليبراليـة، فـإن المجلس الملي يكـون هو الهيئة المؤهلة للقيـــام بترتيبـــات ذلك وإدارة العملية الانتخابية على مستوى المحافظات.

ويجب أن يكـون للمجلس الملي فروعه في المحافظات الموازية للإبراشيات الكنسية ليقوم بوظيفته المدنية على مستوى المحافظات.

ويحـــول على هـــذا المجلس كل ما يتعلق بالأوقـــاف والمـــدارس والنشـــاطات الاجتماعية والوصـــايا الدنيوية ويوضع له نظـــام منهجي من ناحية عقد جلســـــــــات دورية تعلن مقرراتها وتناقشها، فإذا لم يتقبلها جماهير الأقباط فيوضع نظام لاستئنافها وما إلى هذا كله.

بهـــذا يســـتريح البابا من كل المشـــكلات الإدارية والمالية ويتصرف كليا للرســالة الروحية السامية: ألا وهي غـرس القيم المسـيحية النبيلة في النفـــوس، وأولها المحبـــة، وما أعظمها من

مهمــة، إنها مهمة الرســل، إنها الهداية والخلاص وبناء الضمير والوجدان.

* * *

ولكن هذا لن ينهي المشكلة..

ذلك أن الكنيسة نفســها، وفي إطــار عملها الـدعوي الخـاص تنشئ علاقـات عديـدة ما بين فئــات الأكلــيروس وما بين الرهبــان والكهنــة، وتقوم هذه العلاقـات على أسـاس تراتـبي، ومن هنا فيجب أن توضع نظم ديمقراطية منهجية تحول دون الانحـراف أو العشـوائية أو الاسـتئثار الخ... مما لا يمكن أن يتعــــــرض له أي تنظيم، ومما لا تخلو منه النفس البشـــــرية، ويجب أن يعمل هذا التنظيم الديمقراطي على ضمان سير العلاقـــــــات ســــــيرًا مرنًا دون عقبـــــــات أو روتين أو بيروقراطيـة، وأن يسـتهدف الكرامة الإنسانية ويلحظ الحقوق الأساسية للإنسان.

وقد كتب الأستاذ كمال غبريـال - وهو كـاتب قبطي مهمـوم بالكنيسة معـنى بإصـلاحها - في جريدة القـاهرة في العـدد 292 الصـادر في 15 نوفمــبر ســنة 2005 مقــالا بعنــوان **"دعــوة لإقامة مــؤتمر وطــني لمناقشة البنــود التســــعة في خطة إصــــــلاح الكنيسة المصرية جاء فيه:**

المطلـــــــوب هو أن يعيد الأقبــــــاط تنظيم الكنيسة، بما يتيح للدولة والمجتمع إعـادة تنظيم

الحياة المصرية، بالصورة التي تجعل المجتمع المصري نسيجًا واحدًا بالفعل، وليس بأناشيد التمويه والمغالطة.

ونتصور أن يهدف إعادة التنظيم لتحقيق ما يلي:

- تحجيم دور رجال الدين باختلاف درجاتهم الكهنوتية، لتنحصر في دورهم، الذي تصدوا له واختاروه لأنفسهم، وهو هداية الناس إلي طريق السماء، والقيام بمهام العبادة والطقوس الكنسية.
- تولي العلمانيين إدارة الكنائس كمؤسسات جماهيرية، بنفس المبدأ الذي أرساه رسل السيد المسيح: "فدعا الإثنا عشر جمهور التلاميذ وقالوا لا يرضي أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد. فانتخبوا أيها الأخوة سبعة رجال منكم مشهودًا لهم ومملوئين من الروح القدس وحكمة فنقيمهم علي هذه الحاجة. وأما نحن فنواظب علي الصلاة وخدمة الكلمة" (أع6 :2-4)، فهذا هو النظام الأساسي لكنيسة المسيح، وهذا هو المطلوب علمانيًا ووطنيًا لصلاح الأحوال.
- تفعيل دور المجالس الملية، وإعادة النظر في قوانين تشكيلها ومهامها، لتكون مجالس مستقلة قادرة بما تضمه من عناصر علي أعلي المستويات العلمية والفكرية، علي أداء مهامها في إدارة الكنيسة من القمة للقاعدة.

- توقف الكنيسة عن تنظيم أي أنشطة تخرج عن نطاق العبادة، لدفع الشباب للخروج إلي المجتمع والاندماج في الحياة الاجتماعية والسياسية الوطنية، مع سائر أبناء الوطن، وتمنع الكنائس منعًا باتًا من تقديم أي خدمات غير دينية للأقباط وحدهم، فالخدمات التي تقدمها أي مؤسسة مصرية لابد وأن تشمل جميع المواطنين بلا تمييز، وهذا يحدث فعلا الآن في تقديم الخدمات الطبية.
- إنشاء جمعيات أهلية تتبع وزارة الشئون الاجتماعية، لتتولى إدارة الأنشطة المقامة بواسطة الكنائس حاليًا، مثل الخدمات الطبية والتعليمية (مجموعات التقوية الدراسية) ودور الحضانة ورعاية المسنين وغيرها، لتكون متاحة بلا حساسية لجميع المواطنين المصريين، لتحقيق الالتحام بين مكونات المجتمع المصري، ولتحقيق شفافية ميزانيات تلك الأنشطة، لإحكام الرقابة عليها، من قبل مجالس إدارة تلك الجمعيات، بالإضافة إلي رقابة الأجهزة المختصة بالدولة.
- يقوم العلمانيون (بالمجلس الملي) بوضع خطط بناء الكنائس حسب الحاجة الفعلية، وتحديد حجم الإنفاق علي عمارتها وتوفير الاعتمادات اللازمة، حرصًا علي رشاد وعدالة التوزيع، وللحد من بذخ الإنفاق والمبالغة في ضخامة عمارة الكنائس، التي من المفترض أن تكون أبنية بسيطة تفي

بالغرض بغير إفراط ولا إهدار للملايين، من أمـوال شـعب فقـير، يحتـاج بعضـه لمجـرد لقمـــة العيش، ويحتـــاج الملايين من شـــبابه لبناء مصانع أو مشروعات، توفر لـه فرصـة عمـل تقيـه البطالـة والتشـرد، إذ نجـد في منـــاطق شـــعبية عشـــوائية مبـــانٍ خرافيـــة العمارة، لتكون لوحة محزنة للمراقب، حين يقارن بين ضآلة وحقـارة مسـاكن الأهـالي، وبين العظمـة المعماريـة لكنيسـة المسـيح، الــذي قــال عن نفســه: "للثعـالب أوجـرة، ولطيـــور الســـماء أوكـــار، أمـــا ابن الإنســـان فليس له، أين يسند رأسه".

- تقـــوم المجـــالس المليـــة ولجـــان الكنـــائس بإحكـــام الرقابـــة على ميزانيـــات الكنـــائس والتبرعـــــات والمصـــــروفات، عن طريـــــق اســــتخدام النظم المحاســــبية الصـــحيحة، واتخـــــاذ الإجـــــراءات المناســــبة تجـــــاه أي انحرافـــات، وإعلان الميزانيـــات الســـنوية، لتكـــون متاحـــة للاضـــطلاع عليهـــا من قبـــل الجميع.
- عمل حصر بالذمة المالية لجميـع العـاملين بالكنـــائس، من إكلـــيروس وعلمـــانيين، أي تطـبيق القـانون المعـروف بــ "من أين لـك هذا؟"، وإعادة الأموال غير المحدد مصدرها إلي الكنيسة، كمرحلـة أولى انتقاليـة، وبعـد ذلك تأخذ الأمور وضعها الصـحيح والقـانوني إزاء المخالفين.

▪ يقوم الكهنـة والمجمـع المقـدس والأراخنـة بمراجعة شـاملة لكتب وقـراءات الكنيسـة، لتنقيتهـا ممـا لحـق بهـا من شـوائب عـبر القرون، للعـودة إلي الإيمـان الأرثوذوكسـي القويم، واستئصـال أي تعـاليم أو اتجاهـات لا تـواكب العصـر، وتتنـافى مـع التطـور المطلوب في فهم النصـوص الدينيـة، فهـذا في صالح الأقباط، وفي صالح الكنيسـة في ذات الـوقت، فهـو يسـاعد الأقبـاط علي أن يتواءمـوا مـع العصـر، ويسـاعد الكنيسـة أن يكـون خطابهـا أكـثر قبـولا، خاصـة لدى الشباب، الذي نرصد ميل أعداد كبـيرة منـه إلى خطـاب كنـائس أخرى، غـير الكنيسـة القبطية الأرثوذكسية، وكذا مراجعة العلاقـة بين الإكلـيروس والشـعب، وبين الـدرجات الكهنوتيـة وبعضـها البعض، للتخلص من صيغة نرصدها، تأخذ شكل السيد والمسود، لتصحيحها إلي العلاقة المسـيحية الطبيعيـة، وهي علاقة البنوة والأبوة، خالية من الهيمنة والاسـتعلاء، ومن وهم امتلاك الحقيقـة المطلقة.

لا أظن أن قيـادات الكنيسة التقليدية يمكن أن تتحرك من تلقاء نفسها، نحو التغيير الجذري. ولا نظن أن الدولة تفعل من تلقاء نفسها.

أتوجه إذن بخطابي إلي مثقفي الأقباط.

إلي العلمـاء أسـاتذة الجامعـات والكتـاب والمفكرين.

هي دعـــوة لعقد مـــؤتمر وطـــني لمناقشة الرؤية المعروضة في هذه السطور، وأمثالها من إسهامات تحاول العثور علي آفاق وطنية جديدة، وأن يتوصل المـؤتمر لتشـكيل آلية تـدفع الدولة والكنيسة والمجتمـع، لتبني خطة التغيـير الـتي سيتم التوصل إليها من خلال مناقشات المؤتمر.

أتعشم أن تكـون تلك السـطور خطـوة في رحلة الألف ميل" انتهى المقال..

أحسن الكاتب عندما دعا إلى مؤتمر قومي، لأن القضـــية قومية وهي أعظم من أن تـــترك للجهاز الكنسي.

وكـــــان الكـــــاتب قد نشر قبل ذلك في 8 نوفمـبر 2005 في مجلة القـاهرة مقـالا بعنـوان (الحل الوحيد لأزمة الأقباط هو الليبراليـة). انتقد فيه أن يطالب الأقبـاط الآخر بالعقلانية والتوقف عن استعمال خطاب وثقافة ولغة الماضي، بينما هم غـــــارقون تمامًا في خطـــــاب وثقافة ولغة الماضـــــي، ودعا الكنيسة إلى التســـــامح مع البروتستنت وعلى ترك الفـرد حـرًا يفهم ويفسر عقيدته كما يشـاء باعتبارها علاقة خاصة به وبين ربـه، أم سيصـرون على بقـاء الحـال على ما هو عليه ليظل الإنسان القبطي أسير الكهنة يحلـون ويحرمون حسب رؤيتهم الخ...

* * *

لا يمكن إنهــاء هــذه الخاتمة دون الـــدعوة لتوجيه اهتمـــام خـــاص لثلاث قضـــايا على وجه التعـيين **أولاها** حرية الاعتقـاد وأن الاعتقـاد هو أمر خاص بالفرد يعود إلى ضـميره، وإلى فكـرة

وبالتـالى فلا يكـون لأحد سـلطان عليـه، ويخـرج تمامًا من إطار النظام العام، وبـدون هـذا يصـبح الاعتقـــــــــــــاد فرضـــــــــــــــــــا، أو وراثـة، ويفقد ميزتـه. وطبقًا لهـذا يكـون علينا أن لا نتحرك إذا ارتأى أحد تغيير دينه، فـإذا كـان مسلمًا ارتأى أن يتنصـر، أو إذا كـان مسـيحيا أن يسلم. هذه أمور تعود إلى أصحابها ولا يجــوز أن نتشنج لها أو أن نرى في هـذا انتهاكًا أو مساسًـا بالدين. والمسيحية والإسلام لا يشكوان من قلة، فهما بالمليارات. كما أن إيمان واحد أو كفره لن ينـال من الله تعـالى الغـني عن العـالمين، ولأن الأديـــــان قيم والقيم لا تزيد أو تنقص. ومع أن القرآن قد جلى هذه النقطة بأصـرح بيـان فقـال وكــرر ﴿**مَنْ اهْتَــدَى فَإِنَّمَا يَهْتَــدِي لِنَفْسِــهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا**﴾ فإن المسلمين يرون ذلك ردة يعاقب عليها بالموت وهو افتيات، بل تعارض صريح مع القـرآن، كما أن الأقبـاط لا يقلــون عن المســلمين في هــذا، بل يزيــدون.. ويجهل هــؤلاء وأولئك أنهم لا يغضــبون للــدين.. ولكن لأنفسهم..

وأعلم أني مهما أقـــول، ومهما أكـــرر، فلن يتغير الوضع تلقائيا لأن هذه الحالة المرضـية هي عرض لمرض هو: انعدام الحرية بصفة عامة في المجتمع المصــري بعد خمســين ســنة من حكم العسـكر، ومن الضـربات المتوالية عليها في كل المجــالات السياســية والاقتصــادية والاجتماعية والدينية الخ...

إن خمسين سـنة من الهـدم قد تتطلب مائة ســـنة للبنـــاء، فلا بـــأس ولا يـــأس، ومع أننا

مســــــبوقون، وأن أزمتنا الحقيقية هي التخلف الزمـــــني. فعلينا بــــدلا من النــــدب واللطم واســـتعظام العمل أن نبــدأ من الآن لأنه ليس هناك بديل آخر.

القضية **الثانية** هي إعادة النظر في سـلطة التحـريم والشـلح والتجريـدات الـتي في يد البابا والأساقفة الكهنة، أن هذا يعني المـوت الـروحي لمن يوقع عليه الحرم.. وأن ندق الأجراس إيذانا بوفاتــه، وإعطــاء الكهنة هــذا الحق يخــالف كل المخالفة بديهات حرية الاعتقاد، وقد كـانت هـذه السلطة هي الـتي أثـارت مـارتن لـوثر، ولا أظن أن الكنيسة الكاثوليكية تفــــــرض تحريما على شـخص لأنها "تنـورت" وتعلمت الـدرس وتعيش في أجـواء الحريـة. وعن نفسي أقـول إنـني لو وجدت حقا أصوليا يقوم على نص حقيقي صريح من القــرآن.. يعطي الفقهــاء حق التحـــريم بالطريقة الـــتي تمارســـها الكنيسة الكاثوليكية قـديمًا، وتمارسـها الكنيسة الأرثوذكسـية حاليًـا.. لتزعزع إيماني بالإسلام..

ولا يجــوز للكنيسة أن تتعلل بــالنص الــذي أعطى المســيح تلاميــذه حق الحل والربــط، فالنصـوص الدينية تفسر في ضـوء روح الأديـان ومقاصدها، وهي أبعد ما تكون عن الاحتكار..

والقضية **الثالثة**: تنقية المنـاهج الثقافية من إضافات الكهنـة، وما ارتـآه الأسـلاف منذ مئـات السنين. إن تحرير الخطاب المسيحي أصبح أمرًا ماســا. وتجاهله يهــدد كيــان وبقــاء الكنيسة الأرثوذكســية. وقد تســاءل المستشــار طــارق

البشري في مقاله الـذي أشـرنا إليه في جريـدة الأسبوع العدد 452 بتاريخ 21 نوفمبر 2005م:

"وعن نوعية الثقافة الـتي تثقف بها الكنيسة شـبابها في مؤسسـات الكنيسـة، وما هي الرؤية التي يلقنونها لأبنـائهم بالنسـبة للجماعة الوطنية وللوطن وللمواطنين وللمسلمين من أبناء مصر، إن المســـــلمين والفكر والثقافة الإســـــلامية موضـــوعة كلها "على المشـــرحة" من ســـنين طويلة، وكل امرئ مسلم أو مسيحي، مصري أو أجنبي، مؤمن أو ملحـد، عـالم أو جاهل مغـالٍ أو معتدل، كل امرئ من هؤلاء يتكلم ويحلل ويفسر وينتقد ويقترح الحلول، حول موقف الإسـلام من الآخـر، وكيف يـربي كبـار المسـلمين صـغارهم، وصـــار ذلك **سياســات لــدول أجنبية تملي علينا ما تراه هي، ونحن لا نعلم البتة أي شيء عن العلـوم والـدروس والتشـكلات الثقافية والوجدانية الـــتي تلقنها الإدارة الكنسية لجمهورها ولشـــبابها، ولا ينهض من بيننا من يتســـاءل عن ذلك أو يعتـــبر هـــذا التســـاءول حقًا مشـــروعًا للجماعة الوطنية تجــاه مواطــنين منـــدرجين في تشكيلاتها، وإذا كـانت الولايـات المتحـدة الأمريكية تـــــدعي لنفســـــها الحق في** مطالعة برامجنا التثقيفيــة الإسـلامية، تعليمية أو إعلامية أو دينيـــة، أفلا يكـــون من حق الجماعة الوطنية في مصر أن تطـــالع وتنظر فيما يتثقف به جمهور ذو اعتبار من مواطنيها في كنائسـهم؟ ألا يحق لها أن تعرف كيف تتربى نظـرة القبطي المصري إلى الآخر المصري؟.

وما يمكن أن نضيفه هنا هو أن التركيز على تكوين "رهبان" يدرسون في الكليات الأكليركية، ثم يمضون في الدير سنوات طوال عاكفين على الدراسات اللاهوتية، والعادة المتبعة في اختيار البابا من الرهبان، نقول إن هذا قد لا يكون هو النظام الأمثل، حتى عندما يقتصر دور الكنيسة على الجوانب العبادية، ذلك لأن الكنيسة وخطابها وثقافتها اللاهوتية لا يمكن أن تكون بمعزل عن المجتمع الذي يضمها فيه والعصر الذي تعيش فيه، فإذا كان العصر هو العصر الحديث بحداثته، وبعولمته، وبسماواته المفتوحة عبر القنوات الفضائية لكل ما يخطر بالبال من أفكار، وإذا كان المجتمع الذي يضم الكنيسة الأرثوذكسية مجتمعًا مسلمًا بالأساس بحكم أغلبيته الكاسحة، فما هو احتمال تقبل خريجي الأديرة والكليات الأكليركية لهذا المجتمع، ومدى التعامل معه، وهي تنعزل عنه تمامًا، وهو غير مستطاع أو تعيش معه في حياد بارد؟ تلك نقطة هامة، وقد تطلب ثورة كاملة على هذه الطريقة بحيث تلحظ هذه الدراسات الجوانب "المدنية" أو العلمانية كما نلحظ أيضًا المجتمع المسلم الذي يحيط بها وتعيش – كأقلية – بين جنباته. وإذا حكمنا بما يصدره بعض الكهنة من كتابات مجافية، أو معادية، للإسلام. فإن هذا بالطبع لن يسهل عملية التفاهم ما بين الأقلية والأكثرية، ولن يكون هذا بالطبع في مصلحة الأقلية.. فمن الخير للحقيقة، وللمصلحة القومية، ولخير الأقباط أن تنتصر الكنيسة للإسلام، نظرة أخرى.